مقالات إمرسون

السلسلة الأولى والثانية

ترجمة : أمل الشرقي

الأهلية



مقالات إمرسون

Emerson's Essays

First & Second Series

Translated from the 1993 edition by
Gramercy Books. All Rights Reserved.

٨١٤،٣
مقا
رالف والدو إمرسون
مقالات إمرسون : السلسلة الأولى والثانية
ترجمة : أمل الشرقي
عمّان : الدار الأهليّة للنشر والتوزيع ١٩٩٩ - ٣١٦صفحة
١- فلسفة ٢- أدب
الشرقي ، أمل - مترجمة
مقالات إمرسون : السلسلة الأولى والثانية



الأهليّة للنشر والتوزيع
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ،وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** / الأردن

الصفّ الضوئي : **الوسام للخدمات المطبعيّة ، عمّان ، هاتف ٤٦٥٧٨٦٩**

رالف والدو إمرسون

مقالات إمرسون

★

السلسلة الأولى والثانية

ترجمة : أمل الشرقي



تقــــديم

لو رجعت إلى أية صفحة من هذه المجموعة من مقالات رالف والدو أمرسون لوجدت عبارات تقوم بحد ذاتها كحكمة يهتدى بها أو شعر. ففي كل مقالة يوجد العديد من الملاحظات المنطقية والمستمدة من الواقع لكنها ملهمة بقدر ما هي جميلة الصياغة. إن اختيار أمرسون للكلمات دقيق ومدهش في الوقت نفسه حتى أن القارئ ليذهل لقدرة المؤلف على المحافظة على إيقاعه الاستثنائي الخلاق.

ولد أمرسون في مدينة بوسطن بولاية ماساشوستس في ٢٥ أيار عام ١٨٠٣. كان والده قسيساً في الكنيسة الأولى (الموحدة) في بوسطن وكان يتسم بالليبرالية، والظرف، والثقافة. أما أمه فكانت محافظة وشجاعة وعالية التهذيب. توفي الوالد عندما كان رالف في الثامنة من العمر، فافتتحت والدته عندها سكناً داخلياً. لعل الأثر الأكبر في صياغة سنوات تكوينه الأولى يعود إلى خالته ماري مودي، المرأة الحيوية ذات الأطوار الغريبة التي كانت تؤكد على حب الطبيعة، والاعتماد على النفس، والأمانة.

أثناء دراسته في هارفارد للفترة ما بين ١٨١٧ و ١٨٢١، شرع أمرسون بتدوين مفكرته وبدأ عادة الخروج سيراً على الأقدام لمسافات طويلة في الغابات والحقول وهي العادة التي لازمته طوال حياته. بعد الدراسة في كلية اللاهوت، التحق بسلك الكهنوت وخدم في الكنيسة الأولى ثم الكنيسة الثانية قبل أن يصبح قسيس الكنيسة الخاصة بمجلس شيوخ الولاية. لم يدم زواجه من ايلين تكر أكثر من بضعة أشهر توفيت بعدها بمرض السل في شهر شباط ١٨٣١.

في عام ١٨٣٣ قام برحلة إلى أوروبا. وقد التقى في إنجلترا بتوماس كارلايل الذي ارتبط معه بصداقة دائمة. بعد عودته من تلك الرحلة كرس نفسه لمهنة الوعظ وإلقاء المحاضرات في منطقة بوسطن. في أيلول ١٨٣٥ تزوج من ليديا جاكسون.

نشر رالف والدو أمرسون مقالاته التي ستنال شهرة عظيمة في مجلدين: «السلسلة الأولى» في عام ١٨٤١ و «السلسلة الثانية» في عام ١٨٤٤. كان أمرسون قد حقق لنفسه شهرة كمحاضر ومفكر مبدع في الوقت الذي صدر فيه الكتابان. ضم

كتابه الأول «الطبيعة» (١٨٣٦) أساسيات فلسفته المتسامية التي تؤكد قدرة الفرد على الإبداع، وبداهة المعرفة، وتقديم الروحي على المادي، والاستجابة شبه الدينيه للطبيعة. من بين الاعمال التالية التي صدرت لأمرسون «قصائد» (١٨٤٦)، «رجال نموذجيون» (١٨٥٠)، «سبيل الحياة» (١٨٦٠)، و «الصحبة والعزلة» (١٨٧٠).

في عام ١٨٣٦ أسس أمرسون بمعية جماعة ضمت المصلحة الاجتماعية مارغريت فوللر «النادي المتسامي» في بوسطن. وتولى للفترة ما بين ١٨٤٢ و ١٨٤٤ تحرير المجلة التي كان النادي يصدرها باسم «ذي دايل». على امتداد أربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر، نشط كمحاضر في الولايات المتحدة وإنجلترا وكان غالباً ما يدافع عن قضية إلغاء الرق.

كانت سنوات منتصف الستينات مأساوية على نحو خاص بالنسبة لأمرسون. توفيت خالته التي كان يجلها، كما توفي صديقاه هنري ديڤيد ثورو وناتانيال هورثورن. وقد آلمته مصيبة اغتيال لنكولن. واصل أمرسون القاء المحاضرات ونشر الأشعار، والترحال لكن صحته كانت في تدهور مستمر قاد إلى ضياع قدراته الذهنية خلال السنوات الخمس التي سبقت وفاته عام ١٨٨٢.

عند الإعداد لهذه الطبعة من «المقالات» كانت النيه تتجه، قبل كل شيء، إلى تيسير قراءة النص. تمت المحافظة على الكثير من علامات التوقف التي تمليها الصيغة الكلامية، وعلى الحروف الكبيرة التي تدل على تحويل بعض المفاهيم إلى أعلام، كما تمت المحافظة على بعض صيغ التهجي غير المألوفة. لكن الجمل كما وردت في الطبعات الاصلية تميل إلى استخدام الفوارز والشارحات بشكل يبعد القارئ عن المعنى المقصود في محاججات أمرسون. ونرجو أن تقدم التغييرات التي أدخلت على علامات التوقف والشرح في هذه الطبعة قراءة أسهل للمقالات وأن تحافظ على إيحاءاتها.

جون غابرييل هنت

نيويورك

١٩٩٣

١

التاريـــخ

هنالك عقل واحد مشاع لكل فرد من البشر. وكل فرد هو منفذ الى العقل نفسه والى ذلك العقل بكامله. الانسان الذي يمتلك مرة حق الفكر يصبح مواطناً حراً في المملكة كلها. بوسع افلاطون أن يفكر بما فكر به، وبوسع القديس ان يشعر بما شعر به، وبوسع اي شخص ان يفهم ما حل به في اي وقت من الاوقات. من يمتلك النفاذ الى هذا العقل العام يكون مشاركاً في كل ما يقع وما يمكن أن يقع لان هذا العقل هو القوة الوحيدة والمطلقة.

التاريخ هو سجل أعمال هذا العقل. حيث تؤكد عبقريته سلاسل الايام المتعاقبة. الانسان لا يمكن أن يفسر بشيء أقل من كامل تاريخه. بلا عجالة، وبلا استراحة تمضي الروح الانسانية منذ البدء نحو تجسيد كل ملكة، وكل فكرة، وكل عاطفة تعود اليها في احداث مناسبة. لكن الفكرة تسبق الواقع دائماً، كل حقائق التاريخ موجودة في الذهن سلفاً بشكل قوانين وكل قانون بدوره يمليه ظرف من الظروف، لكن حدود الطبيعة لا تمنح القوة الا لقانون واحد في كل مرة. كل فرد هو موسوعة كاملة للحقائق. إن خلق آلاف الغابات كامن في جوزة واحدة، ومصر، واليونان، وروما، والغال، وبريطانيا، وأمريكا موجودة طي الانسان الاول. حقبة إثر حقبة، ومعسكر، فمملكة، فامبراطورية، فجمهورية، فديمقراطية كلها ليست سوى تطبيقات لروحه ومتعددة السمات في العالم متعدد الاشكال.

لقد كتب هذا العقل الانساني التاريخ، وعلى هذا العقل الانساني ان يقرأه. على أبي الهول ان يحل أحجيته بنفسه. فإذا كان التاريخ بمجموعه يكمن في رجل واحد، فإنه بمجموعه ينبغي ان يفسر بالتجربة الفردية. هناك علاقة بين ساعات حياتنا وقرون الزمان. بما ان الهواء الذي اتنفسه مسحوب من خزانات الطبيعة العظمى، وبما ان الضوء الساقط على كتابي قادم من نجم على مسافة مئات الملايين من الأميال، وبما أن الوضعية التي يتخذها جسمي تتوقف على توازن القوى الجاذبة والطاردة، فإن

الساعات يجب أن توجهها العصور، والعصور يجب ان تفسرها الساعات. ان كل فرد من البشرية هو تجسد آخر للعقل الكلي. وتجتمع فيه كل صفاته. كل حقيقة جديدة في تجربته الخاصة تسلط ضوءاً على ما أنجزته مجاميع عظيمة من البشر، كما ان ازمات حياته تدل على الازمات الوطنية. كل ثورة كانت في البدء فكرة في ذهن رجل واحد، وعندما تخطر الفكرة نفسها لرجل آخر، يوجد المفتاح لتلك الحقبة. كل اصلاح كان ذات يوم رأياً شخصياً وعندما يصبح من جديد رأياً شخصياً فإنه سوف يحل مشكلة العصر. ان الحقيقة التي تروى لي ينبغي ان تتجاوب مع شيء ما لدي. من اجل ان نتحول الى اغريقيين، ورومانيين، وأتراك، الى كاهن وملك، الى شهيد وجلاد - يجب ان نربط هذه الصور بحقيقة ما في تجربتنا السرية، والا فإننا لن نتعلم شيئاً على الوجه الصحيح. ان ما حصل لأزدروبال او سيزار بورجيا هو مثل ما حصل لنا من حيث كونه مثالاً على قدرات الذهن أو فساده. إن لكل قانون جديد او حركة سياسية جديدة معنى لديك. قف بإزاء لوائحها وقل: «تحت هذا القناع تختفي ذاتي البروتيوسية». بهذا يعالج الخلل الناجم عن اقترابنا الشديد من ذواتنا. وبه نصنع أفعالنا ضمن منظورنا، وكما تفقد السرطانات، والعنزات، والعقارب والميزان والدلو وضاعتها حين تعلق رموزاً في دائرة البروج، كذلك يصبح بوسعي أن أرى رذائلي بدون انفعال في شخصيات سليمان، وألسيبياديس وكاتيلين القصبة.

إن الطبيعة الكلية هي التي تمنح القيمة لأشخاص معنيين وأشياء معينة. ان الحياة الانسانية، باحتوائها على ذلك، تكون غامضة ومنيعة، ونحن نسورها بالجزاءات والقوانين. من هنا تستمد جميع القوانين منطقها النهائي، فهي جميعاً تعبر بدرجة متفاوتة من الوضوح عن بعض ما يمليه ذلك الجوهر الأعلى الذي لا يحد. تستحوذ الملكية ايضاً على الروح، وتغطي حقائق روحية عظيمة، ونتشبث نحن بها غريزياً في البدء بالسيوف والقوانين والارتباطات المعقدة. ان الوعي الغامض بهذه الحقيقة هو ضياء نهارنا كله، وهو مطلب المطالب، وذريعة التعليم، والعدالة، والاحسان، واساس الصداقة والحب واساس البطولة والعظمة اللتين تنتميان الى افعال الاعتماد على النفس. من الملفت للنظر اننا تلقائياً ودائماً نقرأ كمخلوقات راقية. إن التاريخ الكلي والشعراء والقصاصين لا يجعلوننا نتأى بأسماعنا عنهم او يشعروننا بالتطفل، او بأن ما يروونه يصلح لأشخاص أفضل حين يقدمون لنا أرفع صورهم عن الكهنوت،

والبلاطات الامبراطورية، وانتصارات الارادة أو العبقرية. بل أننا على العكس من ذلك نشعر إزاء لمساتهم الافخم بأننا في أفضل أوضاعنا. إن كل ما يقوله شكسبير عن الملك يجده الصبي الذي يقرأ في الركن معبراً عن نفسه. نتعاطف مع لحظات التاريخ العظمى، مع الاكتشافات العظمى، مع حظوظ الاشخاص العظمى - لأن القانون - عندها - يطبق، والبحر ينقب، والأرض تكتشف والصفعة تكال كما لو كنا نحن أنفسنا قد فعلنا ذلك أو استحسناه في ذلك الموقع.

نحمل الاهتمام نفسه بالظرف والشخصية. نبجل الاغنياء لأنهم ظاهرياً يمتلكون الحرية، والقوة، والنعمة التي نشعر بأنها تليق بالانسان، تليق بنا نحن. وهكذا فإن كل ما قيل عن الانسان الحكيم من قبل الكتاب الرواقيين او الشرقيين او المحدثين يصف لكل قارئ فكرته الخاصة، يصف ذاته غير المتحققة والقابلة للتحقيق. لكل الآداب تتناول شخصية الانسان الحكيم. فالكتب، والنصب، والصور، والمحادثة كلها لوحات يجد فيها الخطوط التي يشكلها. فالصامت والفصيح يثني عليه ويتقرب منه، وهو يستثار أينما توجه كما لو كان يتلقى إلماحات شخصية. ولهذا لا يحتاج المتطلع الحق الى البحث في تخاطبه عن الماحات شخصية فهو يسمع الاطراء لا ينثال على نفسه بل، وهذا هو الأكثر حلاوة، على تلك السمة التي يسعى إليها. ويسمعه في كل كلمة تقال بحق تلك السمة، بل وفي كل ظرف وحقيقة، في النهر المتدفق وفي القمح المهسهس. فالثناء يرى، والتقدير يقدم، والحب يتدفق في الطبيعة الخرساء، في الجبال، وفي أنوار القبة الزرقاء.

هذه الاشارات، التي تبدو كما لو أنها تتنزل من النوم او المساء، علينا أن نستخدمها في وضوح النهار. على الطالب أن يقرأ التاريخ كفاعل لا كمفعول به، وأن يفترض حياته النص، والكتب التعليق. إن ربة التاريخ، حين تطوّع على هذا النحو، سوف تنطق بالوحي وهو ما لا يحدث مطلقاً لأولئك الذين لا يحترمون أنفسهم. أنا لا أتوقع أن يقرأ التاريخ على الوجه الصحيح أي رجل يعتقد أن ما وقع في عصر بعيد من قبل رجال ترددت اسماؤهم في القديم يحمل معنى أعمق مما يفعله هو نفسه اليوم.

إن العالم قائم لتثقيف كل فرد من البشر. وليس هناك عصر أو حالة اجتماعية أو نمط للفعل في التاريخ لا يوجد ما يماثله على نحو ما في حياة الفرد. كل الاشياء تميل الى اختزال نفسها على نحو رائع وتقديم فضيلتها الخاصة له. عليه أن يرى أن بوسعه أن يعيش التاريخ كله في شخصه. عليه أن يمكث في بيته بثبات، وان لا يحمل نفسه

على الانخداع بالملوك والامبراطوريات، إنما عليه أن يعلم أنه اعظم من كل الجغرافيا وكل الحكومات وكل العالم، عليه ان يحول زاوية النظر التي يقرأ بها التاريخ عادة، من روما وأثينا ولندن، الى نفسه، وأن لا ينكر يقينه بأنه المحكمة، واذا كان لدى انجلترا او مصر ما تقوله له فانه سينظر في القضية، والا فلتلزم السكوت الى الابد. عليه ان يبلغ ذلك الادراك الرفيع وأن يحافظ عليه حيث تفصح الحقائق عن معانيها السرية ويتماثل الشعر مع سجلات التاريخ. ان بداهة الذهن، وهدف الطبيعة، تتبدى في طريقة استخدامنا لاشارات السرد التاريخي. يبدد الزمن في اثير ساطع زوايا الحقائق الصلبة. ما في مرساة، او امراس، او اسوار تنفع في ابقاء الحقيقة حقيقة. ها هي بابل، وطروادة، وصور، وفلسطين وحتى روما الأولى تتحول الى رواية. وجنات عدن، ووقوف الشمس ثابتة عند جبيون صارت شعراً تتغنى به كل الأمم. فمن ذا الذي يكترث بما كانت عليه الحقيقة، حين نكون قد حولناها الى كوكب نعلقه رمزاً خالداً في السماء؟ على لندن وباريس ونيويورك أن تمضي في الطريق نفسه. قال نابليون: «ما التاريخ سوى خرافة متفق عليها». في هذه الحياة التي نحياها تنغرس مصر، واليونان، والغال، وانجلترا، والحرب، والاستعمار، والكنيسة، والمحكمة، والتجارة كما تنغرس الزهور والزينات البرية داكنة وبهيجة. لن اسرد المزيد عنها. فأنا أؤمن بالأبدية. وبوسعي أن أجد اليونان، وآسيا، وايطاليا، واسبانيا، والجزر، والعبقرية والمبدأ الخلاق لكل حقبة وللحقب كلها في ذهني أنا.

في تجربتنا الخاصة نستخلص دائماً حقائق التاريخ المؤكدة ونبرهن على صدقها بما يحدث لنا. يصبح التاريخ كله ذاتياً، وبكلمة أخرى، لا يعود هناك تاريخ، بل مجرد سيرة. على كل عقل أن يعرف بنفسه الدرس كاملاً، عليه أن يقطع المسافة كلها. فما لا يراه، ولا يعيشه لن يفهمه. ان ما لخصه العصر السابق في صيغة او قاعدة لغرض تلك القاعدة. في مكان ما، وفي زمان ما، سوف يطالب بالتعويض عن هذه الخسارة، عن طريق أداء الفعل نفسه. اكتشف فيرغسون اشياء كثيرة في الفلك كانت معروفة منذ زمن طويل وكان ذلك لصالحه.

إما أن يكون التاريخ هكذا أو لا يكون شيئاً. كل قانون تسنه الدولة يشير الى حقيقة في الطبيعة البشرية، هذا كل ما في الامر. علينا ان نرى داخل أنفسنا السبب اللازم لكل حقيقة، وان نعرف كيف يمكن أن تكون وكيف يجب أن تكون. فلتقف، إذن،

بإزاء أي عمل عام أو خاص، بإزاء خطبة لبيرك، أو انتصار لنابليون، بإزاء استشهاد السير توماس مور، أو سيدني، أو مارمادوك روبنسون، بإزاء شنق الساحرات في سالم، أو حركة الأحياء المتعصب والفتنة الحيوانية في باريس، او في بروفيدنس. نحن نفترض أن علينا أن نتأثر بطريقة متماثلة عندما نكون تحت تأثير متماثل، وان نتوصل الى الشيء نفسه، ونحن نسعى إلى أن نسيطر فكرياً على الخطوات وأن نبلغ نفس السمو او نفس التدني الذي بلغه صاحبنا او بديلنا.

كل تعقب للقديم، كل فصول بشأن الاهرام، المدن التي يكشفها التنقيب، ستونهنج، دوائر أوهايو، المكسيك، ممفيس هو رغبة في التخلص من ذلك «الهناك» و «الحينذاك» الوحشي، والضاري، والمحال وإحلال «الهنا» و «الآن» محله. يحفر بلزوني ويذرع اهرام طيبة ولحود مومياءاتها حتى يتمكن من رؤية نهاية الاختلاف بين نفسه وبين العمل الهائل. عندما اقنع نفسه بأن العمل، بمجموعه وتفاصيله، أنجز من قبل شخص مثله، له نفس الادوات والدوافع، ولغايات كان ينبغي له هو نفسه العمل من أجلها، انحلت المشكلة، تحيا فكرته عبر كامل تسلسل المعابد وتماثيل ابي الهول وسراديب الموتى، وتعبر من خلالها جميعاً برضى، فتحيا كل تلك الاشياء ثانية في العقل، و تصبح «الآن».

إن أية كاتدرائية غوطية تؤكد أنها قد انجزت من قبلنا وأنها لم تنجز من قبلنا. لقد انجزت من قبل الانسان بالتأكيد، مع أننا لا نجدها في إنساننا. لكننا نسقط أنفسنا على تاريخ انتاجها، نصنع أنفسنا في مكان الباني وفي ظرفه. نتذكر سكان الغابة، المعابد الاولى، الالتزام بالنموذج الاول، ثم تزيينه عندما تزداد ثروة الامة. ان القيمة التي منحت للخشب عن طريق النحت قادت الى نحت كل جبل الحجارة التي تشكل الكاتدرائية. عندما نكون قد مررنا خلال هذه العملية، وأضفنا اليها الكنيسة الكاثوليكية بصليبها، وموسيقاها، ومواكبها، وأيام قديسيها، وعبادتها للصور، نكون كما لو أننا كنا الرجل الذي صنع الكاهن، نكون قد رأينا كيف يمكن أن تكون وكيف يجب أن تكون. ونكون قد حصلنا على السبب الكافي.

إن الفارق بين البشر يوجد في مفهوم الترابط عندهم بعض الاشخاص يصنعون المواد تبعاً للون والحجم وغيرها من أشكال المظهر، بينما يصنفها آخرون تبعاً للتشابه الجوهري، أو تبعاً للعلاقة بين السبب والنتيجة. إن الفكر يعمل تبعاً للرؤية الاكثر

وضوحاً المتعلقة بالأسباب، والتي تتجاوز الاختلافات السطحية. كل الأشياء ودودة ومقدسة بالنسبة للشاعر، او الفيلسوف او القديس، وكل الاحداث مفيدة، وكل الايام طاهرة، وكل البشر سماويون. لان العين مشدودة الى الحياة ومزدرية للظروف، كل مادة كيمياوية، وكل نبتة، وكل حيوان يعلم بنموه وحده السبب، وتنوع المظهر.

لماذا يكون علينا، ونحن المحاطون والمحمولون بهذه الطبيعة الخلاقة، السائلة والناعمة مثل الهواء أو الغمام، ان نكون على ما نحن عليه من تحذلق متشدد، فنعظم حجم قلة من الاشكال؟ لماذا نقيم وزناً للزمن، أو الحجم، او الشكل؟ ان الروح لا تعرف هذه الاشياء، والعبقرية، حين تأتمر بقوانينها، تعرف كيف تتلاعب بها كما يتلاعب الطفل الصغير بالشيوخ داخل الكنائس. تتمعن العبقرية في الفكرة المتسببة، وترى عميقاً في الماضي السحيق لرحم الاشياء الاشعة وهي تغادر المدار الواحد ثم تتشعب، قبل أن تهوي، في مدارات لا حدود لها. تراقب العبقرية جوهر الوجود عبر جميع أقنعته وهو يؤدي تناسخ الطبيعة. تستبين العبقرية الفرد الثابت من خلال الذبابة، واليرقة، والدودة، والبيضة، وتستبين الانواع المحددة من خلال ما لا يحصى من الافراد، والجنس من خلال العديد من الانواع، والنمط الدائب من خلال كل الاجناس، والوحدة الخالدة من خلال مجموع ممالك الحياة المنظمة فالطبيعة غيمة متحولة تكون الشيء نفسه دائماً ولا تكون الشيء نفسه ابداً. انها تصب الفكرة نفسها في جحافل الاشكال، تماماً كما يصنع الشاعر عشرين حكاية من عبرة واحدة. من خلال قساوة وخشونة المادة، تطوع روح رقيقة جميع الاشياء لارادتها. ينساب الحجر الصلب في شكل لدن لكنه محدد امامه، وفيما أنظر اليه يتغير مظهره ونسيجه ما من شيء يشبه الشكل في تحوله، لكنه لا ينكر نفسه ابداً. في الانسان ما زلنا نعثر على بقايا او اشارات من كل ما نعتبره دليلاً على عبودية الاجناس الادنى، لكنها تعزز فيه نبله وسموه – كما أن آيوه، لدى أسخيلس، يصدم المخيلة بتحوله الى بقرة، لكنه حين يلتقي بصفته ايزيس بأوزيريس – جوبيتر في مصر يكون قد تحول الى امرأة حسناء ليس فيها من آثار الاستحالة سوى القرنين القمريين اللذين تحملها كزينة رائعة على جبينها!

إن هوية التاريخ باطنية وجوهرية بالطريقة نفسها وكذلك تنوعه البادي للعيان. على السطح يوجد تنوع غير محدود من الاشياء، وفي المركز توجد بساطة السبب. ما أكثر تصرفات الرجل الواحد التي نتعرف فيها على الشخصية نفسها! لاحظ مصادر

معلوماتنا فيما يتعلق بالعبقرية الاغريقية. لدينا التاريخ المدني لذلك الشعب كما قدمه لنا هيرودوتس، وثوسيدايديس، وزينوفون، وبلوتارك – وهو سرد كافٍ جداً عن أي نوع من الأشخاص كانوا وماذا فعلوا. ولدينا الفكر الوطني نفسه كما عبر عنه أدبهم وهو شكل مكتمل جداً جاء بصيغة القصائد الملحمية والغنائية، والدراما، والفلسفة. ثم هاهو يقدم لنا ثانية في عمارتهم التي تحمل جمال الطبع نفسه، محدداً بالخط المستقيم والمربع – هندسة مبنية. ثم نراه مرة أخرى في نحتهم، «اللسان في ميزان التعبير»، حشد من الاشكال في أقصى درجات حرية الفعل دونما خروج عن السكون المثالي – مثل منذورين يؤدون رقصة دينية أمام الآلهه لا يجرؤون على الاخلال بنمط **أو لياقة** الرقصة رغم ما يعانونه من تقلصات الألم أو الصراع المميت. هكذا يتوفر لدينا عرض رباعي الوجوه لعبقرية شعب متميز، لكنه بالنسبة للحواس غير متماثل إذ ما أبعد أغنية نبدار عن السنتاور الرخامي، وبهو البارثينون، وأخر أفعال فوسيون.

لا بد أن كل امرىءٍ قد لاحظ وجوها واشكالا تركت لدى الناظر الانطباع نفسه رغم كونها لا تحتمل اي ملمح متشابه ان رسماً معيناً او نسخة اشعار، قد لا توقظ نفس التسلسل من الصور، لكنها تحدث نفس الاحساس الذي تحدثه نزهة في جبل وعر، فعلى الرغم من ان التشابه غير ظاهر بالنسبة للحواس. إلا أنه خفي وخارج عن حدود الفهم. فالطبيعة امتزاج وتكرار لا متناهيين لقوانين قليلة جداً. وهي توقع اللحن القديم المعروف بتنويعات لا حصر لها.

إن الطبيعة تزخر في أعمالها بتشابه عائلي مهيب، ويحلو لها أن تباغتنا بالمتشابهات في آخر ما تتوقعه من مجالات. لقد رأيت رأس زعيم هندي من الغابة ذكرني على الفور بذروة جبل عارٍ، وكانت تجاعيد الجبهة توحي بطبقات الصخر. هناك رجال تحمل خصالهم نفس البهاء الجوهري الذي تحمله الثماثيل البسيطة والرائعة عند أفاريز البارثينون وبقايا الفن الاغريقي الاول. وهناك تآليف تحمل الاثر نفسه موجودة في كتب جميع العصور. ما الذي عسى أن تكونه أورورا غيدو سوى فكرة صباحية، مادامت الخيول فيها ليست سوى غيمة صبح؟ لو أن أي شخص عني بملاحظة تنوع الافعال التي يميل اليها تحت حالات ذهنية معينة، وتلك التي يتجنبها للمس مدى عمق سلسلة التشابه.

أخبرني أحد الرسامين أن ما من احد يستطيع ان يرسم شجرة دون ان يتحول

بشكل ما الى شجرة؛ أو ان يرسم طفلاً بمجرد التمعن في الخطوط الخارجية لشكله - ولكن، عن طريق مراقبة حركاته والعابه لبعض الوقت، يدلف الفنان الى طبيعته ويكون عندها قادراً على رسمه حسب ما يريد وفي جميع الوضعيات. كذلك دخل روس «الى قلب طبيعة الخروف». أعرف رساماً يعمل في عملية مسح عمومية لا يستطيع ان يرسم تخطيطاً للصخور ما لم توضح له في البداية بنيتها الجيولوجية. ان المنشأ المشترك لاعمال شديدة الاختلاف يكمن في حالة معينة من الفكر. تتشابه الروح لا الحقيقة. يحصل الفنان على القدرة على ايقاظ الارواح الاخرى واستجابتها لنشاط معين من خلال الادراك العميق وليس من خلال الالمام المضني بالكثير من المهارات اليدوية.

لقد قيل ان «النفوس العادية تسدد بما تفعله، والنفوس الاسمى تسدد بما تكونه». فلماذا؟ لأن طبيعة عميقة توقظ فينا عن طريق أفعالها وكلماتها، عن طريق مظهرها وخصالها، نفس القوة ونفس الجمال اللذين يثيرهما معرض للمنحوتات أو الرسوم.

على التاريخ المدني والطبيعي، تاريخ الفن والأدب، أن يفسر بالتاريخ الفردي، أو عليه أن يظل كلمات لا غير. ليس هنالك شيء لا علاقة له بنا، لا شيء لا أهمية له لدينا - المملكة، الكلية، الشجرة، الحصان، أو النعل الحديدي - إن جذور الأشياء جميعاً موجودة في الانسان. ليست سانتا كروس ولا قبة القديس بطرس سوى استنساخات مبتسرة عن نموذج قدسي. وكاتدرائية ستراسبورغ ما هي إلا المقابل المادي لروح أورين شتاينباخ. القصيدة الحقيقية هي عقل الشاعر، والسفينة الحقيقية هي باني السفينة. لو استطعنا ان نفتح الانسان لوجدنا سبب إزدهار عمله وتعريشه، تماماً كما كان العظم واللون في كل صدفة بحرية موجوداً سلفاً في أعضاء الفرز لدى السمكة. كل النبالة وكل الفروسية موجودتان في انحناءة احترام. يلفظ الشخص ذو المزايا الراقية اسمك بكل ما يمكن أن تضيفه القاب النبالة من زخرف.

إن التجربة اليومية العادية تحقق لنا على الدوام بعض النبوءات القديمة، وتحول إلى أشياء الكلمات والعلاقات التي سبق أن رأيناها وسمعناها دون أن نعيرها اهتماماً. قالت لي سيدة كنت أقطع معها الغابة على ظهور الجياد أن الغابات تبدو لها دائماً بهيأة من «ينتظر»، كما لو أن الجن الذي يسكنها يعلق أفعاله لحين مرور العابرين - وهي فكرة عبر عنها الشعر برقصة الجنيات التي تتوقف عند سماع صوت قدم بشرية. إن الانسان الذي يبصر القمر الطالع وهو ينفلت من الغمام عند انتصاف الليل قد

تحقق له حضور يشبه حضور الملائكة لعملية خلق ضياء الكون. أتذكر يوماً صيفياً في الحقول أشار لي فيه رفيقي الى غيمة عريضة تمتد على ما يساوي ربع ميل من الأفق في هيأة ملاك طفل كتلك الملائكة المرسومة في الكنائس كتلة مدورة في المركز يسهل نفخ الحياة فيها بعينين وفم، مدعومة على الجانبين بأجنحة متماثلة مبسوطة. ما ظهر مرة في الجو يمكن ان يظهر غالباً ، وقد كان بدون شك النموذج الأعلى لتلك الزخرفة المألوفة. لقد رأيت في السماء سلسلة من البروق الصيفية التي أظهرت لي على الفور أن الأغريق نقلوا عن الطبيعة الصاعقة التي رسموها بيد جوبيتر وقد رأيت تكدس الثلج على جوانب الجدار الحجري الذي لا شك أنه أعطى الفكرة القائمة وراء الطريقة المعمارية المألوفة في التشييد الارتكازي للأبراج.

عندما نحيط أنفسنا بالظروف الأصلية فإننا نعيد من جديد ابتداع أنظمة العمارة وزخرفها ، عندما نرى الكيفية التي زين بها كل شعب مأواه البدائي. يحتفظ المعبد الدوري بملامح الكوخ الخشبي الذي سكنه الدوريون. ومن الواضح أن الباغودا الصينية عبارة عن خيمة تترية. وما زالت المعابد الهندية والمصرية تشي بالكثبان والمنازل التحت ارضية التي عاش فيها اسلافهم يقول هيرين في كتابه " بحوث حول الاثيوبيين " ان عادة نحت المساكن والقبور في الصخر الحي هي التي أملت بشكل طبيعي السمة الرئيسية في العمارة المصرية النوبية وهي الشكل الضخم الذي تتخذه. ففي تلك الكهوف التي تصنعها الطبيعة كانت العين تعتاد النظر الى الكتل والاشكال الضخمة، وهكذا عندما خف الفن لمساعدة الطبيعة لم يكن بوسعه أن يتحول إلى المقاس الصغير دون أن يحط من قدر نفسه، فما عساها أن تكون التماثيل ذات الحجم المألوف أو الأجنحة والأروقة المنتظمة اذا ما قيست بتلك القاعات العملاقة التي لا يمكن لغير التماثيل الهائلة ان تقف حارسة على بابها أو تتكيء على أعمدة مداخلها.

واضح أن الكنيسة الغوطية قد نشأت كتحوير فج لأشجار الغابة بكل ما تحمله من فروع حولت إلى هيكل ذي قناطر مهرجانية او وقورة، كما أن الحزم المربوطة حول الأعمدة المتشققة ما تزال تشير إلى الأماليد الخضر التي كانت تحزمها. ليس بوسع أحد أن يسير في درب تشق طريقها بين غابات الصنوبر دون أن يذهله مظهر الأيكة ، خصوصاً في الشتاء، عندما يكشف عري بقية الاشجار الأخرى القوس المنخفض الذي جاء به السكسون وفي الغابات عند عصر شتائي يرى المرء على الفور أصل شباك

الزجاج الملون ، الذي تزين به الكاتدرائيات الغوطية، في ألوان السماء الغربية عندما ينظر اليها المرء من خلال أغصان الغابة العارية والمتقاطعة. كما لا يستطيع أي عاشق للطبيعة أن يدخل إلى مباني أوكسفورد القديمة أو الكاتدرائيات الانجليزية دون أن يشعر بأن الغابة هي التي شحذت ذهن البنّاء، وأن إزميله ، ومنشاره وسحاجه ما تزال تعيد سرخسها، وأشواك زهورها، وخرنوبها، وبلوطها، وصنوبرها، ودردارها، وتنّوبها، وراتنجها.

الكاتدرائية الغوطية هي تبرعم في الحجر تخضعه حاجة الانسان النهمة الى الانسجام. يتفتح جبل الغرانيت زهرة أبدية، لها كل ما للحسن النباتي من خفة ورهافة ومنظورات وأبعاد أثيرية.

هكذا، وعلى نحو مماثل، ينبغي تفريد كل الحقائق العامة، وتعميم كل الحقائق الخاصة. عندها يصبح التاريخ على الفور صادقا وسلساً، والسيرة عميقة وسامية. وكما قلد الفارس في نحول أعمدة عمارية وتيجانها النخلة وسيقان اللوتس وزهرتها، كذلك تمسك البلاط الفارسي إبان روعة مجبرة ببداوة قبائله الهمجية ، مرتحلاً من إكباتانا حيث يمضي في الربيع الى سوسة في الصيف وبابل في الشتاء.

تشكل البداوة والزراعة الحقيقيتين المتضادتين في تاريخ آسيا وأفريقيا المبكر. حتمت جغرافية آسيا وافريقيا الحياة البدوية. لكن البدو كانوا مصدر ذعر كل أولئك الذين دفعتهم التربة أو مزايا السوق الى بناء المدن. ولهذا كانت الزراعة إيعازاً دينياً، بسبب المخاطر التي تتهددها من البداوة. وما زالت هاتان النزعتان تخوضان المعركة القديمة في الدول المتمدنة الأخيرة في انجلترا وامريكا على مستوى الأمة والفرد. هجمات ذبابة الماشية التي تدفع بالمواشي إلى الجنون أرغمت بدو أفريقيا على التجوال دافعة القبائل إلى الهجرة في موسم الأمطار وسوق الماشية إلى المناطق الرملية المرتفعة. وتبع بدو آسيا المراعي من شهر الى شهر في أمريكا وأوروبا كانت البداوة بداوة تجارة وحب استطلاع، وشكلت، بالتأكيد، تقدماً من ذبابة الماشية في استابوراس الى الجنون الانجليزي والايطالي في خليج بوسطن. المدن المقدسة التي يقصدها دورياً الحجيج الديني، أو القوانين الصارمة والأعراف التي ترمي الى تنشيط الرابطة الوطنية، كانت الكابح الذي يفرض على الجوالة القدامى، كما أن القيم المتراكمة للاقامة الطويلة هي المقيدات المفروضة على رتابة الزمن الحاضر . ليست النزعتان بأقل فاعلية على

مستوى الأفراد، ما دام حب المغامرة أو حب الراحة هوالذي يسيطر. إن الشخص ذا العافية الموفورة والروح الوثابة يمتلك قدرة على التأقلم السريع، فهو يحيا في عربته، أو يطوف ما بين الأماكن بسهولة ويسر. فسواء كان في البحر أو الغابة، أو بين الثلوج، فإنه ينام بنفس الدرجة من الدفء، ويأكل بشهية طيبة، ويختلط بمن حوله ببهجة كما لو كان يجلس بجوار الموقد في بيته. أو ربما تتغلغل من مزيته الى أعماق أبعد على هيأة اتساع في قدرته على الملاحظة مما يزوده بمادة جديدة تثير اهتمامه كلما وقعت عينه على شيء جديد. كانت الأقوام الرعوية جائعة ومعوزة الى درجة اليأس، وهذا النوع من البداوة الذهنية عندما يكون مفرطاً يستنفذ الذهن عن طريق تبديد طاقاته على مختلف أنواع المواضيع. من الجانب الآخر، هناك الفطنة المنزلية او المستقرة، وهي تلك الصفة او الطبيعة التي تجد جميع العناصر اللازمة للحياة في تربتها، والتي تتهددها مخاطرها الخاصة بها والمتمثلة في الرتابة والانحطاط، ما لم تحفزها اضافات خارجية.

كل ما يراه الفرد خارج نفسه يتجاوب مع وضعيته الذهنية، وكل شيء يبدو، بدوره، مفهوماً لديه حين يقوده تفكيره المستقيم الى الحقيقة التي ينتمي اليها ذلك الواقع او سلسلة الوقائع.

ان العالم الأولي او العالم المتقدم كما يدعوه الألمان ـ يمكن الوصول اليه داخل نفسي كما يمكن تحسسه بالأصابع المفتشة في المدافن والمكتبات، والرسوم والهياكل المحطمة لخرائب البيوت.

ما هو منشأ ذلك الاهتمام الذي يحمله جميع البشر بتاريخ الاغريق، وكتاباتهم، وفنونهم، واشعارهم عبر جميع مراحلها من العصر الهيروي او العصر الهومري وصولاً الى مرحلة الحياة المدنية للأثينيين والاسبارطيين الذين جاؤوا بعد ذلك بأربعة او خمسة قرون؟ ماذا عساه أن يكون سوى أن كل إنسانٍ يمر شخصياً بفترة اغريقية. الحالة الاغريقية هي مرحلة الطبيعة الجسمانية، اكتمال الحواس، والطبيعة الروحانية التي تتجلى في وحدة تامة مع الجسم. انها الحالة التي عرفت تلك الاشكال البشرية التي قدمت للنحات نماذج هرقل، وفيبس، وجوف ـ وهي غير الاشكال البشرية التي تحفل بها شوارع المدن الحديثة، حيث الوجه اختلاط مضطرب في الملامح، انما الوجه لديها ملامح محددة، ومتناظرة وغير مفسدة، تتخذ فيها المحاجر اشكالاً تجعل من المستحيل على تلك العيون ان تزيغ او ترسل نظرات مختلفة الى هذا الجانب او ذاك،

وتحتم على الرأس كله ان يستدير. كانت سجايا تلك الحقبة بسيطة وحادة. وكان الاحترام يمنح للمزايا الشخصية : كالشجاعة، والتعبير، وتمالك النفس، والعدل، والقوة، والخفة، والصوت العالي، والصدر العريض. لم يكن الترف والأناقة معروفين. وكانت الحاجة وقلة عدد السكان تجعل كل انسان خادم نفسه، وطباخها، وقصابها، وجنديها، ومن شأن اعتياد الجسم على توفير احتياجاته بنفسه ان يعلمه على الاداء الرائع. هكذا كان بطلا هومر اغاممنون وديوميد، كما ان الصورة التي يقدمها زينوفون لمواطنيه عن نفسه في " تراجع الآلاف العشرة " لا تبتعد كثيراً عن ذلك ."بعد ان عبر الجيش نهر تليبوس في ارمينيا، تساقط ثلج وفير، فاتخذ الجنود وضعاً بائساً على الارض وقد غطاهم الثلج. لكن زينوفون هب عارياً، وتناول فأساً وراح يفلق الخشب، عندها نهض الآخرون وصاروا يفعلون الشيء نفسه. " في صفوف جنوده تسود حرية في الكلام لا حدود لها. فهم يتنازعون حول الغنائم، ويجادلون قادتهم بشأن كل الأوامر الجديدة، وزينوفون لا يقل عن اي منهم في حدة اللسان، بل يفوق الكثيرين منهم في ذلك، ولهذا فهو يعطي بقدر ما يأخذ. من ذا الذي لا يرى فيهم عصبة اولاد عظام، يتمتعون بقيم الشرف ومرونة النظام اللتين تميزان الاولاد العظام؟

ان الفتنة النفسية التي تمتلكها التراجيديا العريقة، وكل الادب القديم، تكمن في ان الاشخاص يتحدثون ببساطة – كما يتحدث من يمتلك – دون وعي منه – الفطنة العظيمة، قبل أن تسود عادة التأمل على الذهن. إن اعجابنا بالتليد ليس اعجاباً بالقديم بل بالطبيعي. فالاغريق لا يمارسون التأمل، لكنهم يتمتعون بالكمال في حواسهم وصحتهم، وبأسمى الأجهزة البدنية في العالم. يتصرف البالغون ببساطة الاطفال وفتنتهم. لقد صنعوا المزهريات، والتراجيديا، والتماثيل كما ينبغي ان يصنعها الحس الصحي – اي بذوق سليم. ما زالت هذه الأشياء تنتج على مر العصور، وهي تنتج اليوم اينما توفر الكيان الصحي، لكنهم – كطبقة ومن واقع نظامهم المتفوق – قد فاقوا الجميع. انهم يجمعون بين طاقة الرجولة وعفوية الطفولة الآسرة وجاذبية هذه السمات تأتي من كونها تعود للانسان، وهي معروفة لدى كل انسان ما دام قد كان في يوم من الايام طفلاً؛ يضاف الى ذلك وجود بعض الافراد الذين يحتفظون بتلك السمات على الدوام. الشخص الذي يحمل عبقرية الاطفال والطاقة الموروثة هو شخصياً ما يزال اغريقياً. وهو يحيي فينا حبنا لربات الفنون الاغريقيات اقدر حب الطبيعة لدى

الفيلوكتيتين. عند قراءة تلك المناجاة التي كتبوها للنوم، وللنجوم، والصخور، والجبال، والامواج، اشعر بالزمن يرحل مثل البحر في حالة الجزر - احس ابدية الانسان، ووحدة فكره. يبدو ان الاغريقي قد صاحب نفس الكائنات التي أصاحب. لامست الشمس والقمر، والماء والنار وتلمس قلبه كما تلامس قلبي بالضبط. ومن هنا فإن التميز المتبجح ما بين الاغريقي والانجليزي، ومابين المدرسة الكلاسيكية والرومانسية يبدو مصطنعاً ومتحذلقاً. يلغي الزمن عندما تصبح فكرة افلاطون فكرة في رأسي، وعندما تقدح روحي حقيقة كانت قد قدحت روح بندار. عندما أشعر بأننا نحن الاثنين قد التقينا في مدرك، وان روحينا قد اصطبغتا باللون نفسه، كما لو أنهما قد تحولتا روحاً واحده، فلماذا، ياترى، يكون علي أن أقيس خطوط العرض، وأحصي السنوات المصرية؟

يفسر الطالب عصر الفروسية تبعاً لعمر الفروسية لديه، ويحس بأيام المغامرات البحرية والملاحة حول العالم عبر ما يوازيها من تجارب مصغرة في حياته. انه يحمل المفتاح نفسه الذي ينفتح به تاريخ العالم المقدس. عندما يرجع له صوت نبي قادم من اعماق القدم إحساساً عرفه في طفولته ، أو صلاة تلاها في صباه، فإنه ينفذ الى الحقيقة مخترقاً كل فوضى التراث وتشويه المؤسسات.

تزورنا بين الحين والآخر أرواح نادرة، مفرطة الحيوية تكشف لنا حقائق جديدة عن الطبيعة. أعتقد أن رجال الله قد سلكوا من حين لآخر بين البشر وجعلوا قلوب وأرواح المستمعين العاديين تحس برسالتهم. وهكذا، بالتأكيد، كان الكاهن، والكاهنة اللذان تلقيا إلهام الوحي المقدس.

يفوق عيسى الاشخاص الحسيين ويذهلهم ليس بوسعهم ربطه بالتاريخ، ولا مواءمته مع ذواتهم. لكن ما ان يتعرفوا على احترام حدسهم ويتطلعوا الى العيش بقدسية، حتى تفسر لهم تقواهم كل حقيقة، وكل كلمة.

ما كان اسهلها تلك العبادات القديمة، عبادة موسى، وزوروواستر، وعبادة مينو، وسقراط التي قد تدجّن نفسها في العقل.ليس بوسعي ان اجد فيها شيئاً عتيقاً. فهي تعود لي بقدر ما تعود لهم.

لقد رأيت الرهبان والناسكين الاول، دون ان اعبر بحاراً او قروناً. اكثر من مرة

يظهر لي احد الافراد دونما تكلف وبنوع من التأمل النافذ . صاحب حق متعال يتوسل باسم الله كما كان شأن سيميون الستيلي في القرن التاسع عشر او اهالي طيبة او الكابوتشيين في الأوائل.

في حياة الفرد الخاصة تتضح كهانة الشرق والغرب، كهانة الماجيين، والبراهمة، والدرويد، والأنكا. ان التأثير الضاغط الذي يحدثه الشكلي المتزمت على الطفل الصغير، بكبحه لروحه وشجاعته، وشله لفهمه - والذي لا ينتج النقمة على الطغيان، بل يكتفي بإثارة الخوف منه والخضوع له وحتى التعاطف معه هو واقع مألوف، تفسره للطفل عندما يصبح رجلاً، رؤية المضطهد الذي قمع شبابه كطفل مضطهد هو الآخر من قبل الاسماء والكلمات والاشكال التي كان بمثابة الاداة التي إنتقل عن طريقها تأثيرها الى الشباب. تعلمه تلك الحقيقة كيف عبد ببلوس، وكيف شيدت الأهرام، بطريقة تتفوق على اكتشاف شامبوليون لأسماء كل العاملين ولقيمة كل آجرة. انه يجد بلاد آشور وجبال تشوليولا عند بابه، ويرى أنه هو الذي وضع المناهج.

مرة أخرى، يكرر في الاحتجاج الذي يطلقه كل شخص عاقل ضد خرافات عصره دور المصلحين القدامى خطوة خطوة، وفي بحثه عن الحقيقة يجد، مثل ما وجدوا، مخاطر جديدة تتهدد الفضيلة، يتعلم من جديد أي عنفوان معنوي يتطلبه خنق الخرافة. هناك شهوانية عظمى تسير على إثر الاصلاح. كم مرة عرف تاريخ العالم لوثراً معاصراً ينعى تفسخ التقوى في داره! سألت زوجة مارتن لوثر زوجها ذات يوم: "قل لي يا دكتور، لماذا كنا ونحن اتباع للبابوية نصلي بتلك الكثرة وذلك الحماس، في حين لا نصلي اليوم الا نادراً وبأقصى حد من البرود؟"

في الخرافات جميعاً، كما في التاريخ كله، يكتشف الانسان السائر قدماً عمق رصيده من الأدب. ويجد أن الشاعر لم يكن ذلك الشخص الغريب الذي يصف مواقف غريبة ومستحيلة، إنما هو الرجل الكلي الذي يكتب بقلمه اعترافاً يصدق على الواحد منا كما يصدق على الجميع. إنه يعثر على سيرة حياته الخاصة مدونة قبل أن يولد في سطور مدهشة الوضوح. وفي مغامراته الخاصة، يلتقي، الواحدة تلو الأخرى، كل أسطورة وضعها إيسوب، أو هومر، أو حافظ، أو أريوستو، أو تشوس، أو سكوت ويتحقق من صحتها برأسه وبيديه.

إن أساطير الأغريق الجميلة عبارة عن حقائق كونية لكونها من نتاج المخيلة لا

الخيال أي مدى للمعاني وأية علاقة دائمة مودعة في قصة برومتيوس! فإلى جانب قيمتها الرئيسية كأول فصل في تاريخ أوروبا (تكاد الأسطورة ان تشف عن الحقائق المؤكدة، اختراع الفنون الميكانيكية وهجرة المستعمرات)، تجدها تقدم تاريخ الدين، بشيء من الاقتراب من إيمان العصور المتأخرة. فبرومثيوس هو يسوع الاساطير القديمة. انه صديق الانسان – وهو الذي يقف بين "العدالة" غير العادلة للأب الابدي وبين جنس الفانين، مستعداً لمعاناة كل العذاب من أجلهم. في النقطة التي تنفصل فيها عن المسيحية الكالفينية وتطرحه كمتحدٍ لجوبيتر، تقدم حالة ذهنية تظهر على الفور حيثما يتم طرح مذهب الربوبية على نحو موضوعي فج، وهي الحالة التي تظهر بشكل الدفاع الذاتي للانسان بإزاء ذلك الخروج عن الحقيقة، وبشكل إحساس بكون واجب التبجيل أمراً شاقاً. إنها تقدم، ان استطاعت، على سرقة النار من الخالق، والعيش منفصلة ومستقلة عنه. اسطورة "برمثيوس مقيداً " هي قصة التشكيك. تفاصيل تلك الاسطورة الرصينة تصدق على كل العصور. يقول الشعراء ان أبوللو كان يرعى قطعان أدميتوس. عندما كان الآلهة ينزلون بين البشر. لم يكن ليعرفهم أحد. وكذلك كان يسوع، وسقراط وشكسبير. كانت قبضة هرقل تخنق أنتايوس الذي كانت قوته تتجدد كلما مس أمه الارض. الانسان هو العملاق المكسور وهو في منتهى ضعفه قادر على انعاش جسده وعقله معاً بممارسة التجاور مع الطبيعة ان قدرة الموسيقى، وقدرة الشعر على فك وتركيب الأجنحة للطبيعة الصماء تفسر أحجية أورفيوس والادراك الفلسفي للذات من خلال تحولات الشكل اللانهائية تجعله يتعرف على البروتيوس. فأي شيء آخر عساي أن اكون انا الذي ضحكت وانتحبت بالامس ، ونمت الليلة الماضية مثل جثة، وقمت وركضت هذا الصباح، وما الذي اراه على كل جانب سوى تقمصات بروتيوس؟ بوسعي ان أرمز الى فكرتي باستخدام اسم أي من المخلوقات، أو الحقائق، لأن كل مخلوق هو أداة الانسان وقوته. ليس ثانتالوسي سوى اسمك أو اسمي. فثانتالوس يعني استحالة شرب مياه الفكر التي تلوّح وتومض على مرأى من الروح. إن تقمصات الأرواح ليست خرافة. كنت أودها أن تكون كذلك؛ إلا ان الرجال والنساء ليسوا سوى أنصاف بشر. كل حيوان من حيوانات البيدر، والحقل والغابة، والأرض والمياه التي تحت الأرض قد حجز لنفسه موضعاً وترك لملامحه مشكلة بصمة لدى الواحد أو الآخر من هؤلاء الناطقين، المنتصبين، المواجهين للسماء. أواه يا أخي! أوقف انحسار روحك،

المتراجعة إلى الأسفل نحو تلك الأشكال التي اتعتقت في طباعها منذ سنوات عديدة. تقترب منها، وتصدق علينا، أيضاً، الخرافة القديمة التي تتحدث العنقاء التي تجلس على رصيف الدرب تطرح الأحاجي على العابرين. فإن عجز المرء عن إجابتها ابتلعته حياً وإن حل أحجيتها، صرعت على الفور. فماذا عساها تكون حياتنا سوى طيران لا نهائي للحقائق والأحداث المجنحة؟ بتنوع فاتن تأتي تلك التغيرات، كلها تطرح الأسئلة على الروح الإنسانية. يتحول الاشخاص الذين لا يستطيعون الإجابة بحكمة متفوقة على حقائق الزمن وأسئلته إلى عبيد له. تستعبدهم الحقائق، وتثقل عليهم، وتحيلهم إلى أصحاب روتين، وأ صحاب «فهم»، أطفأت لديهم الطباعة الحرفية للحقائق تلك الشرارة من النور التي تجعل الإنسان إنساناً. أما إذا اتبع الإنسان غريزة الوجدان، ورفض تسلط الحقائق، كما يجدر بالمرء المنحدر من جنس أرقى الذي يظل مشدوداً إلى الروح قادراً على رؤية المبدأ، فإن الحقائق عندها تلزم، طيعة، مكانها المناسب. عندها تعرف سيدها، وينال التمجيد حتى في أقلها شأناً.

ترى في قصيدة «هيلينا» لغوته الرغبة نفسها في أن تتحول كل كلمة إلى شيء. إنه يريد أن يقول أن تلك الشخصيات، تلك الشيرونات، والجريفينات، والفوركبات، وهدلين وليد، ثمارس، بشكل ما، تأثيراً محدداً على الذهن. ومن هنا فهي كيانات أبدية، تبدو اليوم حقيقة كما كانت في الأولمبياد الأول. ينسج حولها بطلاقة أفكاره، ويحولها إلى تجسيد لمخيلته. ورغم أن هذه القصيدة تبدو غامضة خيالية مثل حلم، إلا انها أكثر جاذبية من المقطوعات الدرامية المألوفة الأخرى التي وضعها الشاعر نفسه لكونها تمثل إراحة رائعة للذهن من روتين الصور المعتادة - وتوقظ خيال القارئ وملكته الإبداعية من خلال حرية الحبكة الطليقة، والتعاقب المتلاحق لصدمات الإندهاش المنشطة.

إن الطبيعة الكلية، التي تتجاوز بقوتها ما تستطيع طبيعة الشاعر الثانوية أن تتحمله، تجثم على عاتقه وتدون من خلال يده، بحيث أنه كلما مارس نزوة عابرة أو حكاية رومانسية فإن النتيجة تكون مجازاً دقيقاً لذلك قال أفلاطون أن «الشعراء ينطقون بأشياء حكيمة وعظيمة هم أنفسهم غير قادرين على فهمها.» تعبر جميع روايات القرون الوسطى عن نفسها بصفتها التعبير المقنع أو المازح عن تلك الأشياء جهدت ذهنية تلك الفترة في نيلها عن طريق الجدية الصارمة. إن السحر وكل ما ينسب إليه هو الإستشعار العميق بقدرات العلم. إن أحذية السرعة، والسيف الباتر، والقدرة على

إخضاع العناصر، واستخدام المزايا السرية للمعادن، وفهم أصوات الطيور إنما هي مساعي الذهن المبهمة في الاتجاه الصحيح. فبراعة البطل الخارقة، وهبة الشباب الدائم، وما إليهما هي محاولة الروح الإنسانية الرامية إلى «إخضاع مظاهر الأشياء لرغبات الذهن.»

في «برسفورست وأماديس دي غول» تزهر وردة وإكليل زهر على رأس الفتاة المخلصة، وتذويان على جبين المتقلبة. في قصة «الصبي والعباءة» يندهش حتى القارئ الناضج من ومضة المتعة الخيرة إزاء انتصار جنيلاس الرقيق؛ والواقع أنني أجد جميع مسلمات أسفار الجن – كون الجنيات لا تعجبهن دعوتهن بأسمائهن، وكون عطاياهن مجرد نزوات لا يمكن الوثوق بها، وأن على من يبحث عن كنز أن يتجنب الكلام، وما إلى ذلك تنطبق على كونكورد رغم كونها تحدث في كورنوول أو بريتاني.

فهل يختلف الحال بالنسبة للحكايات الجديدة؟ اقرأ «عروس لامرمور». السير ويليام آشتون قناع لإغواء مبتذل، ورافنزوود كاسل اسم رفيع للفقر ذي الكبرياء، والبعثة الرسمية الأجنبية ليست سوى تنكر على طريقة بانيان يخفي الصنعة الأمينة. من الممكن أن يحدث لنا جميعاً أن نطلق النار على دور وحشي يهدد ما هو طيب وجميل، عن طريق محاربتنا لما هو حسي وغير عادل. لوسي آشتون هي اسم آخر للإخلاص الذي يكون جميلاً على الدوام، وعلى الدوام معرضاً للنوائب في هذا العالم.

لكن تاريخاً آخر يسير إلى جانب التاريخ المدني والميتافيزيقي للإنسان، ويتقدم كل يوم إلى أمام – ذلك هو تاريخ العالم الخارجي، الذي لا يقل عن الاثنين ارتباطاً به. فهو خلاصة الزمن، وهو أيضاً المترابط مع الطبيعة. وقوته تتكون من جمهرة تشعباته، من حقيقة كون حياته متداخلة مع كامل سلسلة الوجود العضوي وغير العضوي. في روما القديمة، كانت الطرق العامة التي تبدأ من الميدان تنطلق شمالاً، وجنوباً، وشرقاً، وغرباً باتجاه مركز كل اقليم من الامبراطورية، جاعلة كل مدينة من مدن الأسواق من فارس، واسبانيا، وبريطانيا مفتوحة أمام جنود العاصمة. بنفس الطريقة تنطلق من القلب الإنساني الطرق المؤدية إلى كل شيء في الطبيعة، لكي تخضعه لسيطرة الإنسان. فالإنسان حزمة روابط عقدة جذور، زهرتها وثمرتها العالم كله. إن قدراته تعود إلى طباع خارجة عنه، وتتكهن بالعالم الذي سيسكنه، كما تتكهن زعانف السمكة بوجود الماء، وتفترض أجنحة النسر وهو بعد في البيضة وجود الهواء. لا يستطيع الإنسان أن

يحيا بدون عالم. ضع نابليون في سجن معزول في جزيرة، وامنع قدراته من العثور على رجال تحركهم، أو جبال ألب تتسلقها، أو هدف تسعى إليه، عندها سيضرب في الهواء ويبدو غبياً. انقله إلى بلاد أوسع، وسكان كثر، ومصالح متشابكة، وخصم قوي، عندها سترى أن نابليون الرجل، المقيد بهذا الوضع والإطار، ليس نابليون الحقيقي. إنما هو ظل تالبوت لا غير.

إن جوهره ليس هنا.
لأن ما تراه ليس سوى الجزء الأصغر
والنسبة الأدنى من الإنسانية،
إنما لو كان الإطار بكامله هنا،
فإنه يبلغ من السعة، أو الارتفاع العالي
ما لا يتسع سقفكم لاستيعابه

هنري السادس

يحتاج كولومبوس إلى كوكب لكي يصوغ حوله مساره. ويحتاج نيوتن ولابلاس إلى أعداد هائلة من الأعمار ومساحات سماوية مكتظة. بوسع المرء أن يقول أن طبيعة ذهن نيوتن كانت قد تكهنت بنظام شمسي تشده الجاذبية. كذلك ذهن دافئ أو غاي - لوساك اللذين اكتشفا قوانين التنظيم عن طريق استطلاع انجذابات وتنافرات الأجزاء الذي شرعا فيه منذ الطفولة. ألا تتنبأ عين الجنين البشري بالضياء، أولم تستشف أذن هاندل سحر الصوت المتسِق؟ أو لم تتكهن الأصابع الخلاقة لوات، وفولتون، وويتمور، وآركرايت بالنسيج الصلب، إنما القابل للمعالجة والانصهار في المعادن، وخصائص الحجر، والماء، والخشب؟ ألا تنبئ السمات المحببة للطفلة العذراء عن زينة وتهذيب المجتمع المتحضر؟ هنا أيضاً يوجد ما يذكرنا بوقع الإنسان على الإنسان. بوسع الذهن أن يتأمل من أفكار على مدى عصور من الزمن وأن لا يكتسب من المعرفة الذاتية ما تعلمه إياه عاطفة الحب في يوم واحد. من ذا الذي يعرف نفسه قبل أن يهزه السخط أثناء نوبة غضب، أو قبل أن يستمع إلى كلام بليغ، أو قبل أن يشترك مع الآلاف في اختلاجة واحدة إزاء خطر أو ابتهاج وطنيين؟ وكما أن المرء لا يستطيع أن يرسم اليوم وجه شخص سيراه غداً لأول مرة، فإنه لا يستطيع أن يستبق تجربة، أو يحزر نوع

الإحساس أو القدرات التي يمكن أن يطلقها فيه أمر جديد.

لن أذهب الآن إلى ما وراء الإشارة العامة من أجل استكشاف سبب هذا التراسل. فلنكتف بما تلقيه هاتان الحقيقتان من ضوء، وهما أن العقل واحد، وأن الطبيعة متلازمة معه، فالتاريخ ينبغي أن يُقرأ ويُكتب.

وهكذا فإن الطبيعة بجميع الوسائل تركز كنوزها وتعيد انتاجها من أجل تلميذ. فعليه أيضاً ان يمر بكامل دورة التجربة. وعليه أن يجمع في بؤرة واحدة كل أشعة الطبيعة. عندها لن يظل التاريخ كتاباً مضجراً. بل أنه سيتجسد سائراً في كل رجل حكيم وعادل. ليس عليك أن تقدم لي باللغات والعناوين كشافاً بالمجلدات التي قرأت. إنما عليك أن تجعلني أحس بالفترات التي عشتها. على الإنسان أن يكون محراب فام، إلهة الشهرة. وعليه أن يخطر، كما وصف الشعراء تلك الآلهة، في رداء منقوش كله بالأحداث والتجارب الرائعة. وعلى شكله وملامحه أن يصبحا بذكائهما الرفيع ذلك الرداء المرقش. وسوف أعثر فيه على العالم السالف؛ في طفولته، عصر الذهب، تفاحات المعرفة، المغامرة الاستكشافية، نداء إبراهيم، بناء الهيكل، قدوم المسيح، العصور المظلمة، إحياء الكتابة، الإصلاح، اكتشاف الأراضي الجديدة، ريادة العلوم الجديدة والمناطق الجديدة في الإنسان. سوف يكون راهب پان، ويجلب معه إلى الأكواخ المتواضعة بركة نجوم الصباح، وكل المزايا المسجلة للسماء والأرض.

هل هناك شيء من المبالغة في التخيل في هذا القول؟ عندها سأتخلى عن كل ما كتبت، إذ ما فائدة التظاهر بمعرفة ما نحن جميعاً لا نعرفه؟ لكن من قصور منطقنا أننا لا نستطيع أن نثبت بشدة إحدى الحقائق دون أن نبدو وكأننا نكذب حقيقة أخرى.

إنني أسترخص كثيراً معرفتنا الفعلية. استمع إلى الجرذان في الجدار، وانظر إلى العظاءة على السياج، والفطر تحت القدم، والأشنة قطعة الخشب. ما الذي أعرفه أخلاقياً، وتعاطفياً، مع هذه العوالم من الحياة؟ منذ الإنسان القوقازي، وربما قبله، وهذه المخلوقات تحتفظ برأيها بمعزل عنه، وليس هنالك ما يشير إلى أية كلمة أو إشارة إنتقلت من أحدهما إلى الآخر. أية رابطة تظهرها الكتب بين العناصر الكيماوية الخمسين أو الستين والحقب التاريخية، لا، بل ما الذي سجله التاريخ لحد الآن عن وقائع البشر الميتافيزيقية؟ أي ضوء يسلطه على تلك الألغاز التي نخبئها تحت أسماء الموت والخلود؛ ومع ذلك لا بد لكل تاريخ أن يكتب بحكمة تحدس مدى قراباتنا وتنظر

إلى الحقائق بصفتها رموزاً. يخجلني أن أرى أية حكاية قروية سطحية هي ما ندعوه تاريخنا. كم مرة يتوجب علينا أن نقول روما، وباريس، والقسطنطينية! ما الذي تعرفه روما عن الجرذان والعظاءات؟ ماالذي تعنيه الأولمبيادات وحكومات القناصل بالنسبة لأنظمة الوجود المجاورة هذه؟ لا بل أي غذاء، أو أية تجربة، أو عون تقدمه لأناس الأسكيمو، أو صياد الفقمة، لرجل الكانكا في زورقه، أو لصياد السمك، والحمال، والبواب؟

علينا، إذا أردنا أن نعبر بصدق أكبر عن طبيعتنا المركزية ذات العلاقات العريضة، أن نكتب وقائعنا بشكل أوسع وأعمق. من إعادة تشكيل أخلاقية، من تدفق الوعي الجديد أبداً، والشافي لكل شيء، بدلاً من هذا السرد العتيق قائم لنا، وهو يسطع علينا دون أن نشعر به، لكن طريق العلم والكتابة ليست الطريق إلى الطبيعة. إن الأحمق، والهندي، والطفل، وصبي الفلاح غير المتعلم يقتربون أكثر من المشرّح أو دارس الآثار من الضياء الذي تُقرأ الطبيعة في نوره.

٢

الاعتماد على النفس

قرأت مؤخراً بعض الأشعار التي كتبها رسام بارز والتي كانت فيها أصالة وبعد عن التقليدية. في مثل هذه الأبيات، تستمع الروح دائماً إلى نصح، مهما كان موضوع القصيدة. إن الإحساس الذي تزرعه يفوق بقيمته أية فكرة يمكن أن تحتوي عليها أن تؤمن بفكرتك الخاصة، أن تؤمن بأن ماهو صادق بالنسبة لك في قلبك أنت صادق بالنسبة لجميع البشر، تلك هي العبقرية. تلفظ بقناعاتك الكامنة، فتصبح مفهوماً كونياً، لأن الأكثر عمقاً يتحول في الوقت المناسب إلى الأكثر ظهوراً، وفكرتنا الأولى تعود إلينا في أبواق الدينونة الأخيرة. إن الفضيلة العليا التي ننسبها لموسى، وأفلاطون، وميلتون هي أنهم، رغم اعتيادهم على صوت العقل، لا ينطلقون من الكتب والتقاليد، ولا يتحدثون عما فكر به الآخرون بل بما فكروا به هم أنفسهم. على الإنسان أن يتعلم تمييز ومراقبة ذلك الشعاع من النور الذي يومض عبر ذهنه من الداخل، أكثر من تتبعه لبروق سماوات الشعراء الحكماء. لكنه ينصرف عن فكرته دون أن يعنى بها، لأنها فكرته، في كل عمل عبقري، نتعرف على الأفكار التي صددناها؛ أنها تعود إلينا بجلال يضيفه الاغتراب. ليس لسوى هذا من عبرة مؤثرة في الأعمال الفنية العظيمة. إنها تعلمنا ان نتمسك بانطباعنا التلقائي بصلابة حسنة النية، خصوصاً عندما يكون نداء الأصوات كلها في الجانب الآخر - وإلا فإن غريباً سيقول غداً بالضبط وبإجادة تامة ما فكرنا وشعرنا به طوال الوقت، ولسوف نرغم على ان نتناول بخجل رأينا نحن من يد شخص آخر.

هنالك وقت في تربية كل انسان يصل فيه إلى الاقتناع بأن الغيرة جهل، والتقليد انتحار، وأن عليه ان يرضى بنفسه، على حسناتها أو علاتها، قسمة له؛ وأنه رغم امتلاء العالم بالخير، فإن ما من حبة قمح مغذية أن تأتيه إلا من خلال الجهد الذي يصبه على قطعة الأرض التي منحت له زراعتها. إن القوة التي تكمن فيه جديدة في الطبيعة، وما من أحد سواه يعرف ما يستطيع فعله، كما أنه لن يستطيع أن يعرف ذلك بنفسه مالم يبذل المحاولة. ليس عبثاً أن وجهاً واحداً، شخصية واحدة، حقيقة واحدة تترك فيه

انطباعاً كبيراً، في حين لا تترك غيرها شيئاً. إن هذا الشكل في الذاكرة لا يقوم بدون انسجام قائم سلفاً. فالعين وضعت حيث يجب أن يسقط الشعاع، من أجل أن تشهد ذلك الشعاع بالذات . نحن لا نعبر عن أنفسنا إلا تعبير، ونحن نخجل من تلك الفكرة الإلهية التي يمثلها كل منا. من الممكن أن تكون قد أودعت بأمان بصفتها متناسقة وذات أغراض طيبة، وهكذا يجب أن تبلغ بإخلاص، لكن اللّه لايسمح بأن يبرز الجبناء عمله. إن الإنسان يشعر بالارتياح والحبور عندما يفرغ قلبه في عمله ويحقق أفضل ما بوسعه؛ لكن ما يقوله أو يفعله على نحو مغاير لن يمنحه سلاماً. عندها سيكون إيصالاً لا يوصل شيئاً تتخلى عنه عبقريته في المحاولة؛ ولا يصاحبه إلهام، ولا ابتكار، ولا أمل.

ثق بنفسك: كل قلب يتجاوب مع ذلك الخيط الحديدي تقبل الموضع الذي وجدته لك المقادير الإلهية، وصحبة معاصريك، ورابطة الأحداث. لطالما فعل الرجال العظماء ذلك، وعهدوا كالأطفال، بأنفسهم إلى عبقرية عصرهم، فعبروا بذلك عن إدراكهم بأن ما هو جدير بالثقة المطلقة يسكن في قلوبهم، ويعمل من خلال أيديهم، مهيمناً في كل كيانهم. ونحن الآن بشر، وعلينا أ ن نتقبل بذهن صافٍ نفس المصير المتعالي، وأن لا نكون ضئيلين أو ضعافاً في زاوية محمية، وأن لا نكون جبناء نهرب أمام الثورة، إنما موجهين وقادرين، و محسنين، نطيع المحاولة الإلهية ونتقدم على الفوضى والظلام.

أية إيحاءات جميلة تمنحنا إياها الطبيعة في هذا الصدد في وجه وسلوك الأطفال، والرضع، وحتى البهائم! فهؤلاء لا يملكون ذلك الذهن المنقسم والمتمرد، ولا إساءة الظن تلك بالوجدان لأن حسابنا قد أحصى القوة والوسائل المضادة لغرضنا. فأذهانهم موحدة، وعينهم ما تزال غير مقهورة، وعندما ننظر إلى وجوههم نشعر بالارتباك. الطفولة لا تمتثل لأحد؛ الكل يمتثل لها؛ ولهذا يعادل الرضيع الواحد أربعة أو خمسة من البالغين الذين يغمغمون ويلعبون معه. لقد سلح اللّه كذلك الشباب، والبلوغ، والرجولة سلاحاً لا يقل عن ذلك من الفتنة والسحر الخاصيين بها، وجعلها محسودة وجميلة وذات سلطان لا يمكن طرحه جانباً، إذا ما استطاعت أن تقف على قدميها. لا تحسب أن الشباب لا قوة لديه، إذا ما عجز عن التكلم معك أو معي. ها هو صوته في الغرفة المجاورة واضح ومؤكد بما فيه الكفاية. يبدو أنه يعرف كيف يكلم معاصريه. وهو بإقدامه أو جرأته، سيعلمنا كيف يجعلنا نحن الكبار غير ضروريين أبداً.

إن رباطة جأش الصبيان الواثقين، الذين يظهرون إزدراء السادة لكل فعل أو قول يهدف إلى الإسترضاء، هو الموقف الصحي للطبيعة الإنسانية. إن الصبي في البهو مثل النقرة في الملعب؛ مستقل، غير مسؤول، ينظر من زاويته إلى الناس والحقائق التي تمر به، يحاكمهم ويحكم عليهم تبعاً لمزاياهم، بتلك الطريقة المتعجلة والمختزلة التي تميز الصبيان، ويقرر ما إذا كانوا طيبين، أشراراً، ممتعين، سخفاء، فصيحين، أو مشاركين. وهو لا يزعج نفسه أبداً بشأن العواقب، أو بشأن المصالح؛ إنما يصدر حكماً مستقلاً، وغير زائف. عليك أن تخطب وده؛ فهو لا يخطب ودك. أما الرجل فإنه مكبل في سجنه بفعل وعيه. فما أن يتكلم أو يتصرف بنجاح مرة حتى يصبح شخصاً ملتزماً، تراقبه المئات بتعاطف أو بكراهية، وعليه الآن أن يدخل مشاعرها في حساباته. ليس هنالك من نهر للنسيان يخلصه من هذا. آه لو أنه يعود ثانية إلى محايدته! إن الذي يستطيع أن يتجنب كل الرهانات على هذا النحو - وأن يرقب، بعد أن راقب، من جديد من نفس البراءة غير المصطنعة، وغير المنحازة، وغير القابلة للرشوة، وغير الخاضعة للخوف - يجب أن يكون مرعباً على الدوام. فهو سينطق بآراء حول جميع القضايا العابرة من شأنها، حين تعتبر ضرورية ذاتية، أن تنغرز كالسهام في أذن الرجال وتثير خوفهم.

تلكم هي الأصوات التي نسمعها في العزلة، لكنها تبهت وتصبح غير مسموعة عندما ندخل العالم. فالمجتمع في كل مكان يتآمر ضد الرجولة الموجودة في كل فرد من أفراده. والمجتمع شركة برأسمال مشترك، يتفق فيها الأعضاء، من أجل ضمان العيش الأفضل لكل مساهم، على التخلي عن حرية المستفيد وتهذيبه. فالفضيلة المطلوبة هنا هي الامتثال. والاعتماد على النفس هو نقيضها. فهي لاتحب الحقائق والمبدعين، إنما تحب الأسماء والعادات.

ولهذا فإن من يريد أن يكون رجلاً، ينبغي أن يكون منشقاً. ومن يرغب في جمع أغصان الغار الخالدة ينبغي أن لا يعاق باسم الخير، إنما عليه أن يكتشف إن كان في الأمر خيراً حقاً. ففي النهاية ليس من مقدس سوى كمال عقلك. عندما تغفر نفسك بنفسك، تحصل على بركات العالم. أتذكر جواباً دفعني إلى تقديمه ناصح مقدر كان يميل إلى الإلحاف علي بالمبادئ الكنسية الغالية. فعندما قلت: «ما عساي أفعل بقدسية التقاليد، إن كنت سأحيا كلياً في داخلي؟ ألح صديقي: «إن تلك الدوافع قد تكون من الأسفل، لا من الأعلى». أجبته قائلاً: «إنها لا تبدو لي كذلك؛ لكنني إن كنت ابن

الشيطان، فسوف أحيا من الشيطان.» ما من قانون يمكن أن يكون مقدساً بالنسبة لي غير قانون طبيعتي. وما الخير والشر سوى أسماء قابلة جداً لأن تخلع على هذا الشيء أو ذاك؛ الخير الوحيد هو ما يلائم عرفي، والشر الوحيد هو ما يعارضه. على المرء أن يواجه كل أنواع المعارضة كما لو أن كل شيء عداه زائل واسمي. يخجلني التفكير بالسهولة التي نخضع بها للأسماء والألقاب، وللجمعيات الكبيرة والمؤسسات الميتة. إن الفرد اللائق تحسن التكلم يؤثر فيّ ويهزني أكثر مما يجب. عليّ أن أرتفع بنفسي وأن أكون حيوياً، وأن أنطق بالحقيقة الخام بكل طريقة ممكنة. هل يمكن أن نترك الخبث والغرور يمران إذا ما ارتديا ثوب البر؟ لو أن متعصباً غاضباً ادعى قضية إلغاء الرق الكريمة، وجاءني بآخر أبنائه من باربادوس فلما ذالا أقول له، «اذهب وأحب طفلك، أحب حطابك، كن طيب الطبع ومتواضعاً، ولتكن لك رحمتك، ولا تطلي طموحك القاسي وغير العطوف بهذه الرقة الكاذبة إزاء الشعب الأسود على مبعدة ألف ميل. إن حبك البعيد ضغينة في بيتك.» إن تحية من هذا النوع ستكون خشنة وفظة، لكن الحقيقة أجمل من إدعاء الحب. وعلى مالديك من خير أن يقاربها، وإلا فإنه ليس خيراً. يجب الوعظ بمذهب الكراهية، كرد مقابل على مذهب الحب إذا ما ضعف الأخير أو وهى. عندما تدعوني سجيتي، أعرض صفحاً عن الأب والأم والزوجة. وأكتب فوق الباب عبارة «نزوة» أرجو أن يكون الأمر أفضل من مجرد نزوة، لكننا لا نستطيع أن نتفق اليوم في الإيضاح. لا تنتظر مني أن أبدي سبب سعيي إلى الحصول على الصحبة أو تجنبها. ولكن لا تخبرني، كما فعل اليوم أحد الرجال الطيبين، عن واجبي في وضع جميع الناس الفقراء في أوضاع جيدة. هل هم فقرائي أنا؟ أقول لك يا أيها البار الأحمق إنني أضن بالدولار، لا بل بالدايم أو السنت الذي أعطيه لأناس من هذا النوع لا ينتمون إلي ولا أنتمي إليهم. هناك طبقة من الأشخاص أنتمي إليهم بكل الأرومة الروحية، ولأجلهم أدخل السجن إذا اقتضى الأمر. لكن أعمال برك المتنوعة الشائعة؛ تعليم الحمقى في الكليات؛ تشييد مقرات الاجتماعات من أجل الأهداف التافهة التي يناصرها الآن الكثيرون؛ الصدقات للسكيرين؛ وجمعيات الإغاثة ذات الأهداف الألف – رغم أني أذعن متحرجاً في بعض الأحيان وأعطي دولاراً، لكنه دولار خبيث، وسوف أحصل بطريقة أو بأخرى على ما يكفي من الرجولة لحجبه.

إن الفضائل، حسب التقدير الشائع، هي الاستثناء لا القاعدة. فهناك الإنسان

وفضائله. يقوم الناس بما يدعى بالعمل الطيب، كجزء من الشجاعة أو البر، تماماً كما يقدمون على دفع غرامة تكفيراً عن عدم الظهور في استعراض يومي. إن أعمالهم تلك تقدم كاعتذار عن حياتهم في هذا العالم أو كتبرير لها ـ حيث يدفع المعاقون والمجانين أجرة إقامة أعلى. إن فضائلهم كفارات. أنا لا أريد أن أكفر بل أن أعيش. وحياتي هي من أجل ذاتها لا من أجل اخراج مشهد. وأني لأفضل كثيراً لأن تكون من مرتبة أدنى، كيما تكون أصيلة ومتساوية، على أن تكون لامعة وغير مستقرة. أريدها أن تكون سليمة وعذبة، وأن لا نحتاج إلى حمية ونزف. إنني أطلب الدليل الابتدائي على كونك انساناً، وأرفض هذا التضرع الذي يقدمه الإنسان لأعماله. أعرف أن لا فرق بالنسبة لي إن أنا قمت بتلك الأعمال أو التي تعتبر ممتازة أو امتنعت عنها. ليس بوسعي القبول بدفع ثمن امتياز لي فيه حق فعلي. أنا ما أنا وإن كانت مزاياي قليلة وشحيحة، ولست بحاجة إلى أية شهادة ثانوية تأتي بتأكيد مني أو من زملائي.

إن كل ما يهمني هو ما يتوجب علي أن أعمله وليس ما يفكر به الناس. هذه القاعدة الشاقة في الحياة الفعلية والحياة الفكرية معاً، يمكن أن تكون ذات فائدة في التمييز بين العظمة والوضاعة وهي تزداد صعوبة لأنك ستكتشف دائماً أن أولئك الذين يظنون بأنهم يعرفون واجبك أفضل منك، يعرفونها. من السهل ان تحيا في هذا العالم حسب ما يراه العالم، ومن السهل أن تحيا في العزلة حسب ما تراه لنفسك، لكن الإنسان العظيم هو ذلك الذي يحافظ وسط الحشد وبمنتهى العذوبة على استقلالية العزلة.

إن مصدر الإعتراض على الامتثال لممارسات أصبحت ميتة بالنسبة لك هو أنه يبدد قوتك. إنه يهدر وقتك ويشوش الانطباع الذي تتركه شخصيتك. فإذا ما واظبت على اتباع كنيسة ميتة، والتحقت بجمعية انجيلية ميتة، وصوت لحزب عظيم مع الحكومة أو ضدها، وبسطت مائدتك مثل مدبري المنازل الوضعاء – فإنه سيصعب علي أن أميز بالتحديد الإنسان الذي تكونه تحت كل هذه الأحجبة؛ وبالطبع فإن الكثير من القوة قد أخذ من حياتك الحقيقية. لكن قم بعملك، وسوف أتعرف عليك. قم بعملك، ولسوف تعزز ذاتك. على الإنسان أن يدرك أي نوع من الخداع الأعمى تمثله لعبة الامتثال هذه. عندما أعرف مذهبك، أحدس حجتك. استمع إلى واعظ يعلن اختياره لنص وموضوع يلائم إحدى مؤسسات كنيسته. ألا أعرف مسبقاً أنه لن يستطيع أن

يقول كلمة واحدة جديدة أو تلقائية؟ أفلا أعرف بكل ما يتظاهر به من فحص لأرضية المؤسسة لن يقوم بشيء من ذلك الفحص؟ أفلا أعرف أنه قد قطع على نفسه عهداً بأن لا ينظر إلا إلى جانب واحد، الجانب المسموح به، ليس كإنسان، بل كقسيس في كنيسة؟ إنه محامٍ موكل، وما مظاهر التحقيق هذه إلا تظاهرات فارغة. حسن، لقد ربط معظم الناس على عيونهم بمنديل أو بآخر، وألحقوا أنفسهم بواحدة في تجمعات الرأي هذه. إن هذا الامتثال لا يجعلهم مزيفين في تفاصيل قليلة، أو مروجين لأكاذيب قليلة، إنما مزيفين بكل التفاصيل. إن كل حقيقة فيهم ليست حقيقية. فإثنانهم ليست الإثنين الحقيقية، وأربعتهم ليست الأربعة الحقيقية؛ وهكذا فإن كل كلمة يقولونها تكدرنا، ولا ندري من أين نبدأ في إصلاحهم. إن الطبيعة نفسها لا تتلكأ في تزويدنا ببدلة السجن العائد للجماعة التي نشايعها. فنحن قد درجنا على الظهور بقطع واحد من الوجوه والقامات، وانتحلنا بدرجات متفاوتة أرق التعبيرات الحمارية. هنالك، بالذات، تجربة مخزية، لم تفشل في فرض نفسها على التاريخ العام أيضاً، وأعني بها «الوجه الأحمق للثناء»، الابتسامة المغتصبة التي نصطنعها عندما نكون في صحبة لا نرتاح إليها، أو عندما نرد بها على محادثة لا تثير اهتمامنا. العضلات التي لا تتحرك بتلقائية بل بتعمد وضيع مغتصب، تنشد عند حدود الوجه بإحساس من أشد أنواع الأحاسيس الكريهة.

إن العالم يعاقبك على انشقاقك عنه بالجلد بسوط استيائه. ولهذا ينبغي على المرء أن يتعلم كيف يفسر الوجه المتجهم ينظر إليه الأشخاص شزراً في الشارع أو في ردهة استقبال الصديق. لو أن هذا النفور يستمد أصوله من السخط أو الإنكار كما هو حال نفوره لكان بإمكانه أن يعود إلى منزله بسحنة حزينة، لكن وجوه الحشد المتجهمة، مثل وجوههم المنطلقة، تفتقر إلى السبب العميق، وهي توضع وتنزع تعباً لما تجري به الرياح أو توجه به الجريدة. ولكن هل أن أسخط الحشد أشد وطأة من سخط الكلية أو مجلس الشيوخ. من السهولة بمكان على الرجل الحازم ذي الدراية بشؤون العالم أن يتحمل غضبة الطبقات المثقفة. فغضبتها حصيفة ومحتشمة، لأنهم جبناء، يعرفون أنهم هم أنفسهم معرضون للسخط. ولكن عندما يضاف استياء الشعب إلى غضبتهم الأنثوية، عندما يستثار الجهلاء والفقراء، عندما تدفع القوة الوحشية الغبية الكامنة في قرارة المجتمع إلى التكشير والهدير، فإن الأمر يتطلب ممارسة الشهامة والديانة لمعاملتها بالطريقة التي يعاملها بها الرب بصفتها شيئاً تافهاً لا شأن له.

الرعب الآخر الذي يخيفنا من الثقة بالنفس هو ثباتنا؛ ذلك الاحترام لكلمة أو فعل صدر عنا في الماضي لأن عيون الآخرين لا تمتلك من معلومات لحساب مدارنا سوى أفعالنا السابقة، ونحن نكره أن نخيبهم.

ولكن لماذا يتوجب عليك أن تحتفظ برأسك فوق كتفيك؟ لماذا تجر وراءك جثة ذاكرتك، خشية أن تناقض شيئاً قلته في هذا المكان العام أو ذاك؟ لنفترض أنك ناقضت نفسك، فماذا في ذلك؟ يبدو أن من قواعد الحكمة أن لا تعتمد على ذاكرتك وحدها، حتى فيما يتعلق بالذاكرة المحض، بل أن تأتي بالماضي للشهادة أمام الحاضر ذي العيون الألف، وأن تعيش أبداً في يوم جديد. في مجال الميتافيزيقيا، أنكرت تشخيص الربوبية، ولكن عندما تأتيك حركات الروح الورعة، تستسلم لها بروحك وبقلبك، رغم أنها ينبغي أن تلبس الرب شكلاً ولوناً. تخل عن نظريتك، كما تخلى يوسف عن ردائه ليد العاهرة، واهرب.

إن الثبات الأحمق هو بعبع العقول الصغيرة، حيث يقدسه صغار السياسيين والفلاسفة والكهان. إن الروح العظيمة لا شأن لها بالثبات. إنه بالنسبة لها مثل الإنشغال بظل المرء على الجدار. عبر عما تفكر به اليوم بكلمات قوية، وعبر غداً عما يحمله الغد من أفكار، وبكلمات قوية أيضاً، حتى وأن عارضت بها كل ما قلته اليوم. «آه، هكذا تكون على يقين من أن الناس ستسيء فهمك». فهل أن إساءة فهم المرء أمر شديد السوء؟ لقد أسيء فهم فيثاغورس، وسقراط، ويسوع، ولوثر، وكوبرنيكوس، وغاليليو، ونيوتن وكل روح نقية حكيمة تجسدت في جسد. أن تكون عظيماً يعني أن يساء فهمك.

أفترض أن ما من إنسان يستطيع أن ينتهك طبيعته. فجميع تفجرات إرادته تتكور بحكم قانون وجوده، بنفس الطريقة التي تكون فيها نتوءات الأنديز هيمالايا غير مهمة بالنسبة لمنحني العالم. كما أن الطريقة التي تقيسه أو تختبره بها لا تغير منه شيئاً بالشخصية مثل القصائد الإسكندرانية تعطيك المعنى نفسه سواء قرأتها سليمة أو معكوسة. في هذه الحياة الرضية الباعثة على الندم التي وهبني اللّه إياها، دعني أسجل أفكاري الصادقة يوماً بيوم بدون استشراف أو مراجعة، وليس لدي أي شك في أنها ستبدو متساوية رغم أنني لم أقصد ذلك أو أراه. على كتابي أن يحمل رائحة الصنوبر ويضج بطنين الحشرات. وعلى السنونو الذي يقف عند شباكي أن يجدل

الخيط أو القشة التي يحمل بمنقاره داخل نسيجي أيضاً. نحن نؤخذ على ما نحن عليه. والشخصية تتفوق بما تفصح عنه على إرادتنا. يتصور الناس أنهم يعبرون عن حسناتهم وهناتهم بالأفعال الصريحة فقط، ولا يرون أنّ الحسنات أو الهنات تطلق نفساً في كل لحظة.

هناك اتفاق في أي تنوع كان للأفعال يجعل كلاً منها صادقاً وطبيعياً في حينها. لأن الأفعال الصادرة عن إرادة واحدة تكون منسجمة بغض النظر عما تظهر عليه من اختلاف. هذه الاختلافات تغيب عن النظر عند مسافة قصيرة أو قليل من السمو بالفكرة. فهناك توجه واحد يوحدها جميعاً. إن أفضل السفن تقطع رحلتها في خط متعرج يتكون من مئات الانحرافات المعدلة. لو نظرت إلى الخط من مسافة كافية، لاستقام أمامك في اتجاه منتظم. إن الفعل الأصيل الصادر عنك يوضح نفسه ويوضح سواه من أفعالك الأصيلة الأخرى. أما تماثلك مع الآخرين فلا يوضح شيئاً. تصرف بفردانية، وسوف يبررك ما قمت به بفردانية الآن. فالعظمة تخاطب المستقبل لو استطعت اليوم أن أكون حازماً بما يكفي لأن أفعل صواباً وأزدري العيون، كان لزاماً علي أن أكون قد فعلت من الصواب من قبل ما يكفي للدفاع عني الآن. وليكن الأمر كيفما يكون، افعل الصواب الآن. إزدر المظاهر دائماً، فإن ذلك يحق لك على الدوام. إن قوة الشخصية تراكمية. فكل أيام الفضيلة السالفة تفعل فعلها من الموقف الراهن. ما هو الشيء الذي يصنع جلال أبطال الحقل وأبطال المجالس الذي يملأ المخيلة؟ - الإحساس بقطار من الأيام العظيمة والانتصارات التي وراءهم. إنها تلقي بضوء مجتمع على الممثل المتقدم، فيبدو كما لو أنه محفوف بحاشية مرئية من الملائكة. ذلك هو الشيء الذي يصيب الرعد في صوت تشاتام، والوقار في هيأة واشنطن، وأمريكا في عين آدم إن الشرف مهاب لدينا لأنه ليس بالأمر العابر. فهو على الدوام الفضيلة العريقة. إننا نقدسه اليوم لأنه ليس ابن اليوم. ونحن نحبه ونجله لأنه ليس مصيدة لحبنا وإجلالنا، إنما هو أمر مستقل بذاته، نابع عن ذاته، ولذلك ينتمي إلى سلالة معصومة قديمة، حتى وان تبدى في شخص يافع.

أرجو أن نكون في هذه الأيام قد أتينا على نهاية التماثل والثبات. لتكن هاتان الكلمتان موضع التشهير والسخرية من الآن فصاعداً. دعونا نستمع إلى صافرة من الحياة السبارطية بدلاً من الجرس الذي يدعو إلى العشاء. دعونا نكف عن الانحناء

والاعتذار من الآن فصاعداً. هناك رجل عظيم قادم لتناول العشاء في منزلي. ليست لدي الرغبة في إرضائه؛ بل أرجو أن تكون لديه الرغبة في إرضائي سأقف هنا في صف الإنسانية، وسوف أجعلها صادقة، رغم أنني سأجعلها عطوفة. دعونا نؤنب ونهين عادية العصر المسطحة وقناعته المزرية، ونلقي بوجه العرف والمكانة والمنفعة بالحقيقة التي تعتبر زبدة التاريخ كله والتي تقول بوجود مفكر ومنفذ مسؤول عظيم يعمل حيثما يعلم الإنسان، وبأن الإنسان الحقيقي لا ينتمي إلى زمان أو مكان آخر غير مركز الأشياء. فحيثما يكون، تكون الطبيعة. وهو الذي يقيسك ويقيس جميع البشر والأحداث. من المألوف أن كل فرد في المجتمع يذكرنا بشيء آخر أو بشخص آخر. أما الشخصية الحقيقية، فلا تذكر بأي شيء آخر، إنها تحدث في كامل الخليقة. ينبغي أن يكون الإنسان بهذا الحجم، من أجل أن يجعل جميع الظروف متماثلة. كل انسان حقيقي قضية، بلاد، وعصر. وهو يحتاج إلى مجالات وأعداد غير محدودة وزمن غير محدود من أجل ان يتم تحقيق مخططه؛ حيث يبدو أن الخلق يقتضي آثاره مثل قطار من الزبائن. يولد قيصر انساناً، فتظل لدينا امبراطورية رومانية على مدى عصور. يولد المسيح، فتنشأ ملايين العقول وتتشبث بعبقريته حتى يمتزج بالفضيلة وقدرة الإنسان. إن المؤسسة هي الظل المستطيل لإنسان واحد كما أن الترهب ظل الناسك أنتوني، والإصلاح ظل للوثر، والكواكرية ظل لفوكس، والميثودية ظل لويزلي، والغاء الرق ظل للكلاركسون. ودعا ميلتون سيبيو باسم «سمو روما»؛ والتاريخ كله يذيب نفسه بسهولة في سيرة قلة من الأشخاص الصادقين والشجعان.

فليعرف الإنسان، إذن، قدره، ويضع الأشياء تحت قدميه. وليمتنع عن التلصص والتسلل، أو الاندساس خلسة بمظهر فتى الإحسان، أو النغل، أو المتطفل على العالم الذي وجد من أجله. إن رجل الشارع، الذي لا يجد في نفسه القيمة ما يتماشى مع القوة التي شيدت برجاً أو نحتت إلهاً من الرخام، يشعر بالفاقة حين ينظر إلى هذه الأشياء. فالقصر، أو التمثال، أو الكتاب النفيس تكتسب في نظره مظهراً معادياً ومنفراً، كما لو كانت بطانة خليعة، وتبدو وكأنها تقول له: «من أنت، أيها السيد؟» إلا أنها جميعاً ملكه، خاطبة لالتفاتته، متوسلة لقدراته أن تظهر وتستحوذ عليها. الصورة تنتظر حكمي؛ إنها لا تأمرني، بل أنا الذي أبت في طلبها بالثناء. إن تلك الحكاية المعروفة حول السكير الذي عثر عليه متعتعاً بالسكر في الشارع، فحمل إلى بيت

الدوق، وغسل وألبس ومدد في فراش الدوق، وعومل عند استيقاظه بكل التبجيل الخنوع الذي يقدم للدوق، وأكد له بأنه كان معتوهاً، تدين بشعبيتها إلى حقيقة كونها ترمز إلى حالة الإنسان، الذي يمثل في العالم نوعاً من السكيرين، لكنه يصحو بين حين وآخر، فيحكم عقله، ليجد نفسه أميراً حقيقياً.

إن قراءتنا متسولة ومتمثلة. ومخيلتنا تخدعنا فيما يتعلق بالتاريخ فمفردات مثل الملك واللورد، السلطان والملكية، هي مفردات أكثر بهرجة من جون أو أدوارد العادي في منزله الصغير وعمله اليومي المألوف؛ لكن أمور الحياة واحدة لكليهما؛ والحاصل الكلي للإثنين متساوٍ. فلماذا كل هذا التبجيل لألفريد وسكاندبريغ وغوستافوس؟ هب أنهم كانوا فضلاء؛ فهل كانوا يحملون فضيلتنا؟ إن ما يتوقف على ما تفعله اليوم في حياتك الخاصة لا يقل شأناً عن ما أعقب خطواتهم العامة والمشهورة. عندما يتصرف الرجال العاديون بوحي الآراء الأصيلة، فإن البريق ينتقل من فعال الملوك إلى فعال أولئك الرجال.

تلقى العالم التوجيه من ملوكه الذين فتنوا عيون الشعوب. وتعلم من ذلك الرمز الضخم التبجيل المتبادل الذين يدين به الإنسان للإنسان إن ولاء البشر الجاهز في كل مكان والذي أتاح للملوك، أو النبيل، أو المالك الكبير على أن يسير بينهم تبعاً لقانونه الخاص، وأن يضع ميزانه الخاص للبشر والأشياء ويعكس موازينهم، وأن يسود ثمن عوائده بالشرف لا بالمال، وأن يجعل من شخصه ممثلاً للقانون، كان اللغة التي صاغوا بها على نحو غامض وعيهم بحقهم وبما هو لائق بهم، حق كل انسان.

إن السحر الذي يمارسه العمل الأصيل يتضح عندما نتساءل عن سبب الثقة الذاتية. من هو الشخص الذي نضع فيه ثقتنا؟ أية ذات أرومية، يمكن أن يعتمد عليها الجميع؟ ما هي طبيعة وسطوة ذلك النجم الذي يحتار فيه العلم، والذي يرسل، بدون انحراف وبدون عناصر معروفة، ذلك الشعاع من الجمال ويصبه حتى في الأعمال التافهة وغير النقية بمجرد ظهور أدنى علامات الاستقلالية؟ يقود التساؤل إلى ذلك المصدر، الذي يعتبر جوهر العبقرية، والفضيلة، والحياة، الذي نسميه التلقائية أو الفطرة. إننا نرمز إلى هذه الحكمة الأولية بالبداهة، في حين أن جميع التعاليم اللاحقة تعتبر بداهات. في تلك القوة العميقة، الحقيقة الأخيرة التي لا يستطيع التحليل الذهاب إلى ما بعدها، تجد جميع الأشياء أصلها المشترك. لأن الإحساس بالوجود الذي ينبع

في ساعات الصفاء من الروح، على نحو لا نعرفه، لا يختلف عن الأشياء، والفضاء، والضياء، والزمان، والإنسان، إنما هو مطابق لها وينطلق من المصدر نفسه الذي تنطلق منه حياتها ووجودها. إننا، إبتداءً، نشارك الأشياء الحياة التي تحيا بها، ثم نأخذ بالنظر إليها كمظاهر في الطبيعة وننسى أننا قد اقتسمنا معها سببها. هنا يكمن منبع الفعل والفكر. هنا توجد رئات ذلك الإلهام الذي منح الإنسان الحكمة والذي لا يمكن أنكاره دون السقوط في العقوق والإلحاد. إننا نستلقي في حضن معرفة هائلة تجعلنا متلقين لحقائقها وأدوات لنشاطها. عندما نتعرف على العدالة، عندما نتعرف على الحقيقة، فإننا لا نأتي بشيء من عندياتنا إنما نسمح بمرور شعاعاتها. وإذا ما تساءلنا من أين يأتينا هذا، إذا ما سعينا إلى التلصص على الروح المسببة، فإن جميع الفلسفة تكون خاطئة فكل ما نستطيع تأكيده هو حضورها أو غيابها كل إنسان يستطيع التمييز بين الأفعال الطوعية لعقله والمدركات غير الطوعية ويعلم بأن مدركاته الطوعية تحتاج إيماناً كاملاً. قد يخطئ في التعبير عنها، لكنه يعلم أن هذه الأمور، مثل الليل والنهار، لا يمكن منازعتها. ليست أفعالي وتساؤلاتي المقصودة سوى تهويمات، أشد أحلام اليقظة عبثاً، وأوهى العواطف المولودة تستأثر بفضولي واحترامي . يخطئ عديمو الفكر فيحسبون بيانات الإدراك بيانات الرأي، وهم يفعلون ذلك على الفور لأنهم لا يميزون بين الإدراك والفكرة. إنهم يظنون بأني اختار أن أرى هذا الشيء أو ذاك. لكن الإدراك ليس نزوياً، إنما هو قدري. فإذا ما رأيت سمة، فإن أبنائي سيرونها بعدي، وسيراها الجنس البشري كله بمرور الوقت ـ على الرغم من أنه قد يصادف عدم وجود من رآها قبلي. لأن إدراكي لها حقيقة كالشمس.

إن علاقات الروح بالروح الإلهية نقية إلى الحد الذي يجعل السعي إلى توسيط العون أمراً مدنساً. عندما يتحدث اللّه فإن من الواجب أن يبلِّغ، ليس أمراً واحداً، بل جميع الأمور، أن يملأ العالم صوته، أن يبدد الضياء، والطبيعة والزمن والأرواح، من مركز الفكرة الراهنة، وأن يؤرخ ويخلق الكل من جديد. متى ما كان العقل بسيطاً ومتلقياً للحكمة الإلهية، فإن الأشياء القديمة تتلاشى ـ الوسائل، المعلمون، النصوص، تهوي الهياكل: إنه يحيا الآن، ويحتوي الماضي والمستقبل في الساعة الراهنة كل الأشياء تصبح قدسية بعلاقتها بها، ولا يفضل شيء شيئاً. كل الأشياء تذوب في مركزها بفعل سببها، ومن المعجزة الكونية تتلاشى المعجزات الضئيلة والمحدودة.

ولهذا، لا تصدق الرجل الذي يدعي أنه يعرف اللّه ويتحدث عنه إذا ما وجدته يعود بك إلى الوراء إلى لغة واحدة من الأمم البائدة في بلاد أخرى وعالم آخر. هل أن البلوطة أحسن من شجرة البلوط وهي التي تمثل امتلاءها واكتمالها؟ هل أن الوالد أحسن من الولد الذي صب فيه وجوده الناضج؟ فلماذا إذن هذه العبادة للماضي؟ إن القرون تتآمر على سلطة الروح وعقلانيتها. وما الزمان والمكان إلا ألوان فيزيولوجية تصنعها العين، لكن الروح هي النور: فحيثما تكون النهار؛ وحيثما كانت يكون الليل؛ وما التاريخ إلا وقاحة وأذى إذا أصبح أي شيء يزيد على مجرد عظة بهيجة أو عبرة لوجودي وصيرورتي.

إن الإنسان جبان واعتذاري؛ فهو لم يعد مستقيماً؛ وهو لا يجرؤ أن يقول «أنا» و «أفكر» بل يقتبس عن بعض القديسيين والحكماء. إنه يشعر بالخجل إزاء ورقة العشب أو الوردة المتفتحة. هذه الورود تحت نافذتي لا تحيلني إلى ورود سابقة أو ورود أفضل إنها ما هي عليه؛ وهي موجودة اليوم في حمى اللّه. بالنسبة لها لا يوجد زمن. هناك الوردة وحسب، وهي كاملة كل لحظة من وجودها. قبل أن يتفق برعم الورقة، تتحقق حياتها كاملة؛ ليس في الورقة كاملة التفتح ما هو أكثر، وليس لدى الجذر العادي من الأوراق ما هو أقل. إن طبيعتها مشبعة وهي ترضي الطبيعة في جميع اللحظات على حد سواء. لكن الإنسان يؤجل أو يتذكر؛ إنه لا يحيا في الحاضر، إنما يندب الماضي بعيون منقلبة إلى وراء، أو، يقف على رؤوس أصابع قدميه يستشرف المستقبل، غير متنبه إلى الكنوز التي تحيط به. إنه لا يستطيع أن يحيا سعيداً وقوياً حتى يحيا هو الآخر مع الطبيعة في الحاضر، وفوق الزمان.

ينبغي أن يكون هذا واضحاً بما فيه الكفاية. ومع ذلك فأنت ترى الأذهان القوية لا تجرؤ على سماع اللّه نفسه، مالم يتكلم لغة داوود، أو آرميا، أو بولس. لا ينبغي علينا أن نمنح ذلك الثمن الغالي لقلة من النصوص، أو لقلة من الحيوات. إننا مثل الأطفال الذين يكررون ما يستظهرونه من عبارات الجدات والمعلمين، وما أن يكبروا، حتى يأخذوا بترديد عبارات أصحاب المذاهب والشأن ممن يصادف أن يلتقوهم، وهم يبذلون جهداً في تذكر الكلمات نفسها وهم يتحدثون. فيما بعد، عندما يقابلون وجهة نظر التي حملها أولئك الذين فاهوا بتلك الأقوال، فإنهم يفهمونها ويكونون على استعداد لترك الكلمات تمضي؛ لأنهم يستطيعون استخدام كلمات أخرى لا تقل عنها جدارة عندما

تحين المناسبة. إذا عشنا بصدق، فإننا سوف نرى بصدق. من السهل على الرجل القوي أن يكون قوياً تماماً كما يكون من السهل على الضعيف أن يكون ضعيفاً. عندما نحصل على إدراك جديد، فسوف يسعدنا أن نريح ذاكرتنا من ذخيرتها المختزنة مثل نفاية عتيقة. عندما يعيش الإنسان مع اللّه، فإن صوته ينبغي أن يكون عذباً مثل خرير الجدول أو هفهفة القمح.

إن الحقيقة العليا حول هذا الموضوع لم يقلها أحد لحد الآن، ربما ليس بالإمكان قولها؛ لأن كل ما تقوله هو التذكر البعيد للبداهة. هذه الفكرة، على أقرب ما استطيع أن أصله منها، هي كالآتي. عندما يكون الخير قريباً منك، عندما تكون هناك حياة في ذاتك، فإن ذلك لا يحدث بأية طريقة معروفة أو معتادة، فأنت لن تتبين آثار أقدام أي شخص آخر، ولن ترى وجه إنسان؛ ولن تسمع أي اسم، فالطريقة، والفكرة، والخير ستكون جميعاً غريبة وجديدة. ولسوف تستبعد المثال والتجربة. فأنت تأخذ الطريقة من الإنسان، وليس إلى الإنسان. وكل البشر الذين وجدوا منذ الأزل هم كهنتها المنسيون. تحتها يتماثل الخوف والأمل. هنالك شيء من التدني حتى في الأمل. في ساعة الرؤية لا يوجد شيء يمكن أن يدعى امتناناً، أو سروراً على وجه التحديد. فالروح المرتفعة فوق العاطفة تبصر الهوية الأزلية ولاسببيتها، وتدرك الوجود الذاتي للحقيقة والصواب، وتهدىء ذاتها بمعرفتها بأن كل شيء يسير على مايرام. مجالات الطبيعة الشاسعة، المحيط الأطلسي، البحر الجنوبي، فترات الزمان الطويلة، السنوات، القرون لاحساب لها. فهذا الذي أحسه وأفكر به موجود ضمناً كل حالة سابقة للحياة والظروف، بنفس الطريقة التي تراه موجوداً ضمناً بها في حاضري، وفي ما يدعى الحياة وفي مايدعى الموت. ما يجدي هو الحياة، وليس كونك قد عشت. القوة تتوقف في لحظة المنام، إنها تمكث في لحظة الإنتقال من الماضي إلى حالة جديدة، في إصابة الكرة، في التصويب نحو هدف هذه الحقيقة بالذات يكرهها العالم: أن تتصير الروح؛ لأن ذلك يحط من قدر الماضي إلى الأبد، ويحول جميع الثروات إلى فاقة، كل الصيت إلى عار، ويخلط ما بين القديس والوغد، ويزيح يسوع ويهودا جانباً على حد سواء. لماذا إذا ترانا نهذر الاعتماد على الذات؟ فما دامت الروح حاضرة لن تكون هناك قوة واثقة، بل وسيطة. إن الحديث عن بالاعتماد هو طريقة خارجية بالنسبة للحديث. تحدث عن ذلك الشيء الذي يعتمد لأن ذلك هو الحاصل والمتحقق. من يمتلك طاعة أكثر مني يسود علي، رغم أنه قد

أنه قد لا يرفع إصبعه. وحوله ينبغي علي أن أدور بقوة جذب الأرواح. عندما نتحدث عن الفضيلة العليا نحسب أن ما نقوله هو بلاغة. فنحن ما زلنا لا نرى أن الفضيلة هي العلو، وأن الإنسان أو مجموعة من البشر، سواء كانوا مشبعين بالمبادئ أو لا، ينبغي أن يتفوقوا، بحكم قانون الطبيعة، على جميع المدن، والأمم، والملوك، والأثرياء، والشعراء الذين ليسوا كذلك.

هذه هي الحقيقة النهائية التي نصل إليها بسرعة في هذا الموضوع، كما في أي موضوع، انحلال الكل في الواحد الأبدي البركة. إن الوجود الذاتي هو صفة السبب الأعلى، وهو يضع مقياس الخير بالدرجة التي يدخل بها في جميع الأشكال الأدنى. كل الأشياء الحقيقية تعتبر حقيقية بقدر ما تحتويه من فضيلة. إن التجارة، وتربية الخيل، والصيد، وصيد الحيتان، والحرب، والفصاحة، والمكانة الشخصية تحظى باحترامي لأنها أمثلة على وجودها وفعلها غير النقي. أرى القانون نفسه يعمل في الطبيعة لغرض الحفظ والنمو. في الطبيعة، القوة هي المقياس الأساسي للصواب فالطبيعة لا ترغم شيئاً على البقاء في ممالكها إن لم يكن قادراً على التكفل بنفسه. إن تكوين الكوكب ونضجه، توازنه وفلكه، الشجرة المنحنية التي تحمي نفسها من الريح القوية، المنابع الحيوية لكل حيوان ونبات، هي تجليات للروح المكتفية بذاتها وبالتالي المعتمدة على ذاتها.

وهكذا فإن كل شيء يتركز، دعونا نكف عن التهويم، دعونا نمكث في البيت مع السبب. دعونا ندهش ونذهل ذلك الخليط المتطفل من الناس والكتب والمؤسسات بإعلان بسيط عن الحقيقة السماوية. قل للمقتحمين أن يخلعوا الأحذية من أقدامهم. لأن اللّه هنا في الداخل. دع بساطتنا تحكم عليهم، ومطاوعتنا لقانوننا الخاص تظهر فقر الطبيعة والثروة إزاء ثروتنا الذاتية.

لكننا الآن رعاع. فالإنسان يرهب الإنسان، كما أن شيطانه لا يوجهه إلى المكوث في البيت، إلى تحقيق اتصال بالمحيط الداخلي، بل تراه يخرج ليشحذ قدح الآخرين أو صحنهم. علينا أن نمضي وحيدين. أحب الكنيسة الصامتة قبل بداية القداس، أكثر من أية موعظة. ما أبعدها، ما أبردها، ما أطهر ما يبدو عليه الأشخاص! دعنا إذن نجلس على الدوام. لماذا يكون علينا أن نحمل أخطاء الصديق، أو الزوجة، أو الأب، أو الابن، لأنهم يجلسون حول نارنا، أو لأنهم يحملون نفس دمائنا؟ كل البشر يحملون دمي وأنا أحمل دمهم. لن أتحمل لهذا السبب حماقتهم أو رداءة طبعهم، إلى الحد الذي يجعلني

أخجل منه. لكن عزلتك يجب أن لا تكون ميكانيكية، بل روحية، يعني أنها يجب أن تكون تسامياً. في بعض الأحيان يبدو أن العالم كله يتآمر من أجل إزعاجك بالتوافه الضاغطة. الصديق، الزبون، الابن، المرض، الخوف، الحاجة، الإحسان الكل يقرع في وقت واحد على باب مخبئك ويقول «اخرج إلينا». لكن عليك أن تحافظ على حالك؛ وأن لا تخرج إلى ضوضائهم. إن القدرة على إزعاجي التي يمتلكها الاخرون تقدم له من قبلي عن طريق الفضول الضعيف. فلا أحد يستطيع الاقتراب مني إلا من خلال أعمالي. «ما نحبه نملكه» لكننا نسلب أنفسنا الحب بسبب الرغبة.»

إذا لم نستطع أن نرتفع إلى قدسيات الطاعة والإيمان في الوقت نفسه، فدعنا على الأقل نقاوم إغراءاتنا؛ دعنا ندخل حالة الحرب ونوقظ «ثور» و «وودن»، الشجاعة والثبات، من صدورنا السكسونية. في أيامنا السهلة هذه يتحقق ذلك بقول الحقيقة. أوقفوا هذه الضيافة الكاذبة والتعاطف الكاذب. كف عن إرضاء توقعات أولئك الناس المخدوعين والمخادعين الذين نتحدث إليهم. قل لهم، «أيها الأب، أيتها الأم، أيتها الزوجة، أيها الأخ، أيها الصديق، لقد عشت معكم لحد الآن تبعاً للمظاهر. ومن الآن فصاعداً سأكون ملكاً للحقيقة. وليكن معلوماً لديكم أنني من الآن فصاعداً لن أطيع أي قانون آخر غير القانون الأزلي. وسوف لن تكون لدي مواثيق بل مقتربات سوف أسعى إلى أن أغذي والدي؛ وأعيل أسرتي، وأن أكون الزوج العفيف لزوجة واحدة، لكنني سأفي بهذه العلاقات بطريقة جديدة وغير مسبوقة. إني أتنصل من عاداتكم علي أن أكون نفسي. ليس بوسعي بعد الآن أن أكسر نفسي من أجلكم، ولا أن أكسركم. إذا كان بوسعكم أن تحبوني لما أنا عليه فإننا سنكون أسعد حالاً. وإذا لم تستطيعوا، فإني سأواصل السعي من أجل أن أستحق ذلك منكم. لن أخفي ما أستسيغه وما أنفر منه. وسوف أثق بأن ما هو عميق مقدس، وأنني سوف أمارس بقوة وعلى مرأى من الشمس والقمر كل ما يرضيني داخلياً ويشير به قلبي. إذا كنتم نبلاء، فسأحبكم؛ وإذا لم تكونوا كذلك، فإني لن أوذيكم وأؤذي نفسي بالاكتراث المنافق. إذا كنتم صادقين، ولكنه صدق غير صدقي، فلتتمسكوا برفاقكم، وسوف أجد لي رفاقاً. لا أفعل ذلك عن أنانية، ولكن بتواضع وصدق. إن من مصلحتكم، ومصلحتي، ومصلحة جميع البشر أن نعيش في الصدق، مهما طال مكوثنا في الأكاذيب. هل يبدو هذا اليوم فظاً؟ سوف تحب سريعاً ما تمليه طبيعتك مثل ما تمليه طبيعتي، وإذا تبعنا الحقيقة فإنها ستخرجنا في النهاية

سالمين» لكنك على هذا النحو قد تسبب الألم لهؤلاء الأصدقاء نعم، لكنني لا أستطيع بيع حريتي وقوتي من أجل أن أنقذ مشاعرهم. كما أن لجميع الأشخاص لحظات منطقهم الخاص، عندما ينظرون إلى منطقة الحقيقة المطلقة، عندها سوف يعرفون مبرراتي ويفعلون الشيء نفسه.

يعتقد الناس أن رفضك للمقاييس الشائعة هو رفض لكل المقاييس، وأنه مجرد تناقض، وأن الحسي الجريء سوف يستخدم اسم الفلسفة لتغليف جرائمه. لكن قانون الوعي موجود. هناك كرسيان للاعتراف، وعلى هذا الكرسي أو ذاك ينبغي علينا أن نعترف. بوسعك أن تنجز دورة واجباتك بإعلان نفسك من أتباع الطريقة المباشرة أو الإنعكاسية. فكر فيما إذا كنت قد أرضيت علاقاتك بالأب، والأم، وابن العم، والجار، والمدينة، والقطة، والكلب؛ ما إذا كان بوسع أي من هؤلاء أن يلومه. لكني يمكن أن أهمل هذا المقياس الانعكاسي وأعلن لنفسي تحللي من الذنب. فلدي مطالبي الصارمة ودورتي الكاملة. إنها تضن بإسم الواجب على كثير من الأفعال التي تدعى واجبات. لكنها تمكنني من الاستغناء عن القانون الدارج لو أنني استطعت صرف ديونها. فإذا تصور أي شخص أن هذا القانون متراخٍ، فليحافظ على وصاياه يوماً واحداً.

الحقيقة أن المرء الذي ينزع عنه الدوافع العادية للإنسانية ويتصدى لوضع ثقته بنفسه بوصفه سيد مهماته يحتاج إلى ان يكون فيه شيء إلهي. سامياً هو قلبه، مخلصة إرادته، صافياً بصره، من أجل أن يكون حقاً المبدأ، والمجتمع، والقانون لنفسه، وأن يكون الغرض البسيط بالنسبة له في قوة الضرورة الحديدية بالنسبة للآخرين!

لو أن أي إنسان تأمل في المعالم الحالية لما ندعوه بامتياز المجتمع، لرأى الحاجة إلى تلك الأخلاقيات. يبدو أن عصب الإنسان وقلبه قد انتزعا، وأننا قد أصبحنا متذمرين جبناء جازعين. نحن خائفون من الحقيقة، خائفون من القدر، خائفون من الموت، خائفون من أحدنا الآخر. إن عصرنا لا ينجب أشخاصاً عظماء وكاملين. ونحتاج رجالاً ونساء يجددون الحياة وحالتنا الاجتماعية، لكننا نجد معظم الطبائع مفلسة، غير قادرة على إشباع احتياجاتها، طموحها غير متناسب مع قوتها الفعلية، تنحني وتشحذ باستمرار في الليل والنهار. إدارتنا لبيوتنا استجدائية، مهارتنا، مهننا، زيجاتنا، دياناتنا لم نخترها، إنما اختارها لنا المجتمع. نحن جنود ردهات. نتجنب معارك المصير القاسية

إذا أخفق شبابنا في مشروعهم الأول يفقدون كل عزيمة. إذا فشل تاجر شاب يقول الناس أنه قد (تهدم). إذا درس في إحدى كلياتنا واحد من أفضل العباقرة ولم يستقر خلال عام بعد ذلك في مكتب في مدينة بوسطن أو نيويورك أو ضواحيها، فإنه يبدو أمام نفسه وأصدقائه أهلاً للإحباط والتذمر بقية أيام حياته. إن فتى من نيوهامشاير أو فيرمونت، يزاول على التوالي كل المهن فيزرع، ويعمل بائعاً متجولاً، ويفتح مدرسة، ويعظ، ويحرر صحيفة، ويدخل الكونغرس، ويشتري مدينة صغيرة، وما إلى ذلك، على تتابع السنين، ويقع ـ مثل القطة ـ على قدميه على الدوام، يساوي مئة من دمى المدينة تلك. إنه يواكب أيامه ولا يشعر بالعار من عدم «دراسة مهنة»، لأنه لا يؤجل حياته بل يعيشها بالفعل. إنه لا يمتلك فرصة واحدة، بل مئات الفرص. دع فيلسوفاً رواقياً يفتح طاقات الإنسان ويخبر الناس بأنهم ليسوا صفصافات منحنية، إنما بمقدورهم بل ينبغي لهم أن ينتزعوا أنفسهم، كيما تظهر لهم قوى جديدة، من خلال ممارسة الثقة بالذات، ويصبح الإنسان جسداً من صنع الكلمة، مولوداً ليسكب الشفاء على الأمم؛ وليشعر بالخزي من تعاطفنا، وأننا، في اللحظة التي يتصرف بها وفقاً لهواه، ملقياً بالقوانين، والكتب، والعبادات، والأعراف من الشباك، نكف عن الشفقة عليه بل نشكره ونحترمه؛ وسوف يعيد ذلك المعلم حياة الإنسان إلى الروعة ويجعل اسمه غالباً على التاريخ كله.

من السهل أن نرى قسطاً أعظم من الاعتماد على النفس ينبغي أن يحقق ثورة في جميع علاقات البشر وأعمالهم، في ديانتهم، في تربيتهم، في مساعيهم، في أساليب معيشتهم، في رابطتهم، في ملكيتهم، في آرائهم التأملية.

١. في أية صلوات يطلق الناس العنان لأنفسهم! إن هذه المهمة التي يدعونها مقدسة ليست مقدسة بقدر ماهي شجاعة ولائقة. الصلاة تتطلع إلى الخارج وتدعو من أجل أن تأتيها! إضافة خارجية من خلال فضيلة خارجية، وتضيع نفسها في المتاهات اللامتناهية ما بين الطبيعي والخارق، والتأملي والإعجازي. إن الصلاة التي ترغب في أي شيء محدد دون الخير الكامل هي صلاة آثمة. فالصلاة هي تأمل في حقائق الحياة من أسمى وجهة للنظر. إنها الخطاب الذاتي للروح المحتفية والمبصرة. إنها روح اللّه التي تعلن عن خير أعماله. لكن الصلاة كوسيلة لبلوغ هدف شخصي وضاعة وسرقة. فهي تفترض الازدواجية لا الوحدة في الطبيعة والوعي. فما أن يتوحد الإنسان باللّه

حتى يكف عن التوسل. عندها يرى الصلاة في جميع الأفعال إن صلاة الفلاح في ركوعه في حقله ليعشبه، وصلاة المجذف في ركوعه مع ضربة مجذافه، لهي صلوات صادقة تسمع عبر الطبيعة، وإن كانت من أجل غايات رخيصة. عندما يوجه كاراتاتش، في «بوندوكا» لفليتشر، لاستطلاع فكر الإله أوداتي، يرد قائلاً:

إن معناه الخفي يكمن في مساعينا
إن شجـــاعتنا هي أفضـــل آلهتنا

النوع الآخر من الصلوات الكاذبة هو ندمنا. فالسخط هو نقص الاعتماد على الحاجة إلى الاعتماد على الذات إنه تزعزع الإرادة. اندم على الرزايا إذا استطعت بذلك أن تساعد من يعاينها؛ وإلا فانصرف إلى عملك وسيأخذ إصلاح الضرر مساره على الفور. التعاطف الذي نبديه في نفس المستوى من الوضاعة نأتي إلى المنتحبين بحماقة ونجلس ونبكي من أجل مرافقتهم، بدلاً من أن ننقل لهم الحقيقة والعافية في صدمات كهربائية عنيفة، معيدينهم بذلك إلى التواصل مع عقلهم. إن سر القدر هو السرور في أيدينا. إن الرجل الذي يساعد نفسه يلقى الترحاب دائماً من لدن الآلهة والبشر. أمامه تفتح كل الأبواب، وتحييه كل الألسن، ويتوج بكل المكارم، وتتبعه كل العيون بشغف. إن حبنا يسعى إليه ويحتضنه لأنه لا يحتاجه. وباعتذار وتوسل نلاطفه ونحتفي به لأن ثبت في مكانه واحتقر استهجاناتهم. الآلهة تحبه لأن الناس قد كرهوه. قال زوروستر: «نحو الفاني الصامد يخف الخالدون المباركون.»

كما أن صلاة البشر مرض في الإرادة، كذلك أطماعهم مرض في الفكر. إنهم يرددون مع أولئك الإسرائيليين الحمقى «عسى أن لا يكلمنا الله، خشية أن نموت. فتحدث أنت، ليتحدث إلينا أي رجل، وسوف نطيع.» في كل مكان يحال بيني وبين ملاقاة اللّه في أخي، لأنه قد أغلق أبواب معبده الخاص وراح يردد الخرافات عن إله أخيه أو إله أخي أخيه. كل عقل جديد هو تصنيف جديد. فإن ثبت أنه عقل ذو قدرة ونشاط غير عاديين، عقل مثل عقل لوك، لافوازييه، هتون، بنثام، أوفوريير فإنه سيفرض تصنيفه على رجال سواه، وهاك! نظام جديد متناسبٍ مع عمق الفكرة، وعدد الأشياء التي تلمسها وتضعها في متناول التلميذ، يكون الرضا الذاتي. لكن هذا يبدو واضحاً في المذاهب والكنائس، التي هي تصنيفات عقل نافذ يؤثر على الفكرة الإبتدائية بشأن الواجب وعلاقة الإنسان بالأعلى. هكذا هي الكالفينية، الكواكرية، والسويدنبورجية. يحصل التلميذ من إخضاع كل شيء إلى المصطلحات الجديدة على نفس البهجة التي

تحصل عليها الفتاة التي تعلمت لتوها علم النبات من رؤية أرض جديدة وفصول جديدة تعمل بموجبه. يحدث لبعض الوقت أن يجد التلميذ أن قدرته الفكرية قد نمت من خلال دراسة عقل استاذه. لكن التصنيف يقدس لدى جميع العقول غير المتوازنة، فتحسبه الغاية لا الوسيلة سريعة النفاد، فتختلط جدران النظام أمام عيونهم في الأفق البعيد مع جدران الكون؛ وتبدو لهم أنوار السماء معلق بقوس بنيان أستاذهم. إنهم غير قادرين أن يتصوروا كيف يكون لكم أنتم الغرباء أي حق في الرؤية، كيف تستطيعون الرؤية: «لا بد أنكم بطريقة ما قد سرقتم النور منا». فهم لا يدركون بعد أن النور، وهو الذي لا يغلب ولا يعنى بالتصنيف، سوف يشرق في أي كوخ، حتى في أكواخهم. دعهم يسقسقوا برهة ويدعونه نورهم. فإن كانوا صادقين وأحسنوا العمل، فإن زريبتهم الجديدة المرتبة سوف تكون شديدة الضيق والإنخفاض، فتتصدع على الفور، وتميل، وتتعفن وتختفي، ولسوف يشع النور الخالد، كلي الشباب والبهجة، ذو المليون فلك والمليون لون على الكون كما في الصباح الأول.

٢. إن من نقص الثقافة الذاتية أن تحتفظ خرافة السفر وأوثانها في إيطاليا، وانجلترا، ومصر بسحرها بالنسبة لجميع المتعلمين الأمريكيين. إن الذين جعلوا انجلترا أو ايطاليا، أو اليونان مبجلة في المخيلة، فعلوا ذلك بالالتصاق بشدة بالأماكن التي وجدوا فيها، كما يفعل محور الأرض. في الساعات المسؤولة نحس بأن الواجب هو مكاننا. فالروح ليست مسافراً؛ والرجل الحكيم يمكث في داره، وعندما تستدعيه ضروراته، أو واجباته، في أية مناسبة، من منزله، أو تأخذه إلى أراض أجنبية، فإن يظل ماثلاً في داره، ولسوف يجعل الناس يشعرون من خلال سلوكه أنه ماضٍ، مثل رسول للحكمة والفضيلة، يزور المدن والأشخاص كما لو كان ملكاً وليس كمتطفل أو تابع.

ليس لدي اعتراض شديد على الإبحار حول العالم لأغراض الفن، والدراسة، والإحسان، حين يكون الإنسان قد ابتدأ نشأته في موطنه، أو أنه لا يخرج أملاً في العثور على شيء أعظم مما يعرف. إن الذي يسافر من أجل الاستمتاع، أو العثور على شيء لا يحمله، يسافر بعيداً عن ذاته، ويهرم وهو في شبابه بين الأشياء الهرمة. في طيبة وبالميرا تُهرم إرادته وعقله ويتهدمان مثل تلك الأماكن. إنه يحمل الخرائب للخرائب.

إن السفر هو جنة الحمقى. إن رحلاتنا الأولى تكشف لنا عدم اختلاف الأمكنة.

أحلم وأنا في موطني أنني من نابولي، في روما، يمكن أن أثمل بالجمال فيغادرني حزني. أحزم صندوقي، أعانق أصدقائي، وأركب البحر واستيقظ أخيراً في نابولي، فأجد إلى جانبي الحقيقة الصارمة، الذات الحزينة، نفسها، التي هربت منها. أسعى إلى الفاتيكان والقصور. أتظاهر بأنني ثمل بالمشاهد والإيحاءات، لكنني لست بثمل. بعبعي يصاحبني أينما ذهبت.

٣. لكن جنون السفر عارض من أعراض داء أعمق يصيب كامل الوضع الفكري. إن الفكر متشرد، ونظام التربية عندنا يشجع عدم الاستقرار. تسافر عقولنا في الوقت الذي ترغم فيه أجسادنا على المكوث في الدار. إننا نقلد، وما هو التقليد إن لم يكن سفراً للعقل؟ بيوتنا مبنية وفق الذوق الأجنبي؛ ورفوفنا مزدانة بالزينة الأجنبية؛ آراؤنا، أذواقنا، قدراتنا، تنحني، وتتبع ما هو ماضٍ وبعيد. خلقت الروح الفنون حيثما ازدهرت. وداخل عقله الخاص بحث الفنان عن نموذجه. كان تطبيقاً لفكرته الخاصة على الشيء الذي ينبغي عمله والشروط التي ينبغي مراعاتها. لماذا نحتاج إلى ان ننسخ عن النموذج الدوري أو الغوطي؟ فالجمال، واليسر، وعظمة الفكرة، والتعبير الطريف قريبة منا كما هي قريبة من أي شخص آخر، وإذا ما درس الفنان الأمريكي بمحبة وأمل الشيء المحدد الذي ينبغي عليه عمله، آخذاً بعين الإعتبار المناخ، والتربة، وطول ساعات النهار، واحتياجات الناس، وشكل الحكومة وسلوكها، فإنه سوف يخلق منزلاً تجد كل هذه الأشياء مكانها فيه، ويرضي الذوق والشعور أيضاً.

أكد على نفسك؛ ولا تقلد أبداً. بوسعك أن تقدم موهبتك الخاصة في كل لحظة مع القوة المتراكمة لحصاد حياة كاملة؛ أما موهبة الآخر المتبناة فأنت لا تحتازها إلا نصف حيازة مرتجلة. لا أحد يستطيع أن يعلم كل انسان الشيء الذي يتفوق به على سواه سوى خالقه. فما من انسان يعرف ماهو، وليس بوسع أحد أن يعرف. حتى يظهره الشخص نفسه. أين هو المعلم الذي كان بوسعه أن يعلم شكسبير؟ أين هو المعلم الذي كان بوسعه أن يوجه فرانكلين، أو واشنطن، أو بيكون، أو نيوتن؟ كل رجل عظيم حالة فريدة. إن سيبوية سيبيو هي بالتحديد ذلك الجزء الذي ليس بوسعه استعارته. لن يكون بالإمكان صنع شكسبير عبر دراسة شكسبير. فافعل ما أنت منوط به، فليس بوسعك أن تذهب بعيداً في الأمل أو الجرأة. لديك في هذه اللحظة تعبير يساوي في جرأته وسموه تعبير إزميل فيدياس أو مالج المصريين، أو قلم موسى أو دانتي، لكنه

مختلف عن كل هؤلاء. إن الروح، كلية الثراء، كلية البلاغة، ذات اللسان ذي الألف شق لايمكن ان تتنازل وتكرر نفسها. لكنك إذا تمكنت من الإنصات إلى ما يقوله هؤلاء الآباء، فإنك بالتأكيد ستتمكن من الرد عليهم بنفس النبرة، لأن الأذن واللسان عضوان من طبيعة واحدة. أقم في المناطق البسيطة والنبيلة من حياتك، أطع قلبك، ولسوف تعيد انتاج العالم الأول من جديد.

٤. كما ديانتنا، وتربيتنا، وفننا تتطلع إلى الخارج، كذلك تفعل روح مجتمعنا. كل الرجال يهنئون أنفسهم على تطوير المجتمع، وما من رجل يتطور.

المجتمع لا يتقدم أبداً. إنه ينتكس في جانب في الوقت الذي يتقدم فيه في جانب آخر. وهو يخضع لتغيرات مستمرة، فهو همجي، وهو متحضر، وهو مسيحي، وهو غني، وهو علمي، لكن هذا التغير ليس إلى الأحسن. هنالك شيء ما يؤخذ مقابل كل شيء يعطى. المجتمع يكتسب فنوناً جديدة ويفقد غرائز قديمة أي تناقض بين الأمريكي القارئ، الكاتب، المفكر، حسن الملبس، الذي يضع ساعة، ويحمل قلماً، ودفتر صكوك في جيبه، والنيوزيلندي العادي الذي تنحصر ملكيته في عصا، ورمح، وحصير، وجزء من عشرين من سقيفة ينام تحته! ولكن، قارن بين عافية الرجلين وسوف ترى أن الرجل الأبيض قد فقد قوته الأبوريجينية. إذا كان ما يرويه المسافر حقيقة، فإنك إن ضربت المتوحش بفأس عريضة فإن لحمه سيلتئم في يوم أو اثنين، لكن الضربة نفسها ترسل الأبيض إلى قبره.

لقد صنع الرجل المتحضر عربة، لكنه فقد استخدام قدميه إنه مستند إلى عكازات، لكنه يفتقر إلى اسناد عضلاته. إن لديه ساعة نفيسة من صنع جنيف، لكنه لا يملك القدرة على تحديد الوقت بدلالة الشمس. لديه تقويم بحري صادر عن غرينتش، مما يجعله متأكداً من الحصول على المعلومات حين يحتاجها، لكن الرجل الذي في الشارع لا يعرف نجماً واحداً في السماء. فهو لا يرصد الانقلاب الشمسي، ولا يعرف إلا القليل عن الاعتدال الربيعي. وكل التقويم السنوي البراق ليس له ساعة تقابله في ذهنه. دفاتره تضعف ذاكرته، ومكتباته تثقل على بداهته، يضاعف مكتب التأمين عدد الحوادث، وبوسعنا أن نتساءل ألم تكن الماكنة معوقة، ألم يفقدنا الترف بعض الطاقة، ألم تفقدنا المسيحية المتخندقة في المؤسسات والصيغ بعض عنفوان الفضيلة الفطرية.

في المعيار الخلقي يوجد من الانحراف أكثر مما يوجد في مقاييس الارتفاع أو

الحجم. والبشر اليوم ليسوا أعظم مما كانوا في أي وقت آخر. يمكن ملاحظة مساواة فريدة ما بين الرجال العظماء في العصور الأولى والعصور المتأخرة؛ كما أن جميع علوم، وفنون، وديانة، وفلسفة القرن التاسع عشر لا تستطيع أن تربي رجالاً أعظم من أبطال بلوتارك قبل ثلاثة وعشرين أو أربعة وعشرين قرناً. إن الجنس البشري لا يتقدم زمنياً. فسقراط، وفوسيون، وأناكساغوراس، وديوجينيس رجال عظام، لكنهم لا يخلفون وراءهم طبقة. والشخص الذي ينتمي حقاً إلى طبقتها لا يدعى بأسمائهم، إنما يكون رجل نفسه، ويتحول هو بدوره إلى مؤسس لطائفة. إن فنون ومخترعات كل فترة ليست سوى لباسها الخارجي وهي لا تقوي الرجال. إن ضرر الماكنة المحسنة يمكن أن يعوض فائدتها. لقد انجز هدسون وبهرنغ الكثير في زوارق صيدهم مما أذهل باري وفرانكلين الذين تجاوزت معداتهما مصادر العلم والفن. وقد اكتشف غاليليو بمنظار أوبرا سلاسل رائعة من الظواهر السماوية تفوق ما اكتشفه أي إنسان آخر لحد الآن. اكتشف كولومبوس العالم الجديد في مركب لا ظهر له ومن المثير للدهشة أن نرى تكرار موت أو إهمال المكائن والوسائط التي قدمت بالكثير من الضجيج العالي قبل بضع سنوات أو قرون. العبقرية العظيمة تنتمي للإنسان الأصلي. إننا نعتبر التطورات التي أدخلت على فن الحرب من بين الإنتصارات العلمية، ومع ذلك فقد اخضع نابليون أوروبا بجيوشه السائرة في العراء، مما يعني أنه اعتمد على البسالة العارية وجردها من كل عون. يقول لاس كاساس أن الإمبراطور قد اعتقد أن من المستحيل الحصول على جيش كامل «بدون إلغاء أسلحتنا، ومخازننا، ومفوضينا، وعرباتنا حتى يتوجب على الجندي، تبعاً للعرف الروماني، أن يتلقى مؤونته من القمح، ويطحنها بمطحنته اليدوية، ويخبز خبزه بنفسه.»

المجتمع موجة. تتحرك الموجة إلى أمام، لكن الماء الذي تتكون منه لا يتحرك. إن الجزيء نفسه لا يرتفع من الوادي إلى الشعب ووحدته ظاهرية فقط. إن الأشخاص الذين يكونون اليوم شعباً يموتون في العام التالي، ومعهم تموت تجربتهم.

كذلك فإن الاعتماد على الملكية، وبضمنه الإعتماد على الحكومة التي تحميها، هو نقص الإعتماد على النفس. لقد تطلع الناس طويلاً بعيداً عن أنفسهم وصوب الأشياء الأخرى حتى صاروا يقدرون المؤسسات الدينية، والمتعلمة، والمتمدنة بصفتها حراساً للملكية، وهم يستنكرون الهجمات على تلك المؤسسات، لأنهم يشعرون بأنها تشكل هجمة على الملكية. إنهم يقيسون تقديرهم لبعضهم البعض بما يملكه كل منهم، وليس

بما هو عليه. لكن الإنسان المهذب يخجل من ملكيته، انطلاقاً من احترام جديد لطبيعته. إنه يكره ما يملك بشكل خاص حين يرى أنه طارئ ـ قد جاءه بالوراثة ـ أو المنحة، أو الجريمة. عندها يشعر بأن الأمر ليس امتلاكاً، إن ذلك الشيء لا يعود له، ولا جذر له لديه، وأنه ملقى هناك لعدم وجود ثورة تنتزعه أو لص يأخذه. لكن ما يكون المرء عليه يحتازه بالضرورة، وما يحتازه المرء هو ملكية حية، ليست رهن إشارة من الحكام، أو الرعاع، أو الثورات، أو الحريق، أو العاصفة، أو الإفلاس، بل أنها الحقيقة تجدد نفسها باستمرار كلما تنفس الإنسان. يقول الخليفة علي «إن نصيبك من الدنيا يبحث عنك، فأرح نفسك من البحث عنه.» إن اعتمادنا على هذه الأمور الخارجية يقودنا إلى عبودية احترام الأرقام. تجتمع الأحزاب السياسية في مؤتمرات غفيرة؛ وكلما زاد عدد الحشد ومع كل إعلان مزمجر ـ وفد أسكس! الديمقراطيون من نبو هامشاير! الأحرار من مين! ـ يشعر الوطني الشاب بأنه صار أقوى مما كان عليه من قبل بزيادة ألف جديدة من العيون والأذرع. وبنفس الطريقة يعقد المصلحون المؤتمرات ويصوتون ويقررون في حشود كبيرة ليس بهذه الطريقة، أيها الأصدقاء، يتنازل اللّه ليدخلكم ويسكنكم إنما بطريقة معاكسة تماماً. عندما يطرح الإنسان كل الدعم الخارجي ويقف وحيداً عند ذاك فقط أراه قوياً ومهيمناً. إن كل مجند إضافي يقف تحت رايته بضعفه. أليس الرجل بأفضل من مدينة؟ لا تسأل شيئاً عن الرجال، في سياق التغير اللامتناهي، فإن عمودك الراسخ وحده يجب أن يبدو على الفور الدعامة لكل ما يحيط بك. إن من يعرف هذه القوة هو شخص فطري، إنه ضعيف لأنه بحث عن الخبر خارج نفسه وفي مكان آخر، وعندما أدرك ذلك، عاد بنفسه دون تردد إلى أفكاره الخاصة، وقوّم نفسه على الفور، ووقف في وضع مستقيم، مسيطراً على أطرافه، محققاً المعجزات، تماماً كما أن الرجل الذي يقف على قدميه أقوى من الرجل الذي يقف على رأسه.

إذن استخدم كل ذلك الشيء المسمى الحظ. معظم الناس يقامرون به فيكسبون كل شيء ، أو يخسرون كل شيء، تبعاً لدورة عجلته. ولكن عليك أن تترك تلك الأرباح لأنها غير مشروعة، وأن تتعامل بالسبب والنتيجة فهما قاضيا الرب. اعمل وتملك بالإرادة، فتكون قد قيدت عجلة الحظ، وسوف تمكث من الآن فصاعداً بمعزل عن الخوف من دورانها. إن انتصاراً سياسياً، أو ارتفاعاً في الإيجارات، أو شفاء لمريض لك، أو عودة لصديق غائب ترفع معنوياتك، فتعتقد أن الأيام الطيبة مقبلة عليك. لا تصدق ذلك. لا شيء يمنح نفسك السلام سواك. لا شيء يمنحك السلام مثل انتصار المبادئ.

٣

الثـــواب

الثواب منذ أن كنت طفلاً صبياً أرغب أن أكتب مقالة عن الثواب؛ حيث قد بدا لي وأنا فتي جداً أن الحياة في هذا المجال قد تقدمت على اللاهوت، وأن الناس يعرفون أكثر مما يعلمه الواعظون. كما أن الوثائق التي يمكن استخلاص الموضوع منها قد شغفت لي بتنوعها اللامتناهي، وظلت ماثلة أمامي حتى في نومي لأنها الأدوات التي في أيدينا، والخبز في سلتنا، ومعاملاتنا في الشارع، والحقل والمسكن، التحيات، العلاقات، الديون، والأرصدة، تأثير الشخصية، طبيعة كل البشر وهبتهم. وقد بدا لي أيضاً أن البشر يمكن أن يبصروا منه شعاعاً من القدسية، العمل الراهن لروح هذا العالم، مجرداً من كل أثر للتقاليد، وهكذا يمكن لقلب الإنسان أن يستحم في فيض الحب الأزلي محاوراً ذلك الشيء الذي يعرف أنه كان كذلك دائماً ويجب أن يظل على الدوام، لأنه قائم فعلاً في الحاضر. يضاف إلى ذلك أنه قد بدا أن هذا المبدأ يمكن أن يوضح بصيغ ذات شبه بتلك البداهات البراقة التي تتكشف بها الحقائق لنا أحياناً، فيكون نجمة في ساعات معتمة كثيرة وممرات معوجة في رحلتنا، تضمن لنا أن لا نضل الطريق.

لقد تأكدت مؤخراً من هذه الرغبات عندما كنت أستمع إلى موعظة في الكنيسة. بسط الواعظ، وهو رجل محترم بسبب استقامته، بالطريقة المعهودة مبدأ الدينونة الأخيرة. وقد افترض أن الدينونة لا تقع في هذا العالم؛ وأن الأشرار يلاقون النجاح، وأن الطيبين يعيشون بؤساء، ثم استخلص من العقل ومن الكتاب المقدس الثواب الذي سيناله الطرفان في الحياة التالية. ولم يبد أن المستمعين قد تضايقوا من هذا المبدأ. وبقدر ما استطعت ملاحظته، فإن الجمع قد تفرق بدون أي تعليق على الموعظة.

ولكن ما هي فائدة هذا التعليم؟ ما الذي قصده الواعظ بقوله إن الطيبين بؤساء في الحياة الراهنة؟ هل عنى أن المنازل، والأراضي، والمناصب، والخمر، والجياد، والملابس، والترف من نصيب أشخاص غير مبدئيين، في حين أن القديسين فقراء ومحتقرون؛ وأن

الثواب سيقدم لهؤلاء فيما بعد، بأن تقدم لهم مكافآت مشابهة في أيام أخرى ـ أرصدة في البنوك عملات ذهبية، لحم غزال وشمبانيا؟ لا بد أن هذا هو الثواب المقصود؛ وإلا فماذا يكون سواه؟ هل هو حصولهم على فرصة للصلاة والحمد، وحب الناس وخدمتهم؟ إنهم يستطيعون أ ن يفعلوا ذلك الآن. إن الاستنتاج المشروع الذي يمكن أن يستخلص من هذا المبدأ هو «سيكون لنا وقت طيب كالذي يستمتع به الخطاة الآن» ـ أو، أنه في أقصى حدوده يمكن أن يكون «اخطأ الآن، سوف نرتكب الخطيئة بين حين وآخر، وقد كان بودنا أن نرتكب الخطيئة الآن لو كان ذلك بمقدورنا؛ وبما أننا لم ننجح فنحن بانتظار ثأرنا غداً».

إن الخطأ يكمن في الإقرار المهول بأن الأشرار ناجحون؛ وأن العدل غير مطبق الآن. إن عمى الواعظ يتمثل في إحتكامه إلى تقديرات السوق الوضيعة لما يعتبر نجاحاً لائقاً بدلاً من مواجهة العالم بالحقيقة واقناعه بها، بإعلان وجود الروح، القدرة الكلية للإرادة، ومن ثم وضع معيار الطيب والرديء، ومعيار النجاح والباطل.

أجد نبرة وضيعة مماثلة في الأعمال الدينية الشائعة اليوم والمبادئ نفسها التي يعتنقها رجال الأدب عندما يتعرض أحياناً لمواضيع من هذا القبيل. أعتقد أن لاهوتنا الشائع قد تقدم في المظهر، لا في المبدأ،. على الخرافات التي أزاحها لكن الناس أفضل من لاهوتهم. وحياتهم اليومية تكذبه. إن كل روح طموحة ومبتكرة تخلف وراءها في تجربتها المذهب، ويشعر كل الناس أحياناً بالبطلان الذي لا يستطيعون التعبير عنه. لأن الناس أكثر حكمة مما يسحبون أنفسهم. إن ما يسمعونه من المدارس ومن على المنابر دون أن يعيدوا النظر فيه، كان سيخضع لاستجوابهم الصامت لو أنه كان قد قيل في مجال المحادثة. فلو أن رجلاً أطلق ضمن صحبة متنوعة أحكاماً دوغماتية بشأن القدر والقوانين الألهية، لكان الرد عليه صمتاً يعبر للراصد عن عدم ارتياح المستمع، وعدم قدرته على تبيان رأيه.

سأحاول في هذا الفصل الذي يليه أن أسجل بعض الحقائق التي تؤشر مسار قانون الثواب ـ وسوف تتجاوز سعادتي كل توقعاتي إذا استطعت فعلاً أن أرسم أي قوس في هذه الدائرة.

إن الاستقطاب، أو الفعل ورد الفعل، بطالعنا في كل وجه من وجوه الطبيعة، في الظلمة والنور؛ في الحرارة والبرد؛ في المد والجزر، في الذكر والأنثى، في خلق النباتات

الحيوانات وزوالها؛ في تعادل الكمية والنوعية في سوائل الجسم الحيواني، في انقباض القلب وانبساطه؛ في موجات السوائل والصوت؛ في الجاذبية المركزية والطاردة عن المركز؛ في الكهربائية، والغلونة، والإنجذاب الكيماوي. أدخل المغناطيسية إلى أحد طرفي الإبرة، وسوف يكتسب الطرف الآخر المغناطيسية المعاكسة. فإن جذب الجنوب، طرد الشمال. ومن أجل أن تفرغ هنا، عليك أن تكثف هناك. هناك ثنائية حتمية تقسم الطبيعة، بحيث يكون كل شيء نصفاً، بوحي إلى شيء آخر أن يجعله كلا، مثل، الروح، المادة: الرجل، المرأة: الفردي: الزوجي: الذاتي: الموضوعي: الداخل، الخارج، فوق، تحت: في الحركة، السكون: نعم، لا.

وبما أن العالم ثنائي على هذا النحو، فإن كل جزء من أجزائه كذلك. إن النظام الكلي للأشياء يتمثل في كل جزئي. إن هنالك ما يماثل مد البحر وجزره، والليل والنهار، والرجل والمرأة، في الشوكة الواحدة من الشجرة الصنوبرية، وفي سنبلة القمح، وفي كل فرد من العائلة الحيوانية. ويتكرر رد الفعل، الذي يكون عظيماً في العناصر، ضمن هذه الحدود الصغرى. في المملكة الحيوانية، مثلاً، يلاحظ عالم الطبيعة عدم وجود مخلوقات مفضلة، بل أن هناك تعويضاً معيناً يوازن كل مزية وكل نقص. فالفائض الذي يعطى لجزء يسدد ثمنه من إنقاص في جزء آخر من المخلوق نفسه. فإذا زاد حجم الرأس والرقبة، نقص حجم الجذع والأطراف.

تقدم نظرية القوى الميكانيكة مثالاً آخر. فما نكسبه على سبيل القدرة نخسره في الزمن، والعكس صحيح. كما نجد مثالاً آخر في الأخطاء الدورية أو التعويضية التي تحدث في الكواكب. ومثال آخر في تأثير الطقس والتربة على التاريخ السياسي. فالطقس البارد ينشط. والتربة القاحلة لا تسمح بنمو الحمى، أو التماسيح، أو النمور، أو العقارب.

تكمن الثنائية نفسها في طبيعة الإنسان ووضعه. كل إفراط يسبب نقصاً، كل نقص يسبب إفراطاً. في كل حلو مرارته، ولكل شر حسناته. كل عضو يستقبل اللذة يحمل عقاباً مساوياً مفروضاً على إساءة استخدامه. فهو يدفع حياته ثمناً لعدم اعتداله. ومقابل كل ذرة نباهة توجد ذرة حماقة. ومقابل كل شيء فإنك تكسب شيئاً آخر، مقابل كل شيء كسبته، تفقد شيئاً. فإذا ازداد الغنى، زاد عدد اللذين يستهلكونه. فإذا حصل المحصل على الكثير، أخذت الطبيعة من الإنسان ما وضعته في صدره - تزيد في

العقار، وتقتل المالك. الطبيعة تكره الاحتكارات والاستثناءات. واختلافات الظروف تسعى إلى تسوية نفسها بنفس السرعة التي تسعى بها موجات البحر إلى النزول عن ارتفاعها والإستواء عند حدها. هناك دائماً وضع للتسوية يخفض المتعالي، والقوي، والغني، والمحظوظ ويضعه على نفس مستوى الآخرين. فلو أن شخصاً كان أقوى وأعنف من أن يتحمله المجتمع، وكان بطبعه وموقعه مواطناً سيئاً، وكان متوحشاً نكد المزاج، يحمل مسحة من القرصان في ذاته، فإن الطبيعة ترسل له فريقاً من الأبناء والبنات حسني الشكل يحرزون نجاحاً في مدرسة القرية فيلطف حبهم والخوف عليهم تجهمه العابس ويحوله إلى رقة. كذلك تسعى الطبيعة إلى تذليل الجرانيت والحجر، وتأخذ الخنزير البري وتضع الحمل، وتحافظ على صدق توازنها.

يتصور الفلاح أن القوة والمكانة أمران طيبان. لكن الرئيس يدفع ثمناً غالياً من أجل دخول البيت الأبيض. فقد كلفه ذلك كل سلامه، وأفضل ما لديه من خصال لائقة. فمن أجل إدامة هذا المظهر البارز لفترة قصيرة، يرضى بأن يأكل التراب أمام السادة الحقيقيين الذين يقفون مشدودي القامة خلف عرشه. أم ترى الناس يرغبون بعظمة العبقرية الأبقى والأهم؟ حتى هذه العظمة لا تتمتع بالحصانة. إن ذلك الذي يصبح عظيماً بقوة الإرادة أو الفكر ويتجاهل الألوف يدفع ثمن هذا السمو. فمع انعكاسة كل ضوء يأتيه خطر جديد. هل أن لديه نوراً؟ عليه أن يشهد على النور، وأن يسبق على الدوام ذلك الميل الذي يمنحه هذا الاستمتاع الحقيقي، عن طريق إخلاصه لتجليات جديدة للروح المتواصلة. عليه أن يكره الأب والأم، والزوجة والولد. ألديه كل ما يحبه العالم ويعجب به ويتمناه؟ إن عليه أن يطرح خلفه إعجابهم، ويوجعهم بإخلاص لحقيقته، ويتحول إلى كلمة عابرة وفحيح.

يكتب هذا القانون سائر قوانين المدن والأمم. ومن العبث معارضته أو الوقوف بوجهه أو العمل ضده. فالأشياء ترفض أن تساء إدارتها طويلاً. على الرغم من أنه لا يبدو أن هناك ما يحد من الشرور الجديدة، فإن المحددات موجودة، ولسوف تظهر. فإن كانت الحكومة قاسية، فإن حياة الحكومة ليست في مأمن. إذا رفعت الضريبة كثيراً، فإن العوائد لن تدر شيئاً. وإذا جعلت القانون الجنائي دموياً، فإن المحلفين سيكفون عن الإدانة وإذا كان القانون شديد التساهل، فإن الثأر الشخصي يظهر. إذا كانت الحكومة ديمقراطية رديئة، فإن الضغط يقاوم بشحنة إضافية من الطاقة لدى المواطن، وتتوهج

الحياة بشعلة أعنف. يبدو أن متع الإنسان وحياته الحقيقية تمتنع على الظروف بصعبها وسهلها، وترسخ نفسها بلا مبالاة عظيمة تحت جميع متقلبات الأحوال. إن تأثير الشخصية يظل هو نفسه تحت جميع الحكومات - في تركيا كما في نيوانجلاند. يعترف التاريخ صراحة بأن الإنسان تحت طغاة مصر الأوائل كان حراً بقدر ما استطاعت الثقافة أن تجعله كذلك.

تشير هذه المظاهر إلى حقيقة أن الكون يتمثل في كل جزء من أجزائه. كل شيء من الطبيعة يحوي كل قوى الطبيعة. وكل شيء مصنوع من مادة خفية واحدة - تماماً كما أن عالم الطبيعة يرى نوعاً واحداً في جميع حالات الاستحالة، ويعتبر الحصان إنساناً راكضاً، والسمكة إنساناً سابحاً، والطير إنساناً طائراً، والشجرة إنساناً متجذراً. يكرر كل شكل جديد ليس السمة الرئيسية للنوع، إنما كل التفاصيل جزءاً بجزء، وكل الغايات، التحسينات، الإعاقات، الطاقات، وكل نظام آخر. كل مهنة، تجارة، ومعاملة هي خلاصة للعالم، وذات علاقة متبادلة مع بعضها البعض. وكل واحدة منها عبارة عن رمز كامل للحياة الإنسانية، بمحاسنها ومساوئها، امتحاناتها، أعدائها، مسارها ونهايتها. وعلى كل واحدة منها أن تحتوي بشكل ما على الإنسان بكامله وأن تسرد كل مصيره.

يكور العالم نفسه في قطرة الندى. ليس بوسع المجاهر أن تعثر على الحيوان الميكروسكوبي الذي يجعله صغر حجمه أقل كمالاً. فالعيون، والآذان، والذوق، والشم، والحركة، والمقاومة، والشهية، وأعضاء التكاثر التي تمسك بزمام الأبدية تجد جميعاً متسعاً للتواجد في الكائن الصغير. إننا نضع حياتنا في كل فعل بالطريقة نفسها. إن مذهب الوجود الكلي على حقيقته هو أن الله يظهر بكل أجزائه في كل طحلبة أو نسيج عنكبوت. إن قيمة الكون تعمل من أجل إلقاء نفسها في كل نقطة. فإن كان الخير موجوداً، فإن الشر كذلك، وإذا وجد التآلف وجد النفور؛ وإذا وجدت القوة، فإن القصور موجوداً أيضاً.

وهكذا يكون الكون حياً. كل الأشياء أخلاقية. تلك الروح التي تكون في داخلها إحساساً، تكون في خارجنا قانوناً. إننا نحس، بإيحائها، وفي التاريخ نستطيع أن نشهد قوتها المصيرية «إنها في العالم، والعالم قد صنع من قبلها». العدالة لا تؤجل. هناك مساواة كاملة تضبط ميزانها في جميع أجزاء الحياة. ونرد الله موجه دائماً.

العالم يبدو مثل جدول الضرب، أو معادلة رياضية، تعادل نفسها كيفما قلبتها. خذ أي رقم تشاء، قيمته بالضبط، لا أكثر ولا أقل، تظل تعود إليك. كل سر معلن، كل جريمة تنال عقابها، كل فضيلة تحصل على مكافأتها، كل خطأ يقوم بصمت وباليقين. إن ما ندعوه قصاصاً هو الضرورة الكونية التي بموجبها يظهر الكل كلما ظهر الجزء. فإن رأيت دخاناً، توجب أن تكون هناك نار. وإذا رأيت يداً أو طرفاً، فإنك تعلم أن الجذع الذي تنتمي إليه موجود هناك.

كل عمل يكافيء نفسه، أو أنه ـ بكلمة أخرى ـ يكمل نفسه بطريقة ثنائية؛ أولاً في الشيء، أو الطبيعة الحقيقية؛ وثانياً في الظروف، أو الطبيعة الظاهرة. يدعو الناس الظرف قصاصاً. إن القصاص السببي موجود في الشيء وتراه الروح. يرى الفهم القصاص في الظرف؛ وهو غير قابل للإنفصال عن الشيء، إنما هو ممتد على زمان طويل بحيث لا يمكن تمييزه إلا بعد سنوات عديدة. قد تأتي الجلدات المحددة في وقت متأخر عن وقت وقوع الإساءة، لكنها تأتي لأنها ترافقها. إن الجريمة والعقاب ينبثقان عن الغصن نفسه. فالعقاب ثمرة تنضج، غير منظورة، داخل زهرة اللذة التي تخفيه. السبب والنتيجة، الوسيلة والغاية، البذرة والثمرة لا يمكن الفصل بينها؛ لأن النتيجة تزهر في السبب، والغاية موجودة سلفاً في الوسيلة، والثمرة في البذرة.

في الوقت الذي ينحو العالم فيه إلى أن يكون كلاً ويرفض التقطيع، فإننا نسعى إلى أن نتصرف بفردية، وأن نفرق، ونخصص، فنحن، مثلاً نفصل متعة الحواس عن حاجات الشخصية. إن براعة الإنسان قد كرست دائماً لحل مشكلة واحدة – هي كيف نفصل ما هو عذب حسياً، وقوي حسياً، ولامع حسياً..إلخ عما هو عذب معنوياً، يقطع هذا السطح الأعلى في شريحة رقيقة تتركه بدون قاعدة؛ أن يحصل على طرف واحد، دون الآخر. تقول الروح؛ «كل» فيأكل الجسم. تقول الروح، «ينبغي أن يكون الرجل والمرأة جسداً واحداً وروحاً واحدة» يربط الجسم الجسد وحده. تقول الروح، «لتكن لك الهيمنة على الأشياء جميعاً خدمة للفضيلة، فيفرض الجسم السيطرة على الأشياء جميعاً لمصلحته الخاصة.

تكافح الروح من أجل ان تحيا وتعمل من خلال الأشياء جميعاً. تريد أن تكون الحقيقة الوحيدة. وعلى كل الأشياء أن تضاف إليها ـ السلطة، واللذة، والمعرفة، والجمال. الرجل المحدد يسعى إلى أن يكون شخصاً ذا شأن؛ أن يؤسس لنفسه؛ أن

يقايض ويساوم من أجل منفعة خاصة. وحين يتعلق الأمر بالتفاصيل، فإنه يريد أن يركب من أجل أن يركب؛ أن يلبس لكي يلبس؛ وأن يأكل لكي يأكل؛ وأن يحكم لكي يُرى. يسعى البشر من أجل أن يكونوا عظماء؛ وأن تكون لديه مكانة، وثروة، أو سلطة، وشهرة. وهم يعتقدون أن العظمة هي أن يمتلكوا جانباً واحداً من الطبيعة الجانب الحلو، بدون الجانب الآخر، المر. إن هذا التقسيم والإبعاد يجري بانتظام. ينبغي أن يُعترف بأن متطلعاً واحداً لم يحقق أدنى نجاح لحد اليوم. فالماء الذي نفصله يعود فيتحدَ من وراء أيدينا. تنتزع المتعة من الأشياء الممتعة، والنفع من الأشياء النافعة، والقوة من الأشياء القوية بمجرد أن نسعى إلى فصلها عن الكل. بوسعنا شطر الأشياء والحصول على الفائدة الحسية، بحد ذاتها، لأنه ليس بوسعنا الحصول على داخل لا خارج له، أو ضوء لا ظل له. «اطرد الطبيعة بمذارة، وسوف تعود راكضة.»

الحياة تغلف نفسها بحالات محتومة، يسعى عديم الحكمة إلى تفاديها، ويتبجح البعض بأنه لا يعرف، وأنها لا تمسه، لكن التبجح ظاهر على شفتيه، وتلك الحالات في روحه. فإذا هرب منها في جزء أصابته في جزء آخر أكثر حيوية. وإذا هرب منها في الشكل والمظهر، فلأنه قد انكر حياته وهرب من نفسه، وليس القصاص سوى الموت. إن فشل كل محاولات تحقيق هذا الفصل بين الطيب والثمن بيّن جداً إلى الحد الذي يمنع القيام بالتجربة ـ ما دامت المحاولة هي الجنون ـ ولكن عندما يدب مرض الثمر والتفريق في الإرادة، فإن العدوى تنتقل إلى البصيرة، فكيف الإنسان عن رؤية الرب في كمال كل مادة من المواد، ويصبح قادراً على رؤية الفتنة الحسية في الشيء دون رؤية الأذى الحسي. إنه يرى رأس الحورية ولا يرى ذنب التنين، ويحسب أن بوسعه أن يقتطع ما يريد مما لا يريد. «ما أخفاك يا من تسكن في صمت في السماوات العليا، أنت أيها الإله الواحد العظيم، وأنت تنثر بقضاء لا يعرف الكلل شيئاً من العمى العقابي على أصحاب الرغبات الجامحة.» (القديس أوغسطين في «اعترافات»).

تقر الروح الإنسانية بهذه الحقائق في رسمها للخرافة، والتاريخ، والقانون، والأمثال، والمحادثة. هي تجد في الأدب لساناً عفوياً.

ومن هنا أطلق الإغريق لقب العقل الأسمى على جوبيتر؛ لكنهم وقد نسبوا إليه تقليدياً العديد من الأفعال الخسيسة، قد اعتذروا للمنطق دون وعي منهم عن طريق تقييد يد ذلك الإله السيء. لقد جعلوه عديم الحيلة مثل ملك انجلترا. فبرومثيوس يعرض

سراً على جوبيتر أن يساومه عليه، ومنيرڤا تعرف سراً آخر. وهو غير قادر على الحصول على رعوده، لأن منيرڤا تحتفظ بمفاتيحها:

من بين جميع الآلهة، أعرف وحدي المفاتيح التي
تفتتح الأبواب الصم التي داخل أقبيتها
تغفو رعوده.

اعتراف صريح بتدابير الكلي وغرضه الأخلاقي. تصل الميثولوجيا الهندية إلى العبرة نفسها؛ ويبدو من المحال على أية خرافة أن تخترع ويكون لها أي رصيد بدون أن تكون أخلاقية. نسيت أورورا أن تطلب الشباب لحبيبها، فيشيخ تيثونوس رغم أنه قد أصبح خالداً. وأخيل ليس منيعاً تماماً؛ فالمياه المقدسة لم تغسل عقبه الذي أمسكته منه تيش. ولم يكن سيغفريد، في النيبيلونجين، خالداً تماماً، لأن ورقة شجر سقطت على ظهره عندما كان يستحم في دماء التنين، وتلك البقعة غطتها ظلت فانية.

وهكذا ينبغي للأمر أن يكون. هناك شرخ في كل ما صنعه اللّه. يبدو أن ظرف الإدانة هذا قائم دائماً وهو يتسلل خلسة إلى كل شيء حتى إلى الأشعار الفجة التي سعت المخيلة الإنسانية فيها إلى الخروج في عطلة جريئة وإلى أن تنفض عن نفسها قيود القوانين القديمة ـ هذه الضربة الخلفية، هذه الرمية للبندقية، تؤكد أن القانون قدر؛ ففي الطبيعة ما من شيء يعطى، كل شيء مباعة.

إنه مبدأ نيمسيس العريق؛ وهو يديم رقابته على الكون ولا يدع إساءة تمردون عقاب. يقولون أن آلهة الغضب رقيبة العدالة، حتى الشمس في السماء إن تجاوزت مسارها فإنها تعاقبها. يروي الشعراء أن جدران الحجر وسيوف الحديد وسياط الجلد تحمل تعاطفاً خفياً مع أخطاء أصحابها؛ وأن الحزام الذي أعطاه أجاكس لهيكتور جرجر البطل الطراودي عبر الحقل مربوطاً بعجلة عربة أخيل، وأن السيف الذي أعطاه هيكتور لأجاكس كان السيف الذي أردى أجاكس. ويقولون أن الثايزيين عندما أقاموا تمثالاً لثياجينيس، المنتصر في الألعاب، توجه إليه أحد منافسيه ليلاً وحاول أن يسقطه بالضربات المتتالية، حتى زحزحه عن قاعدته وانسحق ميتاً تحته حين سقط عليه.

في صوت الخرافة هذا الشيء إلهي. وهو ينبثق من فكرة فوق إرادة الكاتب. إنه الجانب الأفضل من كل كاتب الذي لا يوجد منه شيء خصوصي؛ والذي لا يعرفه هو نفسه؛ والذي يصدر عن تكوينه لا عن ابتكاره النشيط، والذي لا تعثر عليه بسهولة من

خلال دراسة فنان واحد، إنما من خلال دراسة الكثيرين الذين يمثلون في المطلق روح الجميع. ما يصل إلى معرفتي ليس فيدياس، بل عمل الإنسان في ذلك العالم الهيليني المبكر. إن اسم وظرف فيدياس، مهما كان مناسباً للتاريخ ، فإنه يصبح مربكاً عندما نأتي إلى النقد الرفيع. فنحن نحيط بما كان الإنسان يميل إلى تحقيقه في فترة معينة، وبما كان يمنعه، أو يحدد فعله، إن شئت، من خلال اختيارات فيدياس، ودانتي، وشكسبير المتداخلة، فهم الأدوات التي كان الإنسان يعمل بها في تلك اللحظة.

الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو التعبير عن هذه الحقيقة في أمثال جميع الشعوب، التي تعتبر أدب العقل، أو بيانات حقيقة مطلقة ترد دون مؤهلات. فالأمثال، مثل الكتب المقدسة لكل أمة، هي محاريب الفطرة. إن ما لا يسمح العالم الرتيب، المقيد بالمظاهر، بقوله من قبل الشخص الواقعي بكلماته الخاصة، يتيح له أن يقوله بالأمثال بدون تناقض. إن قانون القوانين هذا، الذي ينكره الواعظ، وعضو مجلس الشيوخ، والكلية، يوعظ به كل ساعة في جميع الأسواق والورشات عن طريق مجاميع الأمثال التي لا تقل تعاليمها صدقاً أو انتشاراً عن تعاليم الطيور والذباب.

كل الأشياء مزدوجة، الواحد ضد الآخر... العين بالعين؛ السوء بالسوء؛ الدم بالدم؛ الخطوة بالخطوة، الحب بالحب... أعطِ وسوف تُعطى... إن الذي يسقي سوف يُسقى...ما الذي تريد أن تحصل عليه؟ يقول الرب: إدفع ثمنه وخذه..لا شيء يُقدم...لا شيء يؤخذ... سوف يدفع لك عما فعلته بالضبط، لا أكثر، لا أقل... من لا يعمل لا يأكل...ابذر الأذى، يصيبك الأذى...اللعنات تنصب دائماً على رأس الذي يستنزلها...إذا وضعت سلسلة في رقبة عبد، فإن طرفها الآخر يلتف حول عنقك...النصيحة السيئة تؤذي الناصح...الشيطان حمار.

كُتب كذلك، لأنه يقع في الحياة على هذا النحو. إن أفعالنا تحدد وتوجه من فوق إرادتنا من قبل قانون الطبيعة. إننا نسعى إلى غرض ضئيل خارج الصالح العام، لكن فعلنا، بجذب لايقاوم، يرتب نفسه على استقامة أقطاب العالم.

لا يمكن للإنسان أن يتكلم دون أن يحكم على نفسه. فهو يرسم، عامداً أو غافلاً، صورته أمام رفاقه في كل كلمة يقولها. إن كل رأي يعكس قائله. إنه مثل كرة مربوطة بخيط ترمى باتجاه علامة ما، لكن الطرف الآخر يظل في حقيبة الرامي. أو أنه،

بالأحرى، مثل حربة توجه إلى حوت فتلف وهي طائرة، لفة الحبل على الزورق، فإن لم تكن الحربة جيدة، أو أن الرامي لم يحسن رمايتها، فإنها تقطع الشخص الذي يدير الدفة إلى نصفين أو تغرق المركب.

لا يمكنك أن تفعل السوء دون أن تصاب بسوء. يقول بيرك؛ «ما من رجل كان له وجه كبرياء دون أن يؤذيه.» إن المتكبر في الحياة الراقية لا يرى أنه يستثني نفسه من المتعة، في محاولته للحصول عليها. والمتكبر في الديانة لا يرى أنه يغلق أبواب السماء أمامه في سعيه من أجل إبعاد الآخرين عنها. عامل الناس كما لو كانوا بيادق أو أحجاراً وسوف تعاني مما يعانونه. فإذا تجاهلت قلوبهم، فإنك ستفقد قلبك. إن الحواس تحول كل الأشخاص إلى أشياء؛ النساء، والأطفال، والفقراء. إن المثل العامي «سوف أسحبه من محفظته أو من جلده» يمثل فلسفة سليمة.

كل انتهاك للحب والمساواة في علاقتنا الاجتماعية يعاقب بسرعة. إنه يعاقب بالخوف. فأنا لا أتضايق من ملاقاة أمثالي من الناس، ما دمت على علاقة بسيطة معهم. فنحن نلتقي كما يلتقي الماء بالماء، أو كما يختلط تياران من الهواء، في تغلغل كامل وتخلخل في الطبيعة. ولكن ما أن يكون هناك أي انحراف عن البساطة وسعي إلى التقسيم، أو الإعتقاد بأن شيئاً ما يصلح لي ولا يصلح له، فإن جاري يشعر بالإساءة أنه ينكمش عني مادمت أنكمش عنه؛ ولا تعود عيناه تبحثان عن عيني؛ هنالك حرب بيننا؛ هنالك كراهية لديه وخوف لدي.

كل الإساءات القديمة في المجتمع، عامة، وخاصة، التجميع غير العادل للملكية والسلطة، يجازى عليها بالطريقة نفسها. فالخوف معلم عظيم الحصافة، وهو بشير كل الثورات.إنه يؤكد شيئاً واحداً: فحيثما يظهر يكون هنالك فساد. إنه غراب بين، وأنت لا تعرف أن هنالك موت في مكان ما رغم أنك لا ترى الشيء الذي يحوم حوله. إن ملكيتنا جبانة، وقوانينا جبانة، والطبقات التي حددناها جبانة. على مدى عصور والخوف يصدر ثرثرته وإنذاراته ونبؤاته بحق الحكومة والملكية. إن ذلك الطائر البذيء لا يتواجد بدون مبرر. إنه يشير إلى إساءات كبرى تنبغي مراجعتها.

ومن الطينة نفسها يكون ذلك التوقع للتغيير الذي يعقب على الفور تعليق نشاطنا التلقائي. فالخوف من الظهيرة الصاحية، ومن زمردة بوليكراتيس، وخشية الثراء، الغريزة التي تقود وكل نفس كريمة إلى ان تفرض على نفسها مشقات الزهد النبيل

والفضيلة الفادية هي ارتعاشات ميزان العدالة عبر قلب الإنسان وعقله.

إن الأشخاص المجربين في العالم يعرفون جيداً أن من الأفضل تأدية الضريبة في أوانها، وأن الإنسان غالباً ما يدفع ثمناً باهظاً لتوافه صغيرة. إن الدائن يتورط في دينه. هل يمكن للشخص الذي تلقى مئة معروف ولم يسد شيئاً أن يكون قد كسب شيئاً؟ هل تراه قد احتان، من خلال الاستئثار أو المكر، ما استعاره من آنية جاره، أو خيوله، أو نقوده؛ إن الفعلة تحمل الإقرار الفوري بالانتفاع في طرف والدين في الطرف الآخر؛ أي بالتفوق والدونية. تظل المبادلة قائمة في ذاكرته وذاكرة جاره، وتغير كل مبادلة جديدة تبعاً لطبيعتها علاقتهما ببعضهما البعض. وقد يدرك سريعاً أنه كان من الأفضل له لو أنه كسر عظامه بدلاً من الركوب في عربة جاره، وأن «أعلى ثمن يمكن أن يدفعه لشيء ما هو أن يطلبه.»

إن الشخص الحكيم يسحب هذا الدرس على جميع نواحي الحياة، ويعلم أن من وجوه الحكمة أن تواجه كل مُطالب وتسدد كل طلب عادل من وقتك، أو قدراتك، أو قلبك. إدفع دائماً؛ لأنك لا بد مسدد دينك كله عاجلاً أم آجلاً. قد يحول الأشخاص أو الأحداث لبعض الوقت بينك وبين العدالة، لكن ذلك ليس سوى تأجيل. ففي النهاية يجب أن تدفع دينك. لو كنت حكيماً لذعرت من ثراء يثقلك بالمزيد. الإنتفاع غاية الطبيعة. ولكن مقابل كل منفعة تتلقاها، هناك ضريبة تستحصل. عظيم هو الشخص الذي يمنح أغلب المنافع. ووضيع هو - وذلك هو الشيء الوضيع حقاً في الكون - الشخص الذي يتلقى الحسنات ولا يقدم منها شيئاً. ضمن نظام الطبيعة، لا نكون قادرين على تقديم المنافع لأولئك الذين تلقيناها منهم، أو أن ذلك نادراً ما يحدث. لكن المنفعة التي تلقيناها ينبغي أن تقدم ثانية، سطراً بسطر، وفعلاً بفعل، وسنتاً بسنت، إلى شخص ما. حاذر الكثير من الطيبات الماكثة في يدك. فهي سوف تفسد سريعاً وتنمي الديدان. اصرفها بسرعة وبطريقة ما.

القوانين القاسية نفسها ترصد العمل. يقول الحكيم أن العمل الغالي هو الأرخص. إن ما نشتريه في المكنسة، الحصيرة، السكين هو نوع من تحويل الفهم إلى خدمة حاجة عادية. من الأفضل أن تستأجر لأرضك بستانياً ماهراً، أو أن تشتري الفهم موظفاً في البستنة، وفي البحار الذكي تستخدمه، الفهم موظفاً في الملاحة، وفي البيت، الفهم موظفاً في الطهي، الخياطة الخدمة؛ ولدى وكيلك، الفهم موظفاً في الحسابات

والأعمال. وهكذا تضاعف وجودك، أو تنشر نفسك على امتداد عقارك ولكن بسبب النظام المزدوج للأشياء، فإن الغش لا يمكن أن يوجد في العمل كما في الحياة. فاللص يسرق نفسه. والمحتال يحتال على نفسه. لأن الثمن الحقيقي للعمل هو المعرفة والفضيلة، في حين تكون الثروة والإمتياز علامات. هذه العلامات، كما هو الحال بالنسبة للعملة الورقية، يمكن أن تزيف أو تسرق، لكن ما تمثله، وهو المعرفة والفضيلة، لا يمكن أن يزيف أو يسرق. غايات العمل هذه لايمكن أن تستجاب إلا بالمجهودات الذهنية الحقيقية، وبإطاعة الدوافع النقية.إن الغشاش، أو المختلس، أو المقامر لا يستطيع أن يغتصب المعرفة ذات الطبيعة المادية والمعنوية التي يقدمها مجهوده واهتمامه للعملية. إن قانون الطبيعة هو: قم بالشيء، وسوف تأتيك القوة، لكن أولئك الذين لا يقومون بالأشياء لا يحصلون على القوة.

إن العمل الإنساني، من خلال صيغة كلها، اعتباراً من شحذ الوتد إلى تشييد مدينة أو ملحمة، هو تأكيد ضخم على ثواب الكون الكامل. إن الموازنة المطلقة بين خذ وأعطِ، ومبدأ أن لكل شيء ثمنه ـ ومالم يدفع الثمن، فإن ما يحصل عليه المرء لن يكون ذلك الشيء بل شيء آخر، وأن من المستحيل الحصول على أي شيء دون دفع ثمنه ـ يتجلى دفاتر الحسابات كما في ميزانيات الدول، في قوانين الضوء والظلام، في كل أفعال الطبيعة وردود أفعالها. لا أستطيع أن أشك في أن القوانين العليا التي يراها كل إنسان مضمنة في كل ما يواجهه خلال تعامله، القوانين الأخلاقية الرصينة التي تقدح في حافة إزميله، والتي تقاس بأدواته، والتي تبدو ظاهرة في قائمة حساب الدكان كما تبدو ظاهرة في تاريخ دولة ـ هي التي تحدد له مهنته، وهي التي تسمو بعمله إلى مخيلته.

إن الرابطة بين الفضيلة والطبيعة تحمل كل الأشياء على اتخاذ موقف معاد للرذيلة. إن قوانين العالم الجميلة ومواده تدين الخائن وتجلده. فهو يجد أن الأشياء معدة للحقيقة والنفع، وأن العالم الواسع لا يوفر وكراً يختبئ فيه الوغد. ارتكب جريمة، وستجد أن الأرض مصنوعة من زجاج. ارتكب جريمة، وسيبدو كما لو أن معطفاً من الثلج قد سقط على الأرض، مثل ذلك الذي ينم في الغابات عن أثر كل حجلة وثعلب وسنجاب وخلد. وليس بمقدورك أن تسترجع الكلمة التي قيلت، ليس بوسعك أن تمحو أثر القدم، وليس باستطاعتك أن تسحب السلم من أجل أن لا تترك منفذاً أو دليلاً.

هناك دائماً ظرف لعين يشي بك. إن قوانين الطبيعة ومادتها - الماء، الثلج، الريح، الجاذبية - تتحول إلى عقوبات ضد اللص.

في الجانب الآخر، نجد أن القانون ينطبق بالتأكيد نفسه على كل فعل صحيح. أحب، وسوف تُحَب. كل الحب صحيح حسابياً تماماً مثل طرفي المعادلة الجبرية. في الرجل الخيِّر خير مطلق، يحول مثل النار كل شيء إلى طبيعته هو، لذلك لا نستطيع أن نلحق به أي أذى؛ ولكن كما حدث للجيوش الملكية التي سيرت ضد نابليون حين ألقت عند مقدمة أعلامها وتحولت من أعداء إلى أصدقاء، فإن البلايا من كل نوع كالمرض، والإساءة، والفقر تتحول إلى مصادر للخير

الرياح تنفخ والمياه تسوق
القوة للشجاع والسلطة والأرباب،
إلا أنها في حد ذاتها لا تشكل شيئاً.

إن الخير يصادق حتى الضعف والنقص. فكما أنه لايوجد إنسان متكبر لا يتحول موضع كبريائه إلى مصدر للأذى بالنسبة له، كذلك لايوجد إنسان يعاني من نقص لم يصبح بشكل ما مفيداً له. الوعل في الخرافة يعجب بقرنيه ويلوم أرجله، ولكن عندما جاء الصياد فإن أرجله هي التي أنقذته، ثم عندما علق فيما بعد في أحد الأحراش فإن قرونه هي التي أهلكته. كل انسان يحتاج إلى أن يمتن لهفواته أثناء حياته. وكما أن ما من إنسان يتفهم جيداً حقيقة ما إذا لم يحاجج ضدها، فإن ما من إنسان يحصل على دراية تامة بمعوقات البشر أو مواهبهم مالم يعان من الأولى ويجرب انتصار الثانية على افتقاره لما يماثلها. فهل يعاني من نقص في الطبع يجعله غير مناسب للحياة وسط المجتمع؟ عندها سيكون مدفوعاً إلى تسلية نفسه وحيداً وتنمية عادة مساعدة نفسه بنفسه، وهكذا، فإنه مثل المحارة الجريحة، سيداوي صدفته باللؤلؤ.

إن قوتنا تنمو من ضعفنا. الحنق الذي يسلح نفسه بقوى سرية لا يستيقظ حتى نوخز أو نلدغ ونهاجم بضراوة الرجل العظيم يكون على الدوام مستعداً لأن يكون صغيراً. إنه يغفو وهو جالس على وسائد الإمتيازات. عندما يزاح، أو يعذب، أو يهزم تتوفر له الفرصة ليتعلم شيئاً؛ إنه يحال إلى ذكائه، إلى رجولته؛ إنه يكسب حقائق؛ يعرف جهله؛ يشفى من خبال الغرور؛ يحصل على التواضع والمهارة الحقيقية. إن

الرجل الحكيم يلقي بنفسه في صف مهاجميه. فاكتشاف نقطة ضعفه أمر في صالحه أكثر مما هو في صالحهم. إن الجرح يبيبس ثم يسقط عنه مثل جلد يابس فيكون قد خرج منيعاً غير مصاب من انتصارهم عليه. إن اللوم آمنُ عاقبة من الإطراء. أكره أن يدافع عني في جريدة، فما دام كل ما يقال ضدي قد قيل، فإني أشعر بنوع من التأكيد على نجاحي. ولكن ما أن تقال بحقي كلمات الإطراء المعسولة، فإني أحس بما يحسه شخص يقف دون حماية أمام أعدائه. بشكل عام، كل شر لا نستسلم له هو مصدر خير. وكما يعتقد ابن جزيرة ساندويتش آيلاند بأن قوة وشجاعة العدو الذي قتله تنتقلان إليه، فإننا نكتسب قوة الإغراء الذي نقاومه.

نفس الحراس الذين يحموننا من الكوارث، والنقص، والعداوة يدافعون عنا، إذا أردنا، ضد الأنانية والزيف. إن المزاليج والأقفال لا تمثل الجانب الأفضل في مؤسساتنا، كما أن الدهاء في التجارة ليس علامة الحكمة. ينفق البشر كل حياتهم تحت تأثير الخرافة الحمقاء التي تقول بأن بالإمكان غشهم. لكن احتمال أن ينغش الإنسان من قبل أي شخص سوى نفسه مستحيل مثل استحالة أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في الوقت نفسه. هناك طرف ثالث صامت في كل صفقاتنا إن طبيعة الأشياء وروحها تتولى ضمانة تنفيذ كل عقد، من أجل أن لا ينتهي العمل المخلص إلى خسارة. إن كنت تخدم سيداً جحوداً، فقدم له المزيد من الخدمة. اجعل اللّه مديناً لك. عندها ستكافأ على كل حركة. وكلما تأخر التسديد، كان ذلك أفضل لك؛ لأن الفائدة المضاعفة عن الفائدة المضاعفة هي النسبة التي يتعامل بها هذا الصراف.

إن تاريخ الاضطهاد هو تاريخ المحاولات التي عمدت إلى غش الطبيعة، إلى جعل الماء يسيل إلى أعلى التل، إلى برم حبل من الرمل. لا فرق أن يكون الذين يحاولون جمهوراً أو فرداً، طاغية أو دهماء. فالدهماء مجتمع من الأجساد يسلب نفسه المنطق عن عمد ويتجاوز أحكامه. الدهماء هم الإنسان ينحدر عامداً إلى طبيعة الوحش. والوقت المناسب لنشاطه هو الليل. أفعالهم غير عاقلة مثل بنيتهم. وهم يضطهدون المبدأ، ويجلدون الحق، ويكسون العدالة بالقار والريش عندما يسلطون النار والغضب على مساكن وأشخاص الذين يحملون هذه الخصال. إن الروح الطاهرة تعيد حقدهم إلى مرتكبي الخطأ. لا يمكن النيل من الشهيد. كل لسعة سوط هي لسان شهرة، كل سجن هو مسكن باذخ، كل كتاب أو منزل بحرف يضيء؛ كل كلمة مكبوتة أو محذوفة تتردد

عبر الأرض من طرف إلى آخر. إن ساعات العقل والتقدير تصل دائماً إلى المجتمعات، كما تصل إلى الأفراد، عندما تبصر الحقيقة وينصف الشهداء.

وهكذا تفصح جميع الأشياء عن اللافرق في الظروف. الإنسان هو الكل في الكل. لكل شيء جانبان، خير وشر لكل مزية ثمنها. أتعلم أن أكون راضياً. لكن مذهب الثواب هو ليس مذهب اللافرق. يقول عديمو الحكمة، حين يسمعون هذا، «ما جدوى فعل الخير؛ فهناك ظرف واحد للخير والشر إذا أردت أن أحصل على شيء طيب عليّ أن أدفع ثمنه؛ وإذا خسرت أي شيء طيب فسوف أحصل على شيء آخر؛ لا فرق بين كل الأفعال.»

ثمة في الروح حقيقة أعمق من الثواب، وهي أن تشهد طبيعتها الخاصة. إن الروح ليست ثواباً، إنما هي حياة الروح هي الروح. تحت بحر الظروف المتماوج، الذي ينتاب المد والجزر مياهه توازن تام، تكمن الهوة الابتدائية للموجود الحقيقي. الجوهر، أو اللّه، ليس علاقة أو جزءاً، إنما هو الكل. الوجود هو المؤكد الأكبر، الذي يستثنى النفي، المتوازن في حد ذاته، والذي يبتلع كل العلاقات، والأجزاء، والأزمنة في داخل نفسه. فالطبيعة، والحقيقة، والفضيلة نطلق عنه. والرذيلة هي غياب أو رحيل ذلك الشيء. اللاشيء، الزيف، يمكن أن يقوم مقام الظل أو الليل العظيم الذي يتخذه الكون الحي خليفة له وهو يرسم نفسه، لكنه لا يستطيع أن ينتج حقيقة، أنه غير فعال، لأنه لا شيء. إنه لا يستطيع أن يأتي بأي خير، ولا أن يأتي بأي أذى. إنه أذى بحد ذاته حيث أنه عدم وجوده أسوأ من وجوده

نشعر بأننا نسلب القصاص الذي تستحقه الأفعال الشريرة، لأن المجرم يتمسك برذيلته وعصيانه ولا يصل إلى أية أزمة أو دينونة في أي مكان من الطبيعة المرئية. إذ لا يوجد أي دحض مفحم لسخفه أمام البشر والملائكة. فَهل تراه تشاطر على القانون؛ فهو منقطع عن الطبيعة ما دام يحمل الخبث والكذب في داخله. ولسوف يكون هناك بطريقة ما إظهار للخطأ أمام الفهم أيضاً، ولكن، ألا نستطيع أن نرى أن هذا الاستقطاع المميت هو الذي يعدل الحساب الأبدي.

من جانب آخر، لا يمكن القول بأن الزيادة في الاستقامة يجب أن تشترى بأية خسارة. ليس هنالك من عقاب للفضيلة، لا عقاب على الحكمة، إنها الإضافة الملائمة

للوجود. أنا موجود بفضل عمل الخير، وبعمل خير أنا أضيف إلى العالم، أنا أزرع في صحارى تنتزع من الفوضى واللاشيء وأرى الظلام يتقهقر عند حدود الأفق. ليس هنالك فائض في الحب، ولا في المعرفة، ولا في الجمال عندما يُفكر بهذه الصفات في صيغتها الأنقى. ترفض الروح الحدود، ودائماً تؤكد التفاؤل، ولا تؤكد النفي مطلقاً.

حياة الروح تقدم، لا محطة. وبداهتها ثقة. تستخدم بداهتنا «أكثر» أو «أقل» قياسياً على الإنسان فيما يتعلق بوجود الروح، وليس بخيابها، فالإنسان الشجاع أعظم من الجبان، والصادق، المحسن، والحكيم هو إنسان أكثر، وليس أقل، من الأحمق والوغد. ليس هنالك دية على حسنة الفضيلة، لأنها تأتي من الله نفسه، أو الوجود المطلق، بدون أي ند. إن للحسنة المادية ثمنها، وهي إذا جاءت بدون استحقاق أو عرق، فإنها لن تتجذر فيّ، ومن شأن هبة الريح التالية أن تقتلعها. لكن كل حسنات الطبيعة حسنات الروح، وهي قابلة للتملك لو أن ثمنها قد دفع بعملة الطبيعة الشرعية، أي بالمجهود الذي يقدمه القلب والرأس لم أعد راغباً في ملاقاة حسنة لم أكسبها، أن أعثر، مثلاً على وعاء مليء بالذهب المدفون، مع معرفتي بأنها تجلب معها أعباءها الجديدة. لا أتمنى المزيد من الخير الخارجي ـ لا ممتلكات، ولا أمجاد، ولا سلطات، ولا أشخاص. المكسب واضح، والثمن مؤكد. ولكن لا يوجد هناك ثمن لعملي بأن الثواب موجود وأن من غير المرغوب فيه أن ننبش الكنوز. ولهذا فأنا أغتبط بسلام أبدي رصين. إني أقلص حدود الشر الممكن. إني اتعلم حكمت القديس برنارد :«لا شيء يلحق بي الأذى سوى نفسي؛ إني أحمل الأذى الذي أعانيه معي، ولن أكون متأذياً حقاً إلا بخطأ من جانبي».

في طبيعة الروح يكمن تعويض عدم التكافؤ في الظروف. يبدو أن مأساة الطبيعة الأصلية هي تمييز الأكثر والأقل. كيف يستطيع الأقل أن يشعر بالألم، كيف لا يشعر بالحنق أو الحقد إزاء الأكثر؟ انظر إلى اولئك الذين يملكون قدرات أقل، فنشعر بالحزن ولا تستطيع أن تعرف ما الذي يمكن أن تستخلصه من وضعهم. إن المرء ليتفادى عيونهم خشية أن يلوموا الله. ماذا عساهم فاعلون؟ يبدو أن هنالك أجحاماً عظيماً في الأمر. لكن عدم التكافؤ الهائل هذا سرعان ما يتلاشى عندما تنظر إلى الأمر عن كثب. إن الحب يمحوه كما تذيب الشمس جبال الجليد في البحر. إن هذه المرارة الناتجة عما لديه ولدي تتلاشى لأن البشر جميعاً قلب واحد وروح واحدة. إنه لي. أنا أخي وأخي وأنا. أشعر بالغلبة والتلاشي إزاء الجيران العظام، مازال بوسعي أن أحب، ما زال

بوسعي أن استقبل، من يحب يجعل العظمة التي يحبها عظمته. ومن هنا أكتشف أن أخي هو حارسي، يعمل من أجلي بأرفق الطرق، والعقار الذي أعجبت به وغبطته بشدة هو عقاري. إن من طبيعة الروح أن تستولي على كل الأشياء. يسوع وشكسبير أجزاء من الروح، بالحب أضمها وأدمجها في مملكتي الواعية. فضيلته ـ ألبست هي فضيلتي؛ ذكاؤه ـ إن لم يكن بالإمكان جعله ذكائي، فإنه ليس بذكاء.

كذلك هو تاريخ النوائب أيضاً. إن التغيرات التي تحطم في فترات متقاربة رفاهية البشر هي إعلان عن طبيعة قانونها النمو. كل روح تغادر بضروراتها الداخلية، المنظومة الكاملة للأشياء، وأصدقاؤها ومسكنها وقوانينها وإيمانها، عندما تخرج السمكة من محارتها الحجرية الجميلة لأنها لا تعود تستوعب نموها وتروح تقيم على مهل بيتاً جديداً. إن هذه الدورات تتابع تبعاً لعنفوان الفرد، حتى تصبح في حالة الذهن المحظوظ متواصلة عندها لا ترتبط جميع العلاقات الدنيوية به إلا برباط واه، كما لو أنها قد تحولت إلى جسم سائل شفاف تمكن من خلاله رؤية الشكل الحي، بخلاف ما هو الحال لدى معظم البشر، حيث تبدو مثل نسيج قاسٍ متغاير الخواص، متعدد التواريخ مفتقر إلى الشخصية المحدودة، ينحبس بداخله الإنسان. عندها يمكن أن يكون هناك توسع، ولا يكاد رجل اليوم يتعرف على رجل الأمس. هكذا ينبغي أن تكون السيرة الظاهرة للإنسان في الزمان، طرح للظروف الميتة يوماً بيوم، فيما يجدد لباسه يوماً بيوم. ولكن بالنسبة لنا، في حالتنا المتردية نحن الماكثون، المقاومون، غير المتقدمين، غير المتعاونين مع التوسع المقدس، فإن هذا النمو يحل في شكل صدمات.

ليس بوسعنا الافتراق عن أصدقائنا. ليس بوسعنا أن نفلت ملائكتنا. ليس بوسعنا أن نرى أنها لا تغادر إلا لكي تفسح المجال لكبار الملائكة كي تدخل. نحن وثنيون قدامى. لا نؤمن بثراء الروح، ولا بسرمديتها وكلية وجودها. نحن لا نؤمن بأن لليوم أية قوة تنافس أو تعيد خلق الأمس الجميل. نحن نتباطأ في خرائب الخيمة القديمة حيث كان لنا يوماً خبز ومأوى وأدوات، ولا نؤمن بأن الروح قادرة على إطعامنا، وإكسائنا وتقويتنا من جديد. ليس بوسعنا أن نجد ثانية أي شيء على هذا القسط من النفاسة، والحلاوة، والجمال. لكننا ننوح عبثاً. فصوت القدير يقول: «إلى أعلى وإلى أمام على الدوام!» ليس بوسعنا أن نظل وسط الخرائب. كما لا نستطيع الاعتماد على الجديد؛ ولهذا نسير دائماً بعيون ترتد إلى وراء، مثل تلك الغيلان التي تنظر خلفها.

ومع ذلك، فإن تعويض النوائب يتضح للفهم، بعد مضي فترات طويلة من الزمن. إن الحمى، أو التشويه، أو خيبة الأمل القاسية، أو خسارة الثروة، أو فقدان الأصدقاء تبدو في حينها خسارة غير مدفوعة الثمن، وغير قابلة للتسديد. لكن السنوات الواثقة تكشف القوة العلاجية العميقة التي تكمن في جميع الحقائق. إن موت صديق عزيز، أو زوجة، أو أخ، أو حبيب الذي لايبدو في حينه إلا حرماناً، لاحقاً مظهر الدليل أو العبقرية، لأنه، في العادة، يؤدي إلى انقلابات في اسلوب حياتنا، وينتهي حقبة من الطفولة أو الشباب كانت تنتظر ما يختمها، يأتي على مهنة معتادة، أو أسرة، أو أسلوب حياة، ويتيح تشكيل بدائل لها أكثر ملاءمة لنمو الشخصية. إنه يتيح أو يقيد إقامة صداقات جديدة وتقبل تأثيرات جديدة تكون لها الأهمية الكبرى بالنسبة للسنوات التالية، فيتحول الرجل أو المرأة الذي كانا سيظلان زهرة حدائق مشمسة، ينصب على رأسها أكثر مما تحتاجه من ضوء الشمس ولا يتوفر لجذورها ما يكفي من المكان، بسبب سقوط الجدران واهمال الجنائني إلى شجرة غابة، تمنح الظل والثمر لدائرة واسعة من البشر.

القوانين الروحية

عندما يحدث فعل التفكير في الذهن، عندما ننظر إلى انفسنا في ضوء الفكرة، نكتشف أن حياتنا مطوقة بالجمال. كل الأشياء تكتسب، إذ نمضي، أشكالاً لطيفة، كما تفعل الغيوم في البعيد. ليس الأشياء المألوفة والثابتة، بل حتى المأساوية والمريعة تصبح جميلة عندما تأخذ موقعها في صور الذاكرة. ضفة النهر، العشب عند جانب الماء، المنزل القديم، الشخص الأحمق، مهما كانت مهملة عندما مررنا بها، تكتسب جمالاً في الماضي. حتى الجثة التي رقدت في الحجرات أضفت زينة مهيبة على البيت. فالروح لن تعرف الألم أو التشويه لو كان علينا أن نقر في ساعات صفاء العقل بأقسى الحقائق، لقلنا أننا لم نقدم أبداً أية تضحية. ففي تلك الساعات يكون الذهن عظيماً إلى الحد الذي لا يبدو معه كل ما يمكن أن يؤخذ منا كثيراً. كل الخسارة. كل الألم، أشياء محددة؛ ويبقى الكل سليماً بالنسبة للقلب. ليس بوسع الإغاظات ولا النوائب أن تلغي ثقتنا. ما من إنسان عبر عن أحزانه بالبساطة التي كانت تنبغي له. احسب حساب المبالغة حتى لدى أكثر خيول الشغل صبراً وأمضها معاناة. لأن المحدود وحده هو الذي يجهد ويعاني؛ أما المطلق فيتمدد مستريحاً مبتسماً.

يمكن الاحتفاظ بالحياة الفكرية نظيفة وصحية إذا عاش المرء حياة طبيعية ولم يجلب إلى ذهنه مصاعب طارئة عنه. ما من إنسان يحتاج إلى أن يتحير بأفكاره. دعه يقل ويفعل ما يعود إليه فقط، وسوف لن تسبب له طبيعته أية شكوك أو معوقات فكرية، حتى وإن كان شديد الجهل بمحتويات الكتب. إن شبابنا مبتلون بالمشاكل اللاهوتية بشأن الخطيئة الأصلية، وأصل الشر، والقدر المحتوم، ومشاكلها. وما كانت هذه المشاكل لتقدم أية صعوبة عملية لأي إنسان، ولا أن تعتم طريقه لو أنه لم يخرج عن طوره سعياً وراءها. تلك هي النكاف الذي يصيب الروح والحصبة والسعال الديكي، وليس بوسع الذين لم يصابوا بها أي يشعروا بصحتهم أو أن يصفوا العلاج. إن الذهن البسيط لا يعرف هؤلاء الأعداء. وقدرته على أن يصف إيمانه لشخص آخر أو

يشرح له نظرية أن حريته ووحدته الذاتية هي أمر آخر مختلف. وهذا الأمر يتطلب مواهب نادرة ومع ذلك، فقد تكون لديه قوة وصلابة شديدتين في ذاته دون أن يدري بذلك «إن القليل من الفطرة التوبة والقليل من القواعد البسيطة» تكفينا.

إن إرادتي لم تمنح الصور التي في ذهني المرتبة التي وصلت إليها الآن. ففصول الدراسة النظامية، وسنوات التعليم الأكاديمي والمهني لم تقدم لي حقائق أفضل من تلك التي تقدمها الكتب عديمة الجدوى على مساطب المدرسة اللاتينية. إن الأشياء التي لا ندعوها تربية أثمن من تلك التي تحمل تلك الصفة. فنحن لا نكون أي تخمين للقيمة النسبية للفكرة ساعة تلقيها وغالباً ما تهدر التربية جهودها في محاولة إعاقة وصد هذا المغناطيس الطبيعي الذي يختار بالتأكيد، ما يعود إليه.

وبالطريقة نفسها فإن أي تدخل لإرادتنا من شأنه أن يفسد طبيعتنا المعنوية. يصور الناس الفضيلة على أنها صراع، ويخلعون على أنفسهم الأبهة الكبيرة لما حققوه في ذلك الصراع، وفي كل مكان تتعرض فيه روح نبيلة إلى الإدانة يثار السؤال عما إذا لم يكن الإنسان الأفضل هو ذلك الذي يتصارع مع الغواية. لكن هذا أمر لا طائل من ورائه. فإما أن يكون الرب موجوداً. أو لا. إننا نحب الشخصيات تبعاً لاندفاعها وتلقائيتها. وكلما قل ما يفكر المرء به أو يعرفه عن فضائلها ازدادت محبتنا له. إن انتصارات تيموليون هي أفضل الانتصارات وهي تلك التي قال عنها بلوتارك أنها كانت تجري وتنساب مثل قصائد هومر. فإذا رأينا روحاً كل أفعالها سامية وجميلة ولطيفة مثل الورود، فإننا يجب أن نشكر الله لأن أمراً كهذا ممكن وموجود، لا أن نستدير نحو الملاك بغيظ لنقول، «إن فلاناً أفضل بسبب مقاومته العنيدة لشياطينه الداخلية.»

إن رجحان الطبيعة على الإرادة ليس بأقل وضوحاً في الحياة العملية كلها. هنالك في التاريخ قدر من العمدية أقل مما ننسبه له. فنحن نعزو إلى قيصر أو نابليون خططاً عميقة التصميم، بعيدة النظر، لكن الجانب الأفضل من قوتهما كان يكمن في الطبيعة، وليس فيهم ولطالما ردد الرجال من ذوي النجاح الاستثنائي، في لحظات صدقهم، «ليس منّا، ليس منّا». وقد شيدوا، تبعاً للإيمان السائد في زمنهم، الهياكل للحظ، أو للقدر، أو للقديس جوليان. إن نجاحهم يكمن في توافقهم مع مسار الفكرة، التي وجدت فيهم قناة لا تغلقها العقبات؛ فكان أن الأعاجيب التي كانوا موجهيها المنظورين قد بدت للعيون كما لو أنها من فعلهم. هل تولد الأسلاك الغلونة؟ بل أنه ليصدق حتى القول بأن ما

لديهم كان أقل مما لدى الآخرين؛ بنفس الطريقة التي تكون فيها مزية الناي أن يكون ناعماً وأجوف. إن ما بدا ظاهرياً إرادة وثباتاً كان استعداداً وإلغاءً للذات. هل كان بوسع شكسبير أن يقدم نظرية شكسبير؟ هل أن بوسع العبقري البارع في الرياضيات أن ينقل للآخرين أي إطلاع على وسائله؟ فلو أنه أوصل ذلك السر لفقد على الفور قيمته المبالغ فيها، ولاختلطت بضوء النهار والطاقة الحيوية تلك القدرة على الوقوف والمواصلة.

إن هذه الملاحظات تملي علينا الدرس القائل أن حياتنا يمكن أن تكون أسهل وأبسط بكثير مما نجعلها عليه؛ وأن عالمنا يمكن أن يكون مكاناً أسعد مما هو عليه، وأنه ما من داعٍ للصراع، والتوتر، واليأس؛ لفرك اليدين وصر الأسنان؛ وأننا نسيء خلق شرورنا. إننا نتدخل في تفاؤل الطبيعة، فكلما نظرنا إلى تلك النماذج المتميزة من الماضي، أو وجدنا عقلاً أكثر حكمة في الوقت الراهن، استطعنا أن ندرك أننا مطوقون بقوانين تطبق نفسها.

يعلمنا وجه الطبيعة الخارجية الدرس نفسه. إن الطبيعة لا تريدنا أن ننفعل ونغضب. فهي لا تفضل معرفتنا وطيبتنا على نزاعاتنا وحروبنا. عندما نغادر المؤتمر، أو المصرف، أو اجتماع إلغاء الرق، أو النادي الفلسفي إلى الحقول والغابات نجدها تقول «غاضب جداً، يا سيدي الصغير».

إننا ممتلؤون بالأفعال الميكانيكية. علينا أن نتطفل وأن نحصل على الأشياء بطريقتنا الخاصة، حتى تصبح تضحيات المجتمع وفضائله كريهة ينبغي للحب أن يمنح البهجة، لكن نزعتنا الخيرية غير سعيدة. إن مدارس الأحد والكنائس وجمعيات الفقراء أغلال في اعناقنا. إننا نحمل أنفسنا المشقة من أجل إرضاء لا أحد. هنالك طرق طبيعية للوصول إلى نفس الغايات التي تهدف لها هذه الأعمال، ولا تصلها. لماذا ينبغي للفضيلة كلها أن تعمل بطريقة واحدة ومتماثلة؟ لماذا ينبغي على الجميع أن يقدموا الدولارات؟ إنه ملائم لنا نحن أبناء الريف، ونحن لا نعتقد بأن ذلك يمكن أن يؤدي إلى أي نفع. نحن لا نملك الدولارات، التجار يملكونها، فدعهم يقدمونها. أما الفلاحون فسوف يقدمون القمح؛ والشعراء الأغاني؛ والنساء يخيطن؛ والعامل يقدم المساعدة، والأطفال يجلبون الزهور. ولماذا نجرجر عبء مدارس الأحد الجسيم فوق المسيحية كلها؟ أمر طبيعي وجميل أن تتساءل الطفولة وأن يعلم النضج؛ لكن هناك متسع من

الوقت للإجابة على الأسئلة عندما تطرح. لا تحبس الشبان رغم إرادتهم في مقاعد الكنيسة وترغم الأطفال أن يطرحوا ضد إرادتهم أسئلة على مدى ساعة.

لو نظرنا باتساع أكبر، فإن الأشياء كلها متشابهة؛ القوانين والكتب والمذاهب وأنماط الحياة تبدو محاكاة للحقيقة. إن مجتمعنا تعوقه ماكنة ثقيلة، تشبه قنوات المياه اللامتناهية التي شيدها الرومان فوق التل والوادي والتي سبقها اكتشاف القانون الذي يقول بأن الماء يرتفع إلى مستوى مصدره. إنها الجدار الصيني الذي يستطيع أي تتري رشيق أن يقفز فوقه. إنها جيش متأهب، لكنها ليست جيدة كالسلام. إنها امبراطورية ناضجة، غنية، لكنها أصبحت زائدة عن اللزوم عندما وجد اجتماع المدن ليؤدي الغرض نفسه.

دعونا نستمد درساً من الطبيعة، التي تعمل دائماً بطرق قصيرة تسقط الثمرة عندما تنضج. وعندما تنفصل الثمرة، تسقط الورقة. إن دائرة الماء ليست سوى سقوط. وسير الإنسان وكل الحيوانات ليس سوى سقوط إلى امام. كل عملنا اليدوي وأشغال القوة، مثل الخلع، والقطع، والحفر، والتجديف، وما إليها تنجز بفعل السقوط المستمر، والعالم، والأرض، والقمر، والشهاب، والشمس، والنجم تسقط دائماً وإلى الأبد.

إن بساطة العالم تختلف كثيراً عن بساطة الماكنة. إن الشخص الذي ينظر إلى الطبيعة، ويعرف جيداً كيف تكتسب المعرفة وكيف تتشكل الشخصية هو شخص متخلف. فبساطة الطبيعة لا يمكن قراءتها بسهولة، لكنها لا تستنفذ. لذا لا يمكن عمل تحليل نهائي. نحن نحكم على حكمة الرجل عن طريق أمله، إذ نعرف أن إدراك عدم قابلية الطبيعة للاستنفاد هو شباب خالد، يمكن الإحساس بخصوبة الطبيعة البرية عندم مقارنة أسمائنا وسمعنا الصلدة بوعينا السائل. نعيش في العالم في مذاهب ومدارس، وتعرف عنا المعرفة الواسعة أو التقوى، ونحن على الدوام أطفال صبيانيون. يرى المرء جيداً كيف نشأ مذهب الشك البيرووي. كل انسان يرى أنه النقطة الوسطية التي يمكن منها تأكيد أو نفي كل شيء بدرجة متساوية من المنطق إنه شيخ، إنه شاب، إنه كثير الحكمة، إنه جاهل تماماً. إنه يسمع ويحس بما تقوله عن الملاك، وعن بائع الصفيح. ليس هنالك إنسان دائم الحكمة إلا في تلفيقات الرواقيين عندما نقرأ أو نرسم، ننحاز إلى البطل ضد الجبان أو السارق؛ لكننا نحن أنفسنا كنا ذلك الجبان أو السارق، وسوف نكونه ثانية - ليس بالمعنى السافل، بل بالمقارنة مع العظمة المتاحة للروح.

قليل من التفكير في ما يحدث حولنا كل يوم يظهر لنا أن قانوناً أعلى من قانون إرادتنا ينظم الأحداث؛ وأن جهودنا المضنية غير ضرورية وغير مثمرة؛ وأننا لانكون أقوياء إلا بعملنا السهل، البسيط، التلقائي، وبالاكتفاء بالطاعة نصبح سماويين. الإيمان والحب ـ الحب المؤمن سوف يريحنا من عبء القلق الكبير آه يا اخواني، إن اللّه موجود. هنالك روح في قلب الطبيعة وفوق إرادة كل انسان، بحيث أن ما من أحد منا يستطيع أن يخطئ الكون. لقد أشبع الطبيعة بفتنته على نحو يجعلنا نغتني عندما نقبل نصيحته، ويجعل أيدينا تلتصق بجنباتنا أو تضرب صدورنا إذا ما حاولنا أن نجرح مخلوقاته.

إن كامل دورة الأشياء تعلمنا الإيمان. لا نحتاج سوى الطاعة. ثمة إرشاد لكل واحد منا، وبالإنصات المتواضع سوف نسمع الكلمة الملائمة. لماذا تحتاج إلى أن تختار بعناء موقعك مهنتك وزملاءك وأنماط عملك ولهوك؟ مؤكد أن لديك حق ممكن يحول دون الحاجة إلى الموازنة والاختيار الإرادي. لديك حقيقة، مكان ملائم وواجبات مناسبة. ضع نفسك وسط تيار القوة والحكمة الذي ينفخ الحياة كل ما يطفو عليه، وستجد نفسك مدفوعاً إلى الحقيقة دونما جهد، إلى الحق والرضا التام. بعدها ضع كل المخالفين في الجانب الخطأ. بعدها تكون أنت العالم. معيار الحق، الحقيقة، الجمال. إذا امتنعنا عن أن نكون المفسدين بتدخلاتنا البائسة، فإن عمل البشر، ومجتمعهم، وكتاباتهم، وفنونهم، وعلمهم، ودياناتهم سوف تسير على نحو يفضل كثيراً ما هو عليه الآن، والسماء التي تنبئ بها منذ بداية العالم، والتي ما تزال متنبأ بها من صميم القلب، سوف تنظم نفسها، كما تفعل الورود والهواء والشمس الآن.

أقول، لا تختر؛ لكن هذا صيغة لفظية أريد من خلالها أن أميز بين ما يدعى عادة بالإختيار بين البشر، والذي هو فعل جزئي، اختيار اليدين، العيون، الشهية، وليس العمل الكامل للإنسان. لكن ذلك الشيء الذي أدعوه حقاً أو خيراً، هو اختيار بنيتي، وذلك الذي أدعوه سماءً، والذي أتطلع إليه داخلياً، هو الحالة أو الظرف الذي ترغب فيه بنيتي؛ والفعل الذي أرغب على امتداد سني حياتي أن أفعله هو فعل قدراتي. علينا أن نعتبر الإنسان مسؤولاً أمام المنطق عن اختيار حرفته اليومية أو مهنته. لا يمكن أن يكون عذراً لأفعاله القول بأنها من عادات حرفته. فأي شيء يدفعه إلى الحرفة الشريرة؟ أليس لديه في شخصيته دافع يدفعه نحوها؟

لكل امرىء مهنته الخاصة. والموهبة هي الدافع هنالك اتجاه واحد ينفتح فيه الفضاء كله أمامه. إن لديه قدرات تدعوه بصمت إلى هناك نحو الجهد اللانهائي. إنه مثل السفينة في النهر؛ يواجه المعوقات على كل جانب باستثناء جانب واحد ـ في ذلك الجانب تزال المعوقات فينساب بثبات فوق قناة تزداد عمقاً باتجاه بحر لا نهائي. تعتمد هذه الموهبة وهذا الدافع على تنظيمه أو على الطريقة التي تتجسد بها الروح العامة في شخصه إنه ينحو إلى فعل شيء ما سهل عليه وطيب عندما ينجزه لكن ما من أحد غيره يستطيع فعله. ليس لديه منافس وكلما ازداد صدق الإنسان في استشارة قواه الخاصة، كلما ازداد اختلاف ما يفعله عما يفعله أي شخص آخر. إن طموحه يتناسب مع قواته. إن ارتفاع الهرم يقرره اتساع القاعدة. لدى كل انسان هذا الدافع الذي يدفع القوة إلى فعل شيء متفرد، وليس للإنسان أي دافع آخر. إن الادعاء بأن لديه دافعاً آخر، نداءً يستدعيه بالاسم والانتخاب الشخصي و «علامات خارجية تميزه كشخص استثنائي وليس من سوية الناس العاديين» عبارة عن تعصب، وهو يكشف عن بلادة تجعله يعتقد بوجود ذهن واحد في جميع الأفراد، ومن هنا لا يحمل احتراماً للأفراد.

إنه بأدائه لعمله يجعل الآخرين يشعرون بالحاجة إلى ما يقدمه ويخلق الذوق الذي يستطيع أن يرضيه. وبأدائه لعمله تتفتح ذاته. إن من مساوئ خطبنا العامة أنها لا تنطوي على حماسة. ففي موضع ما، ينبغي لا على كل خطيب فحسب بل على كل انسان ان يطلق العنان بكامل مداه، وان يجد أو يقدم تعبيراً صريحاً وحميماً عما يجول في نفسه من قوة ومعنى. إن التجربة المألوفة هي أن يكيف الإنسان نفسه على أفضل نحو ممكن للتفاصيل المعتادة للعمل أو الصنعة التي يقوم بها، وأن يعتني بها كما يفعل الكلب الأمين. عندها يضيع الإنسان عندما يصبح جزءاً من الآلهة التي يديرها. إن الإنسان لا يعثر على وظيفته حتى يتمكن من أن يوصل نفسه إلى الآخرين بكامل ثقله وأبعاده. إن عليه أن يجد في ذلك متنفساً لشخصيته، من أجل أن يبرر عمله في أعين الآخرين. فإن كان مجهوده وضيعاً، فليجعله كريماً بتفكيره وشخصيته. دعهم يوصل إليهم كل ما يعرفه ويفكر به، وكل ما يراه جديراً بأن يعمل، وإلا فإن الناس لن يعرفوه ولن يقدروه على النحو الصحيح. ستكون أحمقاً ما دمت تتقبل وضاعة الشيء الذي تفعله وشكليته، بدلاً من تحويله إلى المتنفس الطيع لشخصيتك وأهدافك.

لا تعجبنا إلا تلك الأعمال التي نالت منذ زمن طويل إطراء الناس، ولا ندرك أن أي

شيء يستطيع الإنسان فعله يمكن أن يؤدى بطريقة سماوية. نحن نعتقد أن العظمة تتبع أماكن أو واجبات معينة أو تعد لها، أو مراكز أو مناسبات محددة، ولا نرى أن بوسع باغانيني أن ينتزع النشوة من وتر كمنجة، وينتزعها ابولنشتاين من قيثارة، وبوسع فتى بارع الأصابع أن يصنعها من مقصه وقصاصات ورق، وبوسع البطل أن ينتزعها من الصحبة والمسكن المثيرين للشفقة الذين كان يختفي عندهما. إن ما ندعوه ظرفاً وضيعاً أو صحبة فظة هما ذلك الظرف والصحبة الذين لم يكتب عنهما الشعر بعد، لكن بوسعك على الفور أن تجعلهما مرغوبيين ومشهوريين كسواهما. دعنا، لأغراض التقييم، نأخذ درساً من الملوك. فالملوكية تضع تقييماتها الخاصة لمراحل الضيافة، وعلاقات الأسر، ووقع الموت وآلاف الأمور الأخرى، وهذا ما يستطيع أن يفعل الذهن الملوكي. إن السمو هو أن تضع تقييماً جديداً كل حين.

ما يفعله الإنسان، هو مالديه. ما عساه شأنه بالأمل أو الخوف؟ في ذاته يوجد المضاء. عليه أن لا يرى الصلابة إلا في ما هو في طبيعته وما ينبغي أن ينمو في داخله ما دام موجوداً. إن حسنات الثراء تروح وتغدو مثل أوراق الصيف؛ فدعه يذروها في كل ريح كعلامات آنية انتاجيته اللامتناهية.

بوسعه أن يكون له ما يخصه. فعبقرية الإنسان، تلك السمة التي تميزه عن كل شخص آخر، التأثر بمجموعة معينة من التأثيرات، اختبار ما يلائمه، رفض مالا يلائمه، هي التي تقرر له شخصية الكون. الإنسان وسيلة، تدبير تقدمي، مبدأ مختار، يضم إليه ما يماثله أينما ذهب. أن يأخذ فقط ما يخصه من الكثرة التي تلف وتدور من حوله. إنه مثل واحدة من تلك الأذرع التي تمتد من السواحل إلى الأنهار لتقتنص ما يطفو من خشب، أو مثل حجر مغناطيس ما بين شظايا الفولاذ. إن تلك الحقائق، والكلمات، الشخصيات التي تسكن ذاكرته دون أن يقدر على معرفة السبب الذي يجعلها تظل هناك، تمكث حيثما هي لأن لها علاقة به لا ينقص من حقيقتها كونها غير مفهومة. إنها رموز ذات قيمة له من حيث كونها تفسر أجزاء من وعيه يحاول عبثاً أن يجد الكلمات التي تعبر عنها في الصور التقليدية الموجودة في الكتب والأذهان الأخرى يجب أن أعطي اهتمامي للأشياء التي تجتذبه، كما أسعى إلى الشخص الذي يطرق بابي، في حين يجتازه ألف شخص على نفس الدرجة من الأهمية، ممن لا يعنونني بشيء. يكفي أن هذه الأشياء بالتحديد تخاطبني. قليل من الحكايا، قليل من آثار الأشخاص،

والطبائع، والوجوه، قليل من الحوادث، تترك في ذاكرتك أثراً لا يتناسب مع أهميتها الظاهرة لو أنك قستها بالمعايير العادية. إنها تنتمي لمزاياك. دعها تمارس نفوذها، ولا تبعدها وتنحيها سعياً وراء حقائق وإيضاحات أكثر شيوعاً في الأدب إنه عظيم ما يراه قلبك كذلك فتأكيد الروح مصيب دائماً.

إن للإنسان الحق الأعلى على جميع الأشياء الملائمة لطبيعته وعبقريته. بوسعه في أي مكان أن يأخذ ما يعود لوضعه الروحي، كما أنه لا يقدر أن يأخذ أي شيء آخر حتى لو كانت جميع الأبواب مفتوحة أمامه، وكذلك لا ينبغي لكل قوة في البشر أن تمنعه من أن يأخذ كل ذلك. من العبث أن تحاول أن تحتفظ بأمر ما سراً عن الشخص الذي يملك الحق في معرفته. فالسر سوف يذيع نفسه. إن المزاج الذي يستطيع صديق أن يحملنا إليه يمثل سطوته علينا. إنه يملك حقاً في الأفكار التي تنتمي إلى تلك الحالة.وبوسعه أن يخضع كل أسرار تلك الحالة الذهنية. إنه القانون الذي يطبقه رجال الدولة. كل فظائع الثورة الفرنسية، التي أرعبت النمسا، لم تستطع أن تحرك دبلوماسيتها. لكن نابليون أرسل إلى فيينا المسيو دي ناربون، أحد أفراد النبالة القديمة، الذي يحمل الاسم، والسلوك، والأخلاقيات التي تعنيها، قائلاً بأنه كان ضرورياً أن يرسل إلى ارستقراطية أوروبا القديمة رجالاً من نفس الدائرة التي كانت في الواقع تشكل نوعاً من الماسونية الحرة. وفي أقل من أسبوعين تسلل المسيو دي ناربون إلى كل اسرار الحكومة الإمبراطورية.

ما من شيء يبدو بسهولة الكلام والفهم. ومع ذلك فقد يجد الإنسان هذا الأمر من أقوى الروابط وأمنع الدفاعات ـ إنه كان مفهوماً؛ وقد يجد الذي تلقى الرأي أن ذلك من أكثر الروابط إقلاقاً للراحة.

إذا كان للمعلم أي رأي يريد إخفاءه، فإن تلاميذه سيصبحون ملمين به تماماً كما يلمون بأي رأي يعلنه. إذا سكبت الماء في وعاء ملتوٍ من الأنابيب والزوايا، فإن من العبث القول أني سأسكبه في هذا الجزء أو ذاك، لأنه سيتساوى في الجميع. إن الناس يحسون بعواقب رأيك ويتصرفون بموجب ذلك دون أن يكونوا قادرين على توضيح الكيفية التي يتبعونها. أرنا قوساً من منحنٍ، وسيكون بوسع المتمرس في الرياضيات أن يجد الشكل كاملاً. إننا دائماً ننطلق إلى معرفة اللامرئي من المرئي. ومن هنا كان الذكاء الكامل الذي يوحد ما بين حكماء العصور البعيدة. ليس بوسع الإنسان أن يدفن

معانيه عميقاً في كتابه إذ أن الزمن والأشخاص من ذوي الذهنية المشابهة سوف يكشفونها. كان لأفلاطون مذهب سري، أحقاً كان ذلك؟ أي سر بوسعه أن يخفي عن عيون بيكون؟ أو مونتاني؟ أو كانت؟ ولهذا قال أرسطو عن أعماله « إنها منشورة وغير منشورة».

مامن إنسان يستطيع أن يتعلم ما ليس لديه استعداد لتعلمه، مهما كان الموضوع قريباً من عينيه. يمكن للكيميائي أن يبوح بأثمن أسراره لنجار، وهي الأسرار التي ما كان لينطق بها أمام كيميائي مقابل ثروة. إن اللّه يحمينا دائماً من الأفكار التي لم يحن أوانها. إن عيوننا تدار على النحو الذي يجعلنا لا نرى الأشياء التي تحدق في وجوهنا، حتى تحين الساعة التي ينضج فيها الذهن؛ عندها نراها، ويبدو الزمن الذي لم نرها فيه مثل حلم.

كل الجمال والقيمة التي يراها الإنسان موجودة فيه لا في الطبيعة العالم فارغ جداً، وهو مدين بكل كبريائه لهذه الروح الموشية البارعة «الأرض تملأ حضنها بروائع» لا تعود لها. إن ما تساويه تمبه، وتيفولي، وروما هو طين وماء، وصخور، وجو. هنالك طين وماء مماثلين في ألف موقع، لكنها، مع ذلك، لا قيمة لها.

إن الشمس والقمر، والأفق والأشجار لا تجعل الناس أفضل ـ كما أنه لم يلاحظ أن قوام الصالات الرومانية أو خدام الرسامين يمتلكون أية أفكار سامية، أو أن أمناء المكتبات أكثر حكمة من سواهم هنالك رفعة في سلوك الشخص النبيل المهذب تخطئها عين فلاح غليظ. إنها مثل النجوم التي لم يصلنا ضوؤها بعد.

يمكن له أن يرى ما يصنعه. إن أحلامنا متممة لمعرفتنا في اليقظة. فرؤى الليل تحمل شيئاً من العلاقة برؤى النهار الأحلام المرعبة هي تهويلات لخطايا النهار. ونحن نرى مشاعرنا الشريرة متجسدة في سحنات سيئة. فوق الألب يرى المسافر أحياناً ظله مضخماً في حجم عملاق، بحيث تكون كل حركة من يده مروعة. «يا أبنائي» قال شيخ لأولاده المرتعبين من رؤية شيء في المدخل المظلم، «يا أبنائي، لن تبصروا شيئاً أسوأ من أنفسكم.» وكما يحدث في الأحلام. يرى كل انسان نفسه مضخماً في أحداث العالم التي لا تقل انسيابية عن أحداث الأحلام، دون أن يعرف أن ما يراه هو نفسه. إن الخير، مقارناً بالشر الذي يراه، هو الخير الذي يحمله مقارناً بالشر لديه كل سمة من سمات ذهنه تتضخم في أحد معارفه، وكل عاطفة في فؤاده تتضخم في شخص ما. إنه

مثل خماسي الأشجار، التي تعد خمسة ـ شرقاً، أو غرباً، شمالاً أو جنوباً، أو القصيدة متماثلة الحروف سواء قرأتها من البداية أو الوسط أو النهاية.ولم لا؟ إنه يتمسك بأحد الأشخاص ويتفادى الآخر، تبعاً لتشابههم أو اختلافهم عن نفسه، ساعياً حقاً إلى العثور على نفسه في أصحابه وفي مهنته وعاداته وحركاته وطعامه وشرابه، حتى يصبح في النهاية ممثلاً مخلصاً لنفسه من كل جانب يمكن أن تنظر إليه منه

يمكنه أن يقرأ ما يكتب. ماالذي نقدر أن نراه أو نحصل عليه سوى ما نحن عليه؟ لقد لاحظت رجلاً بارعاً يقرأ فرجيل حسن، إن ذلك الكاتب هو ألف كتاب بالنسبة لألف شخص خذ الكتاب بيديك وأجهد عينيك بالقراءة، إنك لن تعثر أبداً على ما أعثر عليه. لو كان لقارئ بارع أن يمتلك احتكاراً للحكمة أو المتعة التي يقرؤها، فإن احتكاره في مأمن الآن بعد ترجمة الكتاب إلى الانجليزية، كما كان الحال عليه لو أن الكتاب ظل حبيس اللغة الأجنبية. فالأمر بالنسبة للكتاب مثل الأمر بالنسبة للصحبة الطيبة. قدم شخصاً وضيعاً إلى وسط من الجنتلمانات، ولن يؤدي ذلك غرضاً، فهو ليس بصاحبهم. كل صحبة تحمي نفسها. والجماعة في أمان، فهو ليس واحداً منهم، رغم أنه موجود بجسده في الغرفة.

ماالذي تجديه محاربة قوانين الذهن الأزلية، التي تنظم علاقة كل الأشخاص ببعضهم بالمقياس الحسابي الذي يمت لوجودهم وعندياتهم؟ غرترود مغرمة بغاي، ياالسيمائه وطبائعه ما أسماها، ما أرفع ارستقراطيته، وما أشبهه بالرومان! الحياة معه حياة حقه، ما من مكسب أعظم؛ الأرض والسماء تسيران لتلك الغاية. حسن، تحصل غيرترود على غاي؛ ولكن ماالذي يجديها الآن مدى سموه، وارستقراطيته ورومانيته إن كان قلبه وأهدافه مركزة على مجلس الشيوخ، والمسرح، وغرفة البلياردو، وإذا لم تكن لديها الوسيلة، أو المحادثة التي يمكن أن تسحر سيدها الفاتن؟

سوف يحصل على صحبته الخاصة. ليس بوسعنا أن نحب شيئاً سوى الطبع. لقلما ننتفع حقاً بأروع المواهب، وأمتع التسليات، لكن الإقتراب من طبعنا أو التشبه به هو الحالة التي تمثل أجمل الانتصارات! يقصدنا أشخاص، مشهورون بجمالهم، بمنجزاتهم، جديرون بكل العجب لما يتحلون به من فتنة ومواهب؛ وتراهم يكرسون كل براعتهم لتلك الساعة وتلك الصحبة ـ بنتائج بعيدة عن الكمال مؤكد أن من الجحود أن لا نطريهم بصوت عال. ثم، بعد انتهاء كل شيء؟ يأتينا شخص يرتبط بنا ذهنياً، أخ أو

أخت بالطبيعة، يجيء إلينا بيسر ونعومة، مقرباً وحميماً، كما لو كان الدم الذي يجري في عروقنا، حتى أننا لنشعر بأن شخصاً ما قد غادر، بدلاً من آخر قد جاء، فنشعر بكامل الارتياح والانتعاش في نوع من الاتحاد البهيج. في أيامنا الخاطئة هذه نعتقد بحماقة بأن علينا أن نستميل الأصدقاء عن طريق الإذعان لعادات المجتمع، لملابسه، وتربيته، وتقديراته. لكن لا يكون صديقي سوى تلك الروح التي التقي بها على خط مسيرتي، تلك الروح التي لا أخضع لها ولا تخضع لي، ولكنها، بانتمائها إلى نفس الفضاء السماوي، تعيد في تجربتها كامل تجربتي. ينسى المثقف نفسه، ويقلد عادات وأزياء رجل الدينا لكي ينال ابتسامة من حسناء، أو يتبع فتاة طائشة، إذ هو لم تلقنه العاطفة الدينية بعد أن يعترف على المرأة النبيلة في كل ما هو رائق، ومهيب، وجميل في روحها. ليكن عظيماً، وسوف يتبعه الحب. لا شيء ينال عقاباً أعمق من إهمال الأشباه الذين منهم وحدهم ينبغي أن تتشكل الصحبة، والخفة المخبولة التي تدفع إلى اختيار الأصحاب بعيون الآخرين.

بوسعه أن يحدد مرتبته. إنها لقاعدة جديرة بكل القبول أن يتاح للإنسان أن تكون له المكافأة التي يأخذها. خذ المكان والموقف الذي يعود إليك، ولسوف يقرك كل الناس على العالم أن يكون عادلاً. إنه يترك لكل إنسان، في حالة من عدم الاكتراث العميق، أن يحدد مرتبته الخاصة بطلاً كان أم خرفاً، العالم لا يتدخل في الأمر. فهو بالتأكيد سيتقبل مقياسك الخاص لأفعالك ووجودك، سواء كانت ستتسلل خلسة وتنكر اسمك، أم ترى عملك يقدم إلى طبقات السماوات العليا، ويندمج بدوران النجوم.

تسيطر الحقيقة نفسها على جميع أنواع التعاليم. بوسع المرء أن يعلم عن طريق الفعل، وليس بأية طريقة أخرى. إذا استطاع أن يعبر عن نفسه فإن بوسعه أن يعلم، وليس عن طريق الكلمات. من يعطي يعلم، ومن يتلقى لا يحدث التعليم حتى يوضع التلميذ في نفس الحالة أو المبدأ الذي تكون فيه؛ عندها يحدث الانتقال؛ فهو انت وانت هو - عندها يكون التعليم، ولن يكون بوسعه أبداً أن يخسر الاستفادة نتيجة أي ظرف غير ملائم صحبة سيئة. لكن طروحاتك تجري خارجة من إحدى أذنيه بنفس الطريقة التي تدخل بها من الأذن الأخرى. نرى إعلاناً عن خطبة يلقيها السيد غراند في الرابع من تموز، وأخرى يلقيها السيد هاند أمام جمعية الميكانيكيين، فلا نذهب إلى هناك، لأننا نعلم أن ذينك السيدين لن ينقلا شخصيتهما وتجربتهما إلى الحضور ولو توفر لنا

السبب الذي يجعلنا نتوقع بوحاً من هذا القبيل لذهبنا بغض النظر عن كل المضايقات والمعارضة. وكان المريض سيحمل في فراشه إلى هناك. لكن الخطابة العمومية فرار، وعدم التزام، واعتذار، وخدعة وهي ليس اتصالاً، ولا حديثاً، ولا رجلاً.

ثمة نقمة مشابهة تهيمن على جميع الأعمال الثقافية علينا أن نتعلم أن الشيء الذي يصاغ بالكلمات ليس، بسبب ذلك، مؤكداً عليه أن يؤكد نفسه، وإلا فما من شكل من أشكال المنطق أو اليمين يمكن أن يبرهنه. وعلى الجملة أن تحتوي على اعتذارها الخاص عن كونها قد قيلت.

إن تأثير أية كتابة على العقل العام قابل للقياس حسابياً قياساً على عمق الفكرة. كم تسحب من الماء؟ إذا أيقظت فيك التفكير، إذا رفعتك عن قدميك بصوت البلاغة العظيم، فالتأثير، إذن، واسع ومتمهل، ودائم في عقول الناس؛ فإن لم ترشدك الصفحات، فإنها ستموت لساعتها مثل الذباب. إن طريقة قول مالا يسقط من التداول وكتابته هي أن تقول وتكتب بإخلاص. من حقي أن أتوقع أن تفشل في الوصول إليك تلك الحجة التي لا تملك القوة التي توصلها إلى ممارستي الخاصة. ولكن إليك قاعدة سيدني: «انظر إلى قلبك، واكتب» إن من يكتب لنفسه يكتب لجمهور خالد. إن البيان لا يصلح لأن يعلن على الملأ مالم تكن قد توصلت إليه عن طريق محاولة إرضاء فضولك الخاص على الكاتب الذي يأخذ موضوعه من أذنه، لا من قلبه، أن يعلم أنه قد أضاع ما بدا له أنه قد كسبه، فالكتاب الفارغ، بعد أن يحصل على كامل ثنائه، ويجعل نصف لناس يقولون «ياله من شعر، يالها من عبقرية»، يظل في حاجة إلى وقود كلي يضرم النار. فلا ينتفع إلا ما هو نافع. بوسع الحياة وحدها أن تمنح الحياة؛ وأننا حتى لو كدنا أن نفجر، فإن قيمتنا ستتحدد فقط بالطريقة التي نجعل فيها أنفسنا ذات قيمة. ليس هنالك حظ في السمعة الأدبية. فالذين يصدرون الحكم الأخير على كل كتاب ليسوا بالقراء الصخابين والمنحازين الذين يقرأون الكتاب ساعة صدوره، إنما هي محكمة من الملائكة، جمهور لا يمكن رشوته أو استمالته أو ترهيبه، تلك التي تبت في عنوان شهرة كل رجل، ولا تنزل منها إلا تلك الكتب التي تستحق الدوام. إن الحواشي المذهبة، والنقوش، والنسخ المهداة إلى جميع المكتبات لن تديم الكتاب في التداول إلى ما بعد التاريخ الذي يتحمله. عليه أن يذهب إلى مصيره مع كل الذين ذكرهم والبول في مؤلفاته «المؤلفون النبلاء والملكيون». قد يصمد بلاكمور، أو كتزبيو، أو بولوك لليلة، أما

موسى وهومر فيدومان إلى الأبد. لا يوجد في البرهة نفسها في هذا العالم أكثر من دزينة من الأشخاص الذين يقرأون أفلاطون ويفهمونه ـ وهو عدد لا يكفي أبداً لدفع قيمة طبعه من أعماله، ومع ذلك فإن تلك الأعمال تنزل في حينها على كل جيل من أجل أولئك القلائل، كما لو أن اللّه يجلبها بيده. قال بنتلي: «ما من كتاب كتب من قبل أية جهة سوى نفسه.» إن دوام جميع الكتب لا يحدد بأي مجهود، ودياً كان أم معادياً، إنما بثقلها المحدد، أو بالأهمية الكامنة في محتوياتها بالنسبة لعقل الإنسان الثابت. قال ميكائيل أنجيلو للنحات الشاب: «لا تزعج نفسك كثيراً بشأن الضوء الساقط على تمثالك، فإن ضوء الساحة العامة هو الذي سيقرر قيمته».

وبنفس الطريقة، فإن أثر أي فعل يقاس بعمق الإحساس الذي انطلق منه. لم يعرف الرجل العظيم أنه كان عظيماً واستغرقت تلك الحقيقة قرناً أو اثنين قبل أن تظهر. ما فعله فعله لأنه ملزم؛ كان أكثر الأمور طبيعية في العالم، وقد نما من ظروف اللحظة. لكن كل شيء فعله، حتى رفع إصبعه أو أكل رغيفه، يبدو الآن كبيراً، ومترابطاً ببعضه، ويدعى مؤسسه.

هذه هي تجليات عبقرية الطبيعة في حالات قليلة، وهي تبدي اتجاه الجدول. لكن الجدول دم، وكل قطرة منه حية. ليس الحقيقة انتصار محدد ـ فكل الأشياء أدواتها ـ ليس الغبار والحجر وحده، إنما الأخطاء والأكاذيب. يقول الأطباء أن قوانين المرض جميلة مثل قوانين الصحة. إن فلسفتنا موجبة، وهي تتقبل على الفور شهادة الحقائق السلبية، تماماً كما أن كل ظل يشير إلى الشمس، كل حقيقة في الطبيعة ملزمة بضرورة مقدسة بأن تقدم شهادتها.

الشخصية الإنسانية تعلن عن نفسها على الدوام. فالفعلة أو الكلمة الشاردة، ومجرد النية بفعل شيء ما، والغرض المعلن، تعبر عن الشخصية. فإن أتيت فعلاً فإنك تظهر الشخصية، إن جلست ساكناً، إن نمت، فأنت تظهرها لأنك لم تقل شيئاً عندما قال الآخرون، ولم تعط رأياً بشأن الأحوال الراهنة أو الكنيسة، أو الرق، أو الزواج، أو الإشتراكية، أو الجمعيات السرية، أو الكلية، أو الأحزاب أو الأشخاص، فإنك تعتقد بأن حكمك ينتظر بفضول بصفته حكمة محفوظة. ما أبعدك عن الحقيقة؛ فصمتك قد أجاب عالياً. ما من حجة لديك لتنطق بها، فقد عرف زملاؤك أن ليس بوسعك أن تساعدهم، لأن الحجة تتكلم. أفلا ترى أن الحكمة تنادي، والفهم يقدم لها صوتها؟

ثمة قيود مخيفة تفرض في الطبيعة على قوى الخداع. تستبد الحقيقة بأعضاء الجسم المعارضة. يقال أن الوجوه لا تكذب. الإنسان الذي يدرس تغيرات التعبير لا يخدع. عندما يقول إنسان ما الحقيقة بدافع الحقيقة، عينه تكون صافية كالسماء. وعندما تكون له دوافع وضعية ويقول كلاماً كاذباً، فإن عينه تكون موحلة وأحياناً شزرة.

سمعت مستشاراً مجرباً يقول بأنه لم يخش مطلقاً من تأثير محام لا يؤمن في قلبه بضرورة براءة موكله على المحلفين. فإن لم يؤمن بذلك، فإن عدم إيمانه سوف يبدو للمحلفين، رغم كل ما يبديه، وسوف ينتقل إليهم. إنه القانون الذي يجعل العمل الفني، من أي نوع، يضعنا في نفس الحالة الذهنية التي كان فيها الفنان ساعة عمله. لا نستطيع أن نقول على نحو مناسب الشيء الذي لا نؤمن به، حتى وإن كررنا الكلمات مرات عديدة. إنها القناعة التي عبر عنها سويدنبورغ عندما وصف جماعة من الأشخاص في العالم الروحي تحاول عبثاً أن تصوغ عرضاً لم تكن تؤمن به، لكنها لم تستطع رغم أن أفرادها لووا وبسطوا شفاههم إلى حد الغيظ.

يقدر الإنسان لقيمته ليس بمجد كل الفضول بشأن تقدير الآخرين لنا، كذلك شأن كل الخوف من أن نظل غير معروفين. إذا ما أدرك بأن بوسعه أن يؤدي أي شيء - وأن يؤديه أفضل من أي شخص آخر - عندها يكون من حقه الحصول على إقرار الجميع بهذه الحقيقة العالم مليء بأيام الدينونة، والمرء يقاس ويدمغ في أية جماعة يدخلها، وفي كل فعل يحاوله. في كل جماعة الصبيان الذين يصخبون ويجرون في كل ساحة وفناء، يوزن القادم الجديد بدقة على مدى أيام قليله، ويدمغ برقمه الصحيح، كما لو أنه اجتاز اختباراً رسمياً لقوته، وسرعته، ومزاجه. يأتي الغريب من مدرسة بعيدة مرتدياً ملابس أفضل، ومتظاهراً بسيماء مصطنعة، والحلي في جيوبه، فيقول الصبي الأكبر سناً لنفسه: «لا فائدة؛ سنعرف حقيقته غداً.» «ما الذي فعله؟» هو السؤال القدسي الذي يفتش الرجال ويخترق كل صيت كاذب. بوسع المتأنق أن يجلس في أي مقعد في العالم حيث لا يتميز لساعتها عن هومر أو واشنطن، لكن يجب أن لا يكون هناك شك في القدرة المتاحة لبني البشر. فقد يستطيع التظاهر أن يجلس ساكناً، لكنه لا يتسطيع أن يأتي فعلاً. لم يستطع التظاهر أبداً أن ينجز فعلاً يحمل عظمة حقيقية. فالتظاهر لم يكتب إليانة، ولم يستعد أكسيركسين، ولم ينشر في العالم، ولم يلغ الرق.

إن ما يظهر من الفضيلة هو بقدر ما هو موجود منها، وبقدر ما يوجد من الخير يكون الاحترام الذي ينتزعه. كل الشياطين تحترم الفضيلة. فالطائفة العالية، والكريمة، والمخلصة هي التي توجه العالم دائماً وتسيره. لم يحدث أبداً أن ضاعت كلمة مخلصة. لم يحدث أبداً أن الشهامة سقطت أرضاً، دون أن تجد على غير توقع قلباً يحييها ويتقبلها. يقدر المرء بقيمته. إن ماهيته محفورة على وجهه، وعلى شكله، وعلى حظوظه. بحروف من نور. لا يجديه التستر ولا التبجح شيئاً. هنالك اعتراف في عيوننا، وفي ابتسامتنا، وفي تحياتنا، وفي مسكة أيدينا. إن خطيئة تلوثه، وتفسد كل ما يتركه من انطباع جيد. لا يعرف الناس لماذا لايثقون به، لكنهم لا يثقون إن رذيلته تزجج عينه، وتقطع خطوطاً للتعابير الوضيعة في خده، وتقرص الأنف، وتضع علامة الوحش على مؤخرة الرأس وتكتب «أحمق! أحمق!» على جبهة الملك.

إذا لم ترغب بأن يعرف عنك قيامك بعمل ما، فلا تقم به. يمكن للإنسان أن يلعب دور الأحمق في الصحراء، لكن كل حبة رمل سيبدو عليها أنها رأ ته. قد يستطيع أن يأكل منفرداً، لكنه لا يستطيع أن يحتفظ بمشورته الحمقاء. فالسحنة المقلوبة، والنظرة الوضيعة، والأفعال غير الكريمة، ونقص المعرفة اللازمة ـ كلها تفشي السر. هل يمكن لطباخ، أو لشيفنج، أو إياشيمو أن يحسب زينو أو بولص؟ لقد هتف كونفوشيوس، «كيف يمكن إخفاء إنسان؟ كيف يمكن إخفاء إنسان؟»

من جانب آخر؛ لا يخشى البطل أن الفعل العادل والشجاع يمكن أن يمر غير ملحوظ أو مقدر لو أنه امتنع عن المجاهرة به. فهو نفسه يعرفه، وهو يسلمه إلى عذوبة السلام ونبالة القصد التي ستثبت في النهاية أنها أفضل إفصاحاً عنه من سرد وقائحه. الفضيلة ملازمة بالفعل لطبيعة الأشياء، وطبيعة الأشياء هي التي تجعلها سائدة. إنها تتكون من إحلال دائم للكينونة مكان التظاهر، وقد وصف اللّه أن قال بلياقة رفيعة: أنا ذا.

إن الدرس الذي تحمله هذه الملاحظات هو «كن ولا تبدو» دعونا نذعن. دعونا نزح لا شيئيتنا المنتفخة من طريق الدوائر السماوية. دعونا نلغ ما تعلمناه عن حكمة العالم. دعونا نخفض أنفسنا تحت قدرة الرب ونتعلم أن الحقيقة وحدها هي التي تغني وتعظم الشأن.

إذا زرت صديقك، لماذا تحتاج إلى الاعتذار عن عدم زيارتك له، وتضييع وقتك،

وتمحو عملك؟ زره الآن. دعه يشعر بأن الحب الأعلى قد جاء ليراه، في شخصك أنت أداته الدنيا أو لماذا تحتاج إلى ان تعذب نفسك وصديقك بالتأنيب الذاتي السري عن كونك لم تساعده أو لم تقدم له التحيات والهدايا من قبل؟ كن أنت هدية وبركة تألق بنور صادق وليس بإنعكاسات الهدايا المستعارة. الرجال العاديون اعتذارات عن الرجال؛ ينكّسون الرأس، يلتمسون لأنفسهم الأعذار بأسباب مسهبة، ويراكمون المظاهر لأن الجوهر غير موجود.

إننا زاخرون بخرافات المعنى، وعبادة العظمة. نقول عن الشاعر أنه غير فعال، لأنه ليس رئيساً، ولا تاجراً، ولا حمالاً. نتوله بمؤسسة، ولا نرى أنها قائمة على فكرة نحملها. لكن الفعل الحقيقي يأتي في اللحظات الصامتة. إن حقب حياتنا ليست في الحقائق الظاهرة لما نختاره من عمل، أو زواج، أو نيل منصب، وما إلى ذلك، إنما هي في الفكرة الصامتة التي تخطر لنا ونحن نسير على الناصية؛ في الفكرة التي تراجع كامل طريقة حياتنا وتقول: «هكذا فعلت، ولكن كان الأفضل أن تفعل هكذا. كل سنواتنا التالية توظف، مثل الخدم، لخدمة هذه، وتنفذ إرادتها بما تستطيعه من قدرة. هذه المراجعة أو هذا التصحيح هو قوة ثابتة تنحو إلى الظهور طوال فترة حياتنا. إن غاية الإنسان، وهدف هذه اللحظات، هو جعل نور النهار يسطع من خلاله، وحمل النظام على ان ينفذ إلى كامل وجوده دونما عقبة، حتى أن عينيك لو وقعتا عليه في أيتما نقطة من عمله تجدانه مخلصاً لشخصيته، سواء كان في غذائه، أو بيته، أو صيغة تدينه، أو صحبته، أو مرحه، أو اقتراعه، أو معارضته. حالياً هو ليس موحد الخواص، بل متغايرها، والضياء لا ينفذ، ما من أنوار متغلغلة، لكن عين الرائي تتحير وهي تميز الكثير من الميول غير المتشابهة وحياة لم تتوحد بعد.

لماذا يدفعنا تواضعنا الكاذب إلى ان نحط من قدر الإنسان الذي نكونه والشكل الذي منحنا إياه؟ الإنسان الصالح هو الراضي. إني احب إيبامينونداس وأجله، لكنني لا أتمنى ان أكون إيبامينونداس. أرى أن في حب عالم هذه الساعة عدلاً أكثر مما في حب عالم ساعته. وليس بوسعك، إن أكن صادقاً، أن تثير فيّ أدنى الاضطراب بقولك، «لقد فعل وأنت تجلس ساكناً». أرى الفعل شيئاً طيباً، عندما تقوم الحاجة إليه، والجلوس بسكون فعلاً طيباً أيضاً. ولو أن إيبامينونداس كان حقاً الرجل الذي أظنه، لجلس ساكناً بسلام وحبور إذا كان قدره قدري. السماء رحيبة، وفيها متسع لجميع

حالات الحب والاحتمال. فلماذا يكون علينا أن نبالغ في الانشغال وتقديم الخدمات؟ الفعل وعدم الفعل متماثلان لدى الشخص الصادق. يقتطع جزء من الشجرة ليكون ديك الرياح، وجزء آخر ليصبح دعامة لجسر؛ وتبدو مزايا الخشب واضحة في الإثنين.

لا أرغب أن ألحق العار بالروح. إن الحقيقة المتمثلة في كوني هنا تظهر لي أن الروح في حاجة إلى أداة. أفلا أتولى المهمة؟ هل أتوارى وأراوغ وأتملص باعتذاراتي غير المناسبة وتواضعي غير المجدي وأتصور أن وجودي هنا خارج عن الصدد ـ أقل علاقة بالأمر من وجود إيبامينونداس أو هومر في هذا المكان؟ وأن الروح لا تعرف ما تحتاجه؟ إضافة إلى أنني، بدون أي تقليب للأمر، لا أحمل شيئاً من عدم الرضا. فالروح الطيبة تغذيني وتفتح كل يوم أمامي مخازن جديدة من القوة والإستمتاع. ولسوف لن أنكر بلؤم غزارة الخير، لأنه قد بلغني أنه قد جاء إلى الآخرين على نحو آخر.

ثم، لماذا يكون علينا أن نروّع بكلمة «الفعل»؟ إنها حيلة من حيل الحواس، لا غير. إننا نعلم أن الفكرة هي سلف كل فعل. إن الذهن الفقير لا يبدو في نظر نفسه شيئاً مالم توضع عليه شارة خارجية ـ حمية جنتو، أو معطف الكويكرز، أو اجتماع الصلاة الكالفينية، أو الجمعية الخيرية، أو الهبة الكبيرة، أو المنصب الرفيع، أو أي فعل متناحر غريب يشهد له بأنه شيء ما. أما الذهن الغني فيستلقي في الشمس ويغفو، إنه الطبيعة. فالتفكير فعل.

إذا كان لزاماً علينا أن نقوم بأفعال عظيمة، فدعونا نجعل أفعالنا الخاصة كذلك. الأفعال تملك مطاطية لا متناهية، وأقلها يقر بأنه الهواء السماوي قد نفخ في حجمه حتى بات يخسف الشمس والقمر. دعونا نسعى إلى سلام واحد عن طريق الأمانة. دعني أتمسك بواجباتي. لماذا تراني محتاجاً إلى التسكع في مواقع التاريخ الإغريقي والإيطالي وفلسفته قبل أن أكون قد أديت واجبي إزاء المسؤولين عني؟ كيف أجرؤ على قراءة حملات واشنطن عندما لا أكون قد أجبت على مراسلاتي الخاصة؟ ألا يعتبر هذا اعتراض مبرراً على الكثير من قراءتنا؟ إن التطلع صوب جيراننا انصراف جبان عن عملنا. إنه تلصص. يقول بايرون عن جاك بنتينغ، «لم يعرف ما يقول، ولذلك شتم.»

بوسعي أن أقول عن استخدامتنا للكتب المنافي للعقل ـ لم يعرف ما يفعل، ولذلك

قرأ. لا أستطيع أن أجد ما أملأ به وقتي، فأجد «حياة برانت». إنه إطراء باذخ أقدمه لبرانت، أو للجنرال شويلر، أو للجنرال واشنطن. إن وقتي يجب أن لا يقل شأناً عن وقتهم ـ وحقائقي، وشبكة علاقاتي يجب أن لا تقل شأناً عن حقائقهم وشبكة علاقاتهم. أفضل أن أؤدي عملي بالجودة التي أدوا بها عملهم لكي يلجأ المتعطلون الآخرون، إن شاؤوا، إلى مقارنة نسيجي بنسيج هؤلاء ليجدونه مماثلاً لأفضل مالديهم.

هذه المبالغة في تقدير إمكانات بول وبيركليس، وفي بخس إمكاناتنا الخاصة، تأتي من إهمال حقيقة الطبيعة المتماثلة. لم يكن بونابرت يعرف سوى حسنة واحدة، وقد كافأ بالطريقة والأداة نفسها الجندي الجيد، والفلكي الجيد، والشاعر الجيد، واللاعب الجيد. يستخدم الشاعر أسماء قيصر، وتيمورلنك، وبونديوكا، وبليزاريوس؛ ويتسخدم الرسام الحكاية المتوفرة عن مريم العذراء، وبولص وبطرس. لذلك فهو لا يراعي طبيعة هؤلاء الأشخاص العارضين، هؤلاء الأبطال المدخرين. لو كتب الشاعر دراما صادقة لكان هو قيصر وليس الشخص الذي يلعب دور قيصر؛ إذن لاحتاز نفس نوع التفكير، وعاطفة بنفس النقاء، وذكاء بنفس الحدة، وحركات بنفس السرعة، باذخة ومتعالية، وقلباً بنفس العظمة، مقداماً ومترعاً بذاته، قادراً على أن يحمل على أمواج حبه وأمله كل ما يعتبر وطيداً ونفسياً في العالم ـ من قصور. وجنائن، وأموال، وجنود، وممالك ـ محدداً قيمته التي لا تضاهى بما يسبغه من ازدراء على هذه الزينات التي يتحلى بها الناس، وإذن لاستطاع ان يستنهض الأمم. ليؤمن الإنسان باللّه، لا بالأسماء، والأماكن، والأشخاص. لتذهب الروح العظيمة المتجسدة في هيأة إمرأة، فقيرة وحزينة ووحيدة، في هيأة دوللي أو جوان، لكي تخدم وتكنس الغرف، وتجلو الأرضيات، لكن أشعة نهارها الساطعة لا يمكن أن تحجب أو تخفى، ولسوف يبدو الكنس والجلي على التو أفعالاً جميلة وسامية، قمة الحياة الإنسانية واشعاعها، ولتناول جميع الناس المكانس والمماسح لحين تكرس الروح العظيمة نفسها في شكل آخر وتقوم بعمل آخر فيصبح ذلك الفعل زهرة كل الطبيعة الحية ورأسها.

نحن أدوات قياس الضوء، نحن الورقة الذهبية أو غلاف الصفيح الذي يقيس تراكمات العنصر الرائق. وإننا لنتعرف على الآثار الأصيلة للنار الحقيقية من خلال كل وجه من الوجوه المليون التي تتنكر بها.

٥

الحب

كل وعد من وعود الروح يتحقق بأشكال لا حصر لها، وكل مسرة من مسراتها تنضج لتتحول إلى حاجة جديدة. فالطبيعة، المتدفقة، المتطلعة قدماً، التي لا يمكن احتواؤها تلتمس من الإحساس الأول باللطف إحساناً تضيع في نوره العالم كل الإعتبارات الخاصة. إن المدخل إلى هذه الهناءة يكون في علاقة خصوصية وحنونة للمرء بالآخر، التي تعتبر فتنة الحياة الإنسانية، والتي تمسك بالإنسان في فترة معينة، مثل حماسة أو غضب إلهي، وتحدث الثورة في عقله وجسمه؛ توحده بجنسه، وتنذره للعلاقات المنزلية والمدنية، وتدخله بتعاطف جديد في الطبيعة، وترتقي بقوة حواسه، وتفتح المخيلة، وتضيف إلى شخصيته سمات بطولية وقدسية، وتبني الزواج، وتمنح الدوام للمجتمع الإنساني.

إن الإرتباط الطبيعي للإحساس بالحب مع ذروة زمن الدم يبدو كما لو أنه يشترط على المرء، لكي يصوره بألوانه الحية التي يجدها كل شاب وفتاة مطابقة لتجربته النابضة، أن لا يكون مسناً. إن خيالات الشباب العذبة ترفض أدنى مذاق للفلسفة الناضجة، باعتبارها تجمد بفعل السن والحذلقة فورتهم الأرجوانية. ،ولذلك فإني أرمي إلى اقتطاع الصلابة والرزانة غير الضروريين في أولئك الذين يشكلون محكمة الحب وبرلمانه. لكنني سوف أستجير بمن سبقوني من أولئك الرقباء المستعصيين. لأنه ينبغي الأخذ بنظر الإعتبار أن هذه العاطفة التي نتحدث عنها، رغم أنها تبدأ لدى الشباب، فإنها لا تتخلى عن الكبار، أو أنها، بالأحرى، لا تسمح لأحد من خدامها بأن يكبر في السن، بل هي تجعل المشاركين من المسنين لا يقلون رقة عن الفتاة العذراء، إنما على نحو مغاير وأكثر نبلاً. ذلك لأنها نار ما أن تضرم جمراتها الأولى في ركن ضيق من صدر الإنسان، بعد أن تكون قد قبست شرارتها الشاردة من قلب انسان آخر، حتى تتوهج وتكبر حتى تسطع وعلى حشود من الرجال والنساء وتدفئها، على القلب الكلي لجميع، وبهذا تضيء كامل العالم وكل الطبيعة بلهيبها السخي ولهذا فإنه من غير المهم

أن نكون في العشرين، أو الثلاثين أو الثمانين من العمر. عند تصدينات لوصف هذه العاطفة. فا الذي يرسمها في الفترة الأولى يفقد شيئاً من سماتها المتأخره، كما يفقد من يرسمها في المرحلة الأخيرة شيئاً من سماتها المبكرة. وإننا لنرجو أن نتمكن بالأناة ومساعدة آلهات الفن أن نلم بنظرة إلى القانون الذي سوف يصف الحقيقة ذات الشباب والحسن الدائم، تلك العاطفة التي تحتل المركز على نحو يجعلها تكشف نفسها للعين من أية زاوية ينظر منها إليها.

الشرط الأول هو أن علينا أن ندع جانباً التمسك الوثيق والمتشبث بالحقائق، وأن ندرس هذا الإحساس كما يتجلى في الأمل، لا في التاريخ. لأن كل إنسان يرى حياته ممسوخة ومشوهة، لأن حياة الإنسان تصوغها مخيلته. كل انسان يرى بقعة خطأ تلطخ تجربته، في حين تبدو تجارب الآخرين جميلة ومثالية. دع أي إنسان يعود إلى تلك العلاقات العذبة التي شكلت جمال حياته، التي منحتا أصدق الزاد والإرشاد، وستجده ينكمش ويتأوه. أواه! لسبب لا أدريه تزرع ندامات عديدة في سن النضج المرارة في ذكرى البهجة المتفتحة، وتغطي كل اسم محبوب. جديل هو كل ما نراه حقيقة أو نبصر به من زاوية الذهن. لكن كل الأشياء تحمض إذا ما نظرنا إليها كتجربة. فالتفاصيل كآبة؛ أما الخطة فجميلة ونبيلة. في العالم الفعلي ـ مملكة الزمان والمكان المؤلمة ـ يسكن الهم والقلق والخوف. في الفكره، في المثالي، يوجد الجذل غير الزائل، ووردة الحبور. حوله تغني كل عرائس الشعر. لكن الأسى يعلق بالأسماء والأ شخاص والإهتمامات التي تنتمي إلى اليوم والأمس.

يمكن رؤية الميل القوي للطبيعة في النسبة التي يستحوذ عليها هذا الموضوع الخاص بالعلاقات الشخصية من أحاديث المجتمع. فهل هناك أمر نريد أن نعرفه عن شخص مهم أكثر من مسيرته في تاريخ هذه العاطفة؟ أية الكتب في المكتبات أكثر انتشاراً؟ كيف تؤجج روايات هذه العاطفة مشاعرنا عندما تسرد الحكاية بأي قبس من شرارة الحقيقة والطبيعة! وأي شيء يشد الإنتباه، في دورة الحياة، أكثر من أي مقطع ينم عن ميل بين طرفين؟ قد لا نكون قد رأيناهما من قبل ولن نلتقي بهما ثانية. لكننا نلمحهما يتبادلان نظرة أو يشفان عن عاطفة عميقة، فلا نعود غرباء. فنحن نفهمهما، ونحمل اهتماماً ساخناً بتطور قصة غرامهما كل البشرية تحب العاشق. إن المظاهر المبكرة للطف والرضا هي أكثر صور الطبيعة فوزاً. إنها فجر الرقة والتمدن في ليل

الفظاظة والجلافة. يعاكس فتى القرية الفظ الفتيات عند باب المدرسة؛ لكنه اليوم يخف راكضاً إلى المدخل ويقابل الفتاة حلوة تضع حقيبتها المدرسية؛ يحمل الكتب ليساعدها، ويبدو له على الفور كما لو أنها ابتعدت عنه إلى الأبد، وتحولت إلى مجال مقدس. إنه يجري بفظاظة بين حشد الفتيات، لكن واحدة فقط توقفه عند حده، فيتعلم هذان الجاران الصغيران، اللذان كانا قريبين جداً للتو، كيف يحترم كل منهما شخصية الآخر. أو، من ذا الذي يستطيع أن يحول عينيه عن الأساليب الجذابة نصف المقصودة، ونصف التلقائية التي تعتمدها طالبات المدارس حين يقصدن مخازن الريف ليبتعن شلة حرير أو طبقة ورق، ويتحدثن على مدى نصف ساعة حول لا شيء مع صبي المخزن ذي الوجه العريض والطبع الطيب. في القرية يكون الجميع في مساواة تامة، وهي الحالة التي يسر لها الحب، فبدون المغازلة، تتدفق الطبيعة الودودة السعيدة للمرأة في هذا القيل والقال اللطيف قد لا تمتلك الفتاة سوى قسط قليل من الجمال، لكنهن، بوضوح، يقمن أطيب العلاقات وأكثرها حميمية مع الصبي الطيب، ناهيك عن مرحهن وصراحتهن، حول أدغار وجوناس وأليمرا، ومن دعي إلى الحفلة، ومن رقص في مدرسة الرقص، ومتى ستبدأ مدرسة الغناء، وغير ذلك من النوافل التي تهدل بها الأطراف المتحادثة. بين يوم وآخر يرغب الصبي في اتخاذ زوجة، ولسوف يعرف بصدق وإخلاص أين يجد رفيقة مخلصة وحلوة، دون أية مجازفة كتلك التي استهجنها ميلتون بصفتها حادثاً يقع للمثقفين والرجال العظام.

قيل لي إنني في إحدى خطبي العامة قد كنت فاتراً بشكل غير مبرر إزاء العلاقات الشخصية من خلال الاحترام الذي أبديته للذكاء. لكنني الان أكاد انكمش من تذكر مثل تلك الكلمات السيئة. لأن الأشخاص هم عالم الحب، وليس بوسع أكثر الفلاسفة بروداً أن يوفي دين الروح الشابة المهومة في الطبيعة لسلطة الحب، دون أن يقع تحت إغراء الارتداد عن قول أي كلام يحمل ازدراء للغرائز الاجتماعية، بصفته خيانة للطبيعة. لأنه برغم كون النشوة العلوية المنزلة من السماء لا تصيب إلا من هم في عمر طري، ورغم أننا نادراً ما نستطيع بعد سن الثلاثين أن نرى جمالاً يتجاوز كل مقارنة أو تحليل ويخرجنا عن طورنا، فإن ذكرى تلك الرؤى تتجاوز كل الذكريات الأخرى، وتشكل إكليلاً من الزهور على الجباه المسنة. لكن هنالك حقيقة غريبة؛ فقد يبدو لرجال كثيرين أنهم، عند مراجعة تجربتهم، لا يملكون في دفتر حياتهم صفحة أجمل من الذكرى

اللذيذة لبعض الفترات التي أضفت فيها العاطفة ضرباً من السحر، يتخطى الجاذبية العميقة لحقيقتها الخاصة، على مجموعة من الظروف العرضية والتافهة فهم حين ينظرون إلى وراء قد يجدون أن بضعة أشياء لم تكن السحر نفسه تبدو لهذه الذكرى التي تتلمس طريقها أكثر حقيقية من السحر نفسه الذي ضمخها. ولكن مهما كانت تفاصيل تجربتنا، فما من انسان نسي ورود تلك القوة على قلبه وذهنه، وهي التي أعادت خلق الأشياء من جديد، والتي كانت بالنسبة له فجر الموسيقي، والشعر، والفن، والتي جعلت وجه الطبيعة يشع بنور أرجواني، والصبح والليل مفاتن مختلفة، عندما كانت نبرة من صوت محدد تجعل القلب مقيداً، وكانت أتفه الظروف المرتبطة بشخص معين تحفظ في عنبر الذاكرة، عندما كان كل كيانه يتحول إلى عين حين يحضر الآخر وإلى ذاكرة حين يغادر؛ عندما يتحول الشاب إلى مراقب شبابيك، ومتمعن في قفاز، أو حجاب، أو شريط، أو عجلات عربة؛ عندما لم يكن هناك مكان منعزل بما يكفي وصامت بما يكفي بالنسبة لذلك الذي ينعم بصحبة أغنى وحوارات أعذب في أفكاره الجديدة تفوق ما يمكن أن يوفر له أقدم الأصدقاء حتى وان كان أفضل الأصدقاء وأنقاهم لأن ملامح، وحركات، وكلمات المحبوب ليست، مثل الرسوم الأخرى، مكتوبة بالماء، إنما هي، كما قال بلوتارك «مطلية بالنار» وهي تجعل تأملات منتصف الليل:

«أنت لم تغادري حين غادرت، أينما كنت،
فقد تركت فيه عينيك الساهرتين،
وقلبك المحب.»

في ظهيرة العمر وعصره تجدنا لا نزال نخفق لذكرى الأيام التي لم تكن فيها السعادة سعيدة بما يكفي، إنما كان عليها أن تخدر بنكهة الألم والخوف، فقد مس جوهو السر من قال عن الحب،

«كل المتع الأخرى لا تساوي آلامه»

عندما لم يكن النهار طويلاً بما يكفي، وكان على الليل أيضاً أن ينفق في التذكارات العارمة، عندما كان الرأس على الوسادة يغلي بالفعلة الكريمة التي عقد العزم عليها؛ عندما كان ضوء القمر حمى مستحبة، وكانت النجوم رسائل، والأزهار شيفرات والهواء مصاغاً في أغنية؛ عندما كانت كل الأعمال خارجة عن الصدد، وكل الرجال والنساء الساعين جيئة وذهاباً في الشوارع، مجرد صور.

تعيد العاطفة بناء العالم بالنسبة للشاب. إنها تجعل كل الأشياء حية ومهمة. تصبح الطبيعة واعية. كل طائر على أغصان الشجر صار الآن يغني لقلبه وروحه. وصار الغيم حين ينظر إليه وجوهاً. صارت أشجار الغابة، والعشب المتماوج والزهور المتلصصة ذكية؛ وإنه ليكاد يخشى ائتمانها على السر الذي تبدو متلهفة له. إلا أن الطبيعة تترفق وتتعاطف فهو يجد في العزلة الخضراء مسكناً أحب إليه من مسكنه بين البشر:

رؤوس النوافير والبساتين عديمة المسالك
الأماكن التي تحبها العاطفة الشاحبة
التمشي في ضوء القمر، عندما تكون جميع الطيور
قد خلدت إلى مساكنها، باستثناء الوطاويط والبوم،
جرس يدق منتصف الليل، وآهة عابرة ـ
تلك هي الأصوات التي نتغذى عليها.

انظر إلى المجنون الرائع في الغابة! إنه قصر للمشاهد والأصوات العذبة؛ إنه يذوب؛ إنه رجل مرتين؛ يسير وذراعاه على خصره؛ يحدث نفسه؛ يخاطب العشب والأشجار؛ يتحسس دماء البنفسج، والبرسيم، والزنبق في عروقه؛ ويسير مع الجدول الذي يبلل قدمه.

الحرارة التي فتحت مداركه على الجمال الطبيعي جعلته يعشق الموسيقى والشعر. إنها حقيقة مرصودة تلك التي تقول أن الناس الذين لا يكتبون على نحو طيب تحت أي ظرف آخر، يكتبون شعراً جيداً تحت وحي العاطفة.

القوة نفسها تجعل العاطفة تكسو طبيعته إنها توسع الإحساس؛ وهي تجعل المهرج دمثاً وتعطي الجبان قلباً. إنها تبث قلباً وشجاعة في أشد الناس حقارة وخسة وتجعله يتحدى العالم، وهكذا فهي وحدها التي تحمل سيماء الشيء المحبوب. وهي بإعطائه للآخر فيه تعطيه لنفسه. إنه إنسان جديد، بمدارك جديدة، وأغراض حادة جديدة، شخصية وأهداف دينية. إنه لم يعد يخص أسرته ومجتمعه؛ فهو شيء، وهو شخص، وهو روح.

دعونا هنا نتفحص عن كثب طبيعة ذلك التأثير الذي يتمتع بهذه السيطرة على شباب بني البشر، فالجمال، الذي نختفي الآن بانكشافه للإنسان، ونرحب به كما نرحب

بالشمس متى أشرقت، والذي يشيع الرضا في كل فرد وفيما بين الأفراد بعضهم البعض، يبدو كافياً في نظره. لا يستطيع العاشق أن يرسم لمحبوبته في خياله صورة بائسة ووحيدة. فمثل الشجرة المزهرة، بارعة الرقة، المتبرعمة، التي تنشر اللطف تكون صحبتها وهي تعلم عينه لماذا ظهر الحب والرقة في الصورة وهما يرصدان خطوات الجمال إن وجودها يجعل العالم ثرياً ورغم كونها تقصي جميع الأشخاص الآخرين عن إهتمامه بصفتهم مبتذلين ولا شأن لهم فإنها تعوضه عن طريق تحويل وجودها إلى شيء واسع، دنيوي، غير شخصي، بحيث تبدو الفتاة له ممثلة لكل الفضائل والأشياء المختارة. فلهذا السبب لا يرى العاشق أبداً أي شبه شخصي بين محبوبته وأي من مثيلاتها أو سواها. يرى أصدقاؤها فيها شبهاً بأمها، أو أخواتها، أو أشخاص لا يمتون لها بالقرابة. أما العاشق فلا يرى فيها شبهاً إلا بأمسيات الصيف والصباحات الماسية، بأقواس قزح وأغنية الطيور.

قال القدماء عن الجمال أنه تزهير الفضيلة. من ذا الذي يستطيع أن يحلل الفتنة التي لا اسم لها والتي تطل من هذا الوجه أو القوام أو ذاك؟ إننا نتأثر بمشاعر اللطف والرضى، لكننا لا نستطيع أن نعرف إلى أين تشير هذه العاطفة اللذيذة، ذلك الشعاع الشارد. فهي تتلف في المخيلة عند أية محاولة لإحالتها على التنظيم. كما أنها لا تشير إلى أي من علاقات الصداقة أو الحب المعروفة أو الموصوفة في المجتمع، ولكن، كما يبدو لي، إلى عالم آخر لا يمكن بلوغه، إلى علاقات من الرهافة والعذوبة السماوية، إلى ما يشي به الورود والبنفسج وينم عنه. ليس بوسعنا أن نقارب الجمال. فطبيعته مثل بريق طرق الحمامة المتلألىء؛ مرفرفة وسريعة الزوال. ومن هنا تجده يشبه معظم الأشياء الممتازة، التي تمتلك جميعاً هذه الخاصية القوس قزحية، والتي تتحدى كل محاولات التخصيص والإستخدام. أي شيء آخر قصده جان بول ريختر عندما قال للموسيقى، «إليك عني! إليك عني! إنك تحدثينني عن أمور ما وجدتها طوال حياتي اللامتناهية ولن أجدها». الطلاقة نفسها يمكن ملاحظتها في كل عمل من الفنون التشكيلية التمثال، إذن، يكون جميلاً عندما يبدأ بأن يكون غير مفهوم، عندما يخرج من النقد ولا يعود قابلاً للتعريف بواسطة الفرجار وعصا القياس، ويتطلب مخيلة نشيطة تواكبه وتقول ما هو أثناء الفعل. إن إله النحات أو بطله يقدم دائماً في حالة الانتقال من الوضع القابل للتقديم للحواس إلى الوضع غير القابل لذلك. عندها يتوقف، أولاً، عن أن

يكون حجراً. الملاحظة نفسها ينطبق على الرسم. أما بالنسبة للشعر، فإن النجاح لا يتحقق عندما يهدهد الشعر ويرضى، إنما عندما يدهشنا ويضرم فينا شوقاً جديداً نحو ما لا ينال. وعنه تساءل لاندور «ألا يمكن إرجاعه إلى حالة أنقى من الإحساس والوجود.»

بالطريقة نفسها، فإن الجمال الشخصي يكون فاتناً ويكون نفسه عندما لا يرضي أي غرض، عندما يصبح حكاية بلا نهاية، عندما يوحي بالأشعة والرؤى وليس بأي تلذذ أرضي، عندما يجعل الرائي يشعر بقلة شأنه، عندما لا يشعر بأن له فيه حقاً، حتى وإن كان قيصر، فهو لا يشعر بأنه حقه فيه يزيد عن حقه في قبة السماء أو روعة الغروب.

من هنا يقوم القول، «لو أني أحبك، فما الذي يعنيك في ذلك؟» إننا نقول ذلك لأننا نشعر أن ما نحبه لا يتبع إرادتك، إنما هو فوقها. إنه ليس أنت، بل شعاعك. إنه الشيء الذي لا تعرفينه في نفسك، ولن تعرفيه أبداً.

إن هذا يتفق مع فلسفة الجمال الرفيعة التي عني بها الكتاب القدماء؛ لأنهم قالوا أن روح الإنسان، المتجسدة هنا على الأرض، قد خرجت هائمة في البحث عن ذلك العالم الآخر العائدة لها والذي جاءت منه إلى هذا العالم، لكنها سرعان ما انشدهت بضوء شمس الطبيعة، وأصبحت غير قادرة على رؤية أشياء أخرى غير تلك التي تنتمي إلى هذا العالم، والتي ليست سوى ظلال للأشياء الحقيقية ولهذا وضع الإله مجد الشباب أمام الروح، لكي تستخدم الأجسام الجميلة كوسائط تساعدها في استذكار الجمال والخير السماويين؛ عندما رأى الرجل تلك الشخصية في شكل أنثى ركض صوبها ووجد السرور الأعظم في تأمل شكل، وحركة، وذكاء تلك الشخصية، لأنها أوحت له بوجود ذلك الشيء الموجود داخل الجمال، والذي هو سبب الجمال نفسه.

إلا ان الروح تصبح فظة من كثرة التعامل مع المواضيع المادية، وتنقل مصدر إشباعها إلى الجسد، عندها لا تجني سوى الهم ـ لأن الجسد غير قادر على انجاز الوعد الذي يعد به الجمال، ولكن إذا ما اجتازت الروح الجسد عند تقبلها لإيماءات تلك الرؤى والإيحاءات التي يوجهها الجمال إلى عقلها واستطاعت أن تعجب بلسمات الشخصية فراح العاشقان يتأمل أحدهما الآخر في مخاطبتهما وأفعالهما، عندها يعبران إلى بلاط الجمال الحقيقي، ويؤججان به حبهما، ثم عندما يخمد هذا الحب الميل

الوضيع، كما تخمد الشمس النار عندما تسطع على الموقد، يصبح العاشقان نقيين ومقدسين. إن العاشق، بتعامله مع ما هو في حد ذاته ممتاز، ورفيع، وعادل، يصل إلى حب هذه المزايا على نحو أكثر دفئاً وتقديرها على نحو أسرع. ثم يتحول من حبها في شخص واحد إلى حبها في الكل، وهكذا تكون الروح الجميلة المفردة باباً ينفذ من خلاله إلى صحبة كل الأرواح الصادقة والنقية. في صحبته الخاصة لرفيقته يحصل على رؤية أوضح لكل بقعة أو لطخة يمكن أن تكون قد لحقتها من هذا العالم، وبهذا يكون قادراً على تشخيصها، ويتم ذلك بسرور متبادل لكونهما الآن قد أصبحا قادرين على أن يجددا، بدون إساءة، الهنات والهفوات لدى أحدهما الآخر، وتقديم العون والمواساة لأحدهما الآخر وهما يعالجان بعضهما الآخر. وعن طريق رؤية سمات الجمال القدسي في الأرواح العديدة، وتمييز ما هو سماوي في كل روح عن الوصمات التي لحقتها من هذا العالم، يرتقي العاشق إلى أسمى مراتب الجمال، إلى حب القداس والإحاطة بها، على درجات هذا السلم المكونة من الأرواح المخلقة.

أخبرنا الحكماء الحقيقيون عبر العصور كلها عن شيء من هذا القبيل بخصوص الحب. إن هذا المعتقد ليس بالقديم، ولا هو بالجديد أيضاً. فإذا كان افلاطون، وبلوتارك، وأبيوليوس قد قالوا، فقد فعل ذلك أيضاً بترارك، وأنجيلو، وميلتون. وهذا المعتقد بانتظار تفتح جديد يتعارض ويتنافى مع تلك الحصافة تحت الأرضية التي تسود الزيجات بكلمات تتعلق بالعالم الأرفع، بينما تجوس العين في القبو؛ حتى أن أكثر كلامها جدية يحمل نكهة لحم الخنزير ومغاطس الذرور - والأسوأ من ذلك أن هذه الحسية عندما تتدخل في تنشئة الفتيات الشابات، تتلف أمل الطبيعة الإنسانية وميلها عن طريق التبشير بأن الزواج ليس سوى الاقتصاد المنزلي، وأن حياة المرأة ليس لها من هدف سواه.

لكن حلم الحب هذا وإن كان جميلاً، فهو ليس سوى مشهد واحد من مسرحيتنا. فالروح، في سيرها من الداخل إلى الخارج، توسع دائرتها، مثل حصاة ترمى في بركة، أو الضياء المنبعث عن المدار. تسقط أشعة الروح أولاً على الأشياء الأكثر قرباً، على كل لعبة ووعاء، على المرضعات والخدم، على البيت والفناء والعابرين، على دائرة المعارف ضمن الأسرة، على السياسة والجغرافيا والتاريخ. لكن الأشياء ما تنفك تتجمع تبعاً لقوانين عليا أو داخلية. تفقد الجيرة، والحجم، والأرقام، والعادات والأشخاص سلطتهم

علينا بالتدريج. تسيطر لاحقاً علاقة السبب بالنتيجة، والانتماءات الحقيقية، والتوق إلى انسجام الروح مع ظروفها، والغريزة التقدمية المثالية، عندها تصبح الخطوة المتقهقرة من العلاقات الأرفع إلى الأحط مستحيلة. وهكذا يلزم أن يصبح حتى الحب، الذي يمثل تأليه الأشخاص، أقل شخصية كل يوم. في البداية، لا ينم عن الحب ما يدل على ذلك. فالشاب والفتاة اللذان يسترقان النظر إلى أحدهما الآخر عبر الحجرات المزدحمة بعيون مفعمة بالفهم المتبادل، قلما يفكران بالثمرة الثمينة التي سيطرحانها على المدى البعيد هذا الحافز الخارجي الجديد. تبدأ عملية الإنبات أولاً في تململ القشرة والبراعم الورقية. ينتقلان من تبادل النظرات إلى تعابير التودد، والشهامة، ومن ثم إلى العاطفة المشبوبة، إلى تبادل المواثيق والزواج. إن العاطفة ترى في موضوعها وحدة مكتملة. فالروح مجسدة بالكامل، والجسد مستحيل إلى روح:

«كانت دماؤها النقية والفصيحة
تنطق في خديها، منمقة إلى الحد
الذي يكاد يحمل المرء على القول أن جسدها يفكر.»

إن روميو، حتى وهو ميت، ينبغي أن يقطع إلى نجمات صغيرة تجعل السماوات أحلى. فالحياة، بالنسبة لهذا الثنائي لا تهدف إلى، ولا تطلب سوى جوليت، أو روميو. فالليل، والنهار، والتأملات، والمواهب، والممالك، والديانة كلها متضمنة في هذا الكيان الممتلئ بالروح، وهذه الروح التي كلها كيان. يبتهج العشاق في التحبب، وتبادل مواثيق الحب، والمقارنة بين مشاعرهم. وعندما يخلون لأنفسهم، يسلون أنفسهم بالصورة التي يتذكرونها عن الآخر. هل يرى الآخر النجمة ذاتها، الغيمة المتلاشية نفسها، هو يقرأ الكتاب نفسه، ويحسر العاطفة ذاتها التي تبهجني الآن؟ يحاولون وزن شعورهم، يحسبون مزايا باهظة، وأصدقاء، وفرص، ومزايا، ويبتهجون إذ يكتشفون أنهم يمكن أن يتخلوا بسرور وعن طيب خاطر كل ذلك فدية للرأس الجميل المحبوب كي لا تمس شعرة منه. لكن قدر الإنسانية يحل بهؤلاء الصغار. إذ يحيق بهم الخطر، والحزن، والألم كما يحيق بالجميع. يصلي الحب. ويعقد المواثيق مع القوة الأزلية من أجل هذا الرفيق العزيز. الإتحاد الذي يحقق على هذا النحو والذي يضفي قيمة جديدة على كل ذرة في الطبيعة ـ من حيث كونه يحول كل خيط في نسيج العلاقة إلى شعاع ذهبي ويغمس الروح في عنصر جديد أحلى ـ هو مجرد حالة مؤقتة. فالزهور، واللآلئ، والشعر،

والتأكيدات، ولا حتى السكن في قلب آخر لا تستطيع أن ترضي على الدوام أن ترضي الروح الرهيبة التي تسكن الطين. فهي تنتزع نفسها في النهاية من هذه المستحبات، بصفتها ألاعيب، تضع اللجام وتتطلع صوب الأهداف الكونية والواسعة. إن الروح الموجودة في ذات كل منهما، في توقها إلى الغبطة الكاملة، تشخص الهنات، والعيوب، والنواقص في سلوك الآخر. من هنا تظهر المفاجأة، والمجادلة، والألم. ومع ذلك فإن ما جذبهما إلى بعضهما كان معالم اللطف، ودلائل الفضيلة، وهذه الفضال موجدة هناك، مهما انكسفت. فيه تظهر وتعود إلى الظهور وتستمر في الجذب؛ لكن النظرة تتغير، تتخلى عن العلامة، وتلتصق بالجوهر. من شأن هذا أن يعالج العاطفة المجروحة. في هذه الأثناء، وبينما تنصرم الحياة، يظهر أن الأمر لعبة تبادل وتمازج في جميع المواقع المحتملة للطرفين، من أجل استخدام كل مصادرهما وتعريف كل منهما بقوة الآخر وضعفه. لأن طبيعة هذه العلاقة وغاياتها هي أن يمثل كل منهما الطبيعة الإنسانية للآخر. إن كل ما يوجد في العالم، وما ينبغي أن يعرف، متداخل بحذق في نسيج الرجل، والمرأة

إن الشخص الذي يجعله الحب ملائماً لنا،
مثل المن، يحمل في ذاته مذاق كل شيء.

العالم يدور، وتتغير الظروف في كل ساعة. تظهر عند الشبابيك الملائكة التي تقطن محراب الجسد، كما تظهر العفاريت والرذائل أيضاً. فإن وجدت الفضيلة، فإن كل الرذائل المعروفة، تعترف وتهرب. ينضج الزمن في صدر كل منهما العاطفة التي كانت مشبوبة، فتفقد من العنف ما تكسبه من المدى، فتتحول إلى تفاهم طيب شامل. يتخلى كل منهما، دونما تذمر، عن صاحبه للمهمات الحميدة المخصصة للرجال والنساء لكي ينفذونها منفصلين في وقتها المناسب، ويستبدلان العاطفة التي لم تكن في الماضي قادرة على مفارقة مرأى هدفها، بنوع من التباعد الرضي عن مشاغل الآخر، سواء كان حاضراً أو غائباً. ثم يكتشفا في النهاية أن كل ما شدهما معاً في البدء - تلك الملامح القدسية، تلك الفتنة المسحورة - كان قصدياً، وكانت له غاية موضوعة، مثل الدعائم التي قام عليها البيت؛ وتطهير الذهن والفؤاد من عام إلى عام هو الزواج الحقيقي، المعد والمتوقع منذ البداية، والذي يتم بالكامل فوق وعيهما. عند النظر إلى هذه الغايات التي تحل بشكل متغاير ومتلازم على شخصين، رجل وامرأة، يغلق عليهما باب بيت واحد

كيما ينفقا في الصحبة الزوجية أربعين أو خمسين سنة، لا أستغرب من التأكيد الذي تنبأ به القلب بهذه الأزمة منذ الطفولة المبكرة، ولا من الجمال السابغ الذي تشيد منه الغرائز عريشة الزوجية، وتتبارى الطبيعة والفطنة والفنون فيما بينها في ما تقدم إلى انشودة الزفاف من هدايا وأغنيات.

وهكذا نوضع قيد التمرين على حب لا يعرف جنساً، ولا شخصاً، ولا انحيازاً، إنما يسعى إلى الفضيلة والحكمة في كل مكان، بهدف زيادة الفضيلة والحكمة. إننا ملاحظون بطبعنا، ولذا نحن متعلمون. تلك هي حالنا الدائمة. لكننا غالباً ما ندفع إلى الإحساس بأن عواطفنا ليست سوى خيام ليل. تتغير مواضيع ميولنا، وإن جاء ذلك بطريقة بطيئة ومؤلمة، كما تتغير مواضيع أفكارنا. ثمة لحظات تتحكم العواطف فيها بالإنسان وتستهلكه وتجعل سعادته معتمدة على شخص واحد أو أشخاص. لكن العقل يظهر ثانية في حالة الصحة ـ بسقفه المتسامق، الساطع بمجرات الأضواء الثابتة، ويتوجب على المحبات الدافئة والمخاوف التي اكتسحتنا كالغمام أن تفقد طبيعتها المحددة وتمتزج بالله، لتبلغ كمالها. إنما علينا أن لا نخش فقدان أي شيء في إرتقاء الروح. إذ يمكن الإعتماد على الروح حتى النهاية. إن ما هو جميل جداً وجذاب جداً مثل هذه العلاقات ينبغي أن لا يخلف ولا يعوض إلا بما هو أكثر جمالاً، وهلم جرا حتى الأبد.

٦

الـصـداقـة

لدينا من الطيبة أضعاف مضاعفة لما تم ذكره. رغم كل الأنانية التي تثلج العالم مثل رياح شرقية، فإن الأسرة البشرية بكاملها تستحم بعنصر من الحب مثل الأثير الرقيق. ما أكثر الأشخاص الذين نلتقيهم في البيوت، ممن نكلمهم إلا لماماً، ومع ذلك فنحن نجلهم ويجلوننا! ما أكثر من نراهم في الشارع، أو نجلس معهم في الكنيسة ممن نحتفي، بصمت، بوجودنا معهم! إقرأ لغة هذه الشعاعات الشاردة. القلب يعرف.

إن أثر الانغماس في هذا الشعور الإنساني هو بهجة قلبية عميقة. في الشعر كما في الكلام العادي تشبه عواطف الرضا والخير التي يحس بها المرء إزاء الآخرين بالآثار المادية للنار، فهذه الإشعاعات الداخلية السامية مثل النار في سرعتها، أو إنها أسرع بكثير، وأنشط، وأكثر منها إشاعة للبهجة. فهي، من أعلى درجاتها التي تمثل الحب المتأجج إلى أدنى درجاتها التي تمثل النوايا الطيبة، تصنع عذوبة الحياة.

إن قدراتنا الذهنية والفاعلة تزداد بازدياد مشاعرنا. يجلس المثقف للكتابة، فلا تسعفه كل سنوات تأمله بفكرة جيدة أو تعبير موفق؛ ولكن لو اقتضى الأمر أن يكتب رسالة إلى صديق، فإن جحافل الأفكار الرقيقة تطرح نفسها، على كل يد من يديه، بكلمات مختارة. تأمل الخفقات الذي يسببه مقدم الغريب في أي منزل تزدهر في الفضيلة واحترام الذات. غريب يحمل توصيته يُنتظر ويُعلن عن وصوله، فيحتاج قلوب الأسرة كلها اضطراب هو مزيج ما بين الارتياح والألم. يكاد وصوله أن يحل الخوف في القلوب التي تنوي الترحيب به. البيت قد نظف، كل شيء وضع في محله على التو، واستبدلت السترة القديمة بالجديدة. إن عليهم أن يعدوا عشاء إذا ما استطاعوا. فعن الغريب الذي يأتيك بتوصية لا يبلغك من الآخرين سوى الخبر الطيب. ولا نسمع عنه إلا ماهو طيب وجديد. إنه يمثل لنا الإنسانية. إنه ما نتمنى. وبعد أن تصورناه وكسوناه، فإننا لتنساءل عما يمكن أن يكون عليه سلوكنا وحديثنا مع رجل كهذا، ونشعر بالارتباك نتيجة الخوف. الفكرة نفسها ترتقي بالحديث معه. فنحن نتكلم على نحو أفضل مما

نحتاج. تجدنا نتمتع بخيال نشيط، وذاكرة غنية، وقد استأذن منصرفاً عنا شيطاننا الأخرس. على مدى ساعات طوال نتمكن من متابعة سلسلة من الحوار الثري، والجميل، والمخلص، المستمد من أقدم التجارب وأكثرها سرية، حتى أن من يجلس جانباً من أقربائنا ومعارفنا، لا بد أن يشعر بالاندهاش الكبير إزاء قدراتنا غير المألوفة. لكن كل ذلك ينتهي ما أن يأخذ الغريب بإدخال ميوله، وتعاريفه، ونواقصه في الحوار. فقد استمع إلى أول، وآخر، وأفضل ما سوف يسمعه منا. إنّه ليس بالغريب الآن. فالفظاظة، والجهل، وسوء التقدير معارف قديمة. الآن، عندما يأتي، سيجد الترتيب، والملابس، والعشاء - ولكن لن يكون هنالك من الآن فصاعداً نبض القلب أو تواصل الروح.

هل يوجد ما يوازي لطف اندفاعات العاطفة هذه التي تصنع لي من جديد عالماً شاباً؟ هل يوجد ما هو في لذاذة اللقاء الراسخ والحق ما بين اثنين، في الفكر، وفي الشعور؟ ما أعذبها خطوات وهيأة الموهوب والصادق وهي تقترب من هذا القلب النابض! في اللحظة التي ننغمس فيها بمشاعرنا، تتغير الأرض؛ فلا شتاء هناك ولا ليل؛ وتتلاشى كل المآسي والمتاعب وحتى الواجبات؛ ما من شيء يملأ الأبدية المتقدمة سوى الشخوص المشعة للأفراد الذين نحبهم. دع الروح تستوثق من أنها في مكان ما من الكون سوف تلتقي بأصدقائها، وسيكون بوسعها أن تظل راضية ومسرورة لوحدها مدة ألف عام.

استيقظت هذا الصباح بإحساس مخلص بالشكر لأصدقائي، القدامى منهم والجدد. ألا يحق لي أن أدعو اللّه بالجميل، وهو الذي يريني نفسه يومياً في هداياه؟ ألوم الصحبة، وأتعلق بالوحدة، ومع ذلك فأنا لست جحوداً إلى الحد الذي أعمى فيه عن رؤية الحكيم، والمحبب، وسامي الذهن عندما يعبرون بوابتي من حين لآخر. إن من يسمعني، ومن يفهمني يصبح خاصتي - ملكاً لي على مدى الدهر. كما أن الطبيعة ليست فقيرة إلى الحد الذي يحول دونها ودون منحي هذه البهجة مرات عديدة، وهكذا نحيك خيوطنا الإجتماعية، في نسيج جديد من العلاقات؛ ومع تزايد الأفكار تجسد نفسها على التوالي، سنجد أنفسنا بالتدريج نقف في عالم جديد من صنعنا نحن، ولا نعود مجرد أغراب وحجاج في عالم تقليدي. جاءني أصدقائي دون أن أسعى إلى ذلك. فالله العظيم وهبني إياهم. أعثر عليهم بموجب الحق الأقدم، بموجب علاقة الفضيلة

السماوية بنفسها، أو بالأحرى لست أنا الذي أعثر عليهم بل أنّ الجانب الإلهي فيّ وفيهم هو الذي يلغي ويتهزأ بالجدران السميكة لشخصية الفرد، وعلاقته، وعمره، وجنسه، وظرفه التي يتلاعب بها عادة، ويجعل الكثيرين واحداً. عميق هو الشكر الذي أدين به لكم، أيها المحبون الرائعون الذين حملتهم لي العالم إلى أعماق جديدة ونبيلة، ووسعتم معنى أفكاري كلها. ذلك هو الشعور الجديد للشاعر الأول ـ شعر بدون توقف ـ قصائد، وأغان، وملاحم، شعر ما يزال يتدفق، أبوللو وآلهات الفن ما زالوا ينشدون. هل سينفصل هؤلاء أيضاً عني، أم ينفصل بعضهم فحسب؟ لست أدري، لكنني لا أخشى ذلك؛ لأن علاقتي بهم نقية إلى الحد الذي يجعلنا نتماسك بالقرابة وحدها، ولما كانت الروح التي تحرس حياتي الإجتماعية، فإنها سوف تمارس القرابة نفسها إلى أي شخص يماثل في نبله هؤلاء الرجال والنساء، حيثما أكون.

إني لأقر بوجود رقة فائقة في الطبيعة في هذه النقطة. يكاد يكون من الخطر بالنسبة لي أن «أسحق السم الحلو للخمرة البكر» الموجود في المشاعر. الشخص الجديد بالنسبة لي حدث عظيم يمنع النوم عني. غالباً ما كانت لدي خيالات رائعة بشأن الأشخاص منحتني ساعات لذيذة؛ لكن البهجة كانت تنتهي في النهار؛ ولم تكن تثمر شيئاً. فأفكاري لا تنبثق منها، وهي قلما تؤثر في أفعالي. علي أن أشعر بالاعتزاز بما ينجزه صديقي كما لو كان انجازي أنا، وأن أحس بحصتي من فضائله. أشعر بإحساس دافئ عندما أسمعه يطرى كما هو شأن المحب الذي يسمع إطراء لخطيبته التي يحبها. إننا نبالغ في تقدير مكنونات صديقنا فطيبته تبدو أفضل من طيبتنا، وطبيعته أسمى، واستجابته للإغواء أقل. كل ماليديه ـ اسمه، شكله، لباسه، كتبه، وأدواته ـ تعززها المخيلة. حقيقتنا الخاصة تبدو جديدة وأوسع حجماً عندما تصدر من فمه.

إلا أن انقباض القلب وانبساطه ليسا بمنأى عما يقابلهما من مد الحب وجزره. فالصداقة، مثل خلود الروح، أمر أطيب من أن يصدق. فالمحب، وهو ينظر إلى محبوبته، نصف عالم بأنها ليست حقاً ما يعبد؛ وفي ساعات الصداقة الذهبية تدهشنا ظلال الشك وعدم التصديق. فنحن نشك في كوننا نسبغ على بطلنا الفضائل التي يسطع بها، وأننا فيما بعد نقدس الشكل الذي أضفينا عليه ذلك الساكن المقدس. إن الروح، في المجالات المحددة، لا تحترم البشر كما تحترم نفسها. ففي العلم المحض يشترك كل الأشخاص في خضوعهم لحالة من النأي غير المتناهي. فهل ترانا نخشى على حبنا أن

يبرد نتيجة استخراج الأساس الميتافيزيقي لهذا الهيكل الأليزي؟ أتراني لا أكون حقيقياً مثل الأشياء التي أرى؟ لو كنت كذلك، لما كان علي أن أخشى معرفتها على حقيقتها. إن جوهرها ليس أقل جمالاً من مظهرها، رغم أن إدراكه يحتاج إلى أدوات أسمى. إن جذر النبات ليس قبيحاً في نظر العلم، رغم أننا نقصر الساق من أجل الزينة والتجميل. وإني لملزم بالمجازفة بتقديم الحقيقة الصلعاء وسط هذه التأملات اللطيفة، حتى وإن ظهر أنها جمجمة مصرية على مائدة وليمتنا. إن الإنسان الذي يتوحد مع أفكاره يدرك نفسه على نحو رائع. فهو واعٍ لنجاح كلي، حتى وإن كان قد اشتراه بخيبات محددة وموحدة. إذ لا تملأ عينه أيما مكاسب، أو سلطان، أو ذهب، أو قوة. فأنا لا أجد بدأ عن الاعتماد على فاقتي أكثر من اعتمادي على ثرائك. إذ ليس بوسعي أن أجعل وعيك معادلاً لوعيي. النجم وحده يبهر؛ أما الكوكب فله شعاع قمري خافت. استمع إلى ما تقوله عن الجوانب المحببة والطبع المجرب للطرف الذي تمتدحه، لكني أرى جيداً أنني، رغم كل عباءاته الأرجوانية، لن أعجب به مالم يكن في النهاية فقيراً إغريقياً مثلي. ليس بوسعي أن أنكر، أيها الصديق، أن الظل الكبير الذي يلقيه الخارق يشملك أيضاً ويضمك في اتساعه المبهرج متعددة الألوان - فأنت أيضاً، عند المقارنة بك يكون الكل ظلالاً. فأنت لست وجوداً، كالحقيقة، وكالعدالة، وأنت لست روحي أنا، إنما أنت صورة ذلك ودميته. لقد جئتني متأخراً، وها أنت تتناول قبعتك وعباءتك.

أفلا تخرج الروح الأصدقاء، كما تخرج الشجرة الأوراق، ثم تزيح، بتكون البراعم الجديدة، الورقة القديمة؟ قانون الطبيعة هو الاستبدال إلى الأبد. كل حالة كهربائية تستحدث العكس. تحيط الروح نفسها بالأصدقاء من أجل ان تدلف إلى حالة أعظم من معرفة الذات أو الوحدة؛ وتنفق في الوحدة فصلاً من أجل الارتقاء بمحادثاتها أو صحبتها. تكشف الوسيلة عن نفسها على مدى كامل تاريخ علاقاتنا الشخصية. تنعش غريزة العاطفة الأمل في اتحادنا برفاقنا، ويوقفنا الإحساس المرتد بالانعزال الآخر عن المطاردة. وهكذا ينفق كل إنسان حياته في البحث عن الصداقة، ولو كان عليه أن يسجل إحساسه الخاص، لكتب رسالة كالتالية لكل مرشح جديد لتلقي محبته:

صديقي العزيز

لو أنني أكون واثقاً منك، من قدرتك، ومن كونك ستوافق ما بين مزاجي ومزاجك، فإنني سوف لن أفكر ثانية بالتوافه المتعلقة بمجيئك وذهابك. لست حكيماً جداً، وحالات

مزاجي طيعة، وأنا أحترم أفكارك، فأنا لم أسبرها بعد، ولكن ألا يحق لي أن أفترض فيك معرفة كاملة بأحوالي، وهكذا فإنك بالنسبة لي تعذيب عذب. المخلص لك أبداً أو إطلاقاً.

مع ذلك فإن هذه المتع القلقة والأوجاع الرفيعة تعود إلى الفضول لا إلى الحياة. إذ لا ينبغي أن يطلق لها العنان فهي لا تصلح لنسيج القماش، بل لشبكة العنكبوت. يسارع أصدقاؤنا إلى الاستنتاجات القصيرة والبائسة، لأننا قد صنعنا لهم نسيجاً من نبيذ وأحلام، بدلاً من النسيج المتين للقلب الإنساني. إن قوانين الصداقة متقشفة وأبدية، وهي من نفس نسيج قوانين الطبيعة والأخلاق. لكننا نسعى إلى منفعة عاجلة وتافهة، إلى امتصاص الحلاوة المباغتة. إننا نقتطف الثمرة الأبطأ في حديقة الرب كلها، تلك التي تنضجها صيفيات وشتاءات عديدة، نحن لا نبحث عن صديقنا بقدسية، بل بعاطفة دنسة تستحوذ عليه لأنفسنا. عبثاً. نحن جميعاً مدججون بتناحرات راسخة تبدأ عملها، بمجرد أن نلتقي وتحول كل إلى الشعر إلى نثر راكد .

وكل الناس تقريباً ينزلون إلى اللقاء. كل الارتباطات يجب أن تكون حلاً وسطاً، والأسوأ من ذلك فإن تويج زهرة كل طبع جميل وشذاه يختفيان عند اقترابهما من الآخر. ياللصحبة الفعلية من خيبة أمل دائمة، حتى بالنسبة للفاضل والموهوب! في ذروة الصداقة والتفكير، وبعد أن نكون قد استوعبنا لقاءاتنا بالبصيرة، يكون علينا أن نعاني على الفور من عذاب الصفعات المكبوحة، ومن اللامبالاة المباغتة وغير الملائمة، ومن صرع الفطرة والروح الحيوانية. ملكاتنا لا تصدقنا، ويخلد الطرفان إلى الوحدة.

ينبغي علي أن أكون نداً لكل علاقة. لا يهم عدد من أملك من الأصدقاء، ولا مقدار الارتياح الذي أجده في محادثة كل منهم، إذا كان هناك واحد لا أشعر بأنني ند له. فإذا ما انكمشت غير متكافئ في مباراة واحدة، فإن الغبطة التي أجدها في كل ما تبقى تصبح حقيرة وجبانة. عندها سيكون علي أن أبغض نفسي، إذا حاولت أن أجعل الأصدقاء الآخرين ملجأ لي:

المحارب المقدام المشهور بقتاله
والذي، بعد مئة انتصار، أخفق مرة
أزيح من كتاب الشرف
وكل ما جهد من أجله تم نسيانه.

هكذا يتلقى نفاذ صبرنا توبيخاً حاداً إن الحياء والفتور ليسا سوى قشرة خارجية يحتمي الجسم الرقيق بداخلها من النضج السابق لأوانه. إذ أنه كان سيهدر لو أنه عرف نفسه قبل أن تنضج أياً من الأرواح الأفضل بما يكفي لتعرفه وتحتازه. احترم العوامل الطبيعية التي تصنع صلابة الياقوت في مليون عام، وتعمل في آماد تخطر فيها جبال الألب والأنديز ونزول مثل قوس قزح. إن الروح الخيرة في حياتنا لا تنال السماء أجراً على تسرعها. فالحب الذي هو جوهر الرب، لا يعنى بالخفة، بل بالقيمة الكلية للإنسان. فدعونا لا نحمل هذا الترف الطفولي في اعتبارنا، بل نتمسك بالقيمة الأكثر تقشفاً، دعونا نواجه صديقنا بثقة جريئة في صدق فؤاده، وفي اتساع أسسه المستعصية على التقويض.

لا تنبغي مقاومة إغراءات هذا الموضوع، وأني لأدع جانباً، لبعض الوقت، كل الاعتبارات المتعلقة بالمنفعة الاجتماعية الثانوية، لأتكلم عن تلك العلاقة المقدسة والمصطفاة التي هي نوع من المطلق، والتي يبلغ من نقائها أنها تجعل لغة الحب مبتذلة ومشكوكاً فيها، والتي ما من شيء يوازيها في قدسيتها.

لا أرغب في معاملة الصداقات برقة، إنما بأشد أنواع الشجاعة. فهي عندما تكون صادقة، ليست خيوطاً من زجاج أو أشكالاً ثلجية، إنما هي الشيء الأشد صلابة من بين جميع ما نعرف. إذ ما الذي ترانا نعرفه الآن، وبعد كل هذه العصور من التجربة، عن أنفسنا وعن الطبيعة؟ إن الإنسان لم يتقدم خطوة واحدة باتجاه حل معضلة قدره فالحماقة لعنة مشتركة تشمل كل عالم البشر. لكن عذوبة السرور والسلام الذين أحصل عليهما من هذا التحالف مع روح شقيقي هو الجوزة تشكل الطبيعة بكاملها والفكر كله غلافها وقشرتها: سعيد هو المنزل الذي يؤوي صديقاً! وأنه لجدير بأن يبنى على شكل قوس أو تعريشة احتفالية لإكرامه ولو ليوم واحد. وسيكون أسعد لو أنه يعرف جلال تلك العلاقة ويكرم قانونها. إن الشخص الذي يطرح نفسه مرشحاً لهذا الميثاق يجيء، مثل اللاعب الأولمبي، إلى الألعاب العظمى حيث يتبارى الأبناء البكر للعالم. إنه يطرح نفسه للتباري حيث تندرج على قائمة المباراة منازلة الزمن، والحاجة، والخطر، وأن الذي يخرج منتصراً هو فقط ذلك الذي يمتلكه في بنيانه من الصدق ما يكفي للمحافظة على حلاوة جماله من التعب والتلف الذين تسببهما كل تلك العوامل. قد تتوفر هبات القدر أو تغيب، لكن كل السرعة في تلك المباراة تتوقف على النبالة الداخلية

وعلى ازدراء التوافه. هذان هما العاملان اللذان يدخلان في تركيبة الصداقة، واللذان تتم لكل واحد منهما السيادة على نحو لا يجعلني قادراً على ملاحظة تفوق أحدهما على الآخر، أو العثور على سبب يدعو إلى تقديم ذكر أحدهما على الآخر. الواحد هو الحقيقة. فالصديق هو الشخص الذي بوسعي أن أكون أميناً معه. بمقدوري، أمامه، أن أفكر بصوت عالٍ فقد بلغت أخيراً الإنسان الند والحقيقي إلى الحد الذي استطيع ان اسقط أمامه أردية المراءاة والمجاملات، وإعادة النظر في تلك الأرديات شديدة الخصوصية التي لا يخلعها الناس أبداً، وأن أتعامل معه بالبساطة والكلية التي تلاقي بها الذرة الكيمياوية ذرة أخرى. الأخلاص، مثل التيجان والسلطة، هو الترف الذي لا يسمح به إلا لذوي المراتب العليا؛ وهو يعني أنه قد سمح لك بقول الحقيقة، كما لو أنه لم يكن لديك شيء آخر فوقها تسعى إليه أو تعمل بموجبه. كل انسان لوحده مخلص. يبدأ النفاق عندما يدخل شخص ثانٍ. فنحن نتقي مقدم رفاقنا من البشر وندرأه بالإطراء، والنميمة، والمسليات، والحكايات. كما أننا نحجب أفكارنا عنه تحت مئة غطاء. أعرف رجلاً خلع عنه استاره تحت تأثير حماسة دينية معينة، وبعد أن حذف كل إطراء وقول مألوف، خاطب ضمير كل شخص قابله، وفعل ذلك بحصافة وجمال عظيمين. في البداية واجه مقاومة، واتفق الجميع على أنه كان مجنوناً لكنه بإصراره على نهجه لبعض الوقت ـ إذا لم يكن أمامه في الواقع سوى أن يفعل ذلك ـ توصل إلى الفوز بإقامة علاقات صادقة مع كل شخص من معارفه. فما كان لأحد أن يجرؤ على مخاطبته بكلام زائف، أو حرفه بأية دردشة من تلك التي تدور في الأسواق أو غرف المطالعة. لكن كل انسان كان مقيداً بنفس القدر من الإخلاص للتعامل الصريح، وكان يطلعه، بالتأكيد، على كل ما يحمله من حب للطبيعة، ومن شعر، ومن رموز الحقيقة. لكن الصحبة، بالنسبة لغالبيتنا، لا تظهر وجهها وعينها، إنما تعطي جانبها وظهرها. وإقامة علاقات صادقة مع الناس في عصر زائف ليست سوى نوبة جنون، أليس كذلك؟ نادراً ما نتمكن من السير بإستقامة. فكل انسان نلتقيه تقريباً يتطلب شيئاً من المجاملة، ومن الإرضاء، فهو يحمل في رأسه شيئاً من الصيت أو الموهبة، أو النزعة الدينية أو الإنسانية. التي لا تخضع للمساءلة، والتي تفسد أي نوع من المحادثة معه. لكن الصديق رجل عاقل يتعامل معي أنا، لا مع براعتي. فصديقي يمنحني الأنس دون أن يشترط مقابلاً من جانبي. ولذلك فالصديق هو نوع من التناقض في الطبيعة. أنا الذي

وحدي أكون أنا، أنا الذي لا أرى في الطبيعة شيئاً يماثل وجوده وجودي، أشاهد الآن شبيهاً لنفسي، في ارتفاعها، وتنوعها، وخصوصيتها مكرساً في جسد غريب عني؛ ألا يجعل ذلك الصديق تحفة أداء الطبيعة.

العنصر الآخر في الصداقة هو الرقة. إننا نرتبط بالناس بمختلف أنواع الروابط، روابط الدم، والكبرياء، والخوف، والأمل، والربح، والشهوة، والحقد، والإعجاب، بكل ظرف وتفصيل وشارة ـ لكننا نادراً ما نعتقد بتوفر ذلك القسط من المزايا الذي يؤدي إلى جمعنا برابطة الحب. هل يمكن أن يكون الآخر على تلك الدرجة من القدسية ونحن على تلك الدرجة من النقاء التي تجعلنا قادرين على أن نهبه الرقة؟ عندما يصبح انسان ما عزيزاً علي أكون قد لامست غاية التوفيق لا أجد في ماهو مكتوب في الكتب إلا النزر اليسير مما يتعلق مباشرة بجوهر هذا الأمر. ومع ذلك فلدي كتاب واحد ليس بوسعي إلا أن أتذكره. يقول المؤلف: «إني لأمنح نفسي بتردد ووهن لأولئك الذين يكونون أنا، وأقدم أدنى قدر من الرقة لأولئك الذين أدين لهم بأكبر الولاء.» أتمنى لو أن للصداقة إقداماً كما أن لديها عيوناً وفصاحة. إذ ان عليها ان تزرع نفسها في الأرض، قبل ان تثب إلى القمر. اتمنى لو أنها تكون مواطناً بسيطاً، قبل أن تصبح ملاكاً. إننا نلوم المواطن لأنه يحول الحب إلى سلعة. إنما تبادل هدايا، وقروض مفيدة، إنها جيرة طيبة، فهي تسهر على المريض، وتحمل النعش في المأتم؛ ويكاد يغيب عن نظرها نبل العلاقة وحلاوتها. ولكن، على الرغم من أننا لا نستطيع أن نعثر على الأدلة تحت قناع الشخص العادي، فإننا من جانب آخر، لا نتسامح مع الشاعر الذي يحبك خيوطاً رفيعة جداً ولا يغذي حكايته بالفضائل المألوفة مثل العدالة، والدقة، والأمانة، والشفقة. أكره المتاجرة باسم الصداقة من أجل إقامة تحالفات دنيوية أو مرغوبة. إني أفضل كثيراً صحبة الحراثين وباعة الصفيح على الوداد الحريري المعطر الذي يحتفي بالمظاهر التافهة، كامتطاء العربة الأنيقة وتناول العشاء في أفضل الفنادق. إن الغاية من الصداقة هي العلاقة الأكثر حميمية وصرامة من بين جميع العلاقات التي يمكن الإنضمام إليها، وهي أكثر صرامة من أية علاقة أخرى خبرناها. فيه تعني تقديم العون والتطمين عبر جميع علاقات وممرات الحياة والموت. إنها تلائم الأيام الرائقة والمزايا الكريمة والنزهات الريفية، لكنها تلائم أيضاً الدروب الوعرة والمهمات الشاقة، وتحطم السفن، والفاقة، والإضطهاد. إنها تديم صحبتها مع تفجرات البداهة وغشيات التدين. إن علينا أن

نشرف لبعضنا البعض الاحتياجات اليومية ومهام حياة الشخص، ونزينها بالشجاعة والحكمة، والإتحاد. إنها يجب أن لا تسقط في المألوف والمستقر، إنما عليها أن تظل متنبهة وخلاقة وأن تضفي القافية والمنطق إلى ما كان شأناً وضيعاً.

يمكن القول أن الصداقة تتطلب طباعاً نادرة وثمينة، تكون الواحدة منها مطوعة ومتكيفة ومهيأة إلى الحد الذي يصبح فيه إرضاؤها شيئاً نادر الحدوث (إذ أن الشاعر يقول أن الحب، حتى في هذه التفاصيل، يحتاج إلى ان يكون الطرفان متماثلين بشكل عام). ويقول بعض العارفين بهذا الجانب الدافئ من الفؤاد، أنها لا يمكن أن تحقق في صورها الكاملة بين أكثر من اثنين. لست متزمتاً إلى هذا الحد في شروطي، ربما لأنني لم أعرف صحبة رفيعة إلى الحد الذي عرفه الآخرون. فأنا أرضي مخيلتي بصورة حلقة من الرجال والنساء الفضلاء الذين يرتبطون ببعضهم البعض بعلاقات متنوعة والذين يقوم بينهم ذكاء رفيع. لكني أجد قانون الواحد للواحد قاطع بالنسبة للحوار، الذي يعتبر وسيلة ممارسة الصداقة وتحقيقها. لا تخلط المياه كثيراً. فالمزيج الأفضل لا يختلف في رداءته عن الجيد والسيء. يمكن ان تجري حواراً شديد الفائدة والمتعة لعدة مرات مع شخصين منفردين، ولكنك لن تحصل على كلمة واحدة جديدة أو حميمة إن اجتمعتم أنتم الثلاثة. قد يتحدث اثنان، ويستمع واحد، لكن الثلاثة لا يستطيعون المشاركة في حوار من النوع الحميم والنافذ جداً. لا يتحقق أبداً مثل هذا الحوار بين اثنين ضمن صحبة طيبة عبر المائدة، في حين أنه يتحقق لك عندما تغادر تلك الصحبة. فضمن الصحبة الطيبة تنغمس أنا الأفراد في روح مشتركة يجتمع فيها وعي كل واحد من الحضور. ما من انحيازات لصديق نحو صديق، ولا من توله لأخ نحو أخت، لزوجة نحو زوج تظهر في هذه الحالة، بل على العكس. فالذي يتكلم هو وحده الذي يقدر على الإبحار في فكر الجماعة المشترك، والذي لا يكون مقتصراً على فكرته. هذا التقليد، الذي تتطلبه البداهة، يقضي على حرية الحوار العظيم الراقية، التي تتطلب الاندماج المطلق لروحين في روح واحدة.

ما من شخصين يتركان وحيدين مع بعضهما إلا ويدخلان في علاقات أبسط. لكن التشابه هو الذي يقرر أي ثنائي يتحاور. إن الأشخاص الذين لا يمتون لبعضهم بصلة يستطيعون أن يمنحوا الكثير من المتعة لبعضهم البعض، ولا يستطيعون أن يشخصوا القوى الكامنة في الآخر. أحياناً نتحدث عن موهبة عظيمة في الحوار، كما لو كانت ميزة

ثابتة لدى بعض الأشخاص الحوار هو علاقة سريعة الزوال - لا غير. يشتهر رجل بالفكر والفصاحة، لكنه رغم ذلك غير قادر على أن يفوه بكلمة لخاله أو ابن عمه. إن مبررهم في اتهام صمته لا يقل جدارة عن إعابتهم لانعدام أهمية المزاولة في الظل. في الشمس تخبرك بالوقت. بين أولئك الذين يستمتعون بأفكاره سوف يستعيد لسانه.

تتطلب الصداقة تلك الوسيلة النادرة ما بين التشابه والإختلاف التي تخزق كل طرف بحضور القوة والقبول لدى الطرف الآخر. أفضل أن أظل وحيداً حتى نهاية العالم على أن يتجاوز صديقي، بكلمة أو نظرة، حدود حنانه الحقيقي. إن الإذعان يصدني بنفس القدر الذي يصدني به التناحر. دعه لا يكف لحظة أن يكون نفسه. إن السرور الوحيد الذي أحصل عليه من كونه يعود إلي ناجم عن كون مالا يعود إلى عائد إلي. أكره أن أعثر على كومة من التنازلات حيث أفتش عن إضافة رجولية أو مقاومة رجولية على الأقل. أفضل لك أن تكون شوكة في جنب صديقك عن أن تكون صداه، إن الشرط الذي تتطلبه الصداقة الرفيعة هو القدرة على أن تعيش بدونها إن هذه المهمة الرفيعة تحتاج إلى أطراف عظيمة وسامية. يجب أن يوجد اثنان جداً قبل أن يمكن أن يكون هناك واحد جداً. ولتكن، إذن تحالفاً لطبيعتين واسعتين، هائلتين، مرهوبتين بالتبادل، مدينتين بالتبادل، قبل ان تدركا الهوية العميقة التي توحدهما من تحت هذه الإختلافات.

إن ا لشخص الوحيد الجدير بهذه الصحبة هو من يكون رحب الصدر، من يؤمن بأن العظمة والطيبة هي دائماً توفير، من لا يسارع إلى التطفل على مقاديره. دعه لا يتطفل على ذلك. اترك للماس العصور التي ينمو فيها، ولا نتوقع تعجيل ميلاد ماهو أبدي. الصداقة تتطلب معاملة دينية. نتحدث عن اختيار أصدقائنا، لكن الأصدقاء يأتون بالإصطفاء الذاتي الإحترام جزء كبير منه. عامل صديقك كما لو كان مشهداً. لديه، بالطبع، مزايا ليست لك، وهي ما لا تستطيع تقديره إذا اصررت على تقريبه من نفسك قف جانباً، افسح المجال لتلك المزايا؛ دعها ترتفع وتتوسع. أفأنت صديق أزرار صديقك، أم أفكاره؟ بالنسبة للقلب الكبير سيظل الصديق غريباً في آلاف التفاصيل، من أجل أن يكون قريباً على أقدس الأرضيات. اترك للصبيان والفتيات النظر إلى الصديق بصفته ملكية، ورشف المتعة القصيرة المذهلة، بدلاً من الحصول على أنبل العوائد.

دعنا نشتر الدخول إلى هذه النقابة بفترة امتحان طويل لماذا ينبغي علينا تدنيس الأوراح النبيلة والجميلة بالتطفل عليها؟ لماذا تصر على العلاقات الشخصية المتهورة مع صديقك؟ لماذا تذهب إلى بيته، أو تعرف أمه وأخاه وأخوته؟ لماذا يزورك في بيتك؟ هل تعتبر هذه الأشياء مادة ضرورية لرابطتنا؟ اطرح هذه الملامسة والتشبث. دعه يكون روحاً بالنسبة لي. رسالة، فكرة، إخلاصاً، أريد منه نظرة، لا أخباراً ولا حساء. بوسعي ان أحصل على السياسة والدردشة والجيرة الملائمة في رفاق أرخص. أفلا ينبغي لصحبة صديقي ان تكون بالنسبة لي شاعرية، ونقية، وأثيرة مثل الطبيعة نفسها؟ أيتوجب علي بأن اشعر بأن رباطنا مدنس بالمقارنة بتلك السحابة التي ترقد في الأفق، أو تلك الحزمة من العشب المتموج التي تحد الجدول؟ دعنا لا ننحط بها، بل نرمي بها إلى ذلك المستوى. تلك العين المتحدبة العظيمة، ذلك الجمال المستهزئ في سلوكه وأفعاله، لا تحمل نفسك على القليل منه، بل عززه وزده. قدس تفوقاته، لا نتمن له أن ينقص فكرة واحدة، بل عددها جميعاً واختزنها. احتفظ به كند. دعه يكن لك على الدوام نوعاً من العدو الجميل، غير قابل للترويض، محترم بتبجيل، وليس مجرد وسيلة راحة تافهة يمكن أن تتجاوزها بسرعة وتطرحها جانباً. إن الوان الأوبال، وضياء الماس لا تبصرها العين القريبة جداً. أكتب لصديقي رسالة وأتلقى منه رسالة. يبدو هذا قليلاً بالنسبة لك. إنه يكفيني! إنها هبة روحية، يجدر به أن يمنحها وبي أن أتلقاها. إنها لا تدنس أحداً. في تلك الخطوط الدافئة، وليس في اللسان، يطمئن القلب إلى نفسه فيطلق النبوءة بوجود أكثر ربانية من جميع ما أشادت به كل أسفار البطولة.

فلتحترم إذن القوانين المقدسة لهذه الصحبة كي لا تفسد زهرتها الكاملة باستعجالك نافذ الصبر لتفتحها علينا أن نكون لأنفسنا قبل أن نكون للآخر. هنالك على الأقل هذا الاقتناع في الجريمة إذ يقول المثل أن بوسعك ان تتكلم مع شريكك على قدم المساواة. في البداية لا نستطيع ذلك مع الأشخاص الذين نحبهم ونعجب بهم. لكن نقيصة التملك الذاتي على صغرها تفسد، في نظري، العلاقة بأكملها. لا يمكن أبداً أن يكون هناك سلام عميق بين روحين، ولا احترام متبادل، مالم تساو كل واحدة منهما العالم كله في العلاقة ما بينهما.

إن ماهو عظيم كالصداقة، يجب أن نحمله بأقصى ما نقدر عليه من سمو الروح. دعنا نصمت من أجل أن نستمع إلى همس الآلهة. دعنا لا نتدخل. من ذا الذي يوجهك

لأنْ تصوغ ما يتوجب قوله للأرواح المصطفاة، أو كيف ينبغي أن تقول لها أي شيء؟ مهما كان مخلصاً، مهما كان بديعاً ولطيفاً. ثمة درجات عديدة للحماقة والحكمة، وأنه لطيش منك أن تفرض أياً منها. انتظر وسوف يتكلم قلبك انتظر لحين ان يستبد بك الضروري والدائم لحين أن ينطق الليل والنهار شفتيك. هناك ثواب واحد للفضيلة هو الفضيلة؛ الطريقة الوحيدة للحصول على صديق هي أن تكون صديقاً. لن تزداد قرباً من الإنسان عن طريق الدخول إلى بيته. فإن لم تكونا متوافقين، فإن روحه تهرب منك بسرعة أكبر، ولن يتسنى لك إطلاقاً اقتناص نظرة من عينيه. عن بعد نلمح الأشخاص النبلاء الذين يصدوننا فلماذا ترانا نتطفل عليهم؟ متأخراً، متأخراً جداً ندرك أنه ما من ترتيب أو تعريف أو عادة أو أية ممارسة اجتماعية يمكن أن تجدي نفعاً في ربطنا وإياهم بعلاقة كتلك التي نرغب بها سوى ارتقاء الطبيعة فينا إلى نفس درجة رقيها لديهم؛ عندها سنلتقي كما يلتقي الماء بالماء؛ وإن لم نلتقي بهم عندها، فإننا لن نكون في حاجة إليهم. لأننا قد أصبحنا هم. الحب، في التحليل النهائي، وهو انعكاس قيمة الإنسان من خلال الأشخاص الآخرين. لقد تبادل الناس أحياناً الأسماء مع أصدقائهم، كما لو كانوا بذلك يشيرون إلى أن الإنسان في صديقه إنما يحب نفسه.

كلما ازداد النمط الذي نتطلبه من الصداقة سمواً، تضاءلت سهولة ربطه بالدم واللحم. إننا نسير وحيدين في هذا العالم. الأصدقاء على النحو الذي نتوق إليه أحلام وخرافات. لكن أملاً متسامياً ما ينفعك يبهج الفؤاد المؤمن، بأن من مناطق أخرى من القدرة الكلية، ثمة أرواح تنشط الآن، وتصمد وتتصدى، بوسعها أن تحبنا وبوسعنا أن نحبها. بوسعنا أن نهنئ أنفسنا على كون فترة اللاعمر، والحماقات، والتخبطات والحرج، قد انصرمت في وحدة، وأننا حين أصبحنا أناساً خالصين سوف نتمكن من أن نشد بأياد بطولية على أياد بطولية. لا تأخذ العبرة إلا مما تراه فعلاً، ولا تقم جحافل الصداقات مع أشخاص رخيصين، حين يمكن أن تقوم صداقة. يسلمنا نفاذ صبرنا إلى تحالفات متعجلة وحمقاء لا تحظى برعاية أي من الآلهة. الزم طريقك فإنك ستغنم الكثير حتى لو جنيت القليل. أظهر لنفسك، كيما تنأى بنفسك عن العلاقات المزيفة، وتجتذب نحوك مواليد العالم البكر - أولئك الحجاج النادرين الذين لا يخطر في الطبيعة منهم سوى واحد أو اثنين في آن معاً، والذين لا تبدو الغالبية من العوام إزاءهم إلا مجرد أشباح وظلال.

من الحماقة الخوف من جعل روابطنا شديدة الروحانية، كما لو أن ذلك يمكن أن يفقدنا الحب الحقيقي. مهما كانت التصحيحات التي تدخلها معرفتنا على آرائنا الرائجة، فإن الطبيعة ستضمن خلاصنا، ورغم أنها تبدو كما لو أنها تسرق منا بعض السرور، إلا أنها سوف تعوضنا بما هو أعظم. دعنا نشعر؛ إن شئنا بالعزلة المطلقة للإنسان. فنحن على ثقة من كوننا نحمل في ذواتنا كل شيء. نغادر إلى أوروبا، أو نسعى من طلب أشخاص معينين، أو نقرأ كتباً بإيمان فطري بأن هذه المساعي سوف تخرج الكامن وتكشفنا لأنفسنا. شحاذة كلها. الأفراد الذين لا يختلفون عنا، وأوروبا، والرداء القديم البالي لأناس ميتين، والكتب، والأشباح. دعنا نتخلى عن هذه الوثنية. دعنا ننصرف عن هذا التسول. بل دعنا نقل لأعز أصدقائنا وداعاً، ونتحداهم، قائلين: «من أنت؟ أطلق يدي، لن أكون تابعاً بعد.» آه. ألا ترى، أيها الأخ، إننا بهذا لا تفترق إلا لنلتقي ثانية على أرضية أسمى، وأننا ننتمي لبعضنا أكثر لأننا صرنا أنفسنا على نحو أكبر؟ للصديق وجهان مثل جانوس؛ إنه ينظر إلى الماضي وإلى المستقبل. إنه إبن كل ساعاتي الماضية، ونبي تلك الآتية، صديق أعظم.

أتصرف، عندها مع أصدقائي كما أتصرف بكتبي. أضعها حيث أستطيع أن أجدها، لكنني قلما أستخدمها. ينبغي أن نتمتع بالصحبة تبعاً لشروطنا الخاصة، نقربها ونقصيها تبعاً لأدنى الأسباب. ليس بوسعي أن أتحدث كثيراً مع صديقي. إن كان عظيماً فإنه يجعلني عظيماً إلى الحد الذي لا أستطيع معه أن أتنازل للمحادثة. في الأيام العظيمة تحوم الهواجس أمامي في السماء. علي، إذن، أن أكرس نفسي لها. أتوغل داخلاً، امسك بها. لا أخشى سوى أن أضيعها وهي تتراجع نحو السماء التي أصبحت الآن حزمة من ضوء ساطع فيها. عندها، لا يسعني أن أكلم أصدقائي وأختبر رؤاهم، فأنا، رغم تقديري لهم، أخاف أن أفقد رؤاي. إني لأحصل بالفعل على متعة حميمة لو أني تخليت عن هذا البحث المتسامي، هذا التنجم الروحي أو التفتيش عن النجوم، وهبطت إلى تبادل الحنان الدافئ معك؛ لكني أعلم جيداً أنني سوف أنفق عندها كل الوقت متحسراً على آلهتي الجبارة التي غابت عني. صحيح أنني سأكون في مزاج فاتر الأسبوع القادم، عندما سيتوفر لي أن أشغل نفسي بالأشياء الخارجية، عندها سوف آسف على آداب فكرك المضاعة، وأتمنى لو أنك ثانية بجانبي. لكنك إن جئت فقد تملأ ذهني بالرؤى الجديدة حسب. ببريقك لا بذاتك، وعندها لن أكون بأقدر من الآن

على التحاور معك. وهكذا سيظل أصدقائي مدينين لي بهذا الإتصال الشارد. ولسوف أتلقى منهم ليس ما لديهم بل ما هو هم. ولسوف يمنحونني ما ليس بمقدورهم أن يمنحوه، إنما ما يشع عنهم. أية علاقة أقل سمواً ونقاء لن تشدني إليهم. سنلتقي كما لو أنا ما التقينا، ونفترق كما لو أننا ما افترقنا.

مؤخراً بدا لي أن حمل صداقة عظمية من جانب واحد بدون استجابة مماثلة من الجانب الآخر أمر ممكن أكثر مما كنت أظن. لماذا عساي أزعج نفسي بالندم على كون المتلقي ليس رحباً لا يزعج الشمس أبداً أن بعض شعاعها يهدر ويضيع في فضاءات جاحدة، وأن جزءاً صغيراً منه فقط يقع على الكوكب العاكس. دع عظمتك تثقف الرفيق الفظ والبارد. فإن لم يكن كفؤاً فإنه سينصرف على التو، لكن سطوعك قد زادك كبراً، ولسوف ترقى، بعد أن انصرفت عن رفقة الضفادع والديدان، وتتوهج مع آلهة السماء. الحب غير المتبادل يعتبر عاراً. لكن الشخص العظيم سوف يرى أن الحب الصادق لا يمكن أن يقابل بمثل. الحب الصادق يتسامى فوق مادته غير الجديرة ويحل في الأزلي ويحيا فيه، وعندما يتكسر القناع البيني البائس لا يشعر الحب بالأسى، بل يحس بأنه قد تخلص من كل ذلك الطين وزادت ثقته باستقلاليته. ومع ذلك، فإن من غير الممكن قول هذه الأمور بدون نوع من خيانة العلاقة. فجوهر الصداقة هو التمام، الثقة والشهامة الكاملة ولا ينبغي لها أن تفكر بالنقيصة أو تتهيأ لها. وهي تعامل الطرف الآخر معاملة الإله، كيما تؤله الطرفين.

٧

التـدبــيــر

أي حق لي في الكتابة عن التدبير ، الذي لا أملك منه إلا القليل، ومن النوع السلبي؟ إن تدبيري يقوم على التجتنب والاستغناء، لا على ابتكار الوسائل والأساليب، ولا على التوجه المباشر، أو التصحيح الرفيق. لا أملك مهارة انفاق المال على النحو السليم، ولا عبقرية لدي في اقتصادياتي، وكل من يرى حديقتي يكتشف بأنه ينبغي أن تكون لي حديقة أخرى. لكني، مع ذلك ، أحب الحقائق، وأكره التقلب والناس المجردين من نفاذ البصيرة. ومن هنا فإن حقي في الكتابة عن التدبير يماثل حقي في الكتابة عن الشعر أو القداسة. فنحن نكتب انطلاقاً من التطلع والتضاد كما نكتب انطلاقاً من التجربة . إننا نرسم تلك المزايا التي لا نمتلك. يعجب الشاعر بالرجل ذي الطاقة والتكتيك، ويربي التاجر ولده للإلتحاق بسلك الكنيسة أو القضاء، وحيثما كان المرء مجرداً من الغرور والأنانية فإنك ستعثر على ما ينطوي عليه بطريقة أخرى غير الإطراء. يضاف الى ذلك أنها لن تكون أمانة مني أن أضع مقابل هذه الكلمات الأنشادية الرفيعة عن الحب والصداقة كلمات ذات جرس أجش، وأنا لا أشير إشارة عابرة الى ما أدين به لحواسي حتى وإن كان ذلك الدين حقيقياً وثابتاً.

التدبير هو فضيلة الحواس. إنه علم المظاهر. وهو الأداء الأبرز للحياة الداخلية. إنه الله حين يلجم الأفكار . فهو يحرك المادة تبعاً لقوانين المادة. إنه قانع بالسعي الى صحة البدن بالإنصياع للظروف البدنية، وصحة الفكر بالإنصياع لقوانين الذهن .

إن عالم الحواس عالم المظاهر، فو غير قائم بحد ذاته، إنما لديه شخصية رمزية، والتدبير الصحيح أو قانون المظاهر يدرك الحضور المتزامن للقوانين الأخرى ويعرف أن مهمته ثانوية - يعرف أنه يعمل على السطح وليس في المركز. يكون التدبير زائفاً عندما ينقطع عما حوله.

ويصبح مشروعاً عندما يكون التاريخ الطبيعي للروح المتجسدة، عندما يكشف للعيان جمال القوانين ضمن مدى الحواس الضيق.

ثمة درجات متعددة للبراعة في معرفة العالم. يكفي لغرضنا الراهن أن نذكر منها ثلاثاً . طبقة تتعلق بفحوى الرمز، فتعتبر الصحة والثراء هدفاً نهائياً. طبقة أخرى تحيا فوق هذا المستوى فتتعلق بجمالية الرمز، كما يفعل الشاعر والفنان ورجل الطبيعة والعلم. وطبقة ثالثة ترتفع فوق جمالية الرمز وتتعلق بجمالية الشيء الذي يمثله الرمز، أولئك هم الحكماء. الطبقة الاولى تمتلك البداهة، والثانية الذوق ، والثالثة الادراك الروحي. مرة في ذات يوم بعيد، كان الانسان يجتاز السلم كله، يرى الرمز ويستمتع به، ثم يتملى بنظرة صافية جماله، وأخيراً ، إذ ينصب خيمته فوق جزيرة الطبيعة البركانية المقدسة، فإنه لا يتصدى لبناء البيوت والأهراء فيها ، انما يقدس بهاء الرب الذي يراه متفجراً من خلال كل صدع وشق.

العالم مملوء بأمثال وأفعال وغمزات التدبير الوضيع ، الذي يمثل الولاء للماده، كما لو أننا لا نمتلك أعضاء أخرى سوى اللهاة، والانف، واللمسة، والعين، والاذن، تدبير يقدس قاعدة الثلاثة، التي لا تساهم، ولا تعطي، وقلما تقرض، ولا تطرح سوى سؤال واحد عن أي مشروع : هل ينتج خبزاً؟ إنه مرض مثل تثخن الجلد إلى حد تدمير الأعضاء الحيوية. لكن الثقافة، وهي تكشف عن الأصل الرفيع للعالم الظاهر وتهدف الى الانسان كغاية، تحط من شأن كل ما عدا ذلك، كالصحة والحياة البدنية، باعتبارها مجرد وسائل .إنها لا ترى في التدبير وظيفة مستقلة، إنما مجرد اسم للحكمة والفضيلة وهما تتعاملان مع الجسم واحتياجاته. هكذا يشعر الرجال المثقفون ويتكلمون على الدوام، كما لو أن الثروة العظيمة ، او الحصول على مرتبة مدنية أو اجتماعية، أو نفوذ شخصي كبير ، أو وظيفة كريمة ومؤثرة تكتسب قيمتها من كونها دلائل على طاقة الروح. فإذا ما فقد الانسان توازنه وانغمس في أية مهنة أو متعة لحد ذاتها ، فإنه يعتبر عجلة جيدة أو مسماراً جيداً ، لكنه لا يكون رجلاً مثقفاً.

إن التدبير المزيف، الذي يجعل الحواس غايته، هو اله السكيرين والجبناء ، وهو موضوع الهزء كله. إنه نكتة الطبيعة، وبالتالي نكتة الأدب. يقيد التدبير الصحيح هذه الحسية عن طريق الاقرار بمعرفة عالم داخلي وحقيقي. ما أن يتم هذا الاقرار، نظام العالم وتوزيع الشؤون والأزمان، التي تمحص مع الادراك المتزامن لموقعها الثانوي، حتى يوفر الثواب لكل درجة من درجات الانتباه. لان وجودنا ، المرتبط في طبيعته بوضوح بالشمس والقمر المتواتر والفترات اللاتي يحددانها، الخاضع للطقس وللبلاد،

المتحسس للخير وللشر في المجتمع، المتوله بالروعة، والضعيف إزاء الجوع والبرد والدين ـ يطالع كل دروسه الابتدائية في هذه الكتب.

لا يتبع التدبير الطبيعة ويسأل من أين جاءت. إنه يأخذ قوانين العالم التي تكيف وجود الانسان على علامتها، ويلتزم بتلك القوانين لكي يتمتع بما فيها من خير حقيقي. إنه يمثل المكان والزمان، الطقس، الحاجة، النوم، قانون التناقض، النمو، والموت. هناك تدور الشمس والقمر، من أجل أن يتوفر المدى والوقت لوجوده من جميع الجوانب، هنا تكمن المادة الصلبة، ولن تنحرف عن روتينه الكيميائي. هنا كوكب مزروع، تثقبه وتزنره القوانين الطبيعية وتسيجه وتقسمه خارجياً الحواجز المدنية والملكيات التي تفرض تقييدات جديدة على الساكن الفتي.

نأكل من الخبز الذي ينمو في الحقل. ونعيش على الهواء الذي يهب من حولنا، ويسممنا الهواء حين يكون بارداً جداً او ساخناً جداً، جافاً جداً أو رطباً جداً. الزمان، الذي يبدو شديد الفراغ، قديساً في مقدمة وغير قابل للتقسيم، يقطع ويوزع في توافه وترهات. هناك باب يجب أن يطلى، وقفل يجب أن يصلح، أحتاج إلى خشب أو زيت، أو طعام أو ملح، البيت يدخن، أنا أشكو الصداع، ثم هناك الضريبة، وشأن يجب أن يبرم مع شخص بلا قلب أو بلا فهم، والتذكر اللاذع لكلمة مؤذية أو غريبة – تلك هي الأمور التي تلتهم الساعات.. فمهما فعلنا، سيكون للصيف ذبابة. إذا سرنا في الغابة فإن علينا أن نطعم البعوض، إذا ذهبنا للصيد علينا أن نتوقع المعطف المبتل. ثم أن الطقس يعتبر معوقاً كبيراً للاشخاص الكسالى، غالباً ما نقرر التخلي عن الاهتمام بالطقس، لكننا نظل نحسب حساب الغيوم والمطر.

إن هذه التجارب الصغيرة التي تغتصب الساعات والسنين تعلمنا درساً. فالتربة القاسية وشهور الثلج الأربعة تجعل ساكن الجزء الشمالي أكثر حكمة وقدرة من نظيره الذي يتمتع بالابتسامة الثابتة للمنطقة الاستوائية. بوسع الاستوائي أن يتسكع طوال اليوم. وفي الليل يغفو على حصيرة تحت القمر، وحيثما تنبت نخلة برية فإن الطبيعة تبسط له، حتى دون صلاة، مائدة لافطاره الصباحي. الشمالي مدبر منزل بالضرورة. عليه أن يخمر، ويخبز، ويملح، ويحفظ طعامه، وأن يحقق لمسة واحدة دون أن يتعرف على شيء جديد في الطبيعة، ولما كانت أهمية الطبيعة غير قابلة للاستفادة، فإن سكان هذه الاقاليم قد تميزوا دائماً على الجنوبي فيما يتعلق بالقوة. إن قيمة هذه الامور كبيرة

الى الحد الذي لا يمكن فيه للانسان الذي يعرف اشياء اخرى ان يلم بما يكفي منها. لتكن لديه مدارك مضبوطة. ليمسك، ان كانت له يدان، ويعيش ويميز، إن كانت له عينان. ليتقبل ويجمع كل حقيقة في الكيمياء، والتاريخ الطبيعي، والاقتصاد، فكلما زاد ما لديه، كلما تضاءل استعداده لتفويت أياً منها. الزمان يأتي دائماً بالمناسبات التي تكشف قيمتها. من كل فعل طبيعي وبريء تأتي بعض الحكمة. إن الرجل المنزلي، الذي لا يحب من الموسيقى ما يفضل دقات ساعة مطبخه والانغام التي تشدو بها قطع الخشب وهي تحترق في موقده، يحصل على مباهج لا يحلم بها الآخرون. إن تطبيق الوسائل على الأهداف يضمن النصر وأغاني النصر لا تقل في الحقل أو الدكان عنها في تكتيكات الحزب أو الحرب. إن الزوج الطيب يجد الوسيلة الكفوءة في جمع الحطب او في جني الفاكهة في القبو في مثل كفاءة الوسيلة المستخدمة في حملات ابن شبه الجزيرة او في ملفات وزارة الدفاع. في اليوم الماطر يقيم منضدة شغل، أو يركن صندوق أدواته في زاوية مخزن الحبوب، ويحفظهطا مع المسامير، والمخرز، والكماشة، والمفك، والأزميل. هنا يتذوق فرح الطفولة والشباب القديم، الحب الذي يماثل حب القطط للعليات والمعاصر، ومخازن القمح، وجميع مصادر الراحة المنزلية التي يعرفها من مارس طويلاً التدبير المنزلي. إن حديقته أو أقنان دجاجة تروي له الكثير من الحكايا العذبة. وقد يعثر المرء على حجة للتفاؤل في هذه الوفرة الغزيرة لعنصر اللذة السكري هذا في كل ضاحية وركن من العالم الطيب. دع الانسان يحافظ على القانون - أي قانون - وسيجد طريقه مرشوشاً بالرضا. إن الاختلاف في نوعية ملذاتنا أكبر من الاختلاف في كميتها.

من جانب آخر، تعاقب الطبيعة أي اهمال للتدبير. اذا كنت تعتقد أن غايتك في الحواس، اتبع قانونها. واذا كنت تؤمن بالروح، فلا تتشبث بالحلاوة الحسية قبل أن تنضج على شجرة المسبب والنتيجة البطيئة. إن التعامل مع أشخاص من ذوي الادراك الواهي وغير المكتمل يشبه الخل في العين. يروى عن الدكتور جونسون أن قال: "عندما يقول الطفل أنه نظر في هذا الشباك، في حين يكون قد نظر من ذاك، اجلده." إن شخصيتنا الأمريكية تتميز باحتفاء يفوق المعتاد بالادراك الصائب، وهو الأمر الذي يظهر في رواج العبارة التي تقول "ليس خطأ". لكن الانزعاج من عدم توفر الدقة، واختلاط الفكر بشأن الحقائق، وعدم الاهتمام باحتياجات الغد، ليس حكراً على أمة واحدة. إن القوانين الجميلة للزمان والمكان، ما أن تزعزع بفعل انعدام البراعة حتى

تصبح ثقوباً وأوكاراً. إذا أزعجت اليد المتسرعة والغبية الخلية، فإن ما سيصدر عنها هو النحل لا العسل. على كلامنا وفعلنا أن يكون مؤاتياً لكي يكون جميلاً. إن صوت شحذ المناجل في صباحات حزيران عذب ومبهج، ولكن هل يوجد ما هو أكثر كآبة ووحدة من صوت حجر الشحذ أو منجل الحاصد عندما يكون الموسم قد تجاوز وقت صناعة القش؟ إن الأشخاص مشتتي الذهن ورجال "ما بعد الظهر" يفسدون ما يتجاوز شؤونهم الخاصة حين يفسدون مزاج أولئك الذين يتعاملون معهم. لقد وقعت على نقد لبعض اللوحات أتذكره وكلما رأيت اولئك الناس التعساء والكسالى الذين لا يخلصون لحواسهم. قال دوك فايمار الأكبر الأخير، وهو رجل رفيع الادراك، "بحضور الاعمال الفنية العظيمة، لمحت في بعض الأحيان، وخصوصاً الآن في درسدن، الى أي مدى تساهم ميزة محددة في إضفاء حقيقة راسخة على الاشكال وعلى الحياة من حيث قدرتها على منحها الحياة. هذه الميزة هي اصابة مركز الثقل الصحيح، في جميع الاشياء التي ترسمها، وأعني بذلك وضع الشخوص بثبات فوق أقدامها، مما يجعل الأيدي تنقبض، والعيون تنشد الى النقطة التي ينبغي النظر اليها. حتى الاشكال الخالية من الحياة، مثل الاواني والكراسي – دعها ترسم على النحو الصحيح – تفقد كل تأثير عندما يعوزها الاستناد الى مركز ثقلها، وتكتسب مظهراً عائماً ومتأرجحاً. إن لوحة رافائيل في درسدن (وهي الصورة العظيمة الوحيدة التي رأيتها) هي القطعة التي تحمل أقصى ما يمكن أن تتصوره من الهدوء وغياب الانفعال، قديسان يتعبدان للعذراء والطفل. ومع ذلك فهي توقظ انطباعاً أعمق مما يحدثه تلوي عشرات الشهداء المصلوبين. فإلى جانب كل الجمال الذي لا يقاوم للشكل، تضم أعلى درجات الخاصية العمودية في جميع الشخوص". هذه العمودية هي التي نتطلبها في جميع شخوص هذه الصورة للحياة. فليقفوا على أقدامهم، دون أن يعوموا أو يتأرجحوا. ولنعرف اين نجدهم. وليميزوا بين ما يتذكرونه وما يحلمون به، ويسموا الأشياء بأسمائها، ويعطونا الحقائق، وأن يكرموا حواسهم بالثقة بها.

ولكن أي رجل يجرؤ على وصف سواه بعدم التدبير؟ من هو المدبر؟ إن الرجال الذين ندعوهم عظاماً هم أقل الناس شأناً في هذه المملكة. هناك انحراف قاتل في علاقتنا بالطبيعة، يشوه طرق معيشتنا ويجعل من كل قانون عدواً لنا، وهو الامر الذي استنهض مؤخراً كل فضيلة وفطنه في العالم لكي تتأمل في قضية الاصلاح. علينا أن

نستدعي التدبير الأعلى للتشاور، ونسأله لماذا صارت الصحة والعبقرية والجمال الآن الاستثناء وليس القاعدة في الطبيعة البشرية؟ إننا لا نعرف خصائص النباتات والحيوانات وقوانين الطبيعة، لكن هذا الامر يظل حلم الشعراء يجب أن يتزامن التدبير والشعر. ينبغي أن يكون الشعراء مشرعين، أي أن أجرأ الهام شعري لا ينبغي له أن يلوم أو يوجه إهانة، إنما ينبغي أن يبث القانون المدني والعمل اليومي ويقوده. لكن الاثنين يبدوان منفصلين على نحو لا يقبل المصالحة. لقد انتهكنا القانون اثر القانون حتى صرنا نقف وسط الخرائب. وإذا نلمح بطريق المصادفة توافقاً بين الظواهر والمنطق، تصيبنا الدهشة. يجب أن يكون الجمال مهراً لكل رجل وامرأة، مثل المشاعر بالضبط، لكن ذلك نادراً ما يحدث. وينبغي للصحة والجسم السليم أن تكون عامة بين الجميع. على العبقرية أن تكون ابنة العبقرية، وعلى كل طفل أن يلهم، لكن هذا لم يعد متوقعاً في أي طفل الآن، كما أنه لا يتوفر في صيغته النقية في أي مكان. ندعو أنصاف الاضاءات الجزئية عبقرية من باب المجاملة، تلك الموهبة التي تحول نفسها الى نقود، الموهبة التي تتألق اليوم من أجل أن تتناول عشاء مشبعاً وتغفو بسلام في الغد، ويدار المجتمع من قبل من يدعون عن جدارة بـ "رجال الأجزاء" بدلاً عن الرجال الربانيين. فهؤلاء يستخدمون مواهبهم من أجل السمو بالترف، وليس من أجل إزالته. فالعبقرية، مثل التقوى والحب، جمالية دوماً والشهية تبدو للنفوس الأرقى كالمرض، وتجد تلك النفوس الجمال في الطقوس والقيود التي تقاومها.

لقد وضعنا مسميات رفيعة لتغطية حسيتنا، ولكن ما من موهبة نستطيع الارتقاء بالاسفاف. يتظاهر صاحب الموهبة بأن تجاوزاته على قوانين الحواس أمراً تافهاً وأتها لا تساوي شيئاً إزاء ولائه لفنه. إن فنه لم يعلمه الخلاعة، ولا حب الخمر، ولا الرغبة في حصاد ما لم يبذره. إن كل اجتزاء من قداسته يقلل من فنه، كما يقلل منه كل انحراف عن البداهة. فالذي يقول بأنه يزدري العالم، يصب العالم المزدرى عليه انتقامه. والشخص الذي يحتقر الاشياء الصغيرة يهلك بصغار الاشياء. إن تاسو غوته مرشح جداً لأن يكون صورة تاريخية جميلة ومنصفة، كما أنه تراجيديا حقيقية. إن الاضطهاد والذي يمارسه ريتشارد الثالث الطاغية حين يقتل عدداً من الأشخاص الابرياء لا يثير فيّ من الحزن الحقيقي ما يثيره انتونيو وتاسو، عندما يخطّئ كل منهما الآخر، رغم كون الاثنين على حق، حيث يلتزم أحدهما بقواعد هذا العالم ويظل أميناً ومخلصاً لها،

في حين يتشبث الآخر، الذي تتأجج فيه كل الأحاسيس السماوية، بملذات الحواس دون أن يخضع لقانونها. إنه لحزن نشعر به جميعاً، عقدة لا نستطيع لها حلاً.

إن حالة تاسو ليست بالغريبة على السير الحديثة. صاحب عبقرية ذو مزاج متقد، لا يعبأ بالقوانين الفيزيائية، منغمس في اللذات يتحول على الفور إلى شخص سيء الحظ، كثير التشكي، «ابن عم غير مريح»، شوكة لنفسه وللآخرين.

يخجلنا المثقف بحياته المزدوجة . يبدو مثيراً للاعجاب حيثما يتعلق الأمر بشيء أرفع من التدبير، لكنه عقبة حين تقوم الحاجة الى البداهة. بالامس، لم يكن قيصر ليوازيه في عظمته، واليوم ليس المجرم عند قدمي المقصلة بأكثر منه بؤساً؛ بالامس، كان يضيء بنور العالم المثالي الذي يحيا فيه ، الاول بين الرجال ، والآن مقهور بفعل الحاجات والمرضى الذي لا يلوم عليه سوى نفسه. إنه يشبه الخرفانين المثيرين للشفقه الذين يصفهم الرحالة ويقولون انهم يترددون على اسواق القسطنطينيه ، والذين يتوارون طوال النهار صفراً ، مهزولين ، شعثاء، ستلصصين، وفي المساء، حين تفتح البازارات، ينسلون الى دكان الأفيون، يبتلعون لقمتهم ويتجولون الى متأملين هادئين مبجلين، من منا لم يشهد مأساة العبقرية غير المدبرة وهي تتصارع على مدى سنوات مع مصاعب ملية خسيسة ثم تغرق في النهاية، متجمدة، ومستنفذة، وعميقة، مثل عملاق قتل بالدبابيس.

أليس من الافضل أن يتقبل المرء الآلام والعذابات الأولى من هذا الطراز ، التي لا تتوانى الطبيعة في ارسالها له ، بصفتها إشارات إلى ان عليه أن لا يتوقع اي خير غير الثمرة العادلة لمجهوده وانكاره لذاته؟ للصحة، والخبز ، والمناخ ، والموقع الاجتماعي أهميتها ، ولسوف يمنحها استحقاقها. فليتخذ من الطبيعة مستشاراً دائماً ، وليعتمد كمالها مقياساً دقيقاً لانحرافتنا . وليجعل الليل ليلاً ، والنهار نهاراً، وليتحكم في عادة حساب النفقات. وليفهم أن الاقتصاد الشخصي يتطلب نفس القدر من الحكمة الذي تتطلبه ادارة امبراطورية، كما ان بالامكان استخلاص نفس القدر من الحكمة منه. ان قوانين العالم مدونة له على كل قطعة نقد في يده. ليس هناك ما يضره في أن يعرف حتى وان لم يتجاوز ما يعرفه حدود حكمة ريتشارد البائس، أو تدبير شارع ستيت الذي يقوم على مبدأ الشراء بالأيكر والبيع بالقدم ، او اغتناء الزارع، الذي يغرس شجرة بين حين وآخر لأنها سوف تنمو بينما هو نائم ، أو التدبير الذي يقوم على

الاقتصاد في ضربات الآلة الصغيرة، وأجزاء الزمن الصغيرة، وأجزاء الخشب والمكاسب الصغيرة. يمكن لعين التدبير أن لا تغمض ابداً . الحديد، اذا ماترك لدى التاجر، سوف يصدأ، والبيرة، اذا لم تخمر في الحالة الملائمة من الطقس، سوف تحمض، وخشب السفينة يتعفن في البحر، او يجف ويتقلص ويلتوي اذا ما رفع عالياً؛ والنقود، اذا ما ادخرناها، لا تدر ربحاً وتصبح عرضة للضياع؛ واذا استثمرت، فإنها تكون عرضة لانخفاض قيمتها تبعاً للمادة التي تستثمر فيها، اضرب، يقول الحداد، فالحديد ابيض؛ واصل التقليب، يقول صانع القش، وليكن منجلك قريباً منك، والعربة قريبة من المنجل. تجارة اليانكي التي نعتمدها تشتهر باقترابها الشديد من هذا الجانب المتطرف من التدبير. انها تتناول الاوراق النقدية الجيدة، والرديئة،والنظيفة، والمهلهلة، وتحافظ على سلامتها الذاتية بالسرعة التي تمررها بها الى الطرف الآخر. فالحديد لا يصدأ، والبيرة لا تحمض، والخشب لا يتعفن، والقماش لا تذهب موضته، وقيمة النقود لا تنقص خلال اللحظات القليلة العجلى التي يبقيها خلالها اليانكي في حوزته. في التزلج فوق الثلج الرقيق تعتمد سلامتنا على سرعتنا.

دعه يتعلم نوعاً أرقى من التدبير. دعه يتعلم أن كل شيء في الطبيعة، حتى الهباء والريش، يسير تبعاً للقانون وليس للحظ، وأنه لايحصد الا ما يزرع. دعه يضع، بكده والتحكم في ذاته، الخبز الذي يأكله في متناول يده، من اجل لا يجد نفسه مرتبطاً بعلاقات زائفة مع الآخرين، لأن أفضل فائدة تعود بها الثروة هي الحرية. دعه يمارس الفضائل الصغيرة. كم من الحياة الانسانية يهدر في الانتظار! وليمتنع عن ترك المخلوقات من أمثاله تنتظر. كم من الأقوال والوعود لا تعدو كونها مفردات للمحادثة! ولتكن كلماته كلمات قدر. عندما يرى قطعة ورق مطوية ومختومة تطفو حول العالم في سفينة خشبية وتصل سالمة الى العين التي كتبت من أجلها، من بين كل السكان المحتشدين فليشعر بأن عليه هو كذلك أن يحفظ تميز وجوده ضمن كل هذه القوى المشتتة، وأن يحفظ كلمة انسانية رقيقة وسط العواصف، والمسافات، والحوادث التي تدفعنا بهذا الاتجاها أو ذاك ، وان يمكن قدرة الفرد الواهية من الوفاء بما تعهدت به بعد شهور وسنوات في اقصى المناخات .

علينا ان نحاول تدوين قوانين أية فضيلة بحد ذاتها، اعتماداً على النظر اليها وحدها. ان الطبيعة الانسانية لاتحب التناقضات، لكنها متساوقة. ينبغي ان لايدرس

التدبير الذي يؤمن الرفاهية الطاهرة من قبل مجموعة من الرجال، بينما تتولى مجموعة أخرى دراسة البطولة والقداسة، لان هذه الخصال قابلة للتوافق. يتعلق التدبير بالراهن من الزمن، والاشخاص، والممتلكات،والصيغ القائمة. ولكن ما دامت كل حقيقة تمد جذورها في الروح، فإذا ما تغيرت الروح فإنها تكف عن ان تكون، أو تتحول الى شيء آخر – فإن التحكم السليم في الاشياء الخارجية سيكمن دائماً في الاستيعاب الصحيح لأسبابها ومنشئها؛ اي ان الرجل الطيب سيكون الرجل الحكيم، وان الانسان متوحد القلب سيكون الانسان الحصيف. ان اي انتهاك للحقيقة لا يعتبر مجرد نوع من الانتحار من جانب الكاذب، انما هو طعنة في عافية المجتمع الانساني. ان مسار الاحداث يضع ضريبة مدمرة على اكبر الكذبات الرابحة، في حين تستدعي الصراحة الصراحة، وتضع الاطراف المعنية في مواقع مناسبة وتحول تعاملها الى صداقة. ثق بالاشخاص وسوف يصدقونك، عامل الناس بطريقة عظيمة وسوف يطرحون لك أنفسهم كعظماء حتى وان قاموا لصالحك بالخروج عن جميع قواعد تعاملهم.

وهكذا، فان التدبير، فيما يتعلق بالاشياء غير المقبولة والمروعة، لا ينطوي على التفادي والهروب، انما يقوم على الشجاعة. على الشخص الذي يرغب ان يسير بأي قسط من الصفاء في اكثر انحاء الحياة هدوءاً ان يرغم نفسه على الثبات. دعه يواجه الموضوع الذي يثير لديه أسوأ المخاوف، ولسوف تجرد جرأته المخاوف من اساسها. يقول المثل اللاتيني " العين أول ما يقهر بالمعركة " ان التمالك التام للذات يمكن ان يحول المعركة الى أمر لا تزيد خطورته على الحياة الا قليلاً عن لعبة كرة القدم. يروي الجنود أمثلة عن رجال ابصروا بالمدافع موجهة إليهم والنيران تطلق منها، ثم تنحوا عن مسار الكرة النارية. ان الخوف من العاصفة ينحصر بشكل رئيسي في المخدع أو الكابينة. اما السائق، البحار، فإنه يقارعها طوال اليوم، وتجد عافيته تجدد نفسها تحت الجليد ينبض لا يقل حيوية عن نبضه تحت شمس حزيران.

في حالة حدوث أمور غير مستحبة ما بين الجيران، يحل الخوف تواً في الفؤاد ويهول العواقب التي ستصدر عن الطرف الآخر، لكن الخوف مستشار سيء. كل انسان ضعيف فعلياً وقوي ظاهرياً. انه يبدو لنفسه ضعيفاً، لكنه مرعب في عيون الآخرين. انك تخاف من غريم، لكن غريم هو الآخر خائف منك. انك تسعى لاستخلاص النية الطيبة لأحط الاشخاص، وتشعر بالقلق إزاء نواياه السيئة . لكن اصلب المسيئين

لسلامك وسلام الجوار، لايقل ضعفاً وخوفاً عن سواه متى ما مزقت ادعاءاته، فسلام المجتمع غالباً ما يحافظ عليه لأن احد الاطراف خائف والآخر لا يملك الجرأة، على حد قول الأطفال الصغار. عن بعد يتضخم الأشخاص، ويستأسدون، ويهددون؛ قاربهم يداً بيد، وسيكونون أناساً ضعفاء.

يقول المثل «المجاملة لا تكلف شيئاً»؛ لكن الحسابات قد تؤدي إلى تقييم الحب بسبب فائدته. تصف الأساطير الحب بأنه أعمى، لكن اللطف ضروري للادراك، فالحب ليس غطاء، إنما هو ماء العين. إذا قابلت متشيعاً أو متحزباً عدوانياً، فلا تقف عند الخط الفاصل، بل قابله على ما تبقى من أرضية مشتركة. حتى وإن انحصر ذلك في كون الشمس تشرق والمطر يسقط على كليكما؛ ولسوف تتسع الأرضية بسرعة شديدة، وتذوب الحبال المعترضة التي انشد إليها بصرك وتتلاشى في الهواء قبل أن يتوفر الوقت الكافي لإدراك ذلك. لو أن القديس بولص والقديس يوحنا نويا أن يتنافسا لكذب الأول وكره الثاني إلى أية حجة ضد الديانة كانت تلك الأرواح النقية والمصطفاة ستتحول على يد الأشخاص المنافقين، والخسيسين، والبؤساء، والمنحطين! ولكانا راوغا ونعقا، وانحرفا وتواريا، وتظاهرا بالاعتراف هنا من أجل أن يتبجحا وينتصرا هناك، ولما اغتنى أي طرف منهما بأية فكرة أو إحساس بالشجاعة أو التواضع، أو الأمل. لذا ينبغي عليك أن تضع نفسك في موضع زائف إزاء معاصريك عن طريق الانغماس في العداوة والمرارة. رغم أن آراءك في تعارض مباشر مع آرائهم، اتخذ هوية الرقة، وتظاهر بأنك تقول الشيء الذي يعتقده الجميع، ثم ادفع بمنتقضاتك في صف متماسك دون أدنى شائبة في شك. ولسوف تحصل على مخرج مناسب في أقل الحالات. إن الحركة الطبيعية للروح أفضل بكثير من تلك المتعمدة مما يعني أنك في حالة الخصام لن تنصف نفسك أبداً. لأن الفكرة عندها لن تكون رهن المسكة الصحيحة، هي لا تظهر توازنها واحتمالها الحقيقي، إنما تبدو مشوهة، وفظة، ونصف واعية. لكن اتخذ هيأة الموافقة ولسوف يتم توكيدها في الحال، ما دام الناس جميعاً من رأي وقلب واحد في حقيقتهم وتحت اختلافاتهم الظاهرة.

الحكمة لاتسمح لنا بالوقوف على أرضية غير ودية مع أي شخص أو مجموعة أشخاص. إننا نرفض التعاطف والحميمية مع الناس، كما لو أننا بانتظار أن يأتينا تعاطف وحميمية أفضل. ولكن متى ومن أين؟ فالغد سيكون مثل اليوم. إن الحياة تهدر

نفسها فيما نحن نستعد للحياة. يتساقط عنا الأصدقاء والزملاء موتى. ونادراً ما نستطيع أن نرى رجالاً جدداً ونساء جديدات يتوجهون نحونا، فنحن قد كبرنا على التقّيد بالموضة، وكبرنا على توقع الرعاية من أي شخص أعظم أو أقوى. فلنمتص حلاوة تلك المشاعر والعادات التي تنمو بالقرب منا. هذا الحذاء القديم سهل على القدم. لاشك أن بوسعنا أن نلتقط أخطاء أصحابنا بسهولة، بوسعنا أن نهمس أسماء أشخاص أكثر افتخاراً، أسماء تداعب المخيلة على نحو أكبر. إن مخيلة كل إنسان لها أصدقاؤها؛ والحياة تزداد معزة مع مثل هؤلاء الأصحاب. لكنهم إن لم يكونوا لك وفق شروط طيبة متبادلة، فإنهم لن يكونوا لك فإن لم يكن الرب هو الذي يلون ويشكل العلاقات الجديدة بل طموحنا، فإن حسناتها سوف تهرب، كما تفقد الفراولة نكهتها في أحواض الحديقة.

وهكذا تصطف الحقيقة، والشجاعة، والحب، والتواضع، وكل الفضائل إلى جانب التدبير، أو فن ضمان السعادة الراهنة . لست أدري إذا كان سيظهر في النهاية أن جميع المواد مكونة من عنصر واحد مثل الأوكسجين أو الهيدروجين، لكن عالم الأخلاق والتصرفات مصنوع من مادة واحدة، هو يبدأ من الموضع الذي نكون فيه متأكدين من أننا صرنا نتمتم بوصايانا العشر.

٨

البطولة

لدى الكتاب المسرحيين الإنجليز القدامى، وخصوصاً في مسرحيات بومنت وفليتشر، ثمة تمييز ثابت للنبالة، كما لو أن السلوك النبيل كان سهل التمييز في مجتمع ذلك العصر كما يسهل تمييز الملونين من بين السكان الأمريكيين اليوم. فما أن يدخل أي ردربغو، أوبيدرو، أو فاليريو، وإن كان غريباً، فإن الدوق أو الحاكم سوف يهتف: «هذا رجل نبيل»، ويكيل المجاملات بلا نهاية؛ أما الآخرون جميعاً فليسوا سوى نفاية وخبث. وانسجاماً مع هذا الاحتفاء بالميزات الاجتماعية في مسرحياتهم يوجد نوع من التصوير البطولي في الشخصيات والحوار - كما في بونديوكا، وسوفوكليس، والعاشق المجنون، والزواج لمزدوج - حيث يكون المتكلم صادقاً وودياً وعميق الشخصية إلى الحد الذي يجعل الحوار، عند أدنى حادثة إضافية في الحبكة، يرتقي بشكل طبيعي إلى شعر. دعنا نأخذ النص التالي من بين العديد من النصوص. انتصر الروماني مارتيوس على أثينا - وأخضعها كلياً باستثناء الروح غير المرئية لسوفوكليس، دوق أثينا، وزوجته دوريجين. يلهب جمال دوريجين مشاعر مارتيوس، فيسعى إلى انقاذ زوجها، لكن سوفوكليس لن يطلب انقاذ حياته، رغم أنه متأكد من أن كلمة واحدة يمكن أن تنقذه، وهكذا يتم إعدامهما معاً:

فاليريوس : قل لزوجتك وداعاً.

سوفوكليس : كلا، لن أستأذن. يا درويجينتي

هناك، في الأعالي، حول تاج أريادن،

سوف تحوم روحي من أجلك. أرجوك، اسرعي.

دوريجين : ابق، يا سوفوكليس - اعصب عيني بهذا

ولا تدع الطبع الرقيق يتحول

ويفقد إنسانية الجنس الألطف

ليجعلني أرى مولاي وهو ينزف. حسن، إذن،
فما من شيء تحت الشمس
سوف أبصره قبل سوفوكليسي:

وداعاً : والآن علم الرومان كيف يموت الإنسان.

مارتيوس : هل تعرف ماذا يعني أن تموت؟

سوفوكليس : أنت، يا مارتيوس، لا تعرف،
ولذلك، فأنت لا تعرف ماذا يعني أن تعيش، أن تموت
يعني أن تبدأ الحياة. أن تنهي عملاً قديماً، راكداً، متعباً،
وتبدأ آخر أفضل وأكثر جدة. إنه أن تترك
الأوغاد المختالين لتلتحق بصحبة الآلهة والخير.
أنت نفسك يجب أن تنفصل في النهاية عن أكاليلك، وملذاتك، وانتصاراتك
وأن ترى ثباتك ما الذي عند ذاك.

فاليريوس : ولكن ألا تشعر بالحزن أو الغيظ لتركك حياتك على هذا النحو؟

سوفوكليس : لماذا عساي أحزن أو أغتاظ من كوني أرسل
إليهم: الذين أحببتهم أكثر من الجميع؟ سأركع الآن
لكني سأدير لك ظهري: إنه الواجب الأخير
الذي يستطيع هذا البدن أن يؤديه للآلهة.

مارتيوس : اضرب، اضرب، يا فاليريوس،
وإلا فإن قلب مارتيوس سيقفز إلى فمه.
هذا رجل. وهذه امرأة. قبلي مولاك
وعيشا في كل الحرية التي كنتما تحتاجان.
أيها الحب! لقد ابتليتني بلاء مزدوجاً
بالفضيلة وبالجمال. أيها القلب الخائن
إن يدي سترميك سريعاً في جرتي
قبل أن تنتهك عقدة الولاء هذه.

فاليريوس : ماالذي حل بأخي؟

سوفوكليس: مارتيوس، آه يا مارتيوس

ها أنت قد وجدت الآن طريقة لقهري.

دوريجين : آه يا كوكب روما! أي امتنان يمكن أن ينطق

بالكلمات المناسبة التي تعقب فعلاً كهذا؟

مارتيوس : هذا الدوق الرائع، يا فاليريوس،

بازدرائه للثروة والموت،

وهو المأسور، قد أسرني

ورغم أن ذراعي قد أخذت جسمه الذي هنا،

فإن روحه قد أخضعت روح مارتيوس.

بحق روميولوس، إنه روح خالصة، أعتقد؛

أنه لا يملك لحماً، والروح لا يمكن أن تكبل

ولذا فنحن ما هزمنا شيئاً؛ فهو حر،

ومارتيوس يسير الآن مأسوراً.

ليس بوسعي أن أتذكر الآن أية قصيدة، أو مسرحية، أو موعظة، أو رواية، أو خطبة مما طرحته مطابعنا في السنوات القليلة الماضية، تحمل مثل هذه النغمة. لدينا الكثير جداً من الصافرات والفلوتات ولكن ليس لدينا دائماً صوت الناي. ومع ذلك فهناك نوع من الموسيقى النبيلة في «الاودامبا» وفي أغنية «ديون» لوردزوورث، وفي بعض سونيتاته، ويحدث لسكوت أن يسدد ضربة كما في رسمه لصورة اللورد أيفانديل المقدمة من قبل بلفور أوف بورلي. ولم يسقط ثوماس كارلايل، بتذوقه الطبيعي لما هو رجولي ومقدام في الشخصية، أي ميل بطولي في شخوصه المفضلة. وقبله كان روبرت برنز قد منحنا أغنية أو اثنتين. وفي الميسيلانيز هناك وصف لمعركة لوتزن يستحق القراءة. ويروي سيمون أوكلي في «تاريخ المسلمين» أعاجيب الشجاعة الفردية، بإعجاب يظهر أكثر وضوحاً لدى الراوي بحيث يبدو كما لو أنه يعتقد أن موقعه في أوكسفورد المسيحية يستدعي منه شيئاً من التأكيد الملائم على الإشمئزاز، لكننا إذا ما استطلعنا أدب البطولة لا بد أن نصل سريعاً إلى بلوتارك، الذي يعتبر طبيبه ومؤرخه. فنحن

مدينون له ببراسيداس، والديون، والإيبامينونداس، وسكيبيو الزمن القديم، وعلي أن أعتقد بأننا ندين له بأكثر مما ندين لجميع الكتاب القدامى. إن كل واحدة من «حيواته» عبارة عن دحض لقنوط وجبن منظرينا الدينيين والسياسيين. ففي كل حكاية تسطع شجاعة فطرية، ورواقية تنتسب للدم لا للمدارس، وتمنح ذلك الكتاب شهرته الواسعة.

إننا نحتاج إلى كتب لها هذه الفضيلة الإفراغية اللاذعة أكثر من حاجتنا إلى كتب العلوم السياسية أو الاقتصاد الخصوصي. فالحياة مهرجان في عين الحكيم وحده. فإذا نظر إليها من ركن التدبير ومن جانب موقده، فإنها تبدو بجبهة مشعثة وخطرة. إن انتهاكات قوانين الطبيعة من قبل أسلافنا ومعاصرينا يقتص لها منا نحن أيضاً. إن المرض والتشويه من حولنا يشهد بخرق القوانين الطبيعية والفكرية والأخلاقية، وغالباً ما يتراكم الإنتهاك فوق الانتهاك ليولد مثل هذا الشقاء المضاعف. إنه مرض الكزاز الذي يحني رأس الرجل إلى كعبه؛ وداء الكلب الذي يجعله ينبح بوجه زوجته وصغاره، وخبال يحمل على أن يأكل الحشائش؛ الحرب، والطاعون، والكوليرا، والمجاعة تشير إلى ضراوة معينة في الطبيعة، دخلتها عن طريق الجرائم البشرية، وعليها أن تجد لها منفذاً من خلال المعاناة البشرية. ولسوء الحظ ليس هناك انسان لم يتحول إلى مالك لعدد من أسهم الخطيئة بهذا الحد أو ذاك، وبهذا جعل نفسه خاضعاً لقسط من التكفير.

ولذلك لا ينبغي لثقافتنا أن تغفل تسليح الإنسان. دعه يسمع في الوقت المناسب أنه قد ولد في دولة الحرب، وأن رفاهيته ورفاهية الصالح العام تتطلب منه أن لا يمضي راقصاً في ثياب السلام، بل أن يكون متحذراً، متمالكاً لنفسه، وبدون أن يتحدى الرعب أو يخشاه. دعه يمسك بالحياة والصيت في يده، وأن يتحدى بكامل التهذيب المشنقة والجمهور بالحقيقة المطلقة في كلامه واستقامة سلوكه.

إزاء كل هذا الشر الخارجي يتخذ الرجل القابع داخل الصدر موقفاً حربياً، ويؤكد قدرته على أن يواجه وحيداً جيش الأعداء غير المتناهي. على هذا الموقف العسكري الذي تتخذه الروح نطلق اسم البطولة. والبطولة في شكلها الأكثر فجاجة هي ازدراء السلامة والراحة، مما يثير الإعجاب بالحرب. إنها ثقة بالنفس تحتقر قيود التدبير، في تمام طاقتها وقدرتها على إصلاح الأذى الذي يمكن أن تتعرض له. إن البطل ذهن متوازن إلى الحد الذي لا يستطيع معه أي إقلاق أن يزعزع إرادته، بل تراه يتقدم

راضياً بل ومسروراً على وقع موسيقاه، في الملمات المرعبة كما في المسرات النشوانة للفسوق العام. هنالك شيء ليس فلسفياً في البطولة، وشيء ليس قدسياً أيضاً، إنها تبدو كما لو أنها لا تعرف أن الأرواح الأخرى مصنوعة من نفس معدنها، وأن فيها غروراً، إنها التطرف في الطبيعة الفردية ومع ذلك، فإن علينا أن نجلها بعمق. ثمة شيء ما في الأفعال العظيمة لا يسمح لنا باستطلاع حناياها. البطولة تشعر ولا تفكر، ولهذا فهي دائماً على صواب؛ ورغم أن تربية مختلفة، أو ديانة مختلفة، أو نشاطاً فكرياً أكبر كان يمكن أن يكيف الفعل المعني أو يعكسه، فإن البطل يعتبر الشيء الذي يفعله أسمى الأفعال، وهو غير مطروح لرقابة اللاهوتيين. إنها مجاهرة الإنسان الفطري بوجود خصلة لديه لا تبالي بالكلفة، أو الصحة، أو الحياة، أو الخطر، أو الكراهية، أو التأنيب، وبأنه يعلم بأن إرادته أرقى وأجود من كل الخصوم الفعليين والمحتملين.

تعمل البطولة بالضد من صوت الإنسانية، ولبعض الوقت بالضد من صوت العظمة والخير. والبطولة إطاعة لدافع سري في شخصية الفرد. فحكمتها لا تبدو لأي شخص آخر كما تبدو له، لأن المفترض في كل شخص أنه يرى طريقه الخاص على نحو أفضل مما يراه غيره ولهذا فإن الأشخاص الحكماء والعادليين يشعرون بالإستياء مما يفعله حتى يتبدى لهم بعد مرور قليل من الزمن أنه منسجم مع أفعالهم. يرى جميع الرجال المدبرون الفعل في تعارض تام مع الرفاهية المحسوسة، لأن كل عمل بطولي يقيس نفسه بمدى ازدرائه لجانب معين من الخير الظاهر. لكنه يحقق نجاحه الخاص به في النهاية، عندها يطريه المدبر أيضاً.

جوهر البطولة هو الثقة بالنفس. إنها حالة النفس المحاربة، وأهدافها النهائية هي التحدي الأخير للزيف والخطأ، والقدرة على احتمال كل ما تستطيع عوامل الشر إلحاقه بصاحبها. إنها تقول الحقيقة. وهي عادلة، كريمة، مضيافة، تزدري الحسابات التافهة وتحتقر الازدراء نفسه. إنها تثابر، لها جرأة لا تهاب، واحتمال لا يكل. إنها تسخر من تفاهة الحياة العادية. الحصافة المزيفة التي تكترث بالصحة والثروة تشكل أضحوكة للبطولة وموضوعاً لهزئها، فالبطولة، مثل بلوتينوس، تكاد أن تخجل من جسدها. ماذا عساها أن تقول عن الطيبات، والتزين، والمجاملات، والشجارات، والبطاقات، التي تجهد فطنة المجتمع كله؟ يالها من مباهج تلك التي وفرتها لنا، نحن المخلوقات العزيزة، الطبيعة الرحيمة! يبدو أن لا فاصلة بين العظمة والوضاعة. عندما لا تكون الروح سيدة

العالم، فإنها تصبح مادة استغفاله ومع ذلك، فإن الرجل الصغير يتقبل الأكذوبة الكبرى ببراءة، وينغمس فيها مصدقاً ومندفعاً، يولد أحمر، ويموت رمادياً، مرتباً زينته، معتنياً بصحته، ناصباً الكمائن للطعام اللذيذ والشراب القوي، مركزاً رغباته على حصان أو بندقية، مغتبطاً بالقليل من النميمة أو قليل من المديح، حتى أن الروح العظيمة لا تملك إلا أن تضحك من هذه التفاهة الخالصة. «هذه الاعتبارات المتواضعة تجعلني، في الواقع، أنفر من العظمة. ياله من خزي في نظري أن تنتبه إلى عدد أزواج الجوارب الحريرية التي تملك، وبالتحديد هذه وتلك التي تحمل لون الخوخ، أو أن تحمل جرداً بقمصانك فواحد للكماليات، وآخر للاستعمال!»

المواطنون الذين يفكرون بموجب قوانين الحساب، يأخذون بنظر الاعتبار المضايقة التي تسببها استقبال الغرباء في بيوتهم، ويحسبون على وجه الدقة الخسارة في الوقت وفي الاستعداد الخارج عن العادة؛ أما الروح الأفضل فإنها تلقي بالاقتصاد غير الملائم في سرداب الحياة، وتقول، سوف أطيع اللّه، والتضحية والنار التي يعدها. ابن حنقل، الجغرافي العربي، وصف التطرف البطولي في ضيافة صغد في بخارا. «لا عندما كنت في صغد رأيت بناء عظيماً، مثل قصر، كانت أبوابه مفتوحة ومثبتة بالمسامير الكبيرة إلى الجدار. سألت عن السبب، فأخبرت بأن البيت لم يغلق، ليلاً أو نهاراً، منذ مئة عام. بوسع الغرباء أن يقدموا انفسهم في أية ساعة وبأي عدد؛ فقد أعد سيد البيت العدة لاستقبال الرجال ودوابهم ولا يسعده أكثر من إطالة مكوثهم لديه بعض الوقت لم أشهد مثلاً لذلك في أي بلد آخر.» يعرف أصحاب الشهامة جيداً إن أولئك الذين يمنحون الوقت، أو المال، أو المأوى للغريب - ويفعلون ذلك عن حب وليس من أجل التباهي - يكونون كمن يجعل الرب مديناً لهم، إذ أن الثواب الذي يقدمه الكون يكون كاملاً. بطريقة يعوض الزمن ما يبدو مفقوداً، وتكافأ المشقات التي يبدو أنهم تكبدوها. فهؤلاء الرجال ينفخون في شعلة الحب الإنساني ويرتقون بمستوى الفضيلة الاجتماعية ما بين البشر. إلا أن الضيافة يجب أن تكون من أجل تقديم الخدمة لا من أجل التظاهر، وإلا فإنها تنحدر بالمضيف. فالروح المقدامة تصنع نفسها في مستوى يأنف من تقييم نفسه بفخامة مائدته وستائره. وهي تمنح ما لديها، وكل ما لديها، إنما تستطيع عظمتها أن تمنح خبز الشعير والماء القراح عذوبة تفوق ما في الولائم الكبيرة.

إن تعفف البطل ينطلق من رغبته بعدم إلحاق العيب بقيمته الذاتية. لكنه يحبه

لرفعته، وليس لتقشفه. إنه يرى أنه لا يجدر به أن يبدو وقوراً ويدين بمرارة تناول اللحم أو شرب النبيذ، أو تعاطي التبغ، أو الأفيون، أو الشاي، أو الحرير، أو الذهب. فالرجل العظيم نادراً ما يعرف ما يأكل، وما يلبس، ولكن حياته تكون طبيعية وشاعرية بدون دقة، أو لوم. جون إليوت، الرسول الهندي، شرب الماء، وقال عن النبيذ «إنه شراب كريم ونبيل وعلينا أن نكون ممتنين له، لكن الماء، حسب ما أتذكر، قد وجد قبله.» يفوق ذلك تعفف الملك داوود الذي سكب على الأرض إكراماً للرب الماء الذي خاطر ثلاثة من محاربيه بحياتهم من أجل ان يجلبوه له ليشربه

ينسب إلى بروتوس أنه قد استشهد ببيت من يوروبيديس عندما رمى بنفسه على سيفه بعد معركة فيليب وهو يقول«آه أيتها الفضيلة! لقد تتبعتك مدى الحياة، ولم أجدك أخيراً سوى خيال.» لا شك لدي بأن هذه الرواية تسيء إلى البطل. فالذات البطولية لا تبيع عدالتها ونبلها. فهي لا تطلب العشاء الطيب والمنام الدافئ. إذ أن جوهر العظمة هو أن الفضيلة في حد ذاتها تكفي. وأن الفقر هو زينتها. فهي لا تحتاج إلى الغنى، وبمقدورها أن تتحمل فقدانه.

لكن أكثر ما يعجبني في الفئة البطولية هو مزاجها الطيب والمرح الذي تبديه. إنه سمو يستطيع الإحساس المألوف بالواجب أن يرقى إليه، ويتحمله ويقدم عليه بوقار. لكن هذه النفوس النادرة لا تقيم وزناً كبيراً للرأي، والنجاح، والحياة، لذا فهي لا تلتمس أعداءها بالاسترحامات، أو بإظهار الأسى، إنما تظهر بعظمتها المعتادة يرفض سيبيو، حين يتهم بالاختلاس، أن يلحق بنفسه عار انتظار التبرئة، رغم أنه يحمل بيديه سجل حساباته الذي يقطعه مزقاً أمام المحكمة. إلى هذا الطراز تنتمي إدانة سقراط لنفسه خلال حياته، واستخفاف السير توماسمور بالمقصلة. في كتاب «الرحلة البحرية» لبومنت وفليتشر، يقول جوليتا للكابتن البدين ورفاقه:

جوليتا: ألا ترون، أيها العبيد، إن بمقدورنا أن نشنقكم.

السيد: ممكن جداً إذن أن يكون بمقدورنا أن نشنق ونحتقركم.

هذه الردود صائبة وسليمة. فالروح الرياضية هي زهرة العافية التامة وبريقها. العظماء لا يتنازلون لحمل أي شيء على محمل الجد؛ على كل شيء أن يكون مرحاً مثل أغنية الكناري، حتى وإن شمل بناء المدن أو استئصال الأمم والكنائس القديمة

والحمقاء التي أثقلت على الأرض على مدى آلاف السنين. القلوب البسيطة تصنع وراءها كل تاريخ العالم وعاداته وتمارس لعبتها في تحد بريء لقوانين العالم الزرقاء، فتبدو لنا، لو كان بوسعنا أن نرى الجنس البشري كله محتشداً في رؤيا، مثل أطفال صغار يمرحون معاً، رغم أنها في نظر الجنس البشري عموماً ترتدي ثوب الأعمال والتأثيرات المهيب الوقور.

إن الاهتمام الذي تثيره هذه القصص السامية فينا، وتأثير الحكاية الرومانسية على الصبي الذي يتشبث بالكتاب الممنوع تحت رحلته في المدرسة، واحتفاءنا بالبطل، هي الحقيقة الرئيسية التي تتعلق بغرضنا. كل هذه السجايا العظيمة والمتسامية لنا. فإذا ما لنّا أمام مرأى الطاقة الإغريقية، أو العزة الرومانية، فما ذلك إلا لكوننا نتعهد في داخلنا الإحساس نفسه. فلنوفر لهذا الضيف العظيم مكاناً في منازلنا الصغيرة. أول خطوات الجدارة ستكون تخلصنا من ارتباطاتنا الخرافية بالمكان والزمان، بالرقم والحجم. لماذا ترن في الأذن على هذا النحو كلمات مثل الاثيني، والروماني، وآسيا، وانجلترا؟ تقيم الآلهة، وربات الفنون حيثما يوجد القلب، وليس في جغرافية الصيت. إنك تحسب ما ساشوستس، ونهر كونكتيكت، وخليج بوسطن أماكن تافهة، والأذن تعشق أسماء الطوبوغرافيا الأجنبية والكلاسيكية. لكن هذه مواقعنا، ولو تريثنا قليلاً، لوجدنا أن الذي هنا هو أفضل المواقع. ما عليك إلا أن تسكن نفسك هنا، ولسوف لن يغيب الفن والطبيعة، والأمل والحظ، والأصدقاء، والملائكة، والوجود الأسمى عن الغرفة التي تجلس فيها. لا يبدو لنا أن إيبامينونداس، الشجاع والعاطفي، كان بحاجة للأولمب من أجل أن يموت عليه، كما لم يكن بحاجة إلى ضوء الشمس السورية. فهو يثوي مرتاحاً حيثما هو. وقد وجد واشنطن في الجيرسي مطرحاً ملائماً لخطواته، وكذلك كانت شوراع لندن بالنسبة لقدمي ميلتون. الرجل العظيم يجعل مناخه معتدلاً في مخيلة البشر، وهواءه العنصر المحبوب من قبل كل الأرواح الرقيقة. هذا البلد هو البلد الأجمل الذي تقطنه أنبل العقول. تعلمنا الصور التي تملأ المخيلة عند قراءة مآثر بركليس، وزينوفون، وكولومبس، وبايارد، وسيدني، وهامبدن مدى شحة حياتنا، وأن علينا، تبعاً لعمق معيشتنا، أن نزينها بما هو أكثر من البهاء الوطني الملوكي، وأن ننفق امتداد أيامنا في العمل على المبادئ التي تهم البشر والطبيعة.

رأينا وسمعنا عن كثير من الشبان الخارقين الذين لم ينضجوا أبداً، أو الذين لم

يكن ما انجزوه في الحياة الفعلية خارقاً. يعجبنا تفوقهم عندما نرى هيأتهم وسلوكهم ونسمعهم يتحدثون عن المجتمع، والكتب، والدين، يبدو كما لو أنهم يرمون كامل دولتنا ووضعنا الإجتماعي بالإزدراء، فنبرتهم نبرة عملاق فتي أرسل لإحداث الثورات. فما أن يمارسوا عملاً فاعلاً حتى يتقلص الجهد العظيم إلى حجم الإنسان الاعتيادي إن السحر الذي استخدموه كان الميول المثالية، التي تجعل الفعلي مضحكاً، لكن العالم القاسي انتقم منهم في اللحظة التي أسرجوا فيه خيولهم الشمسية ليحرثوا حقله. إذ لم يجدوا انموذجاً ولا رفيقاً، فطمست قلوبهم. وماذا بعد ذلك؟ الدرس الذي قدموه في توقعهم الأول ما زال صحيحاً؛ ولسوف يتولى إقدام أفضل وحقيقة أنقى تنظيم معتقدهم يوماً ما. وإلا لماذا تسعى امرأة إلى التشبه بأية امرأة تاريخية وتعتقد بأنه ما دامت سافو، أو سيفنيه، أو دي سنابل أو مجموعة النفوس التي جمعت العبقرية والتهذيب لم تتمكن من إرضاء المخيلة وثيمس الهادئ، فإن أية امرأة أخرى لن تستطيع ذلك ـ وبالتأكيد لن تستطيعه هي؟ لم لا؟ إن لديها مشكلة جديدة وغير معالجة ينبغي حلها، وربما يظهر أن لها أسعد الطبائع التي سبق وأن تفتحت. دع الفتاة، تسير واثقة في سبيلها، بروح مرفوعة، ونستقبل إيماءة كل تجربة من التجارب الجديدة، وتتفحص بدورها جميع المواضيع التي تروق لعينها، من أجل أن تتعرف على قوة وسحر وجودها الوليد، الذي يحمل توهج فجر جديد في أعماق المدى. الفتاة الحسناء التي تصد التدخل باختيار فخور للمؤثرات، غير عائبة بإرضاء الآخرين، المصممة والمتعالية، تلهم كل من يراها بشيء من نبالتها الخاصة. يشجعها القلب الصامت؛ أيتها الصديقة، لا تنشري شراعك للخوف! تعالي إلى المرفأ بمهابة، أو جوبي البحار يصحبك اللّه. فأنت لا تعيشين عبثاً، لأن مرآك يبهج ويهذب كل عين عابرة.

سمة البطولة ثباتها. لكل الناس دوافعهم المتقلبة، نوبات وحالات كرم. لكن، عندما تختار دورك، عليك أن تواظب عليه، وأن لا تحاول باستخذاء أن تلائم بين نفسك والعالم. ليس بوسع البطولي أن يكون عادياً، كما أن العادي لا يستطيع أن يكون بطولياً. ومع ذلك فإن فينا ضعفاً ينزع إلى انتظار تعاطف الناس مع تلك الأفعال التي يكمن امتيازها في كونها تتجاوز التعاطف لتخاطب عدالة لاحقة. فإن كنت ستخدم أخاك، لأنه يجدر بك أن تخدمه، فلا ترجع عن كلمتك عندما تجد أن ذوي التدبير لا يوصونك بذلك. التزم بفعلك وهنئ نفسك إن كنت قد فعلت شيئاً غريباً ومسرفاً وحطمت

رتابة عمر محتشم. مرة سمعت نصيحة سامية قدمت لشخص فتي «افعل دائماً ما تخشى فعله» الشخصية الرجولية البسيطة لا تحتاج أبداً إلى اعتذار، إنما ينبغي عليها أن تنتظر إلى ما سلف من أفعالها بهدوء فوسيون عندما أقر بأن واقعة المعركة كانت سعيدة، إلا أنه لم يأسف على نصائحه بالعدول عنها.

ليس هنالك ضعف لا نستطيع تعزية أنفسنا عنه بالتفكير القائل ـ إنه جزء من تكويني، جزء من علاقة برفاقي من المخلوقات ودوري إزاءهم. هل تعاقدت الطبيعة على أن لا أظهر في مظهر غير ملائم، أو أن لا أجعل نفسي مادة للسخرية؟ لنكن كرماد فيما يتعلق بوقارنا مثل كرمنا فيما يتعلق بنقودنا. إن العظمة قد استغنت عن الرأي مرة وإلى الأبد. إننا نتحدث عن إحساسنا، ليس لأننا نريد أن نمتدح عليه، وليس لأننا نعتقد بأن له قيمة عظيمة، إنما لنبرر أنفسنا. إنها هفوة عظيمة، كما نكتشف ذلك عندما يقوم شخص آخر بتعديد أفضاله.

أن تقول الحقيقة، حتى مع شيء من التقشف، أن تعيش مع شيء من صرامة التعفف، أو بعض من اسراف الكرم، يبدو أن ذلك نوع من التنسك الذي تخص به الطبيعة الطيبة أولئك الذين يعيشون مرتاحين في وفرة، كعلاقة على كونهم يحسون بنوع من التآخي مع الجماهير الغفيرة من البشر المعذبين. نحن لا نحتاج فقط إلى ترويض الروح وتمرينها عن طريق النهوض بأعباء الصوم، والدين، والعزلة، وفقدان المحبة ـ إنما يجدر بالإنسان الحصيف أن يواجه بعين جريئة الأخطار الأكثر ندرة التي تحل أحياناً بالبشر، وأن يألف حالات المرض المنفرة، وأصوات اللعنة، ومرأى الموت العنيف.

إن زمن البطولة يكون عادة زمن الإرهاب، ولكن اليوم الذي لا تعمل فيه هذه الخصلة لن تشرق شمسه أبداً. نقول أن ظروف الإنسان قد تحسنت تاريخياً في هذه البلاد وفي هذه الساعة عما كانت عليه في أي وقت سابق. فهناك المزيد من الحرية بالنسبة للثقافة. فهي الآن لن تجد البلطة بانتظارها عند أول خطوة تخطوها خارج السبيل المطروق للرأي. لكن الشخص البطولي سيجد دائماً أزمات يجرب فيها بأسه. الفضيلة الإنسانية تتطلب ابطالها وشهداءها، وتحدي الاضطهاد سيستمر على الدوام. ليس بعيداً ذلك اليوم الذي عرى فيه لفجوي الباسل صدره لرصاص الغوغاء، من أجل حق الرأي وحرية الكلام، ومات عندما كان الأفضل أن لا يعيش.

لا أرى أي سبيل آخر يمكن أن يسلكه الإنسان نحو السلام التام، سوى ذلك الذي يتبع فيه مشورة فؤاده. دعه يتخلى عن الصحبة الفائضة، ويكثر المكوث في البيت، ويرسخ نفسه في تلك المجالات التي تحظى برضاه. إن الاحتفاظ المتواصل بالأحاسيس الرفيعة والبسيطة عند أداء الواجبات العويصة هو تدعيم الشخصية بتلك السجية التي ستعمل على نحو مشرف إذا استدعت الظروف ذلك في حالات الشغب، أو على المشنقة. أن كل الفظائع التي نزلت بالبشر يمكن أن تواجه الإنسان ثانية ـ ويمكن أن يحدث ذلك بسهولة في دولة جمهورية، متى ما ظهرت أية علامة على تحلل الديانة. التشهير القاسي، والنار، والريش والقطران، والسخرية هي أمور يمكن للشاب أن يطوف بها بذهنه بأقصى ما يستطيعه من رواق المزاج، وأن يتساءل بأية سرعة يمكنه أن يحدد إحساسه بالواجب، في مواجهة مثل هذه العقوبات، متى ما عن للجريدة القادمة وللعدد الكافي من جيرانه قد يعتبروا آراء مثيرة للفتنة.

قد يلطف من هول المصيبة لدى أكثر القلوب ضعفاً أن نرى أية قفزة سريعة أعدت الطبيعة للتخلص من أشد ضربات الأذى. إذ أننا سرعان ما نبلغ الضفة التي لا يستطيع أي عدو أن يتعقبنا بعدها:

دعهــم يزمجــرون
فأنت مطمئن البال في قبرك

في عتمة جهلنا سيكون، في الساعة التي تصم فيها آذاننا عن الأصوات العالية، من ذا الذي لا يحسد أولئك الذين أوصلوا مساعيهم الشجاعة بسلام إلى نهايتها ؟ من ذا الذي يرى وضاعة سياستنا ولا يهنئ في داخله واشنطن على كونه ملفوفاً بكفنه منذ زمن طويل، آمناً إلى الأبد، وعلى كونه قد دفن براحة في قبره الأمل بالإنسانية الذي ما زال غير مندحر فيه؟ من ذا الذي لا يغبط أحياناً الطيبين والشجعان الذين لم يعودوا يعانون صخب العالم الطبيعي، وينتظر باستسلام غريب أن ينتهي سريعاً وقت تحاوره مع الطبيعة الزائلة؟ لكن الحب الذي سوف يباد سريعاً قد جعل الموت مستحيلاً، وقد أثبت أن ليس بفانٍ إنما هو ابن أغوار وجود مطلق وغير قابل للإخماد.

٩

الـروح العـليــا

ثمة اختلاف ما بين ساعة وأخرى من ساعات الحياة في قميتها وتأثيرها اللاحق. إيماننا يأتي في لحظات؛ أما رذيلتنا فمقيمة. ومع ذلك فإن لتلك اللحظات القصار عمقاً يلزمنا بأن ننسب إليه حقيقة تزيد على كل ما ننسبه لتجاربنا الأخرى. ولهذا السبب تكون الحجة الجاهزة دائماً لاسكات أولئك الذين يحملون آمالاً استثنائية بالإنسان، ونعني بها الإحالة إلى التجربة، عاجزة وغير مجدية على الدوام.. نتنازل للمعترض عن الماضي، ومع ذلك نأمل، عليه أن يفسر لنا هذا الأمل، نسلم بأن الحياة البشرية حقيرة، ولكن كيف عرفنا أنها كانت حقيرة، ما هو أساس هذا القلق فينا؛ هذا السخط القديم؛ ماذا عسى أن يكون هذا الإحساس العام بالحاجة والجهل إن لم يكن إشارة تطرح بواسطتها الروح مطلبها العظيم؟ لماذا يشعر الناس بأن التاريخ الطبيعي للإنسان لم يكتب أبداً، إنما هو يخلف وراءه دائماً ما قلته أنت عنه، ويصبح هذا القول قديماً، وكتباً ميتافيزيقية لاقيمة لها؛ إن فلسفة ستة آلاف عام لم تفتش غرفات وردهات الروح. ففي التحليل النهائي، كانت تجاربها تترك دائماً راسباً لم تستطع تذويبه الإنسان جدول مبعه مخبوء. يتنزل وجودنا فينا من مكان لا نعلمه. ليس لدي أشد الحاسبين دقة علم مسبق بأن شيئاً ما غير قابل للحساب قد يقع في اللحظة التالية. إنني مدفوع في كل لحظة إلى الإقرار بوجود منشأ للأ حداث أعلى من الإرادة التي أدعوها إرادتي.

وكما هو الحال بالنسبة للأحداث، ينطبق الشيء نفسه على الأفكار. عندما أرقب ذلك النهر المتدفق من أصقاع ليس بوسعي أن أراها وهو يصب على مدى فصل جداوله فيّ، أجد أنني متقاعد، لست مسبباً بل مراقباً مدهوشاً بهذا الماء الأثيري، وأنني أرغب في وضع الإستقبال وأتطلع إليه وأضع نفسي فيه، لكن الرؤى تأتي من طاقة خارجية ما.

الناقد الأكبر لأخطاء الماضي والحاضر، والمتنبئ الوحيد بما يجب أن يحدث، هو تلك الطبيعة العظيمة التي تستقر فيها كما تستقر الأرض بين ذراعي الجو الرحيمة، تلك الوحدة، تلك الروح العليا، التي تحتوي ضمنها وجود كل انسان وتوحده مع جميع ما

عداه؛ ذلك القلب المشترك الذي يكون كل حديث مخلص عبادة له، وكل عمل صائب خضوع له، تلك الحقيقة الغالبة التي تدحض حيلنا ومواهبنا، وترغم كل امرئ على أن يظهر على ما هو عليه، وأن يتكلم من ذاته لا من لسانه، والتي تنزع أبداً إلى المرور في أفكارنا وبين أيادينا وتتجول إلى حكمة وفضيلة وقوة وجمال. إننا نحيا بالتتابع، بالإنقسام، في أجزاء، في جزيئات. وفي الوقت ذاته تكمن داخل الإنسان روح المجموع؛ الصمت الحكيم، والجمال الكلي، الذي يرتبط به بنفس الدرجة من القرابة كل جزء وكل جزيء ذلك الواحد الأبدي. هذه القوة العميقة التي نوجد فيها والتي بوسعنا جميعاً أن نطال سعادتها، ليست مكتفية بذاتها ومكتملة في كل ساعة فحسب، بل هي الرؤية والمرئي، المشهد والناظر، الفاعل والفعل، مجتمعة في واحد. إننا نرى العالم قطعة قطعة، كالشمس، والقمر، والحيوان، والشجر؛ لكن الكل الذي تشكل كل هذه أجزاؤه الساطعة، هو الروح. فقط برؤية تلك الحكمة تمكن قراءة سفر العصور، وبالرجوع إلى أفضل أفكارنا، والاستسلام لروح النبوءة الكامنة في كل انسان نستطيع أن نعرف ما تقول. كلمات كل امرئ يتكلم من تلك الحياة لا بد أن تبدو فارغة لأولئك الذين لا يقيمون في الفكرة نفسها في الجزء الخاص بهم. لا أجرؤ على الحديث باسمها. لا تحمل كلماتي معناها الجليل فتتهاوى كليلة وباردة. وحدها هي التي تستطيع أن تلهم من تشاء، وانظر عندها! سيصبح كلامهم إنشادياً، وعذباً، وكونياً مثل هبوب الريح. ومع ذلك فإني أرغب بأن أشير، بكلمات مدنسة، إن لم يقدر لي أن استخدم الكلمات المقدسة، إلى سماء هذه الربة وانقل ما تسنى لي جمعه من إلماحات البساطة المتسامية وقدرة القانون الأعلى.

إذا فكرنا بما يحدث في المحادثة، وفي التخيلات، في الندم، في أوقات الانفعال، في المفاجآت، في توجيهات الأحلام، حيث غالباً ما نرى أنفسنا متنكرين - وحيث لا تعمل الأقنعة الغريبة إلا على تضخيم عنصر حقيقي وفرضه على ملاحظاتها البعيدة - لالتقطنا العديد من الإلماحات التي سوف تتوسع وتسطع متحولة إلى معرفة بأسرار الطبيعة. إنها تعمل جميعاً على إظهار أن الروح في الإنسان ليست عضواً، بل أنها هي تحرك كل الأعضاء وتبث الحياة فيها، وأنها ليست وظيفة مثل القدرة على التذكر، أو الحساب، أو المقارنة، إنما هي تستخدم هذه القدرات استخدام الأيدي والأقدام، وأنها ليست قدرة، إنما هي نور، وأنها ليست الفكر أو الإرادة، إنما هي سيدة الفكر والإرادة،

إنها خلفية وجودنا التي تكمن فيها كل هذه الأشياء ـ سعة هائلة غير ممتلكة ولا يمكن أن تمتلك. من الداخل أو من الخلف، يشع ضياء من خلالنا ويسقط على الأشياء، ويجعلنا ندرك بأننا لاشيء، وأن الضياء هو كل شيء. الإنسان واجهة لمعبد يقطنه الخير كله والحكمة كلها. إن ذلك الذي ندعوه الإنسان؛ الإنسان الذي يأكل، ويشرب، ويزرع، ويحسب لا يمثل، في الهيأة التي نعرفه بها، نفسه، بل أنه يسيء تمثيلها. ونحن لا نحترمه، انما الروح التي يعمل أداة لها، هي التي تجعلنا نحني ركبنا، عندما يتركها تظهر من خلال أفعاله. عندما تتنفس من خلال فكره، تكون العبقرية، وعندما تنفخ في إرادته، تكون الفضيلة، وعندما تتدفق من خلال مشاعره، تكون الحب. يبدأ عمى الفكر عندما يكون شيئاً من ذاته. ويبدأ ضعيف الإرادة عندما يكون المرء شيئاً من نفسه. كل الإصلاح يهدف إلى ترك الروح تشق طريقها من خلالنا؛ وبكلمة أخرى، أن يسخرنا للطاعة.

كل إنسان يحس في وقت ما بهذه الطبيعة النقية. ليس بوسع اللغة أن تلونها بألوانها. فهي شديدة الرهافة. إنها غير قابلة للتعريف والقياس؛ لكننا نعرف أنها تتخللنا وتحتوينا. نحن نعلم أن الوجود الروحي كله موجود في الإنسان. يقول مثل قديم حكيم: «يأتي اللّه لرؤيتنا بدون جرس»، أي أنه كما لا يوجد حاجز أو سقف بين رؤوسنا والسماء اللامتناهية، كذلك لا يوجد حاجز أو جدار في الروح، حيث ينتهي الإنسان النتيجة، ويبدأ اللّه السبب. تستبعد الجدران. نستلقي على جنب مفتوحين على أعماق الطبيعة الروحية، على سجايا اللّه. نرى العدل، والحب، والحرية، والقوة ونعرفها هذه الطبائع لا يرقى فوقها انسان، بل هي التي تعلو فوقنا، وغالباً ما يكون ذلك في اللحظة التي تغرينا فيها مصالحنا بالإمساك بها.

تعرف سيادة هذه الطبيعة التي نتحدث عنها باستقلالها عن تلك القيود التي تطوق كل يد. فالروح تطوق كل الأشياء. وكما سبق لي أن ذكرت، أنها تناقض كل تجربة. وبالطريقة نفسها تقوم بالغاء الزمان والمكان. لقد استحوذ تأثير الحواس لدى أغلب الناس على العقل إلى الحد الذي أصبحت معه جدران الزمان والمكان تبدو حقيقية وغير قابلة للتجاوز، وصار التكلم باستخفاف عن هذه الحدود، في العالم، علامة الجنون. ومع ذلك، فالزمان والمكان ليسا سوى مقاييس معكوسة لقوة الروح. فالروح تتلاعب بالزمان؛

تستطيع أن تحشر الأبدية في ساعة،
أو تمط الساعة إلى أبدية

غالباً ما نحمل على الشعور بوجود شباب آخر وعمر آخر غير ذلك المحسوب منذ سنة مولدنا الطبيعي. بعض الأفكار تجدنا دائماً شباباً، وتبقينا كذلك. مثل هذه الأفكار هي حب الجمال الأبدي والكوني. كل إنسان يخرج من ذلك التأمل بإحساس بكونه ينتمي إلى الدهر وليس إلى الحياة الفانية. إن أقل فعالية للقوى الذهنية تحررنا إلى درجة ما من شروط الزمان. أعطنا بيتاً من الشعر، أو جملة عميقة عند المرض، أو الإجهاد، ولسوف ننتعش؛ أو قدم لنا مجلداً لأفلاطون أو شكسبير، أو ذكرنا باسميهما فنحصل على الفور على الشعور بطول العمر. انظر كيف تختزل الفكرة القدسية القرون والألفيات، وتحقق وجودها من خلال كل العصور ـ هل ضعف تأثير تعاليم المسيح الآن عما كان عليه عندما فتح فمة للمرة الأولى؟ ليس لأثر الحقائق والأشخاص في ذهني أية علاقة بالزمان. وهكذا فإن مقياس الروح دائماً واحد إنه مقياس الحواس وهو غير مقياس الفهم قبل أن تنكمش تجليات الروح، والزمان، والطبيعة. في كلامنا المعتاد ننسب كل الأشياء إلى الزمان كما ننسب الكواكب المتباعدة إلى قبة مقعرة واحدة. وهكذا نقول أن الدينونة قصية أو قريبة، إن الألفية تتقدم، إن يوم الإصلاح السياسي، أو المعنوي، أو الاجتماعي وشبك، وما شابه ذلك، عندما نقصد أن من طبيعة الأشياء أن تكون إحدى الحقائق التي نتفحصها خارجية ومتحركة، والأخرى ثابتة وملتصقة بالروح. إن الأشياء التي نعتبرها الآن ثابتة، سوف تنفصل، الواحدة بعد الأخرى، عن تجربتنا، وتسقط مثل الثمرة الناضجة ولسوف تحملها الريح إلى حيث لا يعرف أحد. المشهد الطبيعي، الأشكال، بوسطن، لندن، عبارة عن حقائق عابرة شأنها شأن أية مؤسسة ماضية، أو أية نفحة من ضباب أو دخان، وكذلك هو المجتمع وكذلك هو العالم. تتطلع الروح بثبات إلى الأمام، خالقة عالماً أمامها، وتاركة عوالم وراءها. ليس لديها مواعيد، ولا طقوس، ولا أشخاص، ولا اختصاصات، ولا رجال. لا تعرف الروح سوى الروح؛ نسيج الأحداث هو الرداء الفضفاض الذي ترتديه.

تبعاً لقانونها الخاص لا بعلم الحساب تحسب نسبة تقدمها. إن خطوات الروح لا تتحقق بالتدريج، كما يمكن أن تمثله الحركة على خط مستقيم، إنما بارتقاء الحال، كما يتمثل في الاستحالة ـ من بويضة إلى دودة، من دودة إلى ذبابة. يمتلك نمو العبقرية

سمة كلية خاصة لا تجعل الفرد المختار يتقدم أولاً على جون، ثم آدم، ثم ريتشارد، مانحاً لكل منهم ألم اكتشاف دونيته ـ إنما يمتد الإنسان في كل نوبة نمو هناك حيثما يعمل، متجاوزاً، في كل نبضة، طبقات، ومجاميع من الناس . يمزق العقل قشرة رقيقة من المرئي والزائل مع كل دافع قدسي، ثم يخرج إلى الأبدية ليستنشق هواءها ويزفره. إنه يتحاور مع الحقائق التي قبلت دائماً في العالم، ويصبح واعياً لنوع من التعاطف مع زينو وأريان يفوق تعاطفه مع الأشخاص الذين في المنزل.

هذا هو قانون الكسب الأخلاقي والفكري. الإرتقاء البسيط كما لو بواسطة خفة معينة ليس إلى فضيلة محددة، بل إلى عالم الفضائل جميعاً. فهي موجودة في الروح التي تحويها كلها. تتطلب الروح النقاء، لكن النقاء ليس هي، وتتطلب العدالة، لكن العدالة ليست هي، وتتطلب الإحسان لكنها شيء أفضل منه، ولهذا يوجد نوع من الانحدار أو التكيف عندما نترك الحديث عن الطبيعة الأخلاقية كيما نحث على فضيلة من الفضائل التي تتمتع بها. كل الفضائل طبيعية بالنسبة للطفل المولود طيباً، والحصول عليها لا يكبده عناد. كلم القلب، فيصبح الإنسان فجأة فاضلاً.

ينطبق هذا على جرثومة النمو الفكري، التي تخضع للقانون نفسه. فأولئك القادورن على التواضع، والعدالة، والحب، والتطلع يقفون فعلاً على منصة تهيمن على العلوم والآداب، على الخطابة والشعر، على الفعل والجمال. لأن من يقيم في هذه الغبطة المعنوية يستشرف تلك القدرات الخاصة التي يجلها الناس غالباً. ليس للعاشق أية موهبة، أو مهارة، يمكن أن تفوت حسناءه المتيمة، مهما صغر حجم ما يملكه من القدرة المعنية، والقلب الذي يسلم نفسه للعقل الأعلى يجد نفسه مرتبطاً بكل أعماقه، ولسوف يسبر في طريق ملكية صوب القدرات والمعارف الخاصة. في الارتقاء إلى هذا الإحساس الأولي والأصلي نكون قد انتقلنا على الفور من موقعنا البعيد حول مدار العالم إلى مركزه، حيث نبصر، كما لو كنا في خلوة مع الرب، الأسباب، ونستشرف الكون الذي ليس سوى النتيجة البطيئة.

أحد أشكال التعليم القدسي هو تجسد الروح في شكل ـ في أشكال، مثل شكلي. أعيش في المجتمع مع أشخاص يستجيبون لأفكار في ذهني، أو يعبرون عن ولاء معين للمثل العليا التي أعيش من أجلها. أراها ماثلة أمامهم. فأتيقن من وجود طبيعة مشتركة؛ وتلك الأرواح الأخرى، تلك الذوات المنفصلة، تجذبني كما لا يجذبني شيء

آخر سواها. إنها تحرك فيّ العواطف الجديدة التي ندعوها انفعالات: الحب، الكراهيه، الخوف، الإعجاب، الشفقة؛ فينشأ الحوار، والمنافسة، والحث، والمدن، والحرب. الأشخاص مكملون لتعليم الروح الأولي. في فترة الشباب نحن بالأشخاص. الطفولة والصبا يبصران كل العالم فيهم. لكن التجربة الأكبر للإنسان تكتشف الطبيعة المتماثلة التي تظهر من خلالهم جميعاً. الأشخاص أنفسهم يعرفوننا بما هو غير شخصي. في كل حديث بين شخصين ثمة إشارة صافية إلى طرف ثالث، إلى طبيعة مشتركة. ذلك الطرف الثالث أو الطبيعة المشتركة ليس اجتماعياً، إنه غير شخصي؛ إنه الرب. ولذا، فإن النقاش حين يكون جاداً بين الجماعات، خصوصاً حول القضايا السامية، فإن المجموعة تصبح واعية لصعود الفكرة إلى مستوى واحد في جميع الصدور، وأن للجميع ملكية روحية فيما يقال، مثل ملكية القائل. يزداد الجميع حكمة عما كانوا. إنها تنعقد فوقهم مثل محراب، هذه الوحدة في الفكر التي يخفق عندها كل قلب بإحساس أسمى بالقوة والواجب، ويفكر ويتصرف بمهابة غير معتادة. يشعر الجميع ببلوغهم مرتبة أعلى من تمالك الذات. إنه يشرق لهم جميعاً. ثمة حكمة معينة في البشرية يشترك فيها أعظم الرجال مع أدواتهم، وهي الحكمة التي تجهد تربيتنا العادية من أجل حجبها واسكاتها العقل واحد، والعقول الأفضل، التي تحب الحقيقة لذاتها، تفكر أقل من سواها بالملكية في الحقيقة. إنها تتقبلها بامتنان في كل موضع، ولا تصنفها أو تدمغها باسم كائناً من كان، لأنها كانت لها قبل ذلك بزمن طويل، ومنذ الأزل. ليس لدى المتعلمين ودارسي الفكر احتكار للحكمة. إن عنف توجههم ينزع عنهم إلى درجة ما التأهل للتفكير بصدق. إننا مدينون بالكثير من الملاحظات القيمة إلى اشخاص ليسوا شديدي الذكاء أو العمق، ممن يقولون بدون جهد الشيء الذي أردنا قوله وسعينا إلى اصطياده عبثاً. إن فعل الروح يظهر فيما يحس ويترك بلا قول أكثر من ظهوره في ما يقال في أية محادثة. إنه يحتضن كل صحبة، وهم دون وعي منهم يبحثون عنه لدى بعضهم البعض .نحن نعرف أفضل مما نعلم. نحن لا نملك أنفسنا بعد، لكننا نعرف في الوقت نفسه أننا أكثر مما نعرف بكثير. أشعر بنفس الحقيقة غالباً في المحادثات العادية مع جيراني، أن شيئاً أسمى في كل منا يراقب هذا الحوار وأن جوبيتر يومئ لجوبيتر من وراء كل منا.

يتنازل الناس للالتقاء. إنهم يشبهون، فيما يقدمون للعالم من خدمة معتادة

ووضيعة يتخلون من أجلها عن نبالتهم الأصلية، أولئك الشيوخ العرب الذين يعيشون في منازل وضيعة ويتظاهرون بالفقر الخارجي، لكي يهربوا من جشع الباشا، ويحتفظوا بكل مظاهر الثراء لخلواتهم الداخلية المحروسة.

وكما يوجد لدى جميع الأشخاص، فإنه موجود في كل مراحل الحياة. ويكون قد بلغ الحلم لدى الوليد. في تعاملي مع طفلي، لا تنفعني لغتي اللاتينية أو الإغريقية، أو انجازاتي ونقودي شيئاً، لكن ما املكه من روح يجدي. فإن كنت مصمماً، فإنه يملي إرادته إزائي، واحدة بواحدة، ويترك لي، إن شئت، دناءة التغلب عليه عن طريق تفوقي بالقوة. ولكني، إن تخليت عن تصميمي وتصرفت بأمر روحي، ناصباً إياها حكماً ما بيننا نحن الإثنين، فإن الروح نفسها سوف تطل من عينيه الفتيتين؛ فيحترمني ويحب معي.

الروح هي مدركة الحقيقة وكاشفتها. نعرف الحقيقة حين نراها، دع المشكك والمستهزئ يقولان ما شاءا. يسألك الحمقى، عندما تقول مالا يرغبون سماعه، «كيف تعرف أنها الحقيقة، وليس خطأ من أخطائك؟» نعرف الحقيقة عندما نراها، بالفكر، كما نعرف أننا مستيقظون عندما نستيقظ. كانت عبارة عظيمة تلك التي قالها ايمانوئيل سويدنبورغ، تكفي وحدها للإشارة إلى عظمة إدراك هذا الرجل - «إن قدرة الرجل على توكيد كل ما يمكن أن يعجبه ليست برهاناً على فهمه، إنما البرهان أن تكون قادراً على أن تتبين الحقيقي حقيقياً، والزائف زائفاً - هذه هي علامة الذكاء وسمته.» في الكتاب الذي أقرأ، تعيد الفكرة الطيبة إلي، كما تفعل كل حقيقة، صورة الروح الكاملة. وبالنسبة للفكرة السيئة التي أجدها فيه تصبح الروح نفسها سيفاً مميزاً فيصلاً، وتبترها. إننا أكثر حكمة مما نعرف. فإن لم نتدخل بأفكارنا، بل نتصرف كلياً، أو نرى كيف يقف الشيء في الرب، فإننا نعرف الشيء المحدد، وكل شيء، وكل انسان. لأن صانع كل الأشياء وكل الأشخاص يقف وراءنا ويلقي من خلالنا بعلمه الكلي المرهوب على الأشياء.

لكنها، فوق هذا التعرف عليها في مقاطع محددة من تجربة الفرد، تكشف، أيضاً، الحقيقة. هنا يتوجب علينا أن ندعم أنفسنا بوجودها نفسه، وأن نتحدث بنبرة أنفس وأسمى عن ذلك القدوم. لأن توصيل الروح للحقيقة هو أسمى حدث في الطبيعة، ما دامت عندها لا تمنح شيئاً من نفسها، بل تمنح نفسها، أو تنتقل إلى ذلك الإنسان الذي

تنوره وتصبح هو، أو أنها، على قدر ما يتلقاه من تلك الحقيقة، تأخذه لنفسها.

إننا نميز إعلانات الروح. وإظهارها لطبيعتها بكلمة التجلي ترافق التجلبات دائماً عاطفة المهابة. لأن هذا الاتصال هو تدفق العقل السماوي في عقولنا. إنه جزر يعتري نهر الفرد إزاء المد الغامر لبحر الحياة. إن كل إحساس متميز بهذا الأمر المركزي يثير في الناس الرهبة والسرور. تسري ارتعاشة في جميع الناس عند استقبال حقيقة جديدة، أو عند القيام بفعلة عظيمة، تصدر عن قلب الطبيعة. في هذه الاتصالات لا تنفصل القدرة على الرؤية عن العزم على الفعل، لكن المعرفة تصدر عن الطاعة، والطاعة تصدر عن إدراك بهيج. كل لحظة يشعر فيها المرء بأنها تجتاحه، هي لحظة لا تنسى. ثمة حماسة معينة تصاحب إدراك المرء لذلك الحضور القدسي هي من طبيعة بنيتنا. تتفاوت طبيعة هذه الحماسة ومدتها تبعاً لحالة الفرد، من النشوة والغيبوبة والإلهام التنبؤي - الذي هو أندر مظاهرها - إلى تلك الومضة الخافتة من العاطفة الفضلى - التي تدفئ، مثل نار المدفأة، جميع الأسر وجماعات البشر، وتجعل المجتمع ممكناً. صاحب ميل معين نحو الجنون بدايات الحس الديني عند الناس على الدوام، كما لو أنهم قد «عصف بهم فيض الضياء». غيبوبات سقراط، و«اتحاد» بلوتينيوس، ورؤيا بورفيري، وتحول بولص، وفجر بهمن، وتشنجات جورج فوكس والكويكرز،وإضاءات سويدنبورغ كلها من هذا النوع. فما كان انتشاء في حالة هؤلاء الأشخاص المتميزين، قد ظهر في حالات لا حصر لها في الحياة الاعتيادية في صيغ أقل لفتاً للنظر. في كل مكان يكشف تاريخ الديانة عن ميل إلى الحماسة. إن نشوة المورافيين والكواتيين، واستهلال المعنى الخالد للكلمة، في لغة كنيسة القدس الجديدة، وإحياء الكنائس الكالفينية، وتجارب الميثوديين - إنما هي أشكال متنوعة لرعشة الرهبة والسرور تلك التي تمتزج بها دائماً روح الفرد بالروح الكلية

إن طبيعة هذه التجليات واحدة؛ فهي حالات إدراك القانون المطلق. إنها إجابات على أسئلة الروح. فهي لا تجيب على الأسئلة التي يطرحها الفهم. فالروح لا تجيب بالكلمات أبداً، بل بالشيء نفسه الذي يطرح السؤال بشأنه.

إن التجلي هو بوح الروح. الفكرة الشائعة عن التجلي هي أنه تنبؤ بالبخت. في حالات وحي الروح الماضية كان الفهم يسعى إلى العثور على إجابات على قضايا

حسية، ويتعهد أن يبلغ نقلاً عن الرب كم سيعيش الناس، وما الذي ستجنيه أيديهم ومن سيصاحبون، معدداً أسماء وتواريخ وأماكن. إنما علينا أن لا نكسر الأقفال. وأن نتحكم في هذا الفضول الرخيص. فالجواب بالكلمات مضلل، وهو في الواقع ليس جواباً للأسئلة التي تطرح. لا تطلب وصفاً للبلدان التي ستبحر نحوها. فالوصف لايصفها لك، وغداً سوف تصل إلى هناك وتعرف تلك البلدان عن طريق العيش فيها. ويسأل الناس عن خلود الروح، ومشيئة السماء، ووضع الخطاة، وغير ذلك. بل أنهم يحملون بأن المسيح قد ترك أجوبة لهذه التساؤلات بالتحديد. لم تتكلم تلك الروح الجليلة ولا للحظة اللغة التي يتداولونها. ففكرة الثبات ترتبط جوهرياً بالحقيقة، والعدالة، والحب، وصفات الروح. والمسيح، وهو يحيا بهذه المشاعر المعنوية، غير مكترث للثروات الحسية، منصرف فقط لتجليات تلك المشاعر، لم يقدم أبداً على فصل فكرة الدوام عن جوهر تلك الصفات، ولا نطق بحرف حول دوام الروح. إن تلاميذه هم الذين فصلوا الدوام عن العناصر المعنوية، وأقاموا عليه الدليل بالحجة. إن الإنسان يسقط في اللحظة التي يدرس فيها مبدأ الخلود منفصلاً. ففي تدفق الحب، وفي عبارة التواضع، ليس ثمة من تساؤل بشأن الإستمرارية ما من إنسان ملهم يطرح هذا السؤال أو يتنازل للبحث عن أدلة. لأن الروح صادقة في عين ذاتها، والإنسان الذي تنسكب فيه لايمكن أن يبتعد عن الحاضر، اللامحدود، إلى مستقبل يكون محدوداً.

هذه الأسئلة التي نتلهف إلى طرحها بشأن المستقبل هي اعتراف بالخطيئة. ليست لدى الرب إجابات لها. ما من جواب بالكلمات يمكن أن يرد على سؤال عن الأشياء. ليس بأمر من الرب، بل من طبيعة الإنسان، أن ينسدل حجاب دون حقائق الغد، لأن الروح لا تسمح لنا بقراءة شيفرة أخرى غير شيفرة السبب والنتيجة. بهذا الحجاب الذي يحجب الأحداث توجه أبناء الإنسان إلى أن يعيشوا في يومهم. الطريقة الوحيدة للحصول على إجابة عن أسئلة الحواس هذه هي تجاوز كل الفضول الرخيص، ويتقبل من الوجود الذي يعوم فوقه الإنسان داخل أسرار الطبيعة، يعمل ويعيش، ويعمل ويعيش، وبدون أن تعي ذلك تكون الروح المتقدمة قد صاغت لنفسها وأقامت وضعاً جديداً، ويصبح السؤال والجواب واحداً.

بالنار نفسها، المقدسة، المحيية، السماوية، التي تتأجج حتى تذيب كل الأشياء في أمواج محيط النور، نرى بعضنا ونعرف بعضنا الآخر، ونعرف من أية روح يتكون. من

ذا الذي يستطيع أن ينبئ عن أساس معرفته لشخصيات الأفراد المعدودين الذين يشكلون دائرة أصدقائه؟ ما من أحد. ومع ذلك فإن أفعالهم وكلماتهم لا تخيب ظنه. في هذا الرجل لا يستطيع أن يضع ثقته، رغم أنه لا يعرف عنه ما يسوء. في ذلك الآخر، رغم أنهما لم يلتقيا إلا لماماً، ثمة علامات مؤكدة تشير إلى أنه أهل للثقة. نحن نعرف بعضنا البعض جيداً - أي منا كان منصفاً مع نفسه، وما إذا كان ذلك الذي نعلمه أو نراه ليس سوى طموح أو أنه جهدنا المخلص أيضاً.

نحن جميعاً مميزون للأرواح. يكمن التشخيص عالياً في حياتنا أو في قوانا غير الواعية. علاقات المجتمع، تجارته، ديانته، صداقاته، نزاعاته هي تمحيص حصيف واسع واحد للشخصية. ففي القاعات المزدحمة، أو في اللجان الصغيرة أو بالتقابل وجهاً لوجه، متهم ومتهم، يعرض الناس أنفسهم للحكم خلافاً لمشيئتهم يظهرون تلك الهنات الحاسمة التي تقرأ بها الشخصية. ولكن من الذي يحكم؟ وما الذي يحكم؟ ليس فهمنا. فنحن لا نقرؤهم بالتعلم أو بالصنعة. كلا: هنا تكمن حكمة الحكيم، في أنه لايحكم عليهم، أنه يتركهم يحكمون على أنفسهم ويكتفي بقراءة الحكم وتدوينه

بسبب هذه الطبيعة المحتومة، تهزم الإرادة الفردية، وبغض النظر عن جهودنا أو نقائصنا، فإن روحك ستنطق عنك، وروحي تنطق عني. ما نحن عليه سوف نبلغه، ليس طوعاً بل لزاماً. تأتي الأفكار إلى عقولنا من ممرات لا نتركها مفتوحة أبداً، وتخرج الأفكار من عقولنا من ممرات لا نفتحها طواعية أبداً. الشخصية تبلغ من فوق رؤوسنا. المؤشر الذي لا يخطئ عن التقدم الحقيقي يوجد في النبرة التي يتخذها الإنسان؛ لا عمره، ولا تربيته، ولا أصدقاؤه، ولا كتبه، ولا أفعاله، ولا مواهبه، ولا كلها مجتمعة يمكن أن تمنحه من الانحياز إلى روح أسمى من روحه. فإن لم يكن قد وجد منزله لدى الرب، فإن أخلاقه، وصيغ كلامه، ومخارج جمله، وقوام آرائه جميعاً، سوف تعترف بذلك لا إرادياً، مهما حاول تغطيته وإن كان قد وجد مركزه فإن الألوهية سوف تسطع من خلاله، من خلال كل أقنعة الجهل، والمزاج السيىء، والظروف غير الملائمة إنه نبرة البحث شيء، ونبرة الإمتلاك شيء آخر.

التميز الكبير بين المعلمين القدسيين والأدبيين، بين شعراء مثل هربرت وشعراء مثل بوب، بين فلاسفة مثل سبينوزا، وكانت، وكولريدج وفلاسفة مثل لوك، وبيلي، وماكنتوش، وستيوارت؛ بين الرجال الدينويين المعترف بلباقتهم في الحديث وبين مترهب

متحمس هنا وهناك، يتنبأ نصف مجنون تحت لا نهائية أفكاره - هو أن إحدى الفئتين تتكلم من الداخل أو عن تجربة، بصفتها شريكة في الحقيقة أو مالكة لها، في حين تتكلم الفئة الأخرى من الخارج، كمتفرجة فقط، أو ربما كمطلعة عن الحقيقة من خلال شهادة طرف ثالث. أنا لا ينفعني أن تعظني من الخارج. بوسعي أن أفعل ذلك بسهولة. المسيح يتكلم دائماً من الداخل، وبدرجة تفوق الجميع. في هذا تكمن المعجزة. أؤمن مسبقاً بأن الأمر يجب أن يكون كذلك. جميع البشر يقفون باستمرار بانتظار ظهور معلم كهذا. ولم إن لم يتكلم الإنسان من داخل الحجاب، حيث تكون الكلمة واحدة مع الشيء الذي تخبر عنه، فإن عليه أن يعترف بذلك باتضاع.

هذا العلم الكلي نفسه يتدفق إلى الذهن ويصنع ما ندعوه بالعبقرية. الكثير من حكمة العالم ليست حكمة، والفئة الأكثر استنارة من الناس هم بلا شك أرفع من الشهرة الأدبية، كما أنهم ليسوا كتاباً. نحن لا نشعر بوجود قدسي بين جمهرة المثقفين والمؤلفين؛ نلمس براعة ومهارة بدلاً من الإلهام، إنهم يمتلكون ضياء لايعرفون من أين يأتي فينسبونه لأنفسهم، موهبتهم نوع من القدرة المبالغ بها، عضو مفرط الحجم، ولذا فإن قوتهم مرض. في هذه الحالات، لا تعطي المواهب الفكرية انطباعاً بالفضيلة، بل بما يقرب من الرذيلة، فنشعر أن موهبة المرء تقف في طريق تقدمه نحو الحقيقة. أما العبقرية فمتدينة. إنها تشرب أكبر للقلب العادي. وهي ليست شاذة، بل هي أكثر شبهاً بالناس الآخرين، وليست أقل شبهاً. ثمة لدى جميع الشعراء العظام حكمة انسانية تفوق كل المواهب التي يمارسونها. فالمؤلف، والمفكر، والحزبي، والجنتلمان المهذب لا يزيح الإنسان. إذ أن الإنسانية تتألف في هوميروس، وتشوسر، وسبنسر، وشكسبير، وميلتون. وهم قانعون بالحقيقة. ويستخدمون الحد الإيجابي. إنهم يبدون جامدين وباردين لأعين أولئك الذين تعودوا مذاق الانفعال المشبوب والتصوير العنيف الذي يمارسه كتاب أدنى شأناً لكنهم رائجون. لأنهم شعراء بفعل المدى الحر الذي يتيحونه للروح المعلمة، التي تبصر من خلال عيونهم ثانية الأشياء التي صنعتها وتباركها. إن الروح تتفوق على معرفتها، وهي أكثر حكمة من أي من أعمالها. الشاعر العظيم يجعلنا نشعر بثرائنا الخاص، فيقل انبهارنا بانجازه. إن أفضل ما يقدمه لعقلنا هو أنه يعلمنا ازدراء كل ما فعله. يحملنا شكسبير إلى مرتبة عالية من النشاط الذهني إلى الحد الذي يوحي لنا بغنى يقزم غناه، عندها نشعر أن الأعمال الرائعة التي أبدعها، والتي أطرينا

فيها في أوقات أخرى نوعاً من الشعر ذاتي الوجود، لا تمتلك من الطبيعة الحقيقية ما يزيد على الظل الذي يتركه مسافر عابر على صخرة. إن الإلهام الذي عبر عن نفسه في «هاملت» و«لير» قادر على التعبير بمثل ذلك من يوم لآخر وإلى الأبد. فلماذا عساي أحتفي بهاملت ولير كما لو أننا لا نملك الروح التي تنزلا منها كما تتنزل مقاطع الكلام على اللسان.

هذه القدرة لا تحل في حياة الفرد مقابل أي شرط آخر سوى الإمتلاك التام. إنها تحل على البسطاء والمتواضعين؛ إنها تحل على كل من يطرح ما هو خارجي ومبتكر، وهي تحل على هيأة بصيرة؛ إنها تحل جلالاً وسكوناً. عندما نرى أولئك الذين تحل فيهم، نتعرف على مراتب جديدة من العظمة. فالإنسان يعود من ذلك الوحي بنبرة متغيرة. إنه لا يحدث الناس وفكره مشغول برأيهم. إنه يجربهم. تلك القدرة تتطلب منا أن نكون بسطاء وصادقين. المسافر المتباهي يحاول تزيين حياته بمقتطفات من سيده، أو أميره، أو الكونتيسة، وبما قالوه أو فعلوه له. السوقة من ذوي الطموح يعرضون أمامك ملاعقهم ومشابكهم وخواتمهم، ويحتفظون بما يصلهم من بطاقات وإطراءات. الأشخاص الأكثر تهذيباً، في معرض سردهم لتجاربهم ا لخاصة، يتخيرون الظرف الشاعري اللطيف - الرحلة إلى روما، العبقري الذي التقوه، الصديق النابه الذي يعرفون، وقد يتجاوزون ذلك إلى المشهد الطبيعي الخلاب، أضواء الجبل، أفكار الجبل التي تمتعوا بها بالأمس - فيسعون بذلك إلى إضفاء صبغة بسيطة وصادقة، لا ألوان وردية لديها، ولا أصدقاء ممتازون، لا فروسية، لا مغامرة؛ لا ترغب بالإعجاب، تعيش في الساعة الراهنة، في التجربة الصادقة لليوم العادي - لأن اللحظة الحالية والأشياء البسيطة قد أفعمت بالفكر وتشبعت ببحر النور.

تحاور مع الذهن عظيم البساطة، فيبدو لك الأدب مثل عملية التقاط الكلمات. إن أبسط العبارات هي أجدرها بالتدوين، ومع ذلك فهي رخيصة وعادية إلى الحد الذي يجعله، ضمن كنوز الروح غير المحدودة، مثل جمع قليل من الحصى من الأرض، أو تعبئة قليل من الهواء في قنينة، في حين أن الأرض كلها والجو كله ملكنا. ما من شيء يمكن أن يدخلك إلى هناك، أو يجعلك واحداً من الدائرة، إلا تخليك عن فخاخك وتعاملك تعامل الند للند بحقيقة مجردة، واعتراف صريح، وتأكيد كلي المعرفة.

الأرواح من هذا النوع تعاملك كما تعاملك الآلهة، وتسير كالآلهة على الأرض،

متقبلة دون أي إعجاب ذكاءك، وهباتك، وحتى فضيلتك ـ ولنقل أنها واجبات طاعتك، لأن فضيلتك تعود لهم بصفتها دمهم المناسب، الكلي مثل ذواتهم، الفوق ملكي، وأبو الآلهة. ولكن أي زجر يلقي به سلوكهم الأخوي البسيط على المداهنة المتبادلة التي يتودد بها المؤلفون لبعضهم الآخر ويجرحون بها أنفسهم! هؤلاء لا يداهنون. لا أستغرب أن يذهب هؤلاء الناس لرؤية كرومويل وكرستينا وتشارلز الثاني وجيمس الأول والتركي الأكبر. لأنهم، في عليائهم الخاصة، رفاق الملوك، ولا بد أن يحسوا نبرة العبودية في الحديث الدائر في هذا العالم. لا بد أنهم يكونون دائماً هبة من السماء بالنسبة للأمراء، لأنهم يواجهونهم، كما يواجه الملك ملكاً، بدون مراوغة أو تنازل، ويمنحون للروح السامية انتعاشة المقاومة وبهجتها، ووجه الإنسانية غير المزوق، والرفقة والأفكار الجديدة. وهم يتركونهم أكثر حكمة ورفعة. إن أرواحاً كهذه تجعلنا نشعر بأن الصدق أفضل من النفاق. تعامل ببساطة مع الرجل أو المرأة من أجل أن تحقق الحد الأعلى من الصدق وتقضي على أي أمل بالعبث معك. إنه أفضل إطراء يمكن أن تقدمه. يقول ميلتون «ثناؤهم، في أعلى مراتبه، ليس نفاقاً، ونصيحتهم في أبسط حالاتها نوع من الثناء»

إن اتحاد الإنسان والرب في كل فعل من أفعال الروح أمر يعجز عنه الوصف. فأبسط عندما يعبد الرب بكامل كيانه يصبح الرب؛ إلا أن تدفق هذه الروح الكونية الأفضل يظل دائماً جديداً وغير قابل للتحليل إنها توحي بالرهبة والاندهاش. ما أعزها على الإنسان وما ألطفها لديه، فكرة الرب تملأ عليه المكان الخالي، وتمحو ندوب أخطائنا وخيباتنا! ليشعل الرب القلب بحضوره، بعد أن نكون قد حطمنا إله التقليد فينا وانصرفنا عن إله البلاغة. إنه مضاعفة القلب نفسه، كلا، بل هو توسيع القلب بلا نهاية بقوة النمو نحو اتساعات جديدة لا متناهية من كل جانب. إنها توحي للإنسان بثقة لا تخطئ. إنه لا يرى بالبرهان بل بالبصيرة أن الصادق هو الأفضل، ويمكنه إزاء ذلك أن يصرف عنه بيسر كل المخاوف والشكوك المحددة، ويفوض لما سيكشفه الزمن حل معضلاته الخاصة. إنه متأكد من أن مصلحته غالية على قلب الوجود وبحضور القانون في ذهنه يغمره اعتماد شامل إلى الحد الذي يجعله يجرف في فيضه كل الآمال العزيزة والمشاريع المستقرة ذات العلاقة بظرفه الفاني. إنه يؤمن بأن ليس بمقدوره الهرب من خيره. فالأشياء التي هي لك حقاً تنجذب إليك. ها أنت تركض سعياً إلى صديقك. دع قدميك تركضان، لكن عقلك لا يحتاج إلى ذلك. أفلن تسلم، في حالة عدم عثورك عليه،

أن من الأفضل لك أنك لم تجده؟ لأن ثمة قوة، موجودة فيه كما هي موجودة فيك، بوسعها أن تجمعكما معاً، إذا كان ذلك لصالحكما. هاأنت تستعد بلهفة للذهاب لتقديم خدمة يدعوك إليها ذوقك وقدرتك وحبك للبشر وأملك في الصيت الطيب. ألم يخطر لك أن لاحق لك في الذهاب مالم تكن على نفس الدرجة من الاستعداد لتقبل منعك من الذهاب؟ أوه، صدقني ما عشت، بأن كل صوت يلفظ عبر العالم الدائر سوف يتردد في أذنك، إذا كان ينبغي لك أن تسمعه! كل مثل، كل كتاب، كل كلمة جانبية تعود لك لمساعدتك أو تطمينك، سوف تبلغ مستقرها حتماً عبر ممرات مفتوحة أو ملتوية. كل صديق لا تهفو إليه بخيالك بل بقلبك الرقيق العظيم، سوف يطوقك في أحضانه. وما هذا إلا لأن القلب الذي فيك هو قلب الجميع؛ إنه ليس صماماً، ولا جداراً، وليس مقطعاً في مكان ما من الطبيعة، بل دماً واحداً يجري بلا انقطاع في دورة لا نهائية خلال جميع البشر، كما أن الماء في الأرض كله بحر واحد، ومده، حين ينظر إليه على نحو صحيح، مد واحد.

فليتعلم الإنسان، إذن، ما تكشفه لفؤاده الطبيعة كلها وكل الأفكار، وهو أن العلي يقطن معه، وأن منابع الطبيعة في ذهنه، إذا ما وجد الإحساس بالواجب. لكنه إن أراد أن يعرف مالذي يتحدث به الرب، فإن عليه، كما قال يسوع، «أن يدخل خلوة الرب ويغلق الباب». فالرب لا يكشف نفسه للجبناء. عليه أن ينصت له بعظمة، نائياً بنفسه عن كل ألفاظ تعبد الناس الآخرين حتى صلواتهم تكون مؤذية له، حتى يكون قد صلى صلاته. تعتمد ديانتنا بفجاجة على أعداد المؤمنين. حيثما كان التوجه للأعداد - وإن جاء ذلك بشكل غير مباشر - فإن البلاغ يعم على الفور بأن الديانة غير معنية به. إن من يجد في الرب فكرة عذبة تحيط به لايحسب أبداً عدد الذين معه. فمن ذا الذي يجرؤ على المجيء، متى ما جلست في ذلك الحضور؟ وإذا ما استرحت إلى التواضع التام، وأنا أحترق بالحب الخالص، فما الذي يمكن أن يقوله كالفن أو سويد نبورغ؟

لا فرق إن كان النداء موجهاً لأعداد غفيرة أو لشخص واحد. فالإيمان الذي يتوقف على السلطة ليس إيماناً. يؤشر الاعتماد على السلطة إلى تدهور الديانة، وانكماش الروح. إن المكانة التي منحهاالبشر ليسوع، على مدى قرون عديدة من التاريخ، هي مكانة السلطة. إنها تمثل أنفسهم. وليس بوسعها أن تغير الحقائق الأزلية. عظيمة هي الروح، وبسيطة. فهي ليست بالمداهنة، ولا بالتابعة، وهي تؤمن بذاتها. إزاء إمكانات

الإنسان الهائلة تنكمش كل التجربة المجردة، وكل السيرة الماضية مهما كانت نقية وناصعة. إزاء تلك السماء التي يعرضها لنا حدسنا، لا نستطيع أن نطري ببساطة أي شكل للحياة رأيناه أو قرأنا عنه. لا يكفينا أن نؤكد أننا لا نملك إلا قلة من الرجال العظام، إنما نقول بشكل مطلق أننا لا نملك منهم أحداً، وأننا لا نملك تاريخاً، ولا سجلاً لأية شخصية أو نمط من الحياة يرضينا بشكل كامل. نرغم على القبول بشيء من التسامح بالقديسين وأنصاف الآلهة الذين يقدسهم التاريخ. فعلى الرغم من أننا في ساعات وحدتنا نستمد من ذكراهم قوة جديدة، فإنهم بفرضهم على انتباهنا، كما يحدث من قبل الأشخاص التقليديين وعديمي التفكير، يجهدوننا ويجتاحوننا. تمنح الروح نفسها وحيدة، وأصيلة، ونقية للوحيد، والأصيل، والنقي، الذي يسعده بموجب هذا الشرط، أن يسكنها، ويقودها، ويتكلم من خلالها. عندها تكون مسرورة، وفتية، ورشيقة. ليست حكيمة، لكنها ترى من خلال الأشياء جميعاً وهي لا تدعى متدينة، لكنها بريئة. إنها تدعي الضياء لنفسها، وتشعر أن العشب ينمو والحجر يسقط بقانون يقل عن طبيعتها ويتوقف عليها. نقول لك: انظر، أنا أولد في العقل الكلي العظيم. أنا، غير الكاملة، أقدس كاملي. إنني استقبل بطريقة ما الروح العظمى، ولذا تراني أتعالى على الشمس والكواكب وأشعر بأنها النتيجة والمصادفات الجميلة التي تتحول وتزول. موج الطبيعة الدائمة يتوغل داخلي أكثر فأكثر، فأصبح إنسانية وعامة في أفعالي وآرائي. وهكذا كان لي أن أحيا في أفكار وأعمل بطاقات غير فانية. عندما يقدر الإنسان الروح، ويتعلم أن «حسنها واسع» على حد التعبير القديم، فإنه سوف يصل إلى أن يرى في العالم المعجزة الدائمة التي تحققها الروح، ويصبح أقل دهشه إزاء العجائب المحدده وسوف يعلم أن ما من وجود لتاريخ مدنس، وأن التاريخ كله مقدس، وأن الكون يتمثل في ذرة، وفي لحظة من الزمان. وهو لن ينسج لنفسه بعد ذلك حياة من مزق ورقع، بل يحيا في وحدة قدسية. وسوف يمتنع عما هو وضيع وعابث في حياته ويرضى بكل الأمكنة وبأية خدمة يمكن أن يقدمها. ولسوف يواجه الغد بهدوء في ظل تلك الثقة التي تحمل الرب معها فتمتلك المستقبل كله في قرارة الفؤاد.

١٠

الـدوائـــر

العين هي الدائرة الاولى، والأفق الذي تشكله هو الثانية، يتكرر هذا الشكل الأولي من خلال الطبيعة بلا نهاية. انه الرمز الأعلى في شيفرة العالم. وصف القديس أوغسطين طبيعة الرب بأنها دائره مركزها في كل مكان ومحيطها في لا مكان. نقرأ طوال حياتنا المعنى الكبير لهذا الشكل الأول من بين الأشكال. إحدى العبر التي استنتجناها تتعلق بدراسة الطبيعة الدائرية أو التعويضية لكل فعل انساني. وسوف نتتبع الآن تماثلاً آخر هو ذلك الذي يفيد بأن كل فعل قابل لأن يهزم. فحياتنا هي تدريب على الحقيقة القائلة بأن بالامكان رسم دائرة أخرى حول أية دائرة؛ وأنه ما من نهاية في الطبيعة، انما كل نهاية هي بداية ، وان هنالك على الدوام فجر يبزغ عند منتصف الظهيرة ، وان تحت كل عمق ينفتح عمق أعمق.

هذه الحقيقة، في تمثيلها للحقيقة المعنوية لغير المدرك، وذلك الكامل الهارب، الذي لا يمكن ليدي الانسان اطلاقاً الالتقاء حوله، الملهم لكل نجاح والقاضي على كل نجاح، تستطيع أن تساعدنا في ربط الكثير من صور القدرة الانسانية في كل مجال.

لاثوابت في الطبيعة . فالكون سائل ومتبخر. وما الثبات الا كلمة تتعلق بالدرجات. عالمنا كما يراه الرب قانون شفاف، وليس كتلة حقائق. يذيب القانون الحقيقة ويبقيها في حالة السيولة. وحضارتنا هي سيادة فكرة تجر وراءها هذا القطار من المدن والمؤسسات. دعنا نرتفع الى فكرة أخرى، فتختفي جميعا. لقد ذاب النحت الاغريقي كله، كما لو انه كان تماثيل من الثلج – ولم تتخلف ندف الثلج وبقاياه في الوهاد الباردة وشعاب الجبال في حزيران وتموز – لأن العبقرية التي ابدعته تبدع الآن شيئاً مغايراً . الحروف الأغريقية دامت زمناً آطول، لكنها الآن تخضع للحكم نفسه وتهوي الى الهوة المحتومة التي يحفرها لكل شيء قديم ابتداع الافكار الجديدة. تقوم الأفكار الجديدة.

تقوم القارات الجديدة على حطام الكوكب القديم، وتتغذى الأجناس الجديدة على تحللات الأجناس الزائلة. تدمر الفنون الجديدة الفنون القديمة. انظر إلى ما استثمر في القنوات المائية كيف أبطلت المضخة جدواه، وكيف ألغى البارود التحصينات، والسكك الحديدية الطرق والقنوات، والبخار الأشرعة، والكهربائية البخار.

تعجب بهذا البرج من الغرانيت الذي يدوم بوجه عوادي كل تلك العصور. لكن يداً ملوحة صغيرة هي التي شيدت هذا الجدار الضخم، والباني أفضل من المبني. فاليد التي بنت تستطيع أن تهده بسرعة أكبر. أفضل من اليد وأمهر منها كانت الفكرة غير المرئية التي عملت من خلاله، وهكذا يوجد دائماً، وراء النتيجة الخشنة، ومسبب رفيع، الذي يكون هو نفسه نتيجة لمسبب أرفع. كل شيء يبدو ثابتاً حتى يعرف سره. العقار الثمين يبدو في عين النساء حقيقة راسخة ودائمة، أما في عين التاجر، فهو شيء يمكن خلقه من أية مادة، ويمكن فقدانه بسهولة. ويبدو البستان، حسن الحرث، وحسن الموقع ثابتاً بالنسبة لابن المدينة مثل منجم ذهب، أو نهر - لكنه بالنسبة لمزارع كبير لا يبدو أكثر ثباتاً من حالة المحصول. الطبيعة تبدو مستقرة ودائمة، لكن لديها مسبباً مثل كل شيء آخر، فإذا كان لي أن أدركه مرة، فهل ستظل هذه الحقول ممتدة أمامي على هذا الاتساع غير المتزعزع، وهل ستظل الأوراق معلقة بحد ذاتها على هذا النحو المثير للتأمل؟ الثبات كلمة تتعلق بالدرجات. كل الأشياء وسطية. وارتباط الأقمار بالقوة الروحية ليس أكثر من ارتباط كرات المضرب.

المفتاح لكل إنسان هو أفكاره. إن لديه، رغم ما يبدو عليه صلابة وتحد، التوجيه الذي يطيعه، وهو الفكرة التي تصنف بموجبها جميع حقائقه. ليس بالإمكان إعادة تشكليه إلا من خلال إطلاعه على فكرة جديدة تتفوق على فكرته. حياة الإنسان دائرة تدور حول نفسها، وتنطلق من حلقة صغيرة لا يمكن إدراكها إلى دوائر جديدة أوسع من كل الجوانب، ويستمر ذلك بلا نهاية. يعتمد المدى الذي يبلغه هذا التوالد للدوائر، دائرة خارج أخرى، على قوة روح الفرد أو صدقها لأن في كل فكرة قصوراً ذاتياً يجعلها، بعد أن صاغت نفسها في موجة دائرية من الحالة - كأن تكون امبراطوية، أو قاعدة للفن، أو عادة محلية، أو طقساً دينياً - تتكوم فوق تلك الذورة لتتصلب وتطوق الحياة. لكن الروح إذا كانت قوية ونشيطة تتفجر إلى ماوراء ذلك الحد من جميع الجوانب وتتوسع إلى مدار آخر فوق العمق العظيم، الذي يرتفع أيضاً في موجة عالية،

في محاولة متكررة للإيقاف والتقييد. لكن القلب يرفض أن يسجن، وهو منذ نبضاته الأولى الصغيرة يميل إلى الانطلاق خارجاً بقوة هائلة وإلى مديات واسعة لا حصر لها.

كل حقيقة ليست سوى الأولى في سلسلة جديدة، كل قانون عام ليس سوى حقيقة خاصة في قانون أكثر شمولية يكشف عن نفسه على الفور. بالنسبة لنا لا يوجد خارج، ولا جدران محدقة، ولا محيطات دوائر. ينهي الرجل قصته ـ ما أحسن ذلك! وما أتمه! إنه يضع لكل الأشياء وجهاً جديداً! إنه يملأ الجو هاك! في الطرف الآخر ينهض رجل آخر ويرسم دائرة حول الدائرة التي اعلناها حدوداً للعالم. يكف متحدثنا الأول عن أن يكون الرجل، بل مجرد المتحدث الأول. ثأره الوحيد هو أن يتقدم ليرسم دائرة خارج دائرة خصمه. وهكذا يبطل الرجال أنفسهم. نتيجة اليوم، التي تشغل الذهن والتي لا يمكن التهرب منها، سوف تختصر تواً إلى كلمة، والمبدأ الذي بدا قادراً على شرح الطبيعة سوف يضمن هو نفسه كمثال في تعميم أجرأ. في فكرة الغد توجه قوة تطيح بكل معتقداتك، وكل المعتقدات، وكل آداب الأمم، وتسير بك إلى سماء لم يتنبأ بها بعد أي حلم ملحمي. إن كل إنسان ليس عاملاً في هذا العالم بقدر ماهو إلماح إلى ما يجب أن يكون عليه. يسير البشر كتنبؤات بالعصر التالي.

خطوة خطوة نرقى هذا السلم الغامض؛ الدرجات هي الأفعال، والموقع الجديد هو القوة. كل نتيجة تهددها وتحكم عليها النتيجة التالية. كل منها تبدو منقوضة بالجديدة، وليس هناك ما يحدها سوى النتيجة الجديدة. القديم يكره دائماً العبارة الجديدة، التي ينظر إليها الأشخاص المقيمون في الماضي باعتبارها هاوية التشكيك لكن العين سرعان ما تعتادها، لأنها والعين نتيجتان للسبب نفسه؛ عنده تظهر براءتها وفائدتها، ثم تواً، وبعد أن تستنفذ كل طاقتها، تشحب وتتضاءل إزاء ما تأتي به الساعة الجديدة.

عند التوجه للوعي، ليس ثمة ثوابت بالنسبة للبشر. كل انسان يعتقد بأنه غير مفهوم تماماً؛ وإذا كان فيه أي شيء من الحقيقة، إذا كان يخلد في النهاية إلى الروح القدسية، فإني لا أعرف كيف يمكن أن يكون خلاف ذلك. لا بد له أن يشعر بأن الحجرة الأخيرة، الخزانة الأخيرة، لم تفتح أبداً، هنالك دائماً ثمالة غير معروفة، غير قابلة للتحليل. أي أن كل انسان يعتقد بأن لديه امكانية أعظم.

حالاتنا لا تؤمن ببعضها البعض. أنا اليوم ممتلئ بالأفكار وبوسعي أن أكتب ما

أشاء. ولا أرى سبباً يمنع حيازتي للفكرة نفسها، ولنفس القدرة على التعبير، غداً. ما أكتبه، يبدو، عندما أكتبه، أكثر الأشياء طبيعية في العالم؛ لكني بالأمس رأيت فراغاً موحشاً في هذه الوجهة التي أرى الآن فيها الكثير، وبعد شهر من الآن، لا أشك في أنني سأتساءل عمن تراه يكون هذا الذي كتب كل هذه الصفحات المتتالية. واأسفاه على هذا الإيمان المزعزع، هذه الإرادة غير المتحمسة، هذا الجرز الهائل لذلك الدفق الهائل! أنا الرب في الطبيعة، أنا عشبة عند الجدار.

الجهد المتواصل من أجل ان يرتفع المرء فوق نفسه، أن يحقق نبرة أعلى مما بلغه آخر مرة، بكشف عن نفسه في علاقات المرء إننا نتعطش للإستحسان، لكننا لا نسامح المستحسن. الحب هو حلاوة الطبيعة، لكن نواقصي تعذبني متى ما أصبح لي صديق. الحب فيّ يتهم الطرف الآخر.إذا كان أعلى مني إلى الحد الذي يجعلني أتضاءل أمامه، فهل أستطيع عندها أن أحبه، وارتقي عن طريق مشاعري إلى مستويات أعلى. تمكن رؤية نمو الإنسان في المجاميع المتتالية لأصدقائه. مقابل كل صديق يفقده من أجل الحقيقة، يكسب صديقاً أفضل. خطر لي وأنا سائر في الغابات أفكر في أصدقائي أن أتساءل لماذا يكون علي أن ألعب معهم هذه اللعبة الوثنية؟ عندما لا أختار العمى الطوعي، فإني أرى وأعرف جيداً، الحدود المتعجلة للأشخاص التي تدعى رفيعة وقيمة. إنهم أغنياء، ونبلاء، وعظماء بما نغدقه عليهم من كلمات، لكن الحقيقة محزنة. أيتها الروح المباركة، التي تركت من أجل هؤلاء، أنهم ليسوا أنت! كل اعتبار شخصي نسمح به يكلفنا مملكة سماوية. إننا نبيع عروش الملائكة مقابل متعة قصيرة ومضطربة.

كم مرة يتحتم علينا أن نتعلم هذا الدرس؟ يكف البشر عن إثارة اهتمامنا عندما نكتشف حدودهم. الخطيئة الوحيدة هي الضيق. ما أن تقف على حدود الإنسان، حتى ينتهي أمره بالنسبة لك. هل يملك مواهب؟ هل يملك مشروعاً؟ هل يملك معرفة؟ لا يهم. بالأمس بدا لك جذاباً وفاتناً بلا حدود، أملاً عظيماً، بحراً تسبح منه، والآن، وقد اكتشفت شواطئه، تجده بركة، ولم يعد يهمك في شيء أن لا تراها ثانية.

كل خطوة جديدة نخطوها في مجال الأفكار تولف بين عشرين فكرة متعارضة ظاهرياً، بصفتها جميعاً تعابير عن قانون واحد. يعتبر كل من ارسطو وأفلاطون رأساً لمدرسة مختلفة. لكن الإنسان الحكيم سوف يرى أن ارسطو يفلطن. بالعودة بالفكر خطوة أخرى إلى الوراء تولف الآراء المتعارضة عند النظر إليها بصفتها النهايتين

المتطرفتين لمبدأ واحد، ومهما تراجعنا فإننا لن نبلغ أبداً المكان الذي يحجب الرؤية الأفضل.

حاذر عندما يطلق الرب مفكراً على هذا الكوكب. كل الأشياء تصبح عندها مهددة. إنه يشبه انتشار حريق في مدينة كبرى، حيث لا يعلم أحد أين يجد الأمان، أو إلى أين سينتهي الأمر. ليست هنالك مساحة علم إلا وتعرض طرفها إلى الانقلاب في الغد، وليست هنالك سمعة أدبية، ولا ما يسمى بأسماء الشهرة الخالدة، يمكن أن تستثنى من المراجعة والإدانة. آمال الإنسان نفسها، أفكار فؤاده، ديانة الأمم، أخلاق وسلوك الجنس البشري تصبح كلها تحت رحمة تعميم جديد. التعميم هو دائماً تدفق جديد للقدسية في العقل. ومن هنا تأتي الرعشة التي تصاحبه.

تتمثل الشجاعة في القدرة على تمالك النفس، بحيث لا يمكن قلب طرف الفرد، ولا يمكن تصميمه، بل أنه يظل قائماً حيثما وضعته. لا يمكن لذلك أن يتحقق إلا بتفضيله الحقيقة على خوفه السابق منها، وبتقبله النبيه لها من أية ناحية جاءت ـ ذلك الاقتناع الجريء بأن قوانينه، وعلاقاته بالمجتمع، ومسيحيته، وعالمه يمكن أن تنسج وتنتهي في أي وقت.

ثمة درجات في المثالية. نتعلم أولاً أن نلعب بها أكاديمياً، كما كان المغناطيس في يوم ما لعبة. ثم، في عز الشباب والشعر، نرى أنها يمكن أن تكون صادقة في أجزاء وومضات منها. ثم يتعاظم محياها صارماً ومهيباً فنرى أنها لا بد أن تكون صادقة. تبدي لنا نفسها عند ذاك عملية وأخلاقية. نتعلم أن اللّه حق، وأنه موجود في، وأن كل الأشياء ظلال له. إن مثالية بركلي ليست سوى تعبير فجٍّ عن مثالية يسوع، وهذه بدورها تعبير فج عن حقيقة كون الطبيعة كلها التدفق السريع للخير وهو يحقق ذاته وينظمها يظهر بشكل أوضح أن التاريخ وحالة العالم في أي وقت يعتمدان مباشرة على التصنيف الفكري القائم في عقل الناس. فالأشياء التي يغليها الناس في هذه الساعة تستمد غلاها من الأفكار التي ظهرت في أفقها الذهني، والتي تسبب النظام الحالي للأشياء، كما تحمل الشجرة تفاحها. ومن شأن درجة جديدة من الحضارة أن تقلب على الفور كامل نظام المقاصد الإنسانية.

المحادثة لعبة الدوائر. في المحادثة نقتلع المسمار الذي يثبت الصمت المشترك من

كل جانب. لا ينبغي الحكم على المشاركين تبعاً للروح التي يشاركون بها أو يعبرون عنها في عيد العنصرة هذا غداً سيكونون قد تراجعوا عن هذه الذروة. غداً سوف تجدهم محنيين تحت السروج القديمة. ولكن، دعنا نستمتع بالشعلة ذات الألسن ما دامت متأججة على جدراننا. عندما يضيء كل متحدث جديد ضياء جديداً، يحررنا من اضطهاد المتحدث الأخير ليضطهدنا بعظمة وخصوصية فكرته، ثم يسلمنا إلى منقذ آخر، يبدو أننا نسترد حقوقنا، نصبح بشراً. أوه، أية حقائق عميقة وغير قابلة للتحقق إلا في عصور وأفلاك، تضمن الإعلان عن كل حقيقة! في الساعات العادية، يجلس الحضور باردين مثل تمثال. نقف جميعاً منتظرين، فارغين ـ عارفين، ربما، أن بإمكاننا أن نكون ملآنين، محاطين برموز جبارة، لا تعتبر رموزاً بالنسبة لنا، بل نثراً وألعاباً عادية. ثم يأتي الرب فيحول التماثيل إلى رجال متقدين، وبومضة من عينه يشتعل الحجاب الذي يغلف كل الأشياء، فيتجلى معنى كل قطعة أثاث، ومعنى الفنجان والصحن، والكرسي والساعة. تغير الحقائق التي كانت كبيرة على ضباب الأمس ـ الملكية، الطقس، التربية، الجمال الشخصي، وأمثالها ـ نسبها على نحو غريب. كل ما اعتبرناه مستقراً يهتز ويقعقع؛ وتغادر الآداب، والمدن، والمناخات، والديانات أسسها وتروح تتراقص أمام عيوننا. ولكن هنا أيضاً ترى الدورة السريعة! الحوار الطيب، لكن الصمت أفضل، وهو يزري به. يؤشر طول الحوار إلى المسافة في الفكر بين المتكلم والمستمع. فلو كانا على تفاهم تام حول أي جزء منه، لما كانت هناك حاجة لأية كلمة تقال بذلك الشأن. ولو كنا متفاهمين بشأن الأجزاء جميعاً لما كان هناك داع للكلمات.

الأدب هو نقطة خارج دائرتنا يمكن من خلالها وصف دائرة جديدة. إن فائدة الأدب هي أنه يقدم لنا منصة يمكن من عليها أن نحصل على رؤية لحياتنا الراهنة، وسيلة نستطيع تحريكها بها. نملأ أنفسنا بالمعرفة القديمة، نعرف أنفسنا على أفضل نحو بالمنازل الإغريقية، والبيونية، والرومانية، لمجرد أن نتمكن من أن نرى على نحو أفضل المنازل وأساليب الحياة الفرنسية، والإنجليزية، والأمريكية. وبالطريقة نفسها نرى الأدب على أفضل نحو من وسط الطبيعة البرية، أو من جلبة الأشياء، أو من ديانة سامية. لا يمكن رؤية الحقل جيداً من داخل الحقل. وينبغي للفلكي أن يحصل على قياس مدار الأرض كقاعدة لمعرفة منظور أي نجم.

ولهذا نقدر الشاعر. كل الحجة وكل الحكمة لا توجدان في الموسوعة، ولا في

مطارحات الميتافيزيقيا، ولا في جسم القداسة، إنما في القصيدة أو المسرحية. في مسعاي اليومي أميل إلى تكرار الخطوات القديمة، ولا أؤمن بالقوة قوة التغيير وإعادة التشكل. لكن شخصاً مثل بترارك أو أريوستو، يكتب لي وهو ممتلئ بالخمرة الجديدة لمخيلته، أغنية أو حكاية مليئة بالأفعال والأفكار الجريئة. إنه يضربني ويوقظني بنبراته الحادة، يحطم سلسلة عاداتي بكاملها، ويفتح عيني على امكانياتي. إنه يركب أجنحة لكل خشب العالم الصلب القديم، فأصبح قادراً من جديد على اختيار السبيل القويم في النظرية والتطبيق.

نحمل نفس الحاجة إلى إلقاء نظرة على ديانة العالم. ليس بوسعنا أبداً رؤية المسيحية في الدروس الكنيسية إنما من المراعى، من زورق في بركة، من وسط أغاني طيور الغابة قد نستطيع رؤيتها عندما يطهرنا النور والرياح الأزلية، عندما يغمرنا بحر الأشكال الجميلة التي يقدمها لنا الحقل، قد يصبح بإمكاننا أن نلقي النظرة الصائبة إلى السيرة الماضية. تعتبر المسيحية غالبة عن حق لدى أفضل أبناء الجنس البشري. ولكن ألم يحدث أن وجد يوماً فيلسوف شاب قادته تربيته إلى تلك الكنيسة المسيحية التي ذكره النص المقدام في انجيل بولص «ثم يخضع الإبن له هو الذي يضع جميع الأشياء تحته، من أجل أن يكون الرب الكل في الكل». على فضائل الأشخاص وتطلعاتهم أن لا تكون أبداً بهذا القدر من العظمة وحسن التقبل، غريزة الإنسان تدفع قدماً بإلحاح نحو غير الشخصي وغير المحدود، وتسلح نفسها راضية بهذه الكلمة الكريمة المأخوذة عن الكتاب نفسه ضد شعارات التعصب.

يمكن إدراك العالم الطبيعي بصفته منظومة من الدوائر متداخلة المركز، بين حين وآخر نلمح في الطبيعة اضطراباً طفيفاً يعلمنا أن هذا السطح الذي نقف عليه الآن ليس ثابتاً، بل زائلاً. هذه الصفات المتداخلة المتماسكة، هذه الكيمياء وهذا النمو، هذه المعادن والحيوانات، التي تبدو قائمة هنا لحد ذاتها، إنما هي مجرد وسائل وأساليب - إنها كلمات الرب، وهي عابرة مثل الكلمات الأخرى هل أحاط الكيمياوي أو العالم الطبيعي، الذي استطلع جاذبية الذرات أو المتشابهات المنتقاة، بصنعته وهو الذي لم يميز بعد القانون الأعمق الذي لا تكون هذه الظواهر بموجبه إلا تعبيراً جزئياً أو مقارباً، وهو قانون انجذاب الشبيه لشبيهه، وكون الأشياء التي تعود لك تنجذب نحوك ولا تحتاج إلى أن تسعى إليها ببذل الجهد والمال؟ ولكن، هل هذا الإقرار هو الآخر مقارب، وليس

نهائياً؟ إن الوجود الكلي حقيقة أسمى. فالصديق والحقيقة لا ينجذبان إلى نظرائهما من خلال قنوات تحت أرضية دقيقة، إنما، عند النظر إليها على النحو الصحيح، تنطلق هذه الأشياء من التواجد الأزلي للروح. فالسبب والنتيجة وجهان لحقيقة واحدة.

قانون التقدم الأزلي نفسه يرتب كل تلك الأشياء التي ندعوها فضائل، ويطفي الواحدة في ضوء الفضيلة الأفضل. الرجل العظيم لايكون مدبراً بالمعنى الشائع؛ كل تدبيره لابد أن يكون اجتزاء من عظمته. ولكن يجدر بكل واحد أن يرى، وهو يضحي بتدبيره، الآلهة التي ينحره لها؛ فإن كانت الراحة والمتعة، كان الأجدر به أن يظل مدبراً؛ وإن كان من أجل غاية أعظم، فإن بوسع من يمتلك عربة مجنحة أن يتخلى عن البغل والسلال. يضع جيفري جزمته من أجل اختراق الغابات، لكي يؤمن قدميه من لدغات الأفاعي؛ هارون لا يحسب حساب هذا الخطر. على مدى سنوات عديدة، لا يتعرض أي منهما للأذى. ومع ذلك، يبدو لي أن كل احتراس تأخذه إزاء شر ما، يضعك في متناول ذلك الشر. أحسب أن أعلى تدبير هو أدنى تدبير. أتجد هذا اندفاعاً مفرط المباغتة من مركز فلكنا نحو حافته؟ فكر كم مرة نسقط فيها في الحسابات التافهة قبل أن نخلد إلى الإحساس العظيم، أو نجعل من حافة اليوم المركز الجديد. يضاف إلى ذلك، أن أشجع أحاسيسك مألوف لدى أشد الناس تواضعاً. يمتلك الفقراء والوضيعون طريقتهم الخاصة في التعبير عن آخر الحقائق تماماً كما تفعل أنت. «لاشيء ينال البركة» و «كلما ازدادت الأشياء سوءاً، كانت أفضل» هي أمثال تعبر عن تسامي الحياة العادية.

ما هو عادل بالنسبة لشخص يكون غير عادل بالنسبة للآخر؛ الحسن لدى شخص ما، قبح لدى الآخر؛ والحكمة لدى شخص، حماقة لدى الآخر- تبعاً لارتفاع الموقع الذي يبصر منه المرء الأشياء يعتقد شخص أن العدالة هي تسديد الديون، وليس هناك حد لنفوره من الشخص الآخر الذي يهمل هذا الواجب ويترك الدائن ينتظر بملل. لكن الشخص الثاني له طريقته الخاصة في النظر إلى الأمور أنه يسأل نفسه، أي دين علي أن أسدد أولاً، دين الغني، أم دين الفقير؟ دين المال، أم دين الفكر للإنسانية، والعبقرية للطبيعة؟ ليس ثمة من مبدأ، بالنسبة لك أيها السمسار، سوى مبدأ الحساب. أما بالنسبة لي، فالتجارة لا تملك إلا أهمية ضئيلة؛ والحب، والإيمان، وصدق الشخصية، وتطلعات الإنسان، تلك هي مقدساتي؛ كما أن ليس بوسعي أن أعزل، كما تفعل أنت، واجباً عن غيره من الواجبات الأخرى، وأن أركز قواي بشكل آلي على تسديد النقود.

دعني أعش؛ ستجد أن مسيرة شخصيتي، وإن تم ذلك بشكل أبطأ، سوف تصفي كل هذه الديون بدون إجحاف يلحق بالغايات الأسمى. أفلن يكون إجحافاً أن يكرس المرء حياته لتسديد القوائم؟ ألا يدين بدين آخر غير النقود؟ وهل يتوجه على كل مساعيه أن تتأجل إلى ما بعد تسديد ديون مالك الأرض أو المصرفي؟

ليست هنالك فضيلة نهائية؛ إنها جميعاً ابتدائية. إن فضائل المجتمع رذائل بالنسبة للقديس. إن رعب الإصلاح هو الاكتشاف بأن علينا أن نلقي بفضائلنا، أو ما اعتبرناه كذلك على الدوام، في نفس الحفرة التي ابتلعت أشنع رذائلنا:

اغفر له جرائمه، واغفر فضائله أيضاً،

تلك الأخطاء

الأصغر شأناً، في منتصف طريق التحول إلى الصواب.

اللحظات القدسية قادرة على محو ندمنا أيضاً. أتهم نفسي يوماً بعد يوم بالكسل وعدم الفائدة؛ ولكن عندما تتخللني موجات الرب هذه، لا أعود أعد الزمن المفقود. لا أعود أحسب انجازاتي الممكنة بما تبقى لي من شهور وسنوات؛ لأن هذه اللحظات تمنح نوعاً من الوجود الكلي والقدرة الكلية لا شأن له بالزمن، إنما يرى أن طاقة الذهن تعادل العمل الذي ينجز، بدون زمن.

وهكذا، أيها الفيلسوف الدائري، أسمع بعض القراء يقول، توصلت إلى نوع رفيع من اللاأدرية الفلسفية، إلى نوع من المساواة وعدم التمييز بين جميع الأفعال، وسوف يحلو لك أن تعلمنا أننا إذا ما كنا صادقين، فإن بوسع جرائمنا أن تكون الأحجار الحية التي تشيد بها معبد الرب الحق!

لست معنياً بتبرير نفسي. أقر بأنني يسعدني أن أرى تفوق مبدأ السكر في الطبيعة النباتية، ولست أقل سروراً إذ أرى في الأخلاق ذلك التدفق الطلق لمبدأ الخير في كل شق وفجوة خلفتها الأنانية، في الأنانية والخطيئة نفسهما؛ من أجل أن يكون هنالك شر خالص، ولا الجحيم ذاتها، بدون أن يكون له تكفيره. ولكن خشية أن أضلل أحداً حين أتبع نزواتي وأملي رأيي، دعني أذكر القارئ بأني لست سوى ممارس تجارب. فلا تعط أية قيمة لما أفعل، أو تعب علي ما لا أفعل، كما لو أنني قد ادعيت بأن بوسعي أن أثبت ما إذا كان كل شيء صحيحاً أم خطأ. أنا أهز كل الأشياء ما من

حقيقة مقدسة بالنسبة لي؛ وما من حقيقة مدنسة؛ إني أجرب فحسب؛ باحث لا ينتهي ولا ماضٍ له وراءه.

مع ذلك، لا يمكن مطلقاً لهذه الحركة الدائبة والتقدم الذين تشارك فيهما الأشياء جميعاً أن تصبح محسوسة بالنسبة لنا إلا بمقابلتها مع مبدأ للثبات أو الإستقرار في الروح. ففي الوقت الذي يتوالى فيه التوالد الأزلي للدوائر، يثبت المولد الأزلي. هذه الحياة المركزية تتفوق بشكل ما على الخلق، وتتفوق على المعرفة والأفكار، وتحتوي جميع دوائرها. إنها تجهد أبداً من أجل خلق حياة وفكرة توازي ذاتها سعة وجودة، ولكن عبثاً، لأن ما يتم صنعه يعلم كيفية صنع ماهو أفضل.

وهكذا لا يوجد هناك نوم، لا توقف، ولا احتفاظ بحالة، إنما كل الأشياء تتجدد، وتتوالد، وتثب. لماذا عسانا نورد الخرق والمخلفات إلى الساعة الجديدة؟ الطبيعة تكره القديم؛ والشيخوخة تبدو المرض الأوحد؛ كل الأمراض الأخرى تؤدي إليها. إننا ندعوها بأسماء كثيرة ـ الحمى، الإدمان، الاختلال العقلي، الغباء، والجريمة؛ إنها جميعاً صيغ للشيخوخة؛ إنها الاستراحة، المحافظة، الاستحواذ، الخمول، وهي ليست الجدة، ليست السبيل إلى امام أننا نشيب كل يوم. لا أرى حاجة لذلك. عندما نتحاور مع ما هو أعلى منا، لا نشيخ، إنما نصير شباباً. الطفولة، الفتوة، متلقية، آملة، متطلعة إلى أعلى بعينين متدنيتين، لا تحسب نفسها شيئاً وهي تترك نفسها للتوجيهات المنصبة من جميع الجهات لكن الرجل والمرأة في السبعين، يفترضان أنهما يعرفان كل شيء، وهما قد تجاوزا أملهما، وتخليا عن التطلع، يتقبلان الفعلي على أنه الضروري ويكلمان الشباب من عل. إنما دعهما يتحولان إلى أدوات للروح القدس؛ دعهما يصبحان عاشقين؛ دعهما يبصران الحقيقة؛ وسترى أن عينيهما سترتفعان، وتجاعيدها تنبسط، ويتعطران من جديد بالأمل والقوة. هذه الشيخوخة لا ينبغي لها أن تزحف إلى العقل الإنساني. كل لحظة في الطبيعة جديدة؛ والماضي يبتلع دائماً وينسى؛ القادم وحده مقدس. ما من شيء مؤكد سوى الحياة الانتقالية، الروح المنشطة. ما من حب يمكن أن يربط بقسم أو ميثاق لحمايته إزاء حب أسمى. ما من حقيقة تبدو مهيبة اليوم إلا وكانت عرضة لأن تبدو تافهة غداً في ضوء أفكار جديدة. يرغب الناس في الاستقرار؛ إنما لا يوجد أي أمل بالنسبة لهم إلا بمقدار ما يظلون فيه من عدم الاستقرار.

الحياة سلسلة من المفاجآت. لا نحرز اليوم، ونحن نبني وجودنا، مزاج الغد، أو متعته، أو قدرته. بوسعنا أن نقول شيئاً عن الحالات الدنيا، عن أعمال الروتين والإدراك؛ ولكن روائع الرب، وحركات الروح الكلية ونمواتها، تظل مخبوءة؛ فيه غير قابلة للحسبان. ستساعدني لا أدري، لأن المنفذ الوحيد إلى أن تعرف هو أن تكون الموقع الجديد للإنسان المتقدم يحمل كل قدرات القديم، لكنه يحملها جميعاً جديدة. إنه يحمل في صدره كل طاقات الماضي، لكنه هو نفسه تنفسي الصباح. ألقي بعيداً في هذه اللحظة الجديدة كل ما كنت راكمته من معرفة فهي فارغة ولا مجدية. الآن للمرة الأولى يبدو أنني أعرف شيئاً على النحو الصحيح. أسهل الكلمات ـ لا نعرف ما تعني إلا عندما نحب ونأمل.

الفرق بين المواهب والشخصية هو الدقة في المحافظة على الجولة القديمة والمطروقة، والقدرة والشجاعة على شق طريق جديد إلى أهداف جديدة أفضل. تصنع الشخصية حاضراً طاغياً؛ ساعة مصممة، جذلي، تعزز كل الحضور بتمكينهم من رؤية أشياء كثيرة ما كانت تخطر على بالهم ممكنة وممتازة تعتم الشخصية أثر أحداث معينة. عندما نرى الفاتح لا نفكر كثيراً بأية معركة وأي فوز. نرى أننا قد بالغنا في الصعوبة. لقد كان الأمر سهلاً بالنسبة له. فالرجل العظيم لا يمكن إخافته أو تعذيبه؛ تمر الأحداث من فوقه دون أن تترك أثراً كبيراً. يقول الناس أحياناً، «انظر علام انتصرت؛ انظر كم مغتبط أنا؛ انظر إلي كيف انتصرت تماماً على تلك الأحداث السود.» لم انتصر دمت أتذكر الحادث الأسود. الانتصار الحقيقي هو حمل النائبة على أن تبهت وتختفي مثل غيمة مبكرة عديمة الآثر في تاريخ واسع ومتقدم.

الشيء الوحيد الذي نسعى إليه برغبة لا تشبع هو أن ننسى أنفسنا، أن ندهش حد الخروج عن لياقتنا، أن نفقد ذاكرتنا وأن نفعل شيئاً ما بدون أن نعرف كيف ولماذا؛ باختصار، أن نرسم دائرة جديدة. لم يحرز أي شيء عظيم إطلاقاً بدون حماسة. إن طريقة الحياة الرائعة؛ أنها تعاش بالتخلي. لحظات التاريخ العظيمة هي أدوات الأداء من خلال قوة الأفكار، كالدين ومنجزات العبقرية. يقول أوليفر كرومويل: «لا يرتقي الرجل أبداً مرقاه حين لا يعرف إلى أين يقصد.» الأحلام السكر، استخدام الأفيون والكحول هو التشبه بتلك العبقرية النبوئية وتقليدها، ومن هنا يأتي إغراؤها الخطير للإنسان. إنها، للسبب نفسه، تتطلب عون العواطف الجياشة، كما في الصيد والحرب، من أجل أن تقلد بطريقة ما لهيب القلب وسخائه.

١١

الـــفكـــر

كل مادة ترد كهربائياً بالسلب على المادة التي تقع فوقها في الجداول الكيميائية، وبالإيجاب على تلك التي تقع تحتها يذيب الماء الخشب والحديد والملح؛ والهواء يذيب الماء؛ والنار الكهربائية تذيب الهواء؛ لكن الفكر يذيب النار، والوزن، والقوانين، والأسلوب، وأدقِ علاقات الطبيعة غير المحدودة في مادته المذيبة التي لا تقاوم يقف الفكر وراء العبقرية، التي تعتبر فكراً بناءً. والفكر هو القوة الأولى البسيطة لكل فعل وبناء. أستطيع أن أبسط بسرور وفي تدرج هادئ التاريخ الطبيعي للفكر، ولكن أين هو الإنسان الذي استطاع أن يؤشر خطوات وحدود ذلك الجوهر الشفاف؟ تطرح الأسئلة الأولى دائماً، ويعيا أحكم الأطباء إزاء تساؤلات طفل. كيف يتسنى لنا أن نتحدث عن عمل الذهن تبعاً لأية تقسيمات، كأن نتحدث عن معرفته، وعن قوانينه، وعن عمله، وكهذا» مادام يذيب الإرادة إلى إدراك، والمعرفة إلى فعل؟ كل جزء يتحول إلى الآخر. وهو وحده الكائن. إن بصيرته لا تشبه الأبصار بالعين، بل هي الاتحاد بالأشياء المعروفة.

الفكر والتفكير يعنيان بالنسبة للأذن العادية تأمل الحقيقة المجردة. تستولي التأملات في الزمان والمكان، فيك وفيّ، في المنفعة والأذى، على أذهان معظم الناس. يفصل الفكر الحقيقة المطروحة للدرس عنك، وعن كل ارتباط مكاني أو شخصي، ويميزها كما لو كانت قائمة بحد ذاتها. نظر هيراكليتوس إلى المشاعر بصفتها ضباب كثيف ملون. في ضباب المشاعر الطيبة والشريرة يصعب على المرء أن يسير قدماً في خط مستقيم. الفكر خال من المشاعر وهو يرى المادة كما تقف في ضوء العلم، باردة وغير مرتبطة بشيء. يخرج الفكر من الفرد، ويعوم على شخصيته الخاصة، وينظر إليها

بصفتها حقيقة، وليس على أنها «أنا» أو «خاصتي». إن الفرد المنهمك فيما يخص الشخص أو المكان لا يستطيع أن يرى مشكلة الوجود. إنها المشكلة التي يتأمل فيها الفكر على الدوام الطبيعة تظهر الأشياء كلها متشكلة ومرتبطة. يخترق الفكر الشكل، ويقفز على الجدار، ويلمح التشابه الجوهري بين الأشياء البعيدة، ويختزل الأشياء كلها إلى مبادئ قليلة.

إن تحويل المادة إلى موضوع للفكر يرتقي بها. كل تلك الكتلة من الظواهر الذهنية والمعنوية التي لا نحولها إلى مواضيع للفكر المتعمد، تخضع لقوة القدر، وهي تكون ظرف الحياة اليومية؛ وتخضع للتغيير، والخوف، والأمل. ينظر كل انسان إلى ظرفه الإنساني بدرجة من الأسى. فكما أن السفينة الجانحة تصبح نهباً للأمواج، كذلك الإنسان، المقيد داخل حياته الفانية، يكون عرضة لرحمة الأحداث القادمة. لكن الحقيقة، حين تعزل من قبل الفكر، لا تعود مادة للقدر. فنحن نراها مثل إله يرتفع فوق إلهم والخوف وهكذا تتحول كل حقيقة في حياتنا، أو كل سجل لخيالاتنا وتأملاتنا، عن تخليصها من شبكة لا وعينا، إلى مادة غير شخصية وغير فانية. إنها الماضي مستعاداً، إنما محنطاً. إنه فن أفضل من فن مصر ذلك الذي استخرج منها الخوف والفساد. إنها منزوعة الهم. إنها تقدم للعلم. إن ما يطرح علينا لغرض التأمل لا يهددنا بل يجعل منا مخلوقات مفكرة.

إن نمواً تلقائياً في جميع الاتجاهات. ليس بوسع الفكر الذي ينمو أن يتنبأ بأوقات، ووسائل، وطريقة تلك التلقائية يدخل الرب في كل فرد من باب خاصة. يسبق تفكير الذهن عمر التأمل بزمن طويل. إنه يخرج من الظلام على نحو غير مفهوم إلى ضوء النهار المدهش. في زمن الطفولة يكون قد تلقى كل الانطباعات التي جاءته من الوسط المحيط به وتخلص منها تبعاً لطريقته الخاصة. لكل ما يفعله العقل أو يقوله يتم بموجب قانون، ويظل هذا القانون الشخصي نافذاً عليه بعد أن يبلغ التأمل أو التفكير الواعي. في حياة أشد الأشخاص إرهاقاً، وتحذلقاً، وتعذيباً للذات، يظل الجزء الأعظم محجوباً، وغير قابل للتصور ولا الحسبان، وهكذا ينبغي له أن يكون، حتى يصبح المرء قادراً على أن يرفع نفسه بنفسه من أذنيه. ما أنا؟ ماالذي فعلته إرادتي لتجعل مني ما أنا عليه؟ لا شيء. لقد كنت أعوّم في هذه الفكرة، وهذه الساعة وهذا الترابط للأحداث، من قبل عقل أو إرادة أو تيارات سرية، ولم تفعل براعته ولا عناده شيئاً لإعاقة ذلك أو المساعدة في

حدوثه بأية درجة محسوسة.

ما نفعله تلقائياً هو الأفضل دائماً. ليس بوسعك أن تقترب بأفضل، تصميمك وانتباهك من أية قضية على النحو الذي تتيحه لك النظرة التلقائية التي تلقيها وأنت تنهض من سريرك في الصباح، أو تسير خارج المنزل في الصباح بعد أن أفنيت الليلة الماضية في تأمل تلك القضية قبل أن تنام. إن تفكيرنا استقبال نقي. ولهذا فإن الحقيقة في فكرنا تفسد بالتوجيه العنيف بقدر ما تفسد بالإهمال الكبير. إننا لا نقرر ما نفكر فيه. بل نكتفي بفتح حواسنا، وإزاحة كل الحواجز دون الحقيقة، ونترك للفكر أن يرى. ليس لدينا إلا القليل من السيطرة على أفكارنا. فنحن سجناء الأفكار. إنها تقتنصنا في سمائها للحظات وتشغلنا إلى الحد الذي يصرفنا عن التفكير بالغد، فنحدق مثل الأطفال، ولا نبذل أي جهد من أجل جعلها أفكارنا نحن شيئاً فشيئاً نسقط عن تلك النشوة، ونروح نفكر أين كنا، وماذا رأينا، ونستعيد على أصدق نحو نستطيعه الأشياء التي أبصرناها. وعلى قدر ما نستطيع استذكاره من تلك المباهج، نحمل النتيجة في الذاكرة غير القابلة للانمحاء، تلك النتيجة التي يؤكدها جميع البشر وجميع الأزمنة، إنها تدعى الحقيقة. لكن ما أن نكف عن التسجيل ونحاول التصحيح والإستنباط، حتى لا تعود حقيقة.

إذا نظرنا في ما حفزه الأشخاص فينا وأفادونا منه، فإننا سوف ندرك تفوق المبدأ التلقائي أو البديهي على الحسابي والمنطقي فالأول يحتوي الثاني، ولكن بشكل افتراضي وكامن. نتطلب منطقاً طويلاً من كل انسان؛ ولا نتسطيع ان نتسامح مع غيابه، لكنه يجب أن لا يقال. المنطق هو تقدم الغريزة أو تفتحها المتوازن؛ لكن فضيلته في كونه وسيلة صامتة؛ فما أن يظهر كمسألة أو تكون له قيمة مستقلة، حتى يفقد قيمته.

في ذهن كل انسان تمكث بعض الصور، والكلمات، والحقائق، دون جهد يبذله لتثبيتها، في حين ينساها الآخرون، وفيما بعد توضع له هذه قوانين مهمة. إن كل تقدمنا عبارة عن تفتح مثل برعم النبات. لدينا أولاً الغريزة، ثم الرأي، ثم المعرفة، تماماً كما يكون للنبات جذر، ثم برعم، ثم ثمرة. ثق بالغريزة حتى النهاية، رغم أنك قد لا تجد المبرر. من العبث أن تستعجلها. بثقتك بها حتى النهاية، سوف تنضج وتتحول إلى حقيقة وسوف تعرف لماذا صدقت.

لكل عقل طريقته الخاصة. الإنسان الحقيقي لا يجمع المعلومات تبعاً لقواعد الدراسة. ما راكمته على نحو طبيعي يثير الدهشة والسرور عند عرضه. لأننا لا نستطيع أن نستشرف أسرار بعضنا البعض ومن هنا فإن الفوارق ما بين البشر في المواهب الطبيعية لا تبدو عظيمة الأهمية عندما تقارن بغناهم المشترك. هل تعتقد أن البواب أو الطباخ لانوادر لديهما، ولا تجارب، ولا حكايا عجيبة؟ كل انسان لديه من المعرفة ما يساوي ما لدى العليم. إن جدران العقول الفجة مخربشة بالحقائق والأفكار. في يوم ما سوف تحضر تلك العقول فانوساً وتقرأ المدونات. على قدر ما يحمل كل انسان من بداهة وثقافة، تجد فضوله يتأجج حول ما يتعلق بأساليب غيره من الأشخاص في الحياة والتفكير، وخصوصاً بأساليب تلك الطبقات التي لم تخضع عقولها لتدريبات التعليم المدرسي.

لا يتوقف هذا الفعل الغريزي في الدماغ السليم مطلقاً، بل يزداد ثراءً وتواتراً في معلوماته خلال جميع حالات الثقافة. تحين أخيراً مرحلة التأمل، حيث لا نكتفي بالملاحظة، بل نجهد من أجل الملاحظة؛ عندما نجلس بتصميم مسبق لتفحص حقيقة مجردة؛ عندما نبقي عين العقل مفتوحة أثناء تحاورنا، وأثناء قراءتنا، وأثناء تصرفنا، عازمين على معرفة القانون السري لمجموعة ما من الحقائق.

ما هي المهمة الأصعب في العالم؟ إنها التفكير. أضع نفسي في الوضع الذي يمكنني من النظر في عين إحدى الحقائق المجردة، لكني لا أستطيع ذلك. تطرف عيني وأنسحب إلى هذا الجانب أو ذاك. أعرف المقصود بقول القائل، ما من انسان يرى الله مواجهه ويظل على قيد الحياة. يعكف رجل ما على سبيل المثال، على دراسة أسس الحكومة المدنية. دعه يركز ذهنه في اتجاه واحد دونما توقف أو استراحة. إن انتباهه الطويل في أفضل حالاته لا يعود عليه بشيء. ومع ذلك فإن الحقائق تمرق من أمامه. إننا لا ندرك الحقيقة، بل نهجسها في العتمة.يقول أحدنا دعني أخرج لأتمشى، ولسوف تبدو لي الحقيقة وقد اكتسب شكلاً ووضوحاً. نمضي قدماً، لكننا لا نجدها. يبدو لنا أننا في حاجة إلى هدوء المكتبة وجوها المتزن لكي نتمكن من اقتناص الفكرة ندخل إلى المكتبة، لكننا مازلنا بعيدين كما كنا في البدء. ثم، في لحظة، تظهر الحقيقة دون إعلان سابق عن وصولها. يظهر ضياء عابر، فنحصل على التمييز، على المبدأ، الذي أردناه. لكن النبوءة جاءت لأننا كنا قد ضربنا الحصار حول المقام سلفاً. يبدو أن قانون الفكر

يشبه ذلك القانون من قوانين الطبيعة الذي نستنشق النفس بموجبه ثم نزفره؛ والذي يقوم القلب وفقه بسحب الدم ثم دفعه ـ قانون التموج. وهكذا يكون عليك لفترة ما أن تجهد عقلك، ثم توقف نشاطك وتنظر إلى ما تعرضه عليك الروح العظمى.

إن فسوق الإنسان يظهر في التفكير كما يظهر في الاختيارات الأخلاقية. كل تفكير هو في أغلبه مستقبلي. وقيمته الحاضرة هي قيمته الدنيا. تفحص ما يبهجك لدى بلوتارك، وشكسبير، وسرفانتس. كل حقيقة أحرزها الكاتب هي فانوس يدير صوب الحقائق والأفكار الموجودة سلفاً في عقله، وإليك، ها أن كل حصيرة ونفاية كانت تزحم عليته تصبح نفسية. كل حقيقة تافهة في سيرته الخاصة تصبح توكيداً لهذا المبدأ الجديد، وتدخل الحاضر، وتبهج الناس بحرافة مذاقها وسحرها الجديد. يقول الناس، من أين جاءه هذا؟ ويعتقدون أن في حياته شيء ما قدسي. ولكن لا، إن لديهم أعداداً كبيرة من الحقائق على نفس المستوى من الجودة، لو تسنى لهم فقط أن يحصلوا على مصباح ينبشون على ضوئه ما يختزنونه في علياتهم.

نحن جميعاً حكماء. الاختلاف بين الأشخاص ليس من الحكمة بل في الفن. أعرف صديقاً في منتدى أكاديمي يظهر لي التبجيل على الدوام، لأنه، إذ يرى نزوعي للكتابة، يحسب أن تجاربي قد كانت متفوقة نوعاً ما؛ في حين أرى أن تجاربه لا تقل عن تجاربي. أعطني إياها، وسوف أخرج منها بالشيء نفسه. لديه التجارب القديمة، ولديه التجارب الحديثة؛ ولدي عادة الربط بين القديم والجديد وهو ما لا يمارسه هو. يمكن أن يصح هذا على الأمثلة الأعظم. لو أننا قابلنا شكسبير، فلربما ما كنا سنشعر بالدونية الحادة، كلا، إنما بمساواة عظيمة ـ إنه يمتلك فقط مهارة غريبة في استخدام حقائقه وتصنيفها، وهو مالا يتوفر لنا. لأننا بمعزل عن عجزنا التام عن انتاج شيء مثل «هاملت» أو «عطيل»، نستطيع أن نرى التقبل التام الذي تجده لدينا تلك البراعة والمعرفة الواسعة بالحياة والفصاحة السائلة.

إذا كنت تجني التفاح تحت ضوء الشمس، أو تصنع القش، أو تذرو القمح، ثم تنسحب إلى الداخل وتغمض عينيك وتضغط عليهما بيدك، فإنك على مدى خمس أو ست ساعات تظل قادراً على رؤية التفاح معلقاً على الأغصان بين الأوراق تحت الضوء الساطع، أو أعلام القمح، أو العشب ذي السنابل. هناك تكمن الانطباعات المتروكة على العضو الاستذكاري. رغم أنك غير عالم بها. كذلك تكمن في ذاكرتك كل سلاسل

الصور الطبيعية التي اطلعت عليها خلال حياتك، رغم أنك غير عالم بذلك؛ تضيء رعشة عاطفة النور في تلك الحجرة المعتمة، وعلى الفور تمسك القدرة الفعالة بالصورة المناسبة، بصفتها الكلمة المعبرة عن فكرتها الراهنة.

يمر وقت طويل قبل أن نكتشف كم نحن أغنياء. نحن متأكدون من أن سفرنا هادئ إذ ليس لدينا ما نكتبه ولا ما نوصله. لكن سنواتنا الأكثر حكمة تظل تعود إلى ذكريات الطفولة المستصغر شأنها، وهناك نصطاد على الدوام مادة مدهشة ما من تلك البركة؛ حتى يبدأ الشك يساورنا بأن سيرة الشخص الأحمق الذي نعرفه ليست، في الواقع، إلا تلخيصاً مصغراً لمئات المجلدات التي تضم التاريخ الكوني.

في الفكر البناء، الذي درجنا على تسميته بالعبقرية، نلاحظ نفس التوازن بين العنصرين الموجود في الفكر المتلقي. ينتج التفكير البناء الأفكار، والجمل، والقصائد، والخطط، والتصاميم، والأنظمة. إنه توالد العقل، زواج الفكرة بالطبيعة. للعبقرية تنتسب دائماً موهبتان، الفكرة والنشر. الأولى تجلٍّ، وهي معجزة دائماً، لا يمكن لأي تواتر أو دراسة متواصلة أن تجعلها مألوفة، إنما ينبغي لها على الدوام أن تترك المتسائل منشدها بالعجب. إنها وصول الحقيقة للعالم، صيغة للفكر تدخل الكون الآن لأول مرة، طفلة الروح الأزلية القديمة، قطعة من العظمة الأصلية غير المحدودة. يبدو أنها ترث، في الوقت الراهن، كل ما وجد لحد الآن وتملي على ما لم يولد بعد. إنها تؤثر على كل فكرة يحملها الإنسان وتشكل كل مؤسسة. ولكن من أجل توفيرها، لا بد من أداة أو فن يوصلها إلى الناس يتوجب عليها أن تتحول إلى صورة أو مادة محسوسة من أجل أن تصبح قابلة للإيصال. علينا أن نتعلم لغة الحقائق. أروع الإلهام يموت مع صاحبه إن لم يمتلك اليد التي ترسمه للحواس. تمر حزمة الضوء غير مرئية في الفضاء ولا تظهر للناظر إلا عندما تسقط على مادة ما. الفكرة هي الطاقة الروحية عندما توجه إلى شيء ما في الخارج. والعلاقة بينها وبينك، تجعلك، أو تجعل القيمة فيك، مرئية بالنسبة لي. إن عبقرية الرسام الخلاقة تختنق وتضيع في حالة عدم توفر القدرة على الرسم، وكان من الممكن، في ساعاتنا السعيدة، أن نكون شعراء لا نضاهى لو أتيح لنا مرة أن نحطم الصمت في قافية مناسبة. لما كان لكل البشر بعض الإطلاع على الحقيقة الابتدائية، فإن لديهم جميعاً في رؤوسهم شيئاً من الفن أو القدرة على الإيصال، لكن ذلك الشيء لا يتنزل إلى اليد إلا لدى الفنان. ثمة نوع من عدم المساواة، لا ندرك بعد قوانينه، ما بين

كل شخصين وما بين كل لحظتين بالنسبة للشخص الواحد فيما يتعلق بهذه الخاصية. في الساعات الاعتيادية تكون لدينا نفس الحقائق التي تكون لدينا في الساعات الملهمة أو غير الاعتيادية، لكن هذه الحقائق غير معزولة، ولا تقف أمامنا كما يقف الشخص أمام الرسام الذي يرسمه، بل أنها توجد ضمن شبكة. إن فكرة العبقرية تلقائية؛ لكن القدرة على التصوير أو التعبير، حتى لدى أغنى الشخصيات وأكثرها دفقاً، تتضمن مزيجاً من الإرادة، وسيطرة معينة على الحالات التلقائية، لا يمكن بدونها أن يكون هنالك إنتاج. إنه تحويل للشخصية كلها إلى منطق الفكرة، تحت نظر الحكم، بممارسة مجهدة للاختيار. ومع ذلك فإن المفردات المتخيلة تبدو تلقائية هي الأخرى، إن تدفقها لا يأتي من التجربة وحدها أو بمجملها، إنما من منبع أغنى. إن اللمسات الرائعة للرسام لا تتحقق عن طريق أي تقليد واع لأشكال معينة، إنما بالعودة إلى منبع كل الأشكال في العقل. من هو مدرس الرسم الأول؟ نعرف جيداً بدون أي توجيه نموذج الشكل الإنساني. بوسع الطفل أن يعرف ما إذا كانت الذراع أو الرجل مشوهة في الصورة؛ وما إذا كان الانطباع الذي تعطيه طبيعياً أو فخماً أو خسيساً؛ رغم أنه لم يتلق تعليماً في الرسم ولم يسمع أي حديث عن الموضوع، ورغم أنه هو نفسه غير قادر أن يرسم على النحو الصحيح ولا معلماً واحداً من معالمها. يحدث الشكل الجيد انطباعاً طيباً في كل العيون، قبل أن يحصل مشاهدوه على أي علم بالموضوع، والوجه الجميل يجعل عشرين قلباً يخفق، قبل أي تمحيص للتناسب الميكانيكي للملامح والرأس. لعلنا مدينين للأحلام ببعض الضوء الذي تلقيه على منبع هذه المهارة؛ فما أن نتخلى عن إرادتنا ونترك لحالتنا اللاواعية العنان، حتى يظهر لنا أي نوع من الرسامين المهرة نحن! إننا نقدم لأنفسنا أشكالاً رائعة للرجال، والنساء، والحيوانات، والحدائق، والغابات، والغيلان، والقلم السحري الذي نرسم به عندها لا يشكو حراجة ولا نقص تجربة، ولا ضآلة ولا فقراً؛ وبوسعه أن يصمم جيداً ويجمع الأشكال جيداً؛ إن تأليفه مفعمة بالفن، وألوانه جيدة الإستخدام، واللوحة التي يرسمها بكاملها مشابهة للحقيقة وقادرة على أن تثير فينا الرعب، أو الحنان، أو الرغبة، أو الأسى. إن ما ينسجه الفنان عن التجربة ليست مجرد نسخ أبداً، فهي على الدوام معالجة وملطفة بألوان من ملكته المثالية.

لا تبدو الشروط الأساسية للعقل البناء في الغالب مجتمعة، لكن العبارة الجيدة أو الشعر الجيد يظل نضراً أو حياً في الذاكرة لمدة طويلة عندما نكتب بيسر ونخرج إلى

هواء الأفكار الطلق، نبدو متأكدين من أن ما من شيء أسهل من الاستمرار في هذا التواصل الممتع إلى أعلى، إلى أسفل، ومن حولنا، فمملكة الفكر لا أسوار لها، وتطلقنا ربة الوحي أحراراً في مدينتها. هنالك مليون كاتب في العالم. يحسب المرء لذلك أن الفكرة الجيدة ينبغي أن تكون أمراً مألوفاً كالهواء والماء وأن ما تمنحه كل ساعة جديدة ينحي ما سبقه. لكننا نعد بأعداد محدودة كتبنا الجيدة؛ لا بل أنني أتذكر كل شعر جميل قيل على مدى عشرين عاماً. الواقع أن الفكر المميز في العالم يتقدم كثيراً على الفكر الخلاق، ولهذا يوجد العديد من الحكام المؤهلين للحكم على الكتاب الأفضل والقليل من الكتاب المؤهلين لكتابته. إلا أن بعض شروط البناء الفكري نادرة الحدوث. فالفكر وحده وهو يتطلب التكامل في كل عمل. يقاوم هذا، وبنفس القوة، التزام المرء بفكرة واحدة وطموحه إلى جمع أفكار عديدة.

الحقيقة هي عنصر الحياة بالنسبة لنا، ومع ذلك فإن الإنسان إذا شد انتباهه إلى وجه واحد من الحقيقة ووقف نفسه عليه لزمن طويل، فإن الحقيقة تتشوه ولا تعود نفسها إنما تصبح تشويهاً؛ فتشبه بهذا الهواء، الذي يعتبر عنصرنا الطبيعي ومادة تنفسها، ولكن إن سلط تيار منه على الجسم لبعض الوقت، فإنه يسبب البرد، والحمى، وحتى الوفاة. كم مضجر هو النحوي، أو عالم الفراسة، أو السياسي أو المتعصب الديني، أو في الواقع كل شخص تستحوذ عليه فكرة معينة فيضيع توازنه في المبالغة بموضوع واحد. إنه الجنون الابتدائي. كل فكرة هي، أيضاً، سجن. ليس بوسعي أن أرى ما تراه، لأنني في قبضة ريح عاتية تقذفني بعيداً في اتجاه واحد يجعلني خارج دائرة أفقك.

هل يكون من الأفضل للتلميذ، من أجل أن يتجنب هذا الإزعاج ويحرر نفسه، أن يحاول أن يجعل التاريخ، أو العلم، أو الفلسفة كلاً ميكانيكياً عن طريق الجمع العددي لجميع الحقائق التي تقع تحت نظره؟ يرفض العالم أن يحلل بالجمع والطرح. في شبابنا ننفق الكثير من الوقت والجهد في ملء دفاترنا بكل تعاريف الدين، والحب، والشعر، والسياسة، والفن أملاً في أن نستطيع على مدى قليل من السنوات أن نكثف في موسوعتنا القيمة الخالصة لكل النظريات التي توصل إليها العالم. لكن الأعوام تتوالى وجدولنا لا تبلغ الكمال، فنكتشف أخيراً أن المنحنى الذي وضعناه ليس سوى قطعاً مكافئاً لا يمكن لأقواسه أن تلتقي أبداً.

لا يتم إنفاذ كمال الفكر إلى الأعمال التي ينتجها عن طريق العزل أو التجميع، إنما يتم ذلك باليقظة التي تتحمل الفكر بعظمته وأفضل حالاته على العمل في كل لحظة. عليه أن يحوز على نفس الكمال الذي للطبيعة. فعلى الرغم من أنه مامن كد يمكن أن يعيد بناء الكون في نموذج مصغر عن طريق مراكمة التفاصيل أو ترتيبها، فإن العالم ـ رغم ذلك ـ يكرر الظهور في أشكال مصغرة في كل حادثة، على نحو يجعل بالإمكان قراءة كل قوانين الطبيعة في أصغر الحقائق. على الفكر أن يمتلك كمالاً مماثلاً في إدراكه وفي عمله. ولهذا السبب، فإن إدراك الهوية هو مؤشر البراعة الفكرية ومقياسها نتحدث مع أشخاص مهذبين يبدون غرباء عن الطبيعة. ليس فيهم شيء من السحابة، أو الشجرة، أو العشب، أو الطير، فهي لا تنتمي إليهم؛ والعالم بالنسبة لهم ليس سوى سكن ومائدة. أما الشاعر ذو القصائد المتناغمة التامة، فهو الشخص الذي لا تستطيع الطبيعة أن تخدعه مهما كانت غرابة الوجه الذي تضعه. فهو يشعر إزاءها بصلة القرابة الوثيقة، ويلحظ في كل تقلباتها تشابهاً أكبر حجماً من الاختلاف. تلسعنا الرغبة في الأفكار الجديدة؛ لكن الفكرة الجديدة التي نتلقاها ليست سوى فكرة قديمة بوجه جديد، ورغم أننا نختارها فإننا نتوق على التو إلى فكرة أخرى؛ إذ أننا لا نشعر بالإغتناء الحق. لأن الحقيقة كانت فينا قبل أن تنعكس لنا بواسطة الأشياء الطبيعية؛ ومن شأن العبقري الأصيل أن يصب تشابه الكائنات جميعاً في كل نتاج يطرحه فكره.

وإذا كانت القوى البناءة نادرة والقليل من الناس مقدراً لهم أن يكونوا شعراء، فإن بوسع أي إنسان أن يستقبل هذا الروح القدسي المتنزل، وبمقدوره أن يدرس قوانين تدفعه. إن قواعد الواجب الفكري موازية تماماً لقواعد الواجب الأخلاقي. مطلوب من المفكر التحلي بإنكار للذات لايقل تقشفاً عن انكار الذات لدى القديس. عليه أن يعبد الحقيقة، ويترك من أجلها كل الأشياء الأخرى، وأن يختار الانحدار والألم، من أجل أن يتيح لكنزه الفكري بذلك أن يربو.

يتيح الرب لكل عقل أن يختار ما بين الحقيقة والراحة. اختر ما يناسبك من بين الاثنتين، لكنك لا تستطيع الجمع بينهما مطلقاً. فالإنسان، مثل البندول، يتذبذب بينهما. فالشخص الذي يطغى لديه حب الراحة يتقبل المذهب الأول، والفلسفة الأولى، والحزب السياسي الأول الذي يقابله، ويكون في أغلب الأحوال مذهب أبيه وحزبه. إنه يحصل على الراحة، والاستقرار، والصيت الحسن؛ لكنه يغلق دون نفسه باب الحقيقة. أما الذي

يطغى لديه حب الحقيقة فإنه يحافظ على نفسه طافياً ومتعالياً على كل المراسي. ولسوف ينأى بنفسه عن القناعات الجاهزة، ويدرك جميع الإنكارات المتعارضة التي يدور بينها وجوده كما لو كانت جدراناً. إنه يخضع لقلق التعليق والأفكار غير المكتملة، لكنه، بخلاف الآخر، طالب للحقيقة ويحترم القانون الأعلى لوجوده.

عليه أن يذرع بقدمه محيط الأرض الأخضر كيما يجد الإنسان الذي يستطيع أن يقدم له الحقيقة. عندها سوف يعلم بأن في الإنصات شيء يفوق ما في الحديث بركة وعظمة. سعيد هو الرجل المنصت؛ وشقي هو الرجل المتكلم. فما دمت أنصت للحقيقة أكون مغموراً بعنصر جميل ولا أشعر بما يحد طبيعتي. فالإيحاءات التي أسمعها وأراها تتكشف عن ألف جانب. لمياه الأغوار العميقة مخارج ومداخل إلى الروح. لكني إن تكلمت، فسوف أحدد، وأعرف، وعندها يصغر مداي. عندما يتحدث سقراط لا يشعر لا يسيس ومنيكسينوس بالعار لبقائهما صامتين. هما أيضاً جيدان. وهو يبدي لهما الإحترام والحب إذ يتحدث. الإنسان الحقيقي والطبيعي يحتوي ويمثل نفس الحقيقة التي يصوغها الإنسان الفصيح؛ ولكن، لكون الأخير يصوغها، فإنها لا تسكنه على نفس النحو، فيتجه إلى ذلك الصمت الجميل بالمزيد من الإجلال والإكبار. تقول العبارة القديمة، لنكن صامتين فذلك ما تفعله الآلهة. الصمت مذيب يحل الشخصية، ويمنحنا فرصة أن نكون عظماء وكونيين. يمر تقدم كل إنسان بسلسلة متتابعة من المعلمين؛ يمتلك كل واحد منهم في حينه تأثيراً طاغياً، لكنه ما يلبث أن يخلي مكانه للمعلم الجديد. على المرء أن يتقبلهم جميعاً. يقول يسوع، اترك أباك، وأمك، وبيتك، وأرضك، واتبعني. من يترك الكل، يحظى بالمزيد. يصح هذا فكرياً كما يصح أخلاقياً. كل عقل جديد نقترب منه يتطلب التخلي عن كل ممتلكاتنا الماضية والراهنة. المبدأ الجديد يبدو في البداية تخريباً لكل آرائنا، وأذواقنا، وأسلوب حياتنا. هكذا بدا سويدنبورغ، وكانت، وكولريدج، وهيغل ومفسره كازن بالنسبة للكثير من شباب هذا البلد. تقبل بامتنان واخلاص كل ما يستطيعون تقديمه. استنفدهم، تصارع معهم، لا تدعهم يغادرونك قبل أن تفوز ببركتهم، بعد وقت قصير يتلاشى الفزع ويتراجع فائض التأثير، فلا يعودون شهباً مهددة، إنما نجوماً براقة أخرى تسطع رائقة في سمائك وتمزج ضياءها بنهارك.

لكنه إذ يمنح نفسه بدون تحفظ لما يجتذبه، لأنه يعود له، عليه أن يضن بنفسه عما لا يجتذبه، بغض النظر عما يمكن أن يحيط به من شهرة وسلطة، لأنه لا يعود له.

الاعتماد الكامل على الذات ينتمي إلى الفكر. الروح الواحدة هي الثقل الموازن لكل الأرواح، كما أن مجرى الماء الشعري هو معادل للبحر. على الفكر أن يعامل الأشياء والكتب والعبقرية المسودة انطلاقاً من كونه نفسه سيداً مسوداً. إذا كان أسخيلوس هو حقاً كما يعتبره الناس، فإنه لم يؤد رسالته بعد بتعليمه لمثقفي أوروبا على مدى ألف عام. عليه الآن أن يثبت لي أنا أيضاً أنه معلم السرور. فإن لم يتمكن من ذلك، فإن كل شهرته لا تفيده في شيء لدي. وسأكون أحمقاً إن لم أضح بألف أسخيليوس من أجل كمالي الفكري عليك، بشكل خاص، أن تتخذ الموقف نفسه فيما يتعلق بالحقيقة المطلقة، وهي علم العقل. إن بيكون، وسبينوزا، وهيوم، وشيلنغ، وكانت وكل من قدم فلسفة من فلسفات العقل. ليس أكثر ولا أقل من مترجم لأشياء في وعيك تمتلك أنت أيضاً طريقتك في رؤيتها، وربما في تسميتها أيضاً. بدلاً من انصرافك بحذر شديد إلى سبر إحساسه الغامض، عليك، إذن، أن تقول أنه لم ينجح في أن يقدم إليك وعيك إنه لم ينجح؛ فدع غيره يحاول. إن لم يستطع افلاطون، فربما استطاع سبينوزا. وإن لم يتسطع سبينوزا، فربما استطاع كانت. حين يتحقق ذلك في النهاية، ستجد أن الأمر ليس بالعويص، إنما هو وضع بسيط، وطبيعي، ومألوف يعيده لك الكاتب.

ولكن دعنا ننهي هذه الدروس. سوف لن أتكلم في الشأن القائم بين الحقيقة والحب، وإن كان موضوعي يثير ذلك. وسوف لن أتصدى للتدخل في سياسات السماء القديمة - «ملائكة السماء تعرف أكثر؛ وملائكة العرش تحب أكثر.» على الآلهة أن يحلوا نزاعاتهم الخاصة بهم. لكني لا أستطيع أن أتلو، ولو بفجاجة، قوانين الفكر دون أن أتذكر تلك الطبقة الرفيعة والمنعزلة التي كانت أنبياؤه ونبؤاته، كهنة المنطق الخالص، شراح الفكر من عصر إلى عصر. عندما نقلب في فترات متباعدة صفحاتهم العميقة، رائعاً، يبدو ذلك الإهاب الهادئ والسامي لتلك القلة - حملة الديانة القديمة - الذين يقيمون في عبادة تجعل مقدسات المسيحية تبدو عادية وشعبية؛ لأن «الإمتناع يقبع في الروح، والضرورة في الفكر». زمرة العظماء تلك، هيرمس، وهيراكليتوس، وأمبيدوكليس، وأفلاطون، وبلوتينوس، وأليمبيودورس، وبروكلوس، وسينيسيوس، والآخرون، لديهم شيء ما واسع جداً في منطقهم، أساسي جداً في تفكيرهم، يبدو أنه سلف كل امتيازات البلاغة والأدب، وأنه الشعر والموسيقى والرقص والفلك والرياضيات في آن معاً. أنا حاضر عند بذر بذرة العالم بهندسة من أشعة الشمس تضع الروح أساسات الطبيعة.

يقوم اتساع فكرهم وقابليته للتطبيق دليلاً على صدقه وعظمته، لأنه يوظف لإيضاحه كامل جدول الأشياء وسجلاتها. إلا أن ما يميز سموه، وما يكتسب مظهراً مضحكاً بالنسبة لنا، هو الصفاء البرئ الذي يجلس به هؤلاء الجوبيترات ذوو السحنة الطفولية فوق غيماتهم، يثرثرون من عصر إلى عصر مع بعضهم البعض بعيداً عن كل معاصر. وانطلاقاً من ثقتهم بأن لغتهم مفهومة وأنها أكثر الأشياء طبيعية في العالم، تجدهم يضيفون النظرية إلى النظرية، دون أن ينتبهوا لحظة للدهشة التامة التي يبديها الجنس البشري تحت، الذي لا يفقه أشد نقاشاتهم وضوحاً؛ كما أنهم لا يلينون إلى الحد الذي يجعلهم يدسون جملة شارحة أو مألوفة، ولا يظهرون أدنى امتعاض أو نفور من غباء مستمعيهم المدهوشين. إن الملائكة تهوى اللغة المتداولة في السماء إلى الحد الذي لا يسمح لها بتشويه شفاهها بلهجات البشر المهسهسة وغير الموسيقية، فتحدث بلغتها سواء كان هنالك من يفهمها أم لا.

١٢

الـــفـــن

لأن الروح تقدمية، فهي لا تكرر نفسها أبداً، إنما تحاول في كل فعل إنتاج كل جديد أجمل. يظهر هذا في الأعمال الفنية المفيدة والراقية، إذا ما طبقنا عليها التمييز الشائع للأعمال تبعاً لاستخداماتها لأغراض الإستفادة أو الجمالية. وهكذا فإن الغرض من أعمالنا الفنية الجميلة هو الإبداع لا التقليد. في المناظر الطبيعية يجب على الرسام أن يقدم إيحاءاً بخلق أجمل من ذلك الذي نعرفه. عليه أن يسقط التفاصيل وما تنثره الطبيعة وأن يعطينا الروح والبهاء فقط. عليه أن يعلم أن المشهد يبدو لعينيه جميلاً لأنه يعبر عن فكرة يعتبرها طيبة؛ وذلك يعود إلى كون القوة التي تبصر من خلال عينيه هي نفس القوة التي تظهر في ذلك المشهد؛ ولسوف ينتهي إلى تقييم التعبير الذي تقدمه الطبيعة لا الطبيعة نفسها، وبهذا يسمو في نسخته عنها بالملامح التي تعجبه. وسوف يقدم عتمة العتمة وضياء الضياء. وفي اللوحات. الشخصية عليه أن يرسم الشخصية لا الملامح، وأن ينظر إلى الإنسان الجالس قبالته بصفته الشبه غير الكامل أو الصورة غير الكاملة للإنسان الأصلي المطل من داخله.

ماذا عساه أن يكون هذا الاختزال والانتقاء الذي نلحظه في كامل الفعالية الروحية إن لم يكن هو الدافع الخلاق؟ إنه المنفذ إلى تلك الإضاءة العليا التي تعلمنا أن ننقل إحساساً أكبر برموز أبسط. ماذا عساه يكون الإنسان إن لم يكن النجاح الأسمى الذي حققته الطبيعة في تفسير ذاتها؟ أفليس الإنسان هو المشهد الطبيعي الأرفع والأكثر تكثيفاً من جميع الأشكال الماثلة في الأفق ـ أليس هو انتقائية الطبيعة؟ وما عساه يكون كلامه، وحبه للرسم، وحبه للطبيعة إن لم يكن النجاح الأسمى حتى مما سبقه ـ إهمال تلك الأميال المترامية وأطنان الفراغ والكتلة، واختزال الروح أو العبرة من كلمة موسيقية، أو لمسة قلم بارعة؟

لكن الفنان يجب أن يستخدم الرموز الدارجة في زمانه وبين أمته من أجل أن ينقل إحساسه المضخم إلى ابناء جنسه. ولهذا يتشكل الجديد في الفن دائماً من القديم. يضع العبقري الراهن ختمه غير القابل للإنمحاء على العمل ويحمله فتنة للمخيلة غير قابلة للتفسير. بقدر ما تستبد السمة الروحية للمرحلة بالفنان وتجد لنفسها تعبيراً في أعماله، بقدر ما تحفظ تلك الأعمال بعظمة معينة؛ وتظل تمثل بالنسبة لمن يراها في المستقبل المجهول، والمحتوم، والقدسي. ما من إنسان يستطيع أن يستبعد عنصر الضرورة هذا من جهده. ما من إنسان يستطيع فعلاً أن يحرر نفسه من عصره ووطنه، أو ينتج نموذجاً لا حصة فيه لثقافة، وديانة، وسياسة، وعادات، وفنون عصره. ومهما بلغت درجة أصالته أو تصميمه وروعته، فإنه لا يستطيع أن يمحو من عمله كل أثر للأفكار التي نشأ بينها. إن تجنبه لتلك الأمور نفسه يكشف عن الأمور التي تجنبها. من فوق إرادته ومن خارج بصيرته، يرغمه الهواء الذي يتنفس والفكرة التي عاش هو ومعاصروه وعملوا تبعاً لها، على المشاركة في سلوك عصره، دون أن يعرف ماالذي عساه أن يكون ذلك السلوك. وهكذا يمتلك الجانب المحتوم في العمل سحراً أرقى مما تستطيع الموهبة الفردية أن تمنحه، حيث يبدو أن يداً عملاقة تحرك قلم الفنان أو إزميله لكتابة سطر في تاريخ الجنس البشري. ذلك هو ما يضفي القيمة على الحروف الهيروغليفية المصرية، والأصنام الهندية، والصينية، والمكسيكية بغض النظر عن بدائيتها وغياب ملامحها. إنها تشري إلى المرتبة التي بلغتها الروح الإنسانية في تلك الساعة، وهي ليست بنت الخيال، إنما انبثقت عن ضرورة بعمق العالم. هل لي أن أضيف الآن أن كامل النتاج الباقي للفنون التشكيلية يكتسب من ذلك قيمته العليا بصفته تاريخاً ـ بصفته لمسة في الصورة الشخصية لذلك القدر، المكتمل والجميل، الذي تسير جميع الكائنات بموجب مراسيمه نحو سعادتها القصوى.

وهكذا، فإن مهمة الفن، حين ينظر إليها من منظور تاريخي، قد كانت تعليم كيفية إدراك الجمال. نحن مغمورون بالجمال، لكن عيوننا لا تمتلك الرؤية الواضحة. إنها تحتاج إلى أن تساعد الذوق الغارق في السبات وتوجهه عن طريق إظهار الملامح المنفردة. إننا ننحت ونرسم، أو ننظر إلى ما تم نحته ورسمه، كما لو كنا تلاميذ ندرس لغز الشكل. تكمن فضيلة الفن في الاستبعاد، في عزل موضوع معين عن التنوع المحرج. مالم يخرج الشيء الواحد من رابطة الأشياء، يمكن أن نجد الاستمتاع، أو

التأمل، لكننا لا نعثر على الفكرة. إن سعادتنا أو شفاءنا أمور غير منتجة. يرقد الرضيع في غيبوبة مريحة، لكن شخصيته المتفردة وقوته الفعلية تتوقفان على ما يحققه يومياً من تقدم في تمييز الأشياء وفصلها عن بعضها والتعامل مع كل شيء منها على انفراد. يركز الحب وجميع العواطف الأخرى الوجود كله حول شكل واحد. من عادة بعض العقول أن تخلع اكتمالاً يستثني كل ماعداه على الموضوع، أو الفكرة، أو الكلمة التي تركز عليها وأن تحولها إلى بديل للعالم. أولئك هم الفنانون، والخطباء، وقادة المجتمع. القدرة على العزل والتضخيم بواسطة العزل هي جوهر البلاغة الذي يستخدمه الشاعر والخطيب. إن البلاغة، أو القدرة على تثبيت رفعة الشيء الآنية - التي تتجلى لدى بيرك، وبايرون، وكارلايل - تظهر لدى الرسام والنحات في اللون والحجر. تتوقف القدرة على مدى نفاذ بصيرة الفنان في الموضوع الذي يتناوله. لأن لكل موضوع جذوره الممتدة في الطبيعة المركزية، ويمكن أن يقدم لنا كمثل للعالم. ولهذا فإن كل عمل من أعمال العبقرية هو طاغية الساعة الذي يركز الانتباه حول نفسه. وهو الشيء الوحيد الذي يستطيع ذلك سواء جاء في شكل قصيدة، أو أوبرا، أو مشهد طبيعي، أو تمثال، أو خطابة، أو تصميم معبد، أو خطة حملة، أو رحلة استكشافية ننتقل على الفور إلى موضوع آخر يكور نفسه في كل كامل كما فعل الأول - كأن يكون مثلاً حديقة معتنى بها؛ ولبرهة من الوقت لا يبدو أن هنالك عمل أفضل من تنسيق الحدائق. كان يمكن أن أحسب النار أفضل ما في العالم لو أنني لم أعرف الهواء، والماء، والتراب. لأن من حق جميع المواضيع الطبيعية ومن خواصها أيضاً أن تكون في لحظتها الخاصة، ومن بين جميع المواهب الأصلية وجميع الخصائص الذاتية، قمة العالم. إن سنجاباً يتقافز من غصن إلى غصن ويجعل من الغابة كلها شجرة واحدة عريضة لألعابه، يملأ العين كما يملؤها الأسد - فهو جميل، مكتف بذاته، وممثل للطبيعة. إن أغنية جيدة تجتذب أذني وقلبي حين أنصت إليها بنفس الدرجة التي اجتذبتهما بها ملحمة أنصت إليها من قبل. إن كلباً يرسمه فنان كبير، أو خنازير صغار، يحقق من المتعة ويقدم من الحقيقة ما لا يقل عن تقدمه ما اللوحات الجدارية التي رسمها أنجيلو. من خلال هذا التتابع المتتالي للمواضيع الممتازة نتعرف أخيراً على اتساع العالم، وثراء الطبيعة الإنسانية التي يمكن أن تمتد إلى ما لا نهاية في جميع الاتجاهات. لكنني أتعلم أيضاً أن ما أدهشني وسحرني في العمل الأول، أدهشني في العمل الثاني أيضاً: ألا وهو أن الامتياز واحد في جميع الأشياء.

إن مهمة الرسم والنحت تبدو استهلالية محض. إن أفضل الرسوم تستطيع أن تخبرنا بسهولة عن آخر أسرارنا. أفضل اللوحات عبارة عن رسوم أولية لعدد قليل من النقاط والخطوط والأصباغ التي تشكل «المشهد ذي الأشخاص» المتغير أبداً الذي نحيا ضمنه. يمثل الرسم للعين ما يمثله الرقص للأطراف. عندما يروض الرقص الإطار على امتلاك الذات، والرشاقة، والخفة، يجدر عندها نسيان خطوات معلم الرقص؛ كذلك الرسم الذي يعلمني روعة اللون وتعبير الشكل، وحين أرى الكثير من الرسوم والعبقرية الأرفع في هذا الفن، أرى الثراء اللامحدود للعالم، والطلاقة التي تجعل الفنان حراً في ما يختاره من الأشكال المتاحة. إن كان باستطاعته أن يرسم كل شيء، فلماذا يرسم أي شيء؟ عندما تنفتح عيني على الرسم الأزلي الذي ترسمه الطبيعة في الشارع يموج فيه الرجال والأطفال، الشحاذون والسيدات الراقيات، متشحون بالأحمر والأخضر والأزرق والرمادي؛ ذوو الشعر الطويل، أو الأشيب، ذوو الوجوه البيض، أو السود، أو المجعدة، العمالقة والأقزام، والمربوعون، والصعاليك - تظلهم وتمتد تحتهم السماء والأرض والبحار.

الدرس نفسه تقدمه بتقشف أكبر صالحة المنحوتات. كما أن الرسم يعلم التلوين، كذلك النحت يعلم خصائص الشكل. عندما أكون قد رأيت تماثيل بديعة ثم انتقل بعدها إلى اجتماع عام، أفهم جيداً ما الذي عناه صاحب مقولة، «عندما كنت أقرأ هوميروس، بدا جميع الرجال لي عمالقة». أرى أيضاً أن الرسم والنحت رياضة للعين، تدربها على جماليات وظيفتها وطرافتها. ليس هنالك من تمثال يماثل الإنسان الحي، بكل تفوقه غير المحدود على جميع التماثيل المثالية بكل تنوعها. أية صلة للفنون أجدها هنا! هذه مجاميع متنوعة وأشكال أصلية مختلفة لم يصنعها قاصد أو متكلف. هنا الفنان نفسه يرتجل في مادته. تستبد به الآن فكرة ما، ثم ينتقل إلى الأخرى، وفي كل لحظة يغير الجو كله، والموقف، والتعبير الذي يقدمه طينه. دع عنك هراء الزيت والمسند، والرخام والأزميل؛ فلولا دورها في فتح عينك على تحف الفن الأزلي، لما كانت سوى نفاية منافقة.

إن العلاقة التي تربط كل النتاج في النهاية بقوة ابتدائية توضح الملامح المشتركة في جميع الأعمال التي تنتمي إلى الفن الرفيع - وهي كونها مفهومة كونياً؛ وأنها تعيد إلينا أبسط حالات الذهن، وأنها دينية. فما دامت المهارة التي تظهر من خلالها ليست سوى عودة ظهور الروح الأصلية، دفقة الضياء النقية، كان لا بد أن يصدر عنها

انطباع مشابه لذلك الصادر عن المواضيع الطبيعية. في الساعات السعيدة، تبدو الطبيعة متوحدة مع الفن؛ الفن المكتمل ـ نتاج العبقرية. ويكون الفرد الذي يطغى لديه الذوق البسيط والإستجابة لكل المؤثرات الإنسانية العظيمة على تفاصيل الثقافة المحلية والخاصة، هو أفضل ناقد للفن. ينبغي علينا، ونحن نطوف العالم من أجل العثور على الجمال، أن نحمله معنا، وإلا فإننا سوف لن نعثر عليه. إن الجمال الأسمى هو سحر أرفع مما تقدمه المهارة في السطوح، والخطوط، وكل ما تستطيع قواعد الفن تعليمه،إنه ما يشع من العمل الفني من طبيعة إنسانية ـ تعبير رائع من خلال الحجر، أو القماش، أو الصوت الموسيقي عن أعمق صفات طبيعتنا وأكثرها بساطة، والتي تكون بحكم ذلك مفهومة من قبل تلك النفوس التي تحمل تلك الصفات. في تماثيل الإغريق، في عمارة الرومان، في رسوم فناني توسكاينا وفينيسيا، يكون السحر الأسمى هو اللغة الكونية التي تتحدث بها هذه الأعمال. إذ يصدر عنها جميعاً بوح بالنقاء، بالحب، بالأمل، وبالطبيعة الأخلاقية. إن ما نحمله إليها، نعود به وقد توضح على نحو أجمل في ذاكرتنا. إن المسافر الذي يزور الفاتيكان وينتقل من ردهة إلى ردهة بين التماثيل، والمزهريات، والنواويس، والشمعدانات، وكل أشكال الجمال المصنوعة من أثمن المواد، يكون مهدداً بنسيان بساطة المبادئ التي انبثقت جميعاً عنها، وبكونها قد استمدت أصولها من الأفكار والقوانين المنضوية، في صدره. إنه يدرس القواعد التقينة لهذه الشواخص الرائعة، لكنه ينسى أن هذه الأعمال لم تكن دائماً مجتمعة على هذا النحو؛ و أنها كانت مساهمات عصور عديدة وأقطار عديدة؛ وأن كل واحدة منها قد خرجت من المشغل المتفرد لفنان واحد، ربما كان يجهد فيها وهو غير عالم بوجود التمثال الآخر، وكان يخلق عمله دون أي نموذج آخر سوى الحياة، الحياة المنزلية، والعلاقات الشخصية الحلوة والذكية، ونبض القلوب، والتقاء العيون؛ والفاقة والضرورة والأمل والخوف. تلك كانت مصادر إلهامه، وتلك هي الآثار التي يتركها في قلبك وذهنك. يجد الفنان في عمله منفذاً لشخصيته الحقيقية يتناسب مع حجم قدرته. عليه أن لا يسمح لمادته بأن تعيقه أو تضيف عليه على أي نحو؛ إنما عليه، من خلال حاجته إلى الإفصاح عن ذاته، أن يحول المادة العصية إلى شمع في يديه، وأن يتيح لنفسه أن توصل ذاتها بكامل وقعها ومكانتها. إنه لا يحتاج إلى تقييد نفسه بالثقافة أو الطبيعة التقليدية، ولا إلى السؤال عما هو دارج في روما أو باريس، إذ أن ذلك البيت وذلك المناخ ونمط الحياة

الذي جعله الفقر وقدر الميلاد عزيزاً جداً عليه وبغيضاً جداً في الوقت نفسه، في الكوخ الخشبي الرمادي الخالي من الطلاء، في زاوية حقل في نيوهامشاير، أو في الكوخ الخشبي في الغابة، أو في المنزل الضيق حيث عانى من مشاهد وقيود الفقر في المدينة، يمكن أن تصلح لأن تكون كغيرها من الظروف رمزاً لفكرة تسكب نفسها فيها جميعاً دونما تمييز.

أتذكر أنني عندما سمعت بروائع الرسم الإيطالي في أيام شبابي، تخيلت اللوحات العظيمة أشياء شديدة الغرابة؛ مزيجاً مدهشاً من الشكل واللون؛ أعجوبة غريبة، لؤلؤة برية وذهب، مثل رماح الميليشيا وبزاتها، التي تبرق في عيون ومخيلات صبيان المدارس. كنت سأرى وأحصل على أشياء لا أعرف كنهها. عندما جئت روما أخيراً ورأيت بعيني اللوحات، وجدت أن العبقرية تركت للمتدربين ما هو بهيج وباهر وملفت للنظر، وتغلغلت مباشرة في البسيط والصادق؛ وأنها كانت مألوفة وأمينة؛ وأنها كانت الحقيقة القديمة والأزلية التي كنت قد قابلتها في أشكال عديدة، وعشت عليها، وخلفتها في الوطن في الكثير من المحادثات، وأنها كانت «أنت وأنا» الذين أعرفهما جيداً. كنت قد مررت لتوي بتجربة مماثلة في إحدى الكنائس بنابولي. هناك وجدت أن ما من شيء قد اختلف بالنسبة لي سوى المكان، وقلت لنفسي ـ «أيها الصبي الأحمق، هل جئت إلى هنا عبر أربعة آلاف ميل من الماء المالح، لتجد ما كان مكتملاً أمامك هناك في وطنك؟» رأيت الحقيقة نفسها ثانية في أكاديمية نابولي، في ردهات النحت، ومرة أخرى عندما جئت إلى روما وإلى لوحات رافائيل، وأجيلو، وساتشي، وتيتيان، وليوناردو دافنشي. «أيها الخلد القديم! هل تحفر في الأرض بهذه السرعة؟» لقد سافر معي؛ ذلك الشيء الذي حسبت أنني أتركه في بوسطن، وكان هنا في الفاتيكان، وهنا ثانية في ميلانو وباريس، وجعل رحيلي كله أمراً سخيفاً مثل روتين مضجر. أطلب الآن من جميع اللوحات أن تدجنني لا أن تبهرني. على الرسوم أن لا تكون خلابة. فما من شيء يدهش البشر مثل البداهة والتعامل البسيط. جميع الأعمال العظيمة كانت بسيطة، وكذلك جميع اللوحات العظيمة.

تقدم لوحة «التجلي» لرافائيل مثالاً واضحاً على هذه المزية الغريبة. ثمة جمال هادئ ودود يشرق في هذه اللوحة، ويتوجه مباشرة إلى القلب. إنه يكاد أن ينادي عليك باسمك. يتجاوز وجه يسوع الرفيع والعذب حدود الإطراء، ومع ذلك تجده يخيب كل

التوقعات المنمقة! هذا المحيا المألوف، البسيط، الحميم تلاقيه كما تلاقي صديقاً. للمعرفة التي يحملها تجار اللوحات قيمتها، ولكن لا تصغي لنقدهم إذا ما تأثر قلبك بلمسة عبقرية. فاللوحة لم ترسم لهم، إنما رسمت لك ـ للشخص الذي يملك عينين تتأثران بالبساطة والمشاعر الراقية.

ومع ذلك، فإننا بعد أن ذكرنا كل مالدينا من أمور ممتازة بشأن الفن، علينا أن نختتم باعتراف صريح بأن الفنون، كما نعرفها، ليست سوى استهلالية. ينصب ثناؤها الجزيل على ما تهدف إليه ومعا تعديه، لا على النتيجة الفعلية. من يعتقد بأن أفضل عصور الإنتاج قد أصبح من الماضي، يبخس من قيمة ثروات الإنسان. فالقيمة الحقيقية «للإلياذة» أو «التجلي» هي في كونها علامات على القدرة؛ إنها موجات أو ترقرق في النهر الجاري؛ دلائل على الجهد الدائم من أجل الإنتاج، الذي يفصح عن الروح حتى في أردأ حالاته. لا يمكن للفن أن يكون قد بلغ نضجه إن لم يضع نفسه في مصاف التأثيرات الأشد فاعلية في العالم، إذا لم يكن عملياً وأخلاقياً، إذا لم يرتبط بالضمير، إذا لم يجعل الفقراء وغير المثقفين يشعرون بأنه يخاطبهم بهتاف تشجيعي عالٍ. ثمة مهمة للفن أبعد من انجاز الفنون نفسها. فالفنون ليست سوى ولادات مجهضة لغريزة فاسدة أو غير كاملة. أما الفن فهو الحاجة إلى الخلق؛ لكنه وهو الكوني والواسع في جوهره، يضيق ذرعاً بالعمل بأياد عاجزة أو مغلولة، وبإنتاج الكسيحين والمسوخ الذين هم مادة كل الرسوم والتماثيل. لا شيء أقل من خلق الإنسان والطبيعة يمكن أن يكون غاية للفن. على الإنسان أنه يجد فيه منفذاً لكامل طاقته.وليس له أن يرسم أو ينحت إلا عندما يكون قادراً على تحقيق ذلك. على الفن أن يكون قادراً على إثارة الابتهاج، وعلى الإطاحة بجدران الظروف في كل اتجاه، وعلى أن يوقظ في الناظر نفس الإحساس بالقدرة والعلاقة الكونية التي أظهرها العمل في الفنان، وتأثيره الأسمى هو ايجاد فنانين جدد.

لقد بلغ التاريخ السن الذي صار يشهد فيه شيخوخة واختفاء فنون معينة. ففن النحت قد كف منذ زمن طويل على إحداث أي أثر حقيقي. كان، في البداية، فناً مفيداً، طريقة للكتابة، سجلاً دون فيه الإنسان الهمجي امتنانه أو ولاءه، ثم هذب هذا الشكل في النحت الطفولي إلى أسمى درجات التأثير من لدن شعب امتلك إحساساً رائعاً بالشكل. لكنه يظل لعبة الشعوب الخام والفتية، وليس بالجهد الرصين لأمة حكيمة

وروحانية تحت شجرة بلوط مثقلة بالورق والجوز، تحت سماء مليئة بالعيون الأزلية، أجد نفسي وسط التيار؛ أما في الأعمال التي تنتمي لفنوننا التشكيلية وخصوصاً النحت، فإن الإبداع يزاح إلى زاوية لا أستطيع أن أخفي عن نفسي وجود نوع من التفاهة في النحت تشبه تلك الموجودة في اللعب أو بهرجات المسرح. إن الطبيعة تتجاوز كل حالات تفكيرنا، وما زال علينا أن نعثر على سرها. أما ردهة الفنون فهي موجودة تحت رحمة مزاجاتنا، وتوجد لحظات تصبح فيها عبثية. لا يدهشني أن يكون نيوتن، وهو الذي ينشد انتباهه على الدوام إلى مسالك الكواكب والشموس، قد استغرب مما يعجب الايرل بمبروك في تلك «الدمى الحجرية». يمكن للنحت أن يعلم التلميذ عمق أسرار الشكل، والكيفية التي تستطيع بها الروح أن تترجم معناه في ذلك الحوار الفصيح. لكن التمثال سوف يبدو بارداً ومزيفاً إزاء النشاط الجديد الذي يحتاج إلى أن يتدفق من خلال الأشياء كلها، والذي يضيق ذرعاً بالأشياء المقلدة وغير الحية. إن الرسم والنحت احتفاءات بالشكل وولائم له. لكن الفن الحقيقي ليس بالثابت أبداً، بل هو في تدفق دائم. ليس الموشح هو الذي يضم أعذب الموسيقى، إنما أنت تجدها في الصوب الإنساني عندما يتحدث بنبرات الحياة المباشرة المحملة بالعذوبة، أو الحقيقة، أو الشجاعة. لقد فقد الموشح علاقته بالصباح، والشمس، والأرض، في حين أن الصوت المقنع ما زال متناغماً معها جميعاً. ينبغي على جميع الأعمال الفنية أن تكون أداء مرتجلاً وليس منعزلاً. الرجل العظيم تمثال جديد بكل موقف وفعل. والمرأة الحسناء لوحة تدفع الناظرين إلى الجنون. وبوسع الحياة أن تكون أغنية أو ملحمة، كما هو شأن القصيدة أو الحكاية.

لو قدر لإنسان أن يكون جديراً بأن يعلن البيان الحقيقي لقانون الخلق، فإن ذلك البيان لا بد أن يحمل الفن إلى مملكة الطبيعة، ويقضي على وجوده المستقل والمتناقض. لقد جفت ينابيع الإبتكار والجمال في المجتمع الحديث. الرواية الشعبية، أو المسرح، أو صالة الرقص تجعلنا نشعر بأننا جميعاً شحاذون في دار للإحسان منتزعو المهابة، والمهارة، والصنعة. الفن بائس ومتدنٍ. الضرورة التراجيدية القديمة، التي تحني جباه فينوسات وكيوبيدات القدماء، وتوفر الاعتذار الوحيد عن إقحام مثل هذه الأشكال.

في الطبيعة ـ أعني أنها كانت محتومة لأن الفنان كان ثملاً بحب للشكل لم يستطع أن يقاومه، فعبر عن نفسه بتلك التطرفات الرفيعة، تلك الضرورة لم تعد تشرف الإزميل

أو القلم. بل صار الفنان والمتذوق الآن يفتش في الفن عن التعبير عن موهبته، أو عن ملجأ من شرور الحياة. لايرتاح الناس للأشكال التي يصنعونها في مخيلتهم، فيهربون إلى الفن، ويصبون أحاسيسهم الأفضل في موشح، أو تمثال، أو لوحة. يبذل الفن نفس المحاولة التي يبذلها الثراء الحسي؛ وأعني بها فصل الجميل عن المفيد، أداء العمل لأنه محتوم، والانتقال، عند الشعور بكراهيته، إلى المتعة. هذه التعزيات والتعويضات، هذا الفصل للجمال عن الإستخدام، غير مسموح بها في قوانين الطبيعة. فالسعي إلى الجمال، عندما لا يكون منطلقاً من الدين أو الحب، وعندما ينطلق من اللذة يحط من قيمة الساعي. فلا يعود الجمال الرفيع متاحاً له لكي يحققه على القماش أو بالحجر، ولا بالصوت والإنشاد؛ بل أن كل ما يتسطيع أن يشكله الآن هو جمال مرضي، مدبر، مخنث، جمال ليس بالجميل؛ لأن اليد لا تستطيع أن تحقق أبداً شيئاً يكون أسمى من الطبيعة التي أوحت به.

الفن الذي يفصل على هذا النحو يكون هو نفسه منفصل ابتداءً. لا ينبغي للفن أن يكون موهبة سطحية، بل يتوجب عليه أن يبدأ من نقطة أبعد في الإنسان. لا يرى الناس الآن أن الطبيعة جميلة، فينصرفون إلى صنع تمثال يكون جميلاً. إنهم يبغضون البشر بصفتهم عديمي الذوق، وأغبياء، وغير قابلين للتحول، ويغزون أنفسهم بالأكياس الملونة وكتل الرخام. إنهم ينحون الحياة بصفتها غير مثيرة، ويخلقون موتاً يقولون عنه أنه شاعري. وهم ينجزون أعباء اليوم المتعبة، ويحلقون في خيالات شهوانية. يأكلون ويشربون، لكي يحققوا فيما بعد أفكارهم المثالية. هكذا يدنس الفن؛ يوحي اسمه للذهن معانٍ ثانوية وسيئة؛ ويمثل في المخيلة بصفته شيئاً مناقضاً للطبيعة، ومحكوماً بالموت منذ البداية. ألن يكون من الأفضل البدء من نقطة أعلى، أن نخدم الأفكار المثالية قبل الأكل والشرب، وأن نخدمها في الأكل والشرب، وفي أثناء التنفس، وفي وظائف الحياة؛ ينبغي للجمال أن يعود إلى الفنون المفيدة، وأن يتم نسيان التمييز بين الفنون الجميلة والاستخدامية. لو أن التاريخ يروى على النحو الصحيح، لو أن الحياة تنفق في الوجه الصحيح، لما أصبح بالامكان تمييز فن عن آخر. في الطبيعة، كل الأشياء مفيدة، وكلها جميلة. إنها جميلة لأنها حية، ومتحركة، ومتوالدة؛ وهي لذلك مفيدة لأنها متساومة وعادلة. لا يأتي الجمال تلبية لدعوة المشرع، كما أنه لن يعيد في انجلترا أو أمريكا تاريخه في بلاد الإغريق. إنه يأتي دون إعلان مسبق، كما هو شأنه دائماً ويتبع من بين

أقدام الناس الصادقين والشجعان عبثاً نبحث عن العبقرية ونكرر معجزاتها في الفنون القديمة، إنها تتجه بداهة إلى العثور على الجمال والقداسة في الحقائق الجديدة والضرورية، في الحقل وعلى الطريق، في المخزن وفي الطاحونة. إنها وهي المنبعثة من قلب ديني، سوف ترفع إلى استخدام مقدس جانب الطريق، ومكتب التأمين، والشركة المساهمة، وقانوننا، وتجمعاتنا الأولية، وتجارتنا، والبطارية المغلونة، والإبريق الكهربائي، والموشور، وأوعية الكيميائي - التي لا نتوخى منها الآن سوى الإستخدام الإقتصادي أفليس المظهر الأناني والقاسي لأعمالنا الميكانيكة العظمى، ولطواحيننا، وسككنا الحديدية، ومكائننا سوى أثر الدوافع الأرتزاقية التي تخضع لها هذه المنتجات؛ إن زورقاً بخارياً يجسر الأطلسي ما بين انجلترا القديمة والجديدة ويصل موانئه في دقة مواعيد الكواكب، يصبح، عندما تكون مهمته نبيلة وملائمة، خطوة يخطوها الإنسان نحو الإنسجام مع الطبيعة. إن الزورق الذي لا يروح ويغدو عبر «لينا» في سانت بطرسبرج» بقوة المغناطيس، لا يحتاج إلا إلى الشيء القليل لكي يصبح جليلاً. عندما يتم تلقي العلم بمحبة، وتسخير قواه بمحبة، فإنها سوف تبدو مكملة للخلق المادي واستمراراً له.

١٣

الشـــاعر

إن أولئك الذين يعتبرون حكاماً للذوق هم في الغالب أشخاص قد حصلوا على معرفة باللوحات والتماثيل التي تحظى بالإعجاب، ولديهم ميل إلى كل ماهو أنيق؛ ولكنك إن سألت عما إذا كانت لهم أرواح جميلة، وما إذا كانت أفعالهم تشبه رسومهم الجميلة، فإنك سوف تعلم أنهم أنانيون وحسيون. فتهذيبهم موضعي، كما تفرك قطعة خشب جافة في نقطة واحدة لكي تولد النار، أما البقية فتظل باردة. معرفتهم بالفنون الجميلة عبارة عن دراسة للقواعد والتفاصيل، أو بعض الدراية المحدودة باللون والشكل، تمارس لأغراض التسلية أو التظاهر. إن فقدان الناس للإحساس باعتماد الشكل المباشر على الروح إنما هو دليل على ضحالة مذهب الجمال كما يستقر في أذهان هواتنا. ليس هنالك مذهب للأشكال في فلسفتنا. لقد وضعنا في أجسامنا، كما توضع النار في وعاء من أجل أن تنقل؛ إنما ليس هنالك من توافق مضبوط بين الروح والعضو، خصوصاً وأن الأخير هو وليد الأولى. وهكذا، فإن المثقفين، فيما يتعلق بالأشكال الأخرى، لا يؤمنون بوجود أي اعتماد جوهري للعالم المادي على الفكر والإرادة. يعتقد اللاهوتيين أن الحديث عن المعنى الروحي لسفينة أو غيمة، لمدينة أو لعقد هو من قبيل بناء القلاع في الهواء، وهم يفضلون الوقوف على الأرضية الصلبة للأدلة التاريخية؛ حتى الشعراء يتمتعون بإسلوب المعيشة المهذب والطيع، ويكتبون القصائد من المخيلة، على مبعدة أمينة من تجاربهم الخاصة. لكن العقول الرفيعة التي عرفها العالم لم تتوقف عن استطلاع المعنى المزدوج، بله الرباعي والخماسي والأكثر من ذلك لكل حقيقة محسوسة؛ أورفيوس، أمبيدوكليس، هيراكليتوس، افلاطون، بلوتارك، دانتي، سويدنبورغ، وعباقرة النحت، والرسم، والشعر. فنحن لسنا أوعية ولا عربات، ولا حتى ناقلي نار وحملة مشاعل، إنما نحن أبناء النار، الذين صنعنا منها، والذين نحمل القداسة نفسها متحولة إلى شكل آخر وعلى بعد مرتبتين أو ثلاثاً منها، عندما نحيط علماً بالقليل الأقل عنها

هذه الحقيقة المخبوءة، التي تقول بأن جميع الينابيع التي يتدفق منها نهر الزمان كله وبكل ما فيه من مخلوقات إنما هي مثالية وجميلة على نحو لا يمكن فصله، تجذبنا إلى البحث في طبيعة وظائف الشاعر، أو رجل الجمال ـ وفي الوسائل والمواد التي يستخدم، وفي المظهر العام للفن في الوقت الراهن.

إنها مهمة عظيمة الاتساع، لأن الشاعر ممثل لأشياء أخرى. إنه يعني الإنسان الكامل بين البشر الجزئيين، وهو لا يعلمنا بثرائه، إنما بثراء المشترك. يحترم الشاب الرجال العباقرة، لأنهم، في الواقع، يمثلونه أكثر مما تمثله نفسه. إنهم يتلقون الروح كما يتلقاها، لكنهم يتلقون أكثر. في عين من يهواها، يزيد من جمال الطبيعة اعتقاد الناس أن الشاعر يرى مفاتنها في نفس الوقت الذي يرونها فيه. إنه معزول بفنه وبالحقيقة عن معاصريه، لكن عزاؤه يكمن في مسعاه؛ الذي سوف يجتذب الناس جميعاً عاجلاً أم آجلاً. لأن جميع الناس يعيشون على الحقيقة ويعانون من الحاجة إلى التعبير. في الحب، وفي الفن، وفي الجشع، وفي السياسة، وفي العمل، وفي اللعب، نحاول أن نفوه بسرنا المؤلم. إن الإنسان ليس سوى نصف نفسه؛ أما النصف الآخر فهو تعبيره.

على الرغم من هذه الحاجة إلى الذيوع، فإن التعبير المناسب أمر نادر. لست أدري لماذا نحتاج إلى مترجم، لكن الغالبية العظمى من الناس تبدو مثل القصر الذين لم يتمالكوا أنفسهم بعد، أو مثل البكم الذين لا يستطيعون أن يفصحوا عن الحوار الذي يجرونه مع الطبيعة. ما من انسان لا يتوقع منفعة فوق حسية من الشمس والنجوم، والأرض والماء. إنها قائمة من أجل أن تقدم له خدمة معينة. لكن هنالك عائق ما أو فائض من الإفراز في أجسامنا، يحول دونها ودون إحداث الأثر المستحق. إن انطباعات الطبيعة تسقط علينا واهية جداً إلى الحد الذي لا يكفي لجعلنا فنانين ينبغي لكل لمسة أن تهزنا. وينبغي لكل انسان أن يكون فناناً إلى الحد الذي يستطيع فيه أن ينقل بالحوار ما حل به. ولكن نعلم بالتجربة أن الأشعة لديها ما يكفي من القوة للوصول إلى الحواس، لكنها غير كافية لبلوغ الصميم وحمله على إعادة تقديمها في شكل كلام. الشاعر هو الشخص الذي تتوازن فيه هذه القوى، الإنسان الذي لا يشكو العوق، الذي يرى ويتداول ما يحلم به الآخرون، ويجوس كامل مدى التجربة، ويمثل الإنسان، من حيث كونه القدرة الأكبر على التلقي والإفصاح.

للكون ثلاثة أبناء، مولودون في الوقت نفسه، وهم يعودون للظهور في كل منظومة فكرية تحت أسماء مختلفة. فسواء عرفوا بأسماء السبب، والإجراء، والنتيجة؛ أو بالأسماء الأكثر شاعرية لجوبيتر، وبلوتو، ونبتون، أو أطلقت عليهم التسمية الدينية للأب، والروح، والإبن، فإننا سندعوهم هنا العارف، والفاعل، والقائل تمثل هذه التسميات على التوالي حب الحقيقة، وحب الخير، وحب الجمال هؤلاء الثلاثة متساوون. وكل واحد منهم هو ماهو عليه في جوهره، فلا يمكن تخطيه أو تحليله، وفي كل واحد من هؤلاء توجد قدرة الآخرين كامنة، وقدرته الخاصة متجلية.

الشاعر هو القائل، المسمي، وهو يمثل الجمال. إنه ملك، وهو يحتل المركز. لأن العالم ليس ملوناً أو مزيناً، إما هو جميل منذ البداية؛ والرب لم يخلق بعض الأشياء الجميلة، إنما الجمال هو خالق الكون. ولهذا فإن الشاعر ليس مثل أي ملك متسامح، إنما هو إمبراطور بكامل استحقاقه. ثمة نبرة من المادية تفسد النقد، وتفترض أن المهارة والفاعلية اليدوية هي الحسنة الأولى لجميع البشر، وهي تستبعد أولئك الذين يقولون ولا يفعلون، متجاهلة حقيقة كون بعض الأشخاص، وهم الشعراء تحديداً، قائلون بالطبيعة، وهم مرسلون إلى العالم لغاية التعبير، وهي تخلط بينهم وبين أولئك الذين ينتمون إلى مملكة الفعل لكنهم يغادرونها من أجل تقليد القائلين يتعلق هوميروس بكلمات ويتكبد من أجلها مثل ما يتكبده أغاممنون من أجل انتصارته التي يتعلق بها بنفس الدرجة. لا ينتظر الشاعر البطل أو الحكيم، لكنه، مثلهم حين يتصرفون ويفكرون، يكتب في المقام الأول ما ينبغي أن يقال، معتبراً الآخرين، وإن كانوا متصدرين مثله، ثانويين وخدماً بالقياس له - مثلهم مثل النموذج الذي يجلس في الاستديو ليرسمه الرسام، أو المساعدين الذين يحملون مواد البناء للمعماري.

ذلك لأن الشعر كتب قبل أن يكون الزمان، وكلما أصبحنا منظمين على النحو الرفيع الذي يتيح لنا التغلغل في تلك الأصقاع التي هواؤها موسيقي، سمعنا ذلك الشدو وحاولنا تدوينه، لكننا نضيع كلمة أو بيتاً ونعوضه من عندنا، وبهذا نسيء كتابة القصيدة. الأشخاص الذين يتمتعون بآذان أكثر رهافة يدونون ذلك الإيقاع بحد أكبر من الأمانة، فتصبح تلك المدونات، وإن كانت غير كاملة، أغاني للأمم. لأن الطبيعة جميلة بقدر ماهي طيبة معقولة، وينبغي لها أن تظهر كذلك من أجل أن تتحقق وتعرف. والأفعال أنماط غير مختلفة للطاقة السماوية. فالكلمات أفعال أيضاً، والأفعال نوع من

الكلمات.

إن علامة الشاعر وأوراق اعتماده هي أنه يعلن مالم يسبق لإنسان آخر التنبؤ به. إنه الطبيب الحقيقي والوحيد؛ فهو يعرف ويقول؛ إنه ناقل الأخبار الوحيد، لأنه كان موجوداً وشاهداً على ظهور ما يصف. إنه مبصر الأفكار والناطق بما هو ضروري ومسبب. لأننا لا نتحدث هنا عن أشخاص ذوي مواهب شعرية، أو عن الصنعة والمهارة في الأوزان، إنما عن الشاعر الحق. شاركت في حوار يتعلق بأحد كتاب الأغاني المحدثين، وهو رجل ذو عقل بارع، ورأس كما لو أنه صندوق موسيقى يضم ألحاناً ونغمات عذبة، ومهارة وسيطرة على اللغة لا يستطيع الإطراء أن يوفيهما حقهما. ولكن عندما نطرح السؤال عما إذا كان مجرد كاتب أغانٍ أم شاعراً، كنا مضطرين إلى الاعتراف بأنه رجل معاصر، لا خالد. إنه لا يقف خارج محدوديتنا، مثل «تشيمبورازو» منطلق من قاعدة عبر جميع مناخات العالم، مزنر بكلأ كل خطوط العرض حول جوانبه العالية والمرقشة؛ إنما هو حديقة جميلة في منزل معاصر، تزينها النافورات والتماثيل، ويجلس أو يقف في ممراتها ودكاكها رجال مهذبون ونساء مهذبات. نستمع، من خلال كل الموسيقى المتنوعة، إلى ايقاع الحياة التقليدية. إن شعراءنا رجال موهوبون يغنون، وليسوا بأبناء الموسيقى. الفحوى لديهم ثانوية، وصقل الأبيات يأتي أولاً.

إن ما يصنع القصيدة هو الفحوى التي تصوغ الوزن لا الوزن نفسه ـ الفكرة الحية والمنفعلة إلى الحد الذي يجعلها مثل روح النبات أو الحيوان تمتلك معمارها الخاص بها، وتزين الطبيعة بإضافة جديدة. تتساوى الفكرة والشكل في الترتيب الزمني، لكن الفكرة تتقدم على الشكل في الترتيب الخلقي. لدى الشاعر فكرة جديدة، لديه تجربة جديدة كاملة مهيأة للكشف؛ ولسوف يحدثنا عنها، ويزداد جميع الناس، من ثروته، غنى. لأن تجربة كل عصر جديد تحتاج إلى اعتراف جديد، ويبدو أن العالم على الدوام في حالة انتظار شاعره. أتذكر كم انفعلت يوماً في صباي عندما بلغني أن العبقرية ظهرت لدى شاب كان يجلس بجانبي إلى إحدى الموائد. كان قد ترك عمله ومضى مهموماً إلى حيث لا يعلم أحد، وكتب مئات الأبيات، لكنه لم يكن يعلم ما إذا كان ذلك الشيء الذي بداخله قد انسكب في تلك الأبيات؛ لم يكن قادراً على أن يعرف شيئاً آخر سوى أن كل شيء قد تغير ـ الإنسان، الحيوان، السماء، الأرض، والبحر بأي سرور أنصتنا له! أية سذاجة! جلسنا في شفق شروق كان سيطفئ كل النجوم بدت بوسطن على ضعف المسافة التي كانت عليها بالأمس، أم لعلها كانت أبعد من ذلك. وروما ـ ما

عساها تكون روما؟ أصبح بلوتارك وشكسبير صفراً، وما عاد ينبغي لهوميروس أن يقرأ. فالشعر كان يكتب في ذلك اليوم بالتحديد، تحت ذلك السقف، إلى جانبك. ماذا! ألم تستنفد بعد تلك الروح الرائعة؟ هل مازالت تلك اللحظات الحجرية تنبض وتتوهج؟ حسبت أن النبؤات جميعاً قد صمتت، وأن الطبيعة قد استنفدت نيرانها؛ وإليك! طوال الليلة، ومن كل ثغرة، كان ذلك الشفق الباهر ينهمر. الكل معني بظهور الشاعر، ولا أحد يعلم إلى أي مدى يمكن أن يهمه الأمر. إننا نعرف أن سر العالم عميق، لكن لا نعرف الشخص أو الشيء الذي سيفسره لنا. يمكن لنزهة جبلية، أو لوجه ذي نسق جديد، أو لشخص طارئ أن يضع المفتاح في يدنا. إن قيمة العبقرية بالنسبة لنا تكمن في صحة ما تنبئ به. الموهبة قد تمرح وتتلاعب؛ أما العبقرية فتدرك وتضيف. إن المراقب المتقدم فوق الذروة يعلن أخباره وإنها الكلمة الأصدق من بين كل ما قيل، والعبارة الأصلح، والأكثر موسيقية، وصوت عالم ذلك الزمان الذي لا يخطئ.

كل ذلك الذي ندعوه تاريخاً مقدساً يشهد بأن ميلاد الشاعر هو الحدث الرئيس في تسلسل الأحداث. فالإنسان، الذي ينخدع كثيراً، يظل يرقب وصول الأخ الذي يستطيع أن يواجهه بثبات بالحقيقة حتى يجعل منها حقيقته الخاصة. بأي سرور أقبل على قراءة قصيدة أثق بها وأجعلها إلهاماً لي! ها أن قيودي ستكسر الآن؛ ولسوف أرقى إلى ما فوق هذه الغيوم والأجواء المضببة التي أعيش فيها - مضببة رغم أنها تبدو شفافة - ومن سماء الحقيقة سوف أنظر إلى علاقاتي وأفهمها ذلك ما سيعقد صلحاً ما بيني وبين الحياة، ويجدد الطبيعة، أن أرى التوافه تصبح ذات غرض فتدب فيها الحياة، وأن أعرف ما أنا فاعل. لن تعود الحياة بعد مجرد صخب؛ فلسوف أرى الآن الرجال والنساء، وأعرف العلاقات التي تميزهم عن الحمقى والشياطين. هذا اليوم سيكون أفضل من يوم مولدي؛ عند ذاك أصبحت حيواناً؛ أما الآن فأنا مدعو إلى علم الحقيقة. ذلك هو الأمل، لكن تحققه يتأجل. فغالباً ما يحدث أن هذا الرجل المجنح، الذي سينقلني إلى السماء، يطوح بي في الضباب، ثم ينط ويقفز وأنا معه من غيمة إلى غيمة، مواصلاً تأكيده بأنه يتجه صوب السماء. فلا أدرك، وأنا المبتدئ، بسرعة أنه لا يعرف الطريق إلى السماوات، وأن ما يريده هو أن أعجب بمهارته، مثل طير أو سمكة طائرة، في الإرتفاع قليلاً فوق الأرض أو الماء؛ أما جو السماء المرئي، الثاقب والمشبع، فإن هذا الرجل لن يسكنه أبداً. سريعاً ما أسقط ثانية في مكاني القديم، وأعود إلى حياة المبالغات

كالسابق، وأفقد إيماني بقدرة أي دليل على أن يأخذني إلى حيث أرغب أن أكون.

لكن، دعنا نترك ضحايا الغرور هؤلاء، ونلاحظ، بأمل جديد، كيف تؤمن الطبيعة إخلاص الشاعر لوظيفته في الإعلان والتوكيد، عن طريق جمال الأشياء الذي يتحول إلى جمال جديد أرقى عندما يتم التعبير عنه. إن الطبيعة تقدم له كل مخلوقاتها كلغة مصورة. وما أن يستخدم الغرض كرمز حتى تظهر له قيمة ثانية رائعة، تفوق كثيراً قيمته القديمة؛ مثل حبل النجار المشدود، الذي يتحول إلى موسيقى في النسيم متى ما قربت أذنك منه. يقول جامبليخوس «أن أموراً أفضل من كل الصور، يتم التعبير عنها من خلال الصورة.» تقبل الأشياء أن تستخدم كرموز، لأن الطبيعة رمز في مجموعها وفي كل جزء منها. كل خط نرسمه في الرمال يحمل تعبيراً؛ ولا يوجد جسم بدون روح أو عبقرية. كل شكل هو أثر للشخصية، وكل ظرف هو أثر لنوعية الحياة؛ وكل انسجام هو أثر للصحة؛ ولهذا السبب ينبغي لأدراك الجمال أن يكون متعاطفاً مع ماهو طيب أو مقتصراً عليه. ما هو جميل يستند على أساس ما هو ضروري. فالروح تصنع الجسد، كما يقول الحكيم سبنسر:

الروح، كلما ازدادت نقاء،
وانطوت على المزيد من النور السماوي،
ازداد جمال الجسد الذي تسكنه
والذي تزينه بالحسن البهيج والمظهر المحبب.
لأن الجسد يأخذ شكله من الروح
فالروح هي الشكل، وهي التي تصنع الجسد.

هنا نجد أنفسنا بغتة في مكان مقدس وليس في مجال للتأمل النقدي، وعلينا أن نسير ببالغ الاحتراس والتبجيل. فنحن نقف إزاء سر العالم، حيث يتحول الوجود إلى مظهر والوحدة إلى تنوع.

الكون هو تجسد الروح. فحيثما توجد الحياة، ينبثق المظهر من حولها. إن علومنا حسية، فهي ـ لهذا السبب ـ سطحية. نتعامل تعاملاً حسياً مع الأرض والأجرام السماوية، ومع الفيزياء والكيمياء كما لوكانت ذاتية الوجود؛ لكن هذه الأشياء هي حاشية ذلك الوجود الذي لدينا. قال بروكلوس «تبدي السماء الجبارة، في تحولاتها، صوراً واضحة لروعة المدركات الفكرية، عندما تتحرك بالترابط مع الفترات غير الرئية

للطبائع الفكرية.» ولهذا يسير العلم دائماً جنباً إلى جنب مع الارتقاء العادل للإنسان، مواكباً خطوات الدين والميتافيزيقية؛ أو أن حالة العلم هي مؤشر معرفتنا الذاتية. ما دام كل ما في الطبيعة يستجيب لقوة معنوية، فإن بقاء أية ظاهرة قيد العتمة والإبهام يدل على أن الجانب المعني بها لدى المراقب غير مفعل بعد.

لا أعجب إذن أن نحوم حول المياه شديدة العمق بنوع من الاحترام الديني. إن جمال الخرافة يؤكد أهمية المعنى؛ بالنسبة للشاعر وبالنسبة لجميع الآخرين، أو - إن شئت - فإن كل إنسان شاعر من حيث تأثره بفتون الطبيعة؛ لأن كل البشر يحملون الأفكار التي يعتبر الكون احتفاء بها. أرى أن الافتتان يكمن في الرمز. من الذي يحب الطبيعة؟ من الذي لا يحبها؟ هل الشعراء، وذوو الفراغ والثقافة، وحدهم الذين يعيشون معها؟ كلا؛ إنما هناك أيضاً الصيادون، والمزارعون، وسياس الخيل، والقصابون، رغم أنهم يعبرون عن شعورهم باختيار الحياة لا باختيار الكلمات. يتساءل الكاتب عما يجده الحوذي أو الصياد من متعة في الركوب، والجياد، والكلاب. إنها ليست السمات السطحية. عندما تتحدث إليه تجد أنه مثلك لا يعبأ كثيراً بتلك السمات. فإعجابه تعاطفي؛ ليست لديه تعاريف، لكنه يخضع بطبيعته لتلك القوة الحية التي يشعر بوجودها هناك. وهو لا يرضى بأي تقليد لتلك الأشياء أو تمثيل لها؛ فهو يحب المطر، والحجر، والخشب، والحديد، والريح الشمالية الحق. إن الجمال غير القابل للتفسير أتمنى من الجمال الذي نستطيع أن نرى نهايته. إنها الطبيعة الرمز، الطبيعة التي تؤكد ما فوق الطبيعي، الجسد المغمور بالحياة هي مايعبده بطقوس فجة لكنها مخلصة.

إن غموض وباطنية هذا التعلق يسوقان الناس من كل الطبقات إلى استخدام الشعارات. فمدارس الشعراء والفلاسفة ليست أكثر استغراقاً من العامة في استغراقهم برموزهم. عليك بقياس قوة الشارات والشعارات لدى أحزابنا السياسية. انظر إلى الكرة الكبيرة التي يدحرجونها من بالتيمور إلى بنكرهيل! في المواكب السياسية؛ تظهر لوويل في نول، ولين في حذاء، وسالم في سفينة. شاهد البرميل الخشبي، والكوخ الخشبي، والعصا الجوزية، والسعفة، وكل الشارات المميزة للجماعة. انظر إلى قوة الرموز الوطنية. إن بعض النجوم، أو الزنابق، أو الفهود، أو أسد ما، أو هلال، أو نسر، أو أي شكل اكتسب مكانته من ظرف لا يعلمه إلا اللّه، حين يوضع على قطعة قماش قديم ترفرف في الريح فوق قلعة في أقصى الأرض يجعل الدم يضطرم

تحت أخشن السحنات أو أكثرها تقليدية. يحسب الناس أنهم يكرهون الشعر، وهم جميعاً شعراء وباطنيون!

ما هو أبعد من كونية هذه اللغة الرمزية، إنها تنبئنا بقدسية هذا الاستخدام الرفيع للأشياء، الذي يحول العالم إلى معبد تغطي جدرانه الرموز، والرسوم، ووصايا الإله ـ وحيث نلقن بأن ما من حقيقة في الطبيعة لا تحمل كل معنى الطبيعة؛ وأن التمايز الذي نضعه للأحداث والشؤون، من عالٍ وواطئ، وصادق ووضيع، يختفي عندما تستخدم الطبيعة كرمز. فالفكرة تجعل كل شيء صالحاً للاستخدام. ومفردات الرجل المحيط بالمعرفة تضم كلمات وصور تستبعدها المحادثة المهذبة. ما هو وضيع أو بذيء، على لسان بذيء، يصبح باهراً عندما يرد ضمن سياق جديد للفكرة. تظهر تقوى الأبناء العبرانيين ما فيهم من فظاظة. التطهير الروحي مثال على قدرة الشعر على الارتقاء بما هو دوني ومنفر. لهذا الغرض تصلح الأشياء الصغيرة والوضيعة كما تصلح الرموز العظيمة. كلما ازدادت وضاعة الرمز الذي يعبر به عن قانون ما، ازدادت حدة التعبير، ورسوخه في ذاكرة الناس؛ تماماً كما نختار العلبة أو المحفظة الأصغر لحمل الأشياء التي نحتاج إلى استخدامها. لقد وجد أن قوائم الكلمات العادية قادرة على الإيحاء للمخيلة والذهن المستشار؛ إذ يروى عن اللورد تشاثام أنه كان معتاداً على قراءة قاموس بيلي كلما رغب في الاستعداد للكلام في البرلمان. إن أفقر التجارب غنية بما فيه الكفاية لجميع أغراض التعبير عن الأفكار. لماذا عسانا نتوق إلى معرفة حقائق جديدة؟ إن في الليل والنهار، والمنزل والحديقة، وقليل من الكتب، وقليل من النشاطات، ما يفي بغرضنا شأنه شأن جميع المهارات والمشاهد. ما زلنا بعيدين عن استنفاد مغزى الرموز القليلة التي نستخدمها. وما زال بوسعنا أن نقدم على استخدامها بيسر شديد. لا يتوجب على القصيدة أن تكون طويلة. فكل كلمة كانت في يوم ما قصيدة. كل علاقة جديدة. هي كلمة جديدة كما أننا نستخدم العيوب والتشويهات لغرض مقدس، فنعبر بذلك عن إحساسنا بأن خبائث العالم لا تبدو كذلك إلا للعين الخبيثة. يلاحظ دارسو الأساطير، إن النقائص في الأساطير القديمة تنسب إلى ذوي الطبائع المقدسة، كالعرج الذي يعاني منه فولكان، والعمى الذي ولد فيه كيوبيد، وأشباه ذلك ـ مما يشير إلى الامتلاء والفيض.

لما كان الابتعاد أو الخروج عن حياة الرب هو الذي يجعل الأشياء قبيحة، فإن

الشاعر الذي يعيد حتى الأشياء المصطنعة وتلك التي تنتهك الطبيعة إلى الارتباط بالطبيعة عبر بصيرته الأكثر عمقاً - يرتب بمنتهى السهولة أشد الحقائق إثارة للنفور. ينظر قراء الشعر إلى القرية الصناعية أو سكة الحديد، ويحسبون أنها تحطم شاعرية المشهد الطبيعي؛ لأن هذه الأعمال الفنية لم يتم تكريسها في قراءاتهم؛ لكن الشاعر يجدها منسجمة مع النظام الأعظم على نحو لا يقل عن انسجام خلية النحل أو نسيج العنكبوت الهندسي. فالطبيعة تتبناها سريعاً ضمن محيطها الحيوي، وهي تحب قطار السيارات المنسابة كما تحب مفرداتها الخاصة. يضاف إلى ذلك أن أي عدد تعرضه من المخترعات الميكانيكية لا يعني شيئاً للعقل المركز. فحتى لو أضفت الملايين منها فإن حقيقة الميكانيك لم تكسب وزن ذرة. لأن الحقيقة الروحية تظل غير قابلة للتحول، سواء كانت الأجزاء المضافة قليلة أم كثيرة - تماماً كما أن الجبل مهما بلغ ارتفاعه لا يستطيع أن يكسر منحنى الكرة السماوية. يقصد صبي ريفي ذكي المدينة للمرة الأولى فيثير بتصرفه تعجب أبنائها الذين اعتادوا مشاهدها. فالأمر لا يتعلق بكونه لا يرى كل تلك البيوت البديعة أو بكونه يعلم بأنه لا يعلم بأنه لم ير مثلها من قبل، إنما بقدرتها على التعامل معها بنفس السهولة التي يجد بها الشاعر مكاناً لسكة الحديد. إن القيمة الكبرى للحقيقة الجديدة هي في كونها تعزز حقيقة الحياة العظمى والثابتة، التي تستطيع أن تقزم كل ظرف، والتي تماثل في نظرها تجارة أمريكا وأصداف الهندي التي يستخدمها كعملة.

العالم الذي يطرح أمام الذهن على هذا النحو في صيغة أسماء وأفعال، يجعل الشاعر الشخص القادر على تنظيمه. فعلى الرغم من أن الحياة عظيمة، ومن قدرتها على الإبهار والاستحواذ، على الرغم من أن جميع البشر واعون للرموز التي تدعى بها، فإنهم، مع ذلك غير قادرين على استخدام تلك الرموز بأصالة. فنحن رموز نسكن رموزاً، وانهماكنا بالاستخدامات الاقتصادية للأشياء، يجعلنا لا ندرك أنها بالأصل أفكار. أما الشاعر، فإنه يمنحها، بإدراك فكري خفي، القدرة على نسيان استخداماتها القديمة، ويزود كل مادة صماء وغير حية بلسان وعينين. إنه يعي استقلالية الفكرة عن الرمز وصفته العابرة. وكما أن عيني لينكاوس كانتا تبصران من خلال الأرض، كذلك الشاعر يحول العالم إلى زجاج، ويرينا الأشياء جميعاً حسب تسلسلها الصحيح ومواقعها. لأنه من خلال ذلك الإدراك يقترب خطوة أدنى إلى الأشياء، ويرى الاستمرار

أو الاستحالة؛ ويعي أن الحقيقة متعددة الأشكال؛ وأن ثمة قوة ضمن هيأة كل مخلوق ترغمه على الإرتقاء إلى هيأة أرفع، وإذ تتابع عيناه الحياة؛ فإنه يستخدم الصيغ التي تعبر عن تلك الحياة، فيجري كلامه مع مجرى الطبيعة. جميع حقائق الوجود الحيواني ـ من جنس، وتغذية، وحبل، وولادة، ونمو ـ رموز لعبور العالم إلى روح الإنسان، حيث تتعرض هناك إلى التغيير وتعود إلى الظهور ثانية بشكل حقائق جديدة أرقى. يستخدم الشاعر الأشكال تبعاً للحياة وليس تبعاً للهيأة. ذلك هو العلم الحق. الشاعر وحده يعرف الفلك، والكيمياء، والإنبات، والتحريك لأنه لا يتوقف عند هذه الحقائق، إنما يوظفها كعلامات. وهو يعرف السبب الذي من أجله تطرزت سهوب الفضاء بالنجوم؛ وزينت الأعماق السحيقة بالحيوان، والبشر، والآلهة؛ إذ أنه في كل كلمة يقولها يمتطي تلك الأشياء كخيول للفكرة.

بفضل هذا العلم يكون الشاعر هو المسمي أو صانع اللغة، فهو يسمي الأشياء حسب مظهرها أحياناً، وأحياناً حسب جوهرها، ويعطي لكل منها اسمه الخاص لا اسم سواه، فيبهج بذلك الفكر الذي ينشرح للعزل والتحديد. لقد صنع الشعراء جميع الكلمات، ولهذا صارت اللغة أرشيف التاريخ، ونوعاً من لحد يضم آلهة الفن. ومع أن أصل معظم الكلمات قد نسي، فإن كل كلمة كانت في البدء قدحة عبقرية، وحققت الرواج لأنها مثلت في لحظتها العالم بالنسبة لناطقها الأول ومستمعها. يجد دارس أصول اللغة أن الكلمات الأشد موتاً كانت في يوم ما صورة براقة. فاللغة شعر أحفوري. كما أن حجارة العالم تتكون من تراكمات لا متناهية في أصداف الحيوانات المجهرية كذلك اللغة تتكون من صور أو مجازات، كفت الآن، في استخدامها الثاني، عن تذكيرنا بأصلها الشعري. الشاعر يسمي الشيء لأنه يراه، أو يقترب خطوة أدنى منه. التسمية أو التعبير ليسا فنا، إنما طبيعة ثانية، تنتج عن الطبيعة الأولى كما تنمو الورقة من الشجرة. ما ندعوه طبيعة هو تغير أو حركة ذاتية التنظيم؛ الطبيعة تفعل كل شيء بيدها، ولا تجعل غيرها يعمدها، بل تعمد نفسها بنفسها؛ ويحدث هذا من خلال الاستحالة من جديد. أتذكر أن شاعراً معيناً وصف لي الأمر على هذا النحو:

العبقرية هي النشاط الذي يصلح فساد الأشياء، كلياً أو جزئياً من النوع المادي والمحدود. الطبيعة، في كل ممالكها، تؤمن نفسها. لا أحد يعنى بزراعة الفطر المسكين؛ فتنفض هي عن طرف فطر واحد أعداداً لا تحصى من السبورات، ينفض كل واحد

منها، في حالة حفظه، مليارات جديدة من السبورات غداً أو بعده. للفطر الجديد الذي يولد هذه الساعة فرصة لم تكن للقديم. ذرة البذر هذه تلقى في مكان جديد، لا يخضع للطوارئ التي قضت على والديه على مرمى حجر منه. إنها تصنع إنساناً، وإذ تصل به إلى سن النضوج، لا تعرض نفسها لخطر إضاعة هذه الأعجوبة بضربة مفاجئة، فتستخرج منه ذاتاً جديدة، من أجل أن يسلم النوع من الحوادث التي يتعرض لها الأفراد. ولذا، حين تصل روح الشاعر إلى مرحلة نضج الأفكار، تستخرج الطبيعة منها قصائدها أو أغانيها وترسلها بعيداً- ذرية لا تعرف الخوف، ولا النوم، ولا الموت، ولا تخضع لحوادث مملكة الزمن المرهفة، نسلاً حيوياً، مقداماً، مزوداً بالأجنحة ومثل فضيلة الروح التي انطلق منها، تحمله سريعاً وبعيداً، وتعززه، على نحو غير قابل للإنتزاع، في قلوب البشر. تلك الأجنحة هي جمال روح الشاعر. تتابع الأغاني، التي تحلق خالدة بعيداً عن أمها الفانية. أسراب من المنقذين الصخابين تحتشد بأعداد أكبر وتهدد بافتراسها؛ لكن الأخيرين لا أجنحة لهم. بعد قفزة قصيرة يسقطون أرضاً ويتعفنون، لأنهم لم يكتسبوا من الأرواح التي انبثقوا عنها أجنحة جميلة. أما أغنيات الشاعر فتعلو وتقفز وتنفذ في أعماق العصور اللامتناهية.

هذا ما علمني إياه الشاعر، مستخدماً لغته الأكثر طلاقة. لكن للطبيعة غاية أسمى من التأمين تتوخاها في إنتاجها للأفراد الجدد، إنها الارتقاء، أو انتقال الروح إلى أشكال أرفع. في شبابي كنت أعرف النحات الذي صنع تمثال الشاب القائم في الحديقة العامة. لم يكن، على ما أتذكر، قادراً على أن يعبر مباشرة عما يجعل سعيداً أو تعساً، لكنه كان يفعل ذلك بطرق غير مباشرة رائعة. استيقظ في يوم من الأيام كعادته قبل الفجر، ورأى الصباح ينبلج، رائعاً كالأبدية التي قدم منها، وعلى مدى أيام جهد من أجل التعبير عن تلك السكينة، وهاك! لقد صاغ إزميله من الرخام هيأة شاب وسيم، فوسفوروس، كان لمظهره من التأثير ما يحمل كل من يراه على التزام الصمت. الشاعر أيضاً يسلم نفسه لمزاجه، فيتم التعبير عن تلك الفكرة التي تهزه، ولكن على نحو جديد تماماً. التعبير عضوي، أو أنه الشكل الجديد الذي تتخذه الأشياء نفسها عندما تتحرر. كما يحدث في ضوء الشمس، ترسم الأشياء صورها على شبكية العين، لأنها، وهي التي تشترك في النزوع الذي يحمله الكون كله، تميل إلى أن ترسم نسخة أرق بكثير لوجودها في ذهنه. ومثل استحالة الأشياء إلى أشكال عضوية أرقى، يكون

تحولها إلى أغانٍ. فوق كل شيء يقف شيطان أو روح ذلك الشيء، وكما ينعكس شكل الشيء عن طريق العين، تنعكس روح الشيء بواسطة أغذية. البحر، وحافة الجبل، ونياغارا، وأحواض الزهر موجودة سلفاً، أو أن لها وجود علوي في الألحان التي تبحر كالروائح الزكية في الهواء، فإذا ما مر إنسان يتمتع بأذن مرهفة بما فيه الكفاية، فإنه يسمعها ويحاول أن يدون النغمات دون أن يخففها أو يفسدها. ومن هنا تأتي شرعية النقد، في إيمان العقل بأن القصائد إنما هي نسخ مفسدة عن نصوص في الطبيعة ينبغي لها أن تطابقها. إن القافية في المقطع الشعري يجب أن تقدم من المتعة ما تقدمه التموجات المتكررة في أصداف البحر، أو الإختلاف المتماثل في مجموعة من الأزهار. إن اقتران الطيور أنشودة رعوية ليست رتيبة كأنشوداتنا؛ والعاصفة أغنية فظة، خالية من الزيف أو اللغة المنمقة؛ والصيف بلغته التي بذرت، وحصدت، واختزنت، أغنية ملحمية تمتد على عدد من الأجزاء المؤداة ببراعة. لماذا لا ينتقل الإتساق والصدق المتضمنين في هذه الأشياء إلى أرواحنا فنساهم في ابتكار الطبيعة؟

هذه البصيرة، التي تعبر عن نفسها بما يدعى «المخيلة»، هي نوع رفيع جداً من النظر، لا يتم التوصل إليه بالدراسة، بل بحضور الذهن في ما يرى وتحوله إلى ما يرى - عن طريق المشاركة في مسار أو دائرة الأشياء من خلال الأشكال، وجعلها بذلك شفافة بالنسبة للآخرين. إن مسار الأشياء صامت. فهل ترحب بمتحدث يسير بمعيتها؟ إنها لن ترحب بجاسوس؛ لكن العاشق، الشاعر، هو تسامي طبيعتها الخاصة - ولذا فإنها ترحب به. إن شرط التسمية الحقة، من جانب الشاعر، هو تسليمه نفسه للنسيم المقدس الذي يتخلل كل الأشكال، ومرافقته له.

إنه لسر يتعلمه بسرعة كل انسان مثقف، أن ثمة فوق طاقة ذهنه الواعي والمتمالك، قدرة على امتلاك طاقة جديدة (تشبه مضاعفة الذهن لنفسه) عن طريق الاستسلام لطبيعة الأشياء؛ وأنه إلى جانب قوته الخاصة كفرد، توجد قوة عامة عظمى يستطيع أن ينهل منها عن طريق فتح جميع أبوابه الإنسانية، رغم كل المخاطر، وجعل الموجات الأثيرية تتماوج وتدور عبر ذاته؛ عندها يكون قد علق بحياة الكون، فيصبح حديثه رعداً، وفكرته قانوناً، وكلماته مفهومة كونياً ككلام النبات والحيوان. يعرف الشاعر أنه يتكلم على نحو ملائم فقط عندما يتكلم على نحو جامح، أو «بزهرة العقل». ليس بالعقل مستخدماً كأداة، إنما بالعقل طليقاً من كل وظيفة ومستعداً لتلقي التوجيه من حياته

السماوية ـ أو كما اعتاد القدماء أن يعبروا عن أنفسهم، ليس بالعقل وحده إنما بالعقل ثملاً بالرحيق. كما يلقي المسافر الذي يضل الطريق بالعنان على رقبة حصانه واضعاً ثقته بقدرة الحيوان الغريزية على معرفة الطريق، كذلك ينبغي علينا أن نفعل مع الحيوان المقدس الذي يحملنا عبر هذا العالم. لأننا إن استطعنا بأية طريقة أن نحفز هذه الغريزة، فإن مسالك جديدة نحو الطبيعة تنفتح لنا؛ فالعقل يتدفق في أصلب الأشياء وأرقاها ومن خلالها، وتصبح الاستحالة ممكنة.

هذا هو السبب الذي يجعل الشعراء يحبون النبيذ، والعرق، والمخدرات، والقهوة، والشاي، والأفيون، ودخان خشب الصندل والتبغ أو أية وسيلة أخرى للتنبيه الحيواني. يمتع الناس جميعاً أنفسهم بمثل هذه الوسائل ما استطاعوا، لكي يضيفوا قدرات استثنائية إلى قدراتهم الاعتيادية؛ ولهذه الغاية تراهم يثمنون عالياً المحاورة، أو الموسيقى، أو الصور، أو التماثيل، أو الرقص، أو المسارح، أو السفر، أو الحرب، أو الحشود، أو الصيد، أو السياسة، أو الحب، أو العلم، أو الثمالة الحيوانية ـ وهي البدائل نصف الميكانيكية الأرقى أو الأدنى للرحيق الحقيقي، المتمثل في اغتباط الذهن بالاقتراب من الحقيقة. ما هذه إلا وسائل لمساعدة الميل الطارد عن المركز الذي يحمله الإنسان، ولانتقاله إلى الفضاء الطلق، وهي تساعده في الهروب من وصاية ذلك الجسد الذي يحبسه، ومن تلك العلاقات الفردية التي يدور فيها كما يدور المرء في باحة السجن. ومن هنا نجد أن أعداداً كبيرة من الأشخاص الذين يحترفون التعبير عن الجمال كالرسامين، والشعراء، والموسيقيين، والممثلين قد كانوا أكثر من سواهم حاجة إلى أن يقودوا حياة الانغماس في اللذات، باستثناء القليلين منهم ممن كانوا يتلقون الرحيق الحقيقي؛ لكن ذلك بقدر ما كان طريقة زائفة للحصول على الحرية، كان انطلاقاً ليس إلى السماء بل إلى حرية مواقع أحط، حيث عوقبوا على الفائدة التي جنوها بالتبدد والتدهور. لأن ما من فائدة يمكن أن تؤخذ من الطبيعة بالحيلة. فروح العالم، والحضور الهادئ العظيم للخالق، لا تستقدم بشعوذات الأفيون والنبيذ. والرؤية الجليلة تحل على الروح البسيطة والنقية في الجسد النظيف الطاهر. إن ماندين به للمخدرات ليس إلهاماً، إنما نوع مزيف من الإثارة والانفعال. يقول ميلتون أن بوسع الشاعر الغنائي أن يشرب الخمر ويحيا بإسراف، أما الشاعر الملحمي، الذي سوف يغني الآلهة وحلولها في البشر، فإن عليه أن يشرب الماء من إناء من الخشب. لأن الشعر ليس

«خمرة الشيطان» بل خمرة الرب. ونحن نفعل بها ما نفعله بالألعاب. فنحن نملأ يد أطفالنا وحجراتهم بكل أنواع الدمى، والطبول، والخيول - فنصرف بذلك أبصارهم عن الوجه البسيط والمفردة الوافية للطبيعة، والشمس، والقمر، والحيوانات، والماء، والحجارة التي ينبغي أن تكون ألعابهم. كذلك عادات الشاعر الحياتية التي ينبغي أن تضبط عند مفاتيح منخفضة إلى الحد الذي يسمح للمؤثرات العادية أن تبهجه. على سروره أن يكون هبة نور الشمس، وينبغي أن يكون الهواء كافياً لإلهامه، وعليه أن يثمل بالماء. هذه الروح التي ترضي القلوب الهادئة، والتي تحل عليها من كل هضبة جافة يذوي عليها العشب، وكل أجمة صنوبر أو حجر نصف دفين تشرق عليه شمس آذار الكدرة، تنزل على الفقراء والجياع وعلى أصحاب الذوق البسيط. فإذا ملأت ذهنك ببوسطن ونيويورك، وبالموضة والإشتهاء، وعمدت إلى تحفيز حواسك المتخمة بالخمرة والقهوة الفرنسية، فإنك لن تعثر على الإشعاع أو الحكمة في عزلة الغابات الصنوبرية.

إذا كانت المخيلة تثمل الشاعر، فإنها ليست عاطلة لدى سواه من الناس. فالإستحالة تثير في الناظر عاطفة السرور. وفي استخدام الرموز قوة على الانعتاق والابتهاج يحسها الناس جميعاً يبدو كما لو أن عصا سحرية تمسنا فتجعلنا نرقص ونجري فرحين مثل الإطفال. نحس كما يحس الأشخاص الخارجون من كهف أو زنزانة إلى الهواء الطلق. ذلك هو الأثر التي تتركه فينا المجازات، والحكايات، والنبوءات، وجميع صيغ الشعر. وهكذا يكون الشعراء آلهة محررة. يحصل الناس على حاسة جديدة، ويعثرون داخل عالمهم على عالم آخر، أو على عش من عوالم؛ لأننا ما أن نرى الاستحالة حتى نتمنى أن لا تتوقف. لن أبحث الآن في مدى اسهام هذا الأمر في صناعة سحر الجبر والرياضيات، التي تحتفظ بمجازاتها الخاصة لكننا نشعر به في كل تعريف، كما يحدث عندما يعرف أرسطو الفضاء بأنه الوعاء الثابت الذي يحتوي الأشياء؛ أو عندما يعرف أفلاطون الخط بأنه نقطة سائلة، أو الشكل بأنه كتلة متوجهة؛ والكثير من هذا القبيل. أي إحساس بهيج بالحرية نحس به عندما يعلن فيتروفيوس رأي الفنانين القديم القائل بأن ما من معماري يستطيع أن يشيد داراً بكفاءة إن لم يكن يعرف شيئاً عن التشريح. أو عندما يخبرنا سقراط فإن الروح تبرأ من عللها عن طريق تعويذات معينة، وأن تلك التعويذات هي الأسباب الجميلة التي يتولد منها المزاج في الأرواح؛ أو عندما يدعو افلاطون العالم بالحيوان، ويؤكد تيماوس بأن النبات هو حيوان

أيضاً، وأن الإنسان شجرة سماوية تنمو وجذرها، الذي هو الرأس، إلى أعلى، وعندما يتبعه جورج تشابمان بالقول:

كذلك في شجرة الإنسان، الذي ينبثق

جذره العصبي من أعلاه

وعندما يتكلم أورفيوس عن الشيب بصفته «الزهرة البيضاء التي تميز العمر المتقدم»؛ وعندما يدعو بروكلوس الكون بتمثال الفكر؛ وعندما يقارن تشوسر، في إطرائه لـ «جنتيلس»، الأصل الطيب في الظرف الرديء بالنار، التي تحتفظ، رغم انتقالها إلى أحلك المنازل ما بين هذه النقطة وجبل القوقاز، بوظيفتها الطبيعية، وتشتعل ساطعة كما لو أن عشرين ألف شخص يرقبونها؛ وعندما رأى يوحنا، في سفر القيامة، دمار العالم بسبب الشر، وتهاوى النجوم من السماء كما تسقط شجرة التين الثمار التي تنمو في غير موسمها؛ وعندما يسرد إيسوب كامل نهج العلاقات اليومية المعتادة تحت قناع الطيور والوحوش ـ نتلقى الإشارة المبهجة إلى خلود وجودنا وطباعه ومنافذه المتنوعة، كما في حالة الغجر حين يقولون عن أنفسهم، «ولا جدوى من شنقهم، فهم لا يستطيعون الموت.»

هكذا يكون الشعراء آلهة تحرير. وضع الشعراء البريطانيون القدماء عنواناً لمرتبتهم هو «أولئك الأحرار عبر العالم.» إنهم أحرار، ويجعلون سواهم حراً. الكتاب الخيالي يقدم لنا خدمة كبرى، في البداية يحفزنا من خلال مجازاته، ولاحقاً عندما نصل إلى المعنى المحدد الذي أراده المؤلف أعتقد أن ليس في الكتب من أشياء ذات قيمة تذكر باستثناء غير المألوف، وفوق الطبيعي. إذا ما ألهبت إنسان فكرته وجرفته، إلى الحد الذي ينسى معه المؤلفين والجمهور ولا يعود يلتفت إلا إلى ذلك الحلم الوحيد الذي يستحوذ عليه مثل الجنون، دعني أقرأ هذه الورقة، وخذ كل المحاججات، والتواريخ والنقد. إن كل القيمة التي تمنح لفيتاغوراس، وبارسيلسوس، وكورنيليوس، وأغريبا، وكاردان، وكبلر، وسويدنبورغ، وشلنغ، وأوكين، أو سواهم ممن طرحوا حقائق مشكوكاً فيها في نظرياتهم، مثل الملائكة، والشياطين، والسحر، والتنجيم، وقراءة الكف، والتنويم المغناطيسي وغيرها، هي الشهادة التي لدينا عن الخروج على الروتين، وعلى وجود شاهد جديد. كما أنه النجاح الأفضل في المحادثة، سحر الحرية، الذي يضع العالم في

يدك مثل كرة. ما أرخص ما تبدو الحرية عند ذاك، وما أتفه الدراسة، عندما تستطيع عاطفة ما أن تمنح العقل القدرة على استيعاب الطبيعة وقلبها، وما أعظم تلك القدرة على الإستبصار! تدخل الأمم، والعصور، والأنظمة وتختفي مثل خيوط في سجادة كبيرة الحجم متعددة الألوان؛ يسلم الحلم للحلم، وعلى مدى ما تدوم السكرة، نبيع ونحن في عز الغنى فراشنا، وفلسفتنا، وديننا.

لدينا مبرر كاف لما يجعلنا نجل هذا التحرير. إن مصير الراعي المسكين الذي يهلك في عماه وضياعه وسط العاصفة الثلجية، على مسافة أقدام قليلة من باب كوخه يرمز إلى حالة الإنسان. فنحن نحتضر على نحو بائس، ونحن على حافة مياه الحياة والحقيقة. إن عدم إمكانية الوصول إلى أية فكرة باستثناء تلك التي نوجد فيها، أمر رائع. ماذا لو أنك اقتربت منها؛ ستظل في أشد نقاط اقترابك بعيداً كما كنت في أقصى بعدك عنها. كل فكرة هي أيضاً سجن؛ كل سماء هي سجن أيضاً. ولذلك نحب الشاعر المبتكر، الذي يقدم لنا فكرة جديدة في أية صيغة سواء في أغنية أو فعل أو مظهر أو سلوك. فهو يفك قيودنا ويدخلنا إلى مشهد جديد.

هذا التحرير عزيز على جميع البشر، وبما أنه لا بد أن يأتي من نكرة أشد عمقاً وأوسع مدى، فإن القدرة على منحه هي مقياس للفكر. ولهذا السبب تخلد جميع كتب المخيلة، كل تلك الكتب التي ترقى إلى تلك الحقيقة التي يرى الكاتب عندها الطبيعة تحته، ويستخدمها كمفسر له. إن كل بيت أو جملة لهما هذه الميزة سوف يضمنان خلودهما. فديانات العالم ليست سوى هتافات قلة من الرجال ذوي الخيال.

ألا أن سمة الخيال هي التدفق، لا التجمد. فالشاعر لم يتوقف عند اللون أو الشكل، إنما قرأ معناها؛ كما أنه لا يستطيع الإستراحة إلى ذلك المعنى، إنما هو يحول المواضيع نفسها إلى شرح لفكرته الجديدة. ذلك هو الفارق بين الشاعر والمتصوف، فالأخير يلصق الرمز بمعنى واحد، وهو المعنى الذي كان صحيحاً للحظة، إلا أنه سرعان ما أصبح قديماً وزائفاً لأن جميع الرموز متغيرة، واللغة انتقالية وتوصيلية، وهما مفيدان، كفائدة السفينة أو الحصان، من أجل التوصيل، وليس من أجل الاستقرار كما هي الحال بالنسبة للمنازل والحقول. ينطوي التصوف على الاشتباه بالرمز الفردي والطارئ واعتباره رمزاً كونياً. لقد كانت حمرة الشروق الشهاب المفضل في عين جاكوب بيهمن، وكانت تعني لديه الحقيقة والإيمان، وكان يعتقد أنها يجب أن

ترمز إلى الحقائق نفسها بالنسبة لجميع القراء. لكن من الطبيعي أن يفضل القارئ الأول رمز الأم والطفل، أو الجنائني وغرسه، أو الجواهري وهو يصقل جوهرة. كل صورة من هذه الصور، أو من الكثير غيرها، تعتبر ملائمة بنفس القدر بالنسبة للشخص الذي يجدها مهمة ولكن ينبغي أن لا يغالي في أهميتها، وأن تترجم بطواعية إلى المعاني المقابلة التي يستخدمها الآخرون. كما ينبغي إبلاغ المتصرف بانتظام. إن كل ما تقوله يظل صحيحاً مع استخدمك الرتيب لهذا الرمز أو دونه بدلاً من هذه الرموز القروية ـ وستعم الفائدة كلينا. يظهر تاريخ السلالات الحاكمة أن جميع الأخطاء الدينية قد انطوت على جعل الرمز صارخاً وصلباً جداً، فصار في النهاية مجرد زيادة في جسم اللغة.

يقف سويدنبورغ بشموخ، من بين جميع من عرفتهم العصور الأخيرة، كمترجم للطبيعة إلى أفكار. لا أعرف عن رجل في التاريخ بدت له الأشياء جاهزة للتحول إلى كلمات على هذا النحو. إن عملية الاستحالة متصلة الحدوث أمام عينيه. وكل ماتقع عليه عينه يذعن لدوافع الطبيعة المعنوية. يتحول التين إلى عنب حين يأكله. وعندما تؤكد ملائكته حقيقة ما، تزهر أغصان الغار التي تحملها بيدها. الضوضاء التي تبدو عن بعد صريراً وجلداً تتكشف عند الاقتراب منها عن صوت المتناحرين. والرجال في واحدة من رؤاه، يبدون في الضوء السماوي، تنانين غارقة في الظلمة، لكنهم في نظر بعضهم البعض رجال، وعندما يشرق النور القادم من السماء في كوخهم، يشكون من الظلام، ويرغمون على إغلاق النافذة لكي يتمكنوا من الرؤية.

إن لديه الإدراك الذي يجعل الشاعر أو الناظر مادة للرهبة والرعب، وهو أن الرجل الواحد، أو مجموعة الرجال يمكن أن يظهروا بمظهر معين لأنفسهم ولرفاقهم، وبمظهر آخر للأشخاص من ذوي المستويات الأعلى من الذكاء. بعض الكهنة، الذين يتبادلون فيما بينهم حواراً عميق المعرفة، يبدون للأطفال الذين كانوا على مسافة منهم مثل خيول ميتة، ولديه الكثير من مثل هذه الإلتباسات في المظهر. إن الذهن ليتساءل على الفور عما إذا كانت تلك الأسماك تحت الجسر، أو تلك الثيران في المرعى، أو تلك الكلاب في الفناء، هي حقاً أسماك، وثيران، وكلاب، أم أنها تبدو لي كذلك، في حين تبدو لنفسها أنساساً منتصبي القامة؛ وعما إذا كنت أبدو إنساناً في جميع العيون. طرح فيتاغوراس والبراهمة السؤال نفسه، وعما إذا كان أي شاعر قد شهد التحول الذي اعتبره دون

شك منسجماً مع التجارب المختلفة. نحن جميعاً نشهد تغيراً ملموساً في القمح وفي اليرقات. إنه شاعر يرى من خلال الرداء المتهدل الطبيعة الصلبة وبوسعه أن يعلنها، ويجذبنا إليه بالحب والرعب.

أفتش عبثاً عن الشاعر الذي أصف. إننا لا نقدم أنفسنا للحياة بالبساطة الكافية أو العمق الكافي، كما أننا لا نجرؤ على امتداح زماننا وظرفنا الاجتماعي. فإن كان لنا أن نملأ اليوم بالشجاعة، فإن علينا أن لا نحجم عن الإحتفاء بذلك. الزمن والطبيعة يمنحاننا الكثير من الهبات، لكنهما لم يأتيا بعد بالرجل المناسب، الدين الجديد، الموفق، الذي تنتظره الأشياء جميعاً. إن حسنة دانتي في كونه قد جرأ على كتابة سيرته الذاتية بحروف جسيمة، أو أنه أدخلها الكونية. نحن لا نملك بعد في أمريكا العبقري، الذي ينظر بعين الطاغية، تعرف قيمة موادنا التي لا تضاهى، ويرى في همجية ومادية العصر، كرنفالاً آخر لنفس الآلهة التي يعجب كثيراً بصورتها لدى هوميروس؛ ثم في العصور الوسطى، ثم لدى الكالفينية. إن المصارف والتعريفات، والصحف والمؤتمرات الحزبية، والكنائس الميثودية والموحدة تبدو للأشخاص المتبلدين متبلدة وعديمة النكهة، لكنها تقوم على نفس الأسس العجائبية التي قامت عليها مدينة مثل طروادة ومعبد مثل معبد دلفي، وهي مثلها في سرعة زوالها. إن دحرجة الخشب لدينا، وخطباءنا وسياستهم؛ ومسامكنا، وزنوجنا وهنودنا، وزورارقنا ومظاهر رفضنا، حنق الأوغاد وجبن الطيبين، تجارة الشمال، وزراعة الجنوب، وإزالة الغابات في الغرب، أوريغون وتكساس، ما تزال جميعاً غير مغناة. ومع ذلك، فإن أمريكا قصيدة في نظرنا؛ تسحر جغرافيتها المترامية المخيلة، وهي لن تنتظر القافية طويلاً. فإن لم أجد ذلك المزيج الممتاز من المزايا الذي أبحث عنه في أبناء وطني، فإنني لن أستطيع أن أعين نفسي على تحديد فكرة الشاعر بالقراءة بين حين وآخر في مجموعة تشالمر لخمسة قرون من الشعراء الإنجليز. فهؤلاء كانوا مفكرين أكثر منهم شعراء، رغم وجود شعراء بينهم. لكننا عندما نتمسك بنموذجنا المثالي للشاعر، فإننا سنجد الصعوبات حتى في حالة ميلتون وهوميروس. فميلتون أدبي أكثر من اللازم، وهوميروس مفرط في حرفيته وتاريخيته.

الفن هو سبيل المبدع إلى عمله. والسبل والأساليب مثالية وأبدية، رغم أن قلة من الناس تراها، حتى الفنان نفسه الذي ينفق سنوات أو عمراً كاملاً دون أن يراها، حتى تتسنى له الظروف. الرسام، والنحات، والموسيقي، ومنشد الملاحم، والخطيب يحملون

جميعاً رغبة واحدة، ألا وهي التعبير عن أنفسهم بتساوق وغزارة، وليس بصورة مقزمة ومجتزأة. إنهم يجدون ظروفاً معينة أو يضعون أنفسهم في مثل تلك الظروف كما يفعل الرسام أو النحات حين يضع نفسه أمام شكل إنساني مؤثر، والخطيب وسط حشد من الناس، والآخرون في مشاهد يجدها كل منهم مثيرة لفكرة؛ فيحس كل واحد منهم على الفور بالرغبة الجديدة إنه يسمع صوتاً، ويرى إشارة يدرك، وسط تعجبه، أية أفواج من الشياطين توسوس له. لا يعود يعرف الراحة؛ فيردد مع الرسام القديم، «يا للّه إنه في داخلي، وينبغي له أن يخرج مني». إنه يتبع جمالاً نصف مرئي، يهرب من أمامه بدون شك، لكنه يقول بين الحين والآخر شيئاً أصيلاً وجميلاً. يفتنه ذلك. لا يريد أن يقول إلا أشياء كهذه. في كلامنا اليومي نقول، «هذا خاصتك، وهذا خاصتي؛» لكن الشاعر يعرف جيداً أن ذلك ليس خاصته، وأنه غريب عليه وجميل لديه كما هو غريب وجميل بالنسبة لك؛ وإنه ليسره أن يسمع تلك الفصاحة مطولاً. فما أن يتذوق مرة ذلك الشراب الخالد، حتى لا يعود يشبع منه، ولما كانت تلك الأفكار تنطوي على قوة خلاقة باهرة، فإن النطق بها أمر ضئيل الأهمية. ما أصغر الجزء الذي يقال من بين ما نعرف! أية قطرات من مجموع بحر علومنا تلك التي تجمع! وأية مصادفة تكشف عن هذه القطرات، في حين تظل الأسرار العديدة نائمة في خلد الطبيعة؟ من هنا تأتي ضرورة الكلام والغناء؛ ومن هنا يأتي ذلك الخفق ونبض الفؤاد لدى الخطيب، عند باب الجمعية، الذي يحمله إلى غايته وهي انبثاق الفكرة على شكل لغة أو كلمة.

لا تشك أيها الشاعر، وامض في اصرارك. قل «إنه فيّ ولا بد أن يخرج». ولتقف هناك، عاجزاً وأبكم، مغمغماً ومتلعثماً، يصفر لك ويبوّق لك، قف وناضل، وحتى يستطيع الحنق أخيراً أن يخرج منك تلك القوة ـ الحلم التي تريك إياها الليالي على أنها قوتك؛ قوة تتجاوز كل حد وحرم، والتي يصبح بها الرجل موجهاً لكامل نهر الكهربائية. ما من شيء يسير، أو يزحف، أو ينمو، أو يوجد إلا ويقف أو يسير أمامه كمفسر لمعناه. فما أن يصل إلى تلك القوة، حتى لا تعود عبقريته قابلة للاستنفاد. تتدفق كل الكائنات أزواجاً أو قبائل إلى دماغه كما تدفقت إلى فلك نوح من أجل أن تخرج منه لتملأ عالماً جديداً. إنها مثل كمية الهواء اللازمة لتنفسنا أو لإشعال النار في موقدنا؛ ليست كمية تقاس بالغالونات، إنما بالجو كله. ولهذا السبب نرى أن الشعراء الأثرياء مثل هوميروس، وتشوسر، وشكسبير، ورافائيل لا يعرفون حداً لأعمالهم سوى حدود

أعمارهم، وهم يشبهون مرآة محمولة في شارع، على استعداد لتقديم صورة لكل شيء قائم.

أيها الشاعر! إن نبالة جديدة قد حلت في البساتين والمراعي، ولم تعد تحل في القلاع وحد السيف. الظروف شاقة، لكنها تكفل المساواة. ولسوف تغادر العالم، وأنت لا تعرف سوى الشعر. ولسوف لن تعرف بعد العصر، أو العادات، أو الحسن، أو السياسة، أو آراء الناس، إنما ستأخذها جميعاً عن الشعر. لأن العالم يعد عمر المدن بالقرع الجنائزي، أما في الطبيعة فإن الساعات الكونية تحسب بقبائل الحيوان والنبات المتلاحقة، وبنمو الغبطة فوق الغبطة. الرب أيضاً يريد لك أن تتخلى عن حياة مركبة ومتعددة الوجوه، وأن تقنع بكون الآخرين يتحدثون نيابة عنك. آخرون سوف يكونون رجالك وسوف يمثلون نيابة عنك كل المجاملة والحياة الدنيوية، وآخرون سوف يقومون بالأعمال العظيمة والباهرة كذلك. ولسوف تثوي مخبئاً في كنف الطبيعة، ولن يكون بالإمكان تقديمك لمبنى الكابيتول أو البورصة. إن العالم مليء بنكران الذات وفترات التدريب، وهذه هي فترتك، عليك أن تتصرف كأحمق وكأنسان فظ على مدى موسم طويل. هذا هو الغطاء والغمد الذي صان فيه «بان» زهرته المحبوبة، ولسوف لن يعرفك سوى خاصتك، وهم الذين سيواسونك بأرق الحب. وسوف لن تكون قادراً على ترديد أسماء أصدقائك في شعرك، لخجلك القديم أمام مثالك الأعلى المقدس. وستكون مكافأتك هي أن المثال سيصبح حقيقة بالنسبة لك، وأن انطباعات العالم الحقيقي سوف تتساقط مثل مطر الصيف، غزيرة، ولكنها غير مزعجة لجوهرك غير القابل للضرر وستكون لك الأرض كلها منزلاً وساحة، والبحر مكاناً لاستحمامك وإبحارك، بدون جهد وبدون غيرة؛ ولسوف تصبح الغابات والأنهار ملكاً لك، ولسوف تمتلك ما يعتبر الآخرون مجرد نزلاء ومستأجرون له. فأنت المالك الحقيقي. وأنت سيد الأرض، والبحر والهواء! فحيثما ينزل الثلج أو يتدفق الماء أو تحلق الطيور، وحيثما يلتقي النهار بالليل عند الغسق، وحيثما توجد أشكال ذات حدود شفافة، وحيثما توجد منافذ إلى الفضاء السماوي، وحيثما يكون الخطر، والذعر، والحب - يوجد الجمال، غزيراً كالمطر، منسكباً من أجلك ولو أنك قطعت العالم مشياً، لما استطعت أن تجد ظرفاً غير ملائم أو خسيس.

١٤

التجـــربة

أين نجد أنفسنا؟ في تتابع لا نعرف نهاياته، ونعتقد بأن لا نهاية له. نستيقظ فنجد أنفسنا على سلم، ثمة سلالم تحتنا، يبدو أننا قد ارتقيناها، وثمة سلالم فوقنا، الكثير منها، تمتد صاعدة إلى أبعد مما يبصر النظر. لكن الجاني الذي يقول المعتقد القديم أنه يقوم على حراسة الباب التي دخلنا منها، والذي يقدم لنا شراب النسيان لنتناوله، فلا نعود نروي الحكايات، قد كزج لنا كأساً قوية، وها نحن في وقت الظهيرة لا نزال غير قادرين على التخلص من النعاس. يعلق النوم بعيوننا طوال الحياة، كما يحوم الليل طوال اليوم في أغصان شجر التنوب. كل الأشياء تعوم وتلمع. ليست حياتنا هي المهددة بل إدراكنا فنحن ننزلق خلال الطبيعة كالأشباح، وينبغي علينا أن لا نتعرف على مكاننا ثانية. هل جاءت ولادتنا في اثناء نوبة تقتير وعوز في الطبيعة حيث كانت شحيحة جداً بنارها وسخية جدا بترابها مما جعلنا نبدو في افتقار للمبدأ الايجابي، فنحن رغم حيازتنا للعافية والعقل، لا نملك ذلك الفائض من الروح اللازم للخلق الجديد؟ لدينا ما يكفي للعيش ومواجهة احتياجات العام، ولكن ما في أونسة واحدة للاستثمار أو المنح. آه لو أن عبقريتنا امتلكت المزيد من العبقرية! فنحن مثل أصحاب الطواحين عند المستويات الأدنى من المجرى، حيث يكون أصحاب المصانع في أعلى النهر قد استنفدوا ماءه. فنحن، مثلهم، نظن أن الناس الذين في الأعلى قد أقاموا السدود.

آه لو كان لأي منا أن يعرف ما يفعل، أو إلى إين هو ذاهب، أو متى يظن بأنه على دراية أفضل! نحن لا نعلم اليوم إذا كنا مشغولين أم عاطلين. نكتشف لاحقاً أن الفترات التى تصورناها عاطلة، شهدت انجاز الكثير وأن الكثير قد ابتدأ بداخلنا في اثنائها. جميع أيامنا غير مفيدة أثناء مرورها، مما يجعلنا نعجب للزمان والمكان الذي حصلنا فيه على تلك الأشياء التى ندعوها بالحكمة، والشعر، والفضيلة. فنحن لم نحصل عليها خلال أي يوم محدد في التقويم. لا بد أن أيامنا سماوية قد اضيفت في موقع ما، مثل تلك التي ربحتها هيرمس في لعبة الزهر مع القمر لكي يتاح لأوزيريس أن يولد. يقال أن الاستشهاد يبدو عادياً في وقت مكابدته وكل سفينه هي موضوع رومانسي، باستثناء

تلك التي نبحر فيها. انزل منها، وسوف تفارق الرومانسيه مركبنا وتعلق بكل شراع آخرفي الافق. تبدو حياتنا تافهة، ونأنف من تسجيلها. يبدو أن البشرقد تعلموا من الافق فن التراجع والإحالة الدائمين.

«هناك في الاعالي مراع غنيه، ولجاري سهل خصب، لكن حقلي لادورله سوى الوصل بين طرفي العالم». هكذا يقول المزارع النكد. تجدني أكرر ما يقوله الشخص الآخر، ولسوء الحظ فإن ذلك الآخر يتبع الطريق نفسه، فيكررني. إنها حيله من الطبيعة تهدف إلى الحط من اليوم الراهن وتثير كمًا كبيراً من الطنين، ثم تدس بطريقة سحرية حاصلاً ما في مكان ما. كل سقف يبدو مناسباً للنظر حتى يرفع، عندها نرى المأساة، نساء يتآوهن، وأزواج بعيون قاسيه، وطوفان من مياه نهر النسيان، ويتساءل الناس:«ما هو الجديد؟ » كما لو أن القديم كان بالغ السوء، أي عدد من الافراد يمكن أن نحصيهم في مجتمع ما؟ كم عدد الفعال؟ كم عدد الآراء؟ الكثير من وقتنا استعداد، والكثير منه روتين، والكثير منه نظر إلى الوراء، بحيث أن زبدة عبقرية كل فرد منا تنكمش إلى ساعات قليله جداً. خذ المحصله النهائيه عند تيرابوشي أو د. آرتون، أو شليغل- وستجد أن تاريخ الأدب هو حاصل جميع عدد قليل من الامكار وعدد قليل جدا من الحكايات الاصيله؛ وكل ما تبقى ليس سوى تنويعات على تلك. كذلك الامر بالنسبه لتحليل النقدي الذي لا يجد في هذا المجتمع الواسع الممتد من حولنا سوى القليل جداً من الافعال العفويه، فهو يكاد يكون بمجموعه عادات وإحساساً بدائياً. هناك أيضا قلة من الآراء. لكنها تبدو خاصه بالمتحدث، وهي لا تخل بالضرورة الجماعية.

أي أفيون مبثوث في كل أنواع المصائب! إنها تبدو هائلة عند التقويم نحوها، ولكن ليس هنالك في النهايةه أي احتكاك خشن قاشط إنما سطح زلق جداً، نسقط بعده برفق على فكرة

تخطر عالياً فــوق رؤوس الرجــال
بقدمين رقيقتين تخطوان بنعومة

يحزن الناس ويندبون حظهم، لكن الامور معهم ليست على نصف المستوى السوء الذي يدعون. هنالك حالات نغازل فيها المعاناة، على أمل أن نجد فيها الحقيقة، ونلتقي بحافات الصدق وقممه الحاده. لكن يظهر في النهاية أن الامر لا يعدو التزييف ورسم المشاهد. إن أول شيء علمني إياه الحزن هو كونه ضحلاً جداً. وأنه مثل بقية الاشياء

جميعاً، يتحرك بالقرب من السطح، وليس بوسعه أبداً أن يقودني إلى الحقيقة، التي لا نتوانى عن بذل الأبناء والاحبة ثمنا باهظاً لملامستها. أهو بوسكوفيتس الذي اكتشف أن الاجسام لاتتلامس أبداً؟ حسن، ان الأرواح لا تلامس أبداً مواضيعها فثمة بحر غير قابل للملاحة يباعد في موجات صامتة بينناوبين الاشياء التي نتطلع إليها ونتحاور معها كما أن الحزن يجعلنا مثليين. بوفاة ولدي التي مرت عليها الان سنتان، بدا كما لو انني قد فقدت عقاراً جميلاً – لا اكثر. ليس بوسعي أن أقربه مني أكثر من ذلك لو أنني أبلغت في الغد عن إفلاس دائني الرئسيين، فإن فقدان ملكيتي ربما يظل مصدر إزعاج لي على مدى سنوات، لكن ذلك سيتركني على الحال التى وجدنى فيها، لا أفضل ولا أسوأ. كذلك الأمر بالنسبة للفجيعة، فهي لا تمسني، شيء كنت أحسه جزءاً مني، لا يمكن انتزاعه دون تمزيقى ولا يمكن نموه بدون إثرائي ، يسقط مني ولا يترك ندبة لقد كان سقوطه مبكراً. يحزنني أن الحزن ليس بقادر أن يعلمني شيئاًولا أن يقربني خطوة من الطبيعة الحقيقية. إن الهندي الذي حلت عليه اللعنة فجعلت الماء لا يجري نحوه، والريح لا تهب عليه، والنارلا تحرقه، هو نموذج لنا جميعاً. أحب الحوادث مطر الصيف، ونحن معاطف يارا التي تمنع كل قطرة. لم يترك لنا من شيء الان سوى الموت. ونحن ننتظر اليه بارتياح مقطب، قائلين، ذلك على الاقل حقيقة لن تراوغنا.

اعتبر تسرب الاشياء وسرعة زوالها، وهي ما يجعلها تنزلق من بين أصابعنا كلما أطبقنا عليها بشدة أكبر، الجزء الأكثر قبحاً في ظرفنا. الطبيعة لا يعجبها أن ترصد، ويعجبها أن نكون تسليتها ورفاق لعبتها. بوسعنا أن نحصل على العالم ميداناً لكرة الكريت التى نلعبها، ولكن ليس لنا أن نحصل على توتة من أجل فلسفتنا. إنها لا تسمح لنا بتسديد ضربات مباشرة، كل ضرباتنا تطيش. وكل إصابتنا مصادفة.وعلاقاتنا مع بعضنا البعض عابرة وغير مباشرة.

يسلمنا الحلم للحلم، ولا توجد نهاية للوهم. الحياة قطار من الحالات المزاجية المتماثلة، مثل عقد من الخرز، تنبدى عندما نمر بكل واحدة منها مثل عدسات متعددة الألوان، تلون العالم بلونها، ولاتظهر الواحدة منها ألا ما هو موجود في بؤرتها. من الجبل نرى الجبل. ونملأ بالحياة المساحة التي نستطيع، ولا نرى إلا ما نفخناه من الحياة.الطبيعية والكتب تنتمي الى العين التي تراها. وعلى مزاج الانسان تتوقف قدرتة على رؤية الغروب أو القصيدة الرائعة. هناك دائما أوقات غروب، وهنالك دائما عبقرية،

لكننا لا نستطيع أن ننعم بالطبيعة أو النقد إلا في ساعات رائعة قليلة. فالزيادة والنقصان يتوقفان على البنية أو المزاج والمزاج هو الخيط المعدني الذي ينظم الخرز. إذا ما عسى أن تعنيه الثروة أو الموهبة بالنسبة للطبع الكليل البارد؟ ومن ذا الذي يكثر للإحساس أو التميز الذي أبداه في وقت ما رجل يغفو نائما في كرسيه؟ أو لكونه قد ضحك وقهقه؟ أو اعتذر؟ أو عانى من الأنانية؟ أو تركز تفكيره في نقوده؟ أو عجز عن تذوق الطعام؟ أو أنجب طفلاً في صباه ما الذي تجديه العبقرية، إذا كانت العدسة شديدة التحدب أو التقعر وعجزت عن أن تجد لها مساحة بؤرية ضمن الافق الفعلي للحياة الإنسانية؟ ما الذي تجديه، إذا كان الذهن أبرد أو أسخن من اللازم، وإذا كان المرء لا يكترث للنتائج بما يكفي لتحفيزه باتجاه التجربة، ولترسيخه فيها؟ أو إذا كان النسيج رقيقاً جداً وشديد التأثر باللذة والألم، إلى حد يجعل الحياة تتعفن من كثرة ما تتلقّى من مؤثرات لا تجد لنفسها التنفيس اللازم؟ أو ما جدوى تبجيل الاصلاحات، إذا كان المسؤول عنها سيظل نفس الشخص القديم الذي عرف بانتهاك القانون؟ أية بهجة يمكن للاحساس الديني أن يجلبها إذا ما اعتقد المرء أن ذلك الإحساس يتوقف على نحو مبهم على فصول السنة وعلى حالة الجسم؟ لقد عرفت طبيبا وجد علة المذهب الديني في قناة الصفراء، وكان يفكر أن الشخص يصبح كالفينياً إذا كان يشتكي من مرض في كبده، ويتبع الكنيسة التوحيدية عندما يكون كبده سليماً. من المؤلم تتبع التجربة التى تثبت أن شيئاً من الافراط أو الغباوة يمكن أن يقضي على الوعد بالعبقرية. نرى شبانا يدينون لنا بعالم جديد، ويعدوننا بسخاء واستعداد، لكنهم لا يوفون دينهم، فيموتون في عمر الشباب متهربين من الحساب، أو يعيشون ليضيعوا أنفسهم وسط الحشد .

تتدخل الحالة المزاجية، أيضاً في نظام الأوهام وتحبسنا في سجن من زجاج لا نراه. هنالك وهم بصري يلازم كل فرد نلتقيه. فهم جميعاً، في حقيقة الأمر، مخلوقات ذات أمزجة محددة، تتبدى في شخصية محددة، لا يستطيعون ابداً تجاوزها، لكننا حين ننظر إليهم يبدون أحياء، فنفترض أن فيهم دوافع حيوية. إن ما يبدو في تلك اللحظة دافعاً يظهر على مدى سنة أو عمر كامل نوعاً من النغم الموحد الذي تعزفه الماسورة الدائرة في الصندوق الموسيقى. يقاوم الناس في الصبح ثم يتبنون في المساء الاستنتاج القائل بأن المزاج يهيمن على كل شيء في الزمان، والمكان والظرف. وأن لهيب الديانة لا

يأتي عليه.هنالك بعض الفائدة الناجمة عن فرض بعض التعديلات التي يأتي بها الاحساس الاخلاقي، لكن النسيج الفردي يحافظ على هيمنته، إن لم يكن في حرف الحكم الاخلاقي، ففي تحديد مقياس النشاط والاستمتاع.

بهذا أكون قد عبرت عن القانون كما يتلى علينا من منصة الحياة المعتاده، ولكن علي أن لا أغادر دون الاشارة إلى الاستثناء الكبير. فالمزاج قوة لا يمتدحها سوى الشخص نفسه. على منصة الفيزياء لا يستطيع المرء أن يقاوم الثأثيرات القابضة لما يدعوا بالعلم. تلحق المزاجية الهزيمة النكراء بكل الأشياء المقدسة. إنني أعرف النزاعات الفكرية لعلماء الفيزياء. واسمع الضحك الخافت لعلماء الفراسة. **إنهم** المختطفون النظريون وسائقوا العبيد الذين يعتبرون كل إنسان ضحية الانسان الآخر، الذي يستطيع أن يلفه حول اصبعه عن طريق معرفة القوانين التي تحكم وجوده، والذين يقرأون، من خلال الرقاع المبتذلة للون اللحية أو انحدار الجمجمة سجل شخصيته ومقدراته. إن أشد أنواع الجهل المطبق لا تثير من الاشمئزاز ما يثير هذا التعالم الصفيق. يقول علماء الطيبعة أنهم ليسوا ماديين لكنهم كذلك فالروح هي مادة في أقصى حدود الرهافة. لكن تعريف «الروحاني» - يجب أن يكون «الشيء الذي يقدم برهان نفسه». أية أفكار نلصقها بالحب! وبالديانة! إن المرء ليحجم عن لفظ تلك الكلمات على مسامع الحب والديانة، ومنحها الفرصة لتدنيسها. رأيت جنتلماناً رقيقاً يكيف محاورته لشكل رأس الشخص الذي يحادثه! لقد تخيلت أن قيمة الحياة تكمن في احتمالاتها الغامضة؛ وفي أنني أثناء تقديم نفسي لشخص جديد لا أعرف أبداً ما الذي يمكن أن يحصل لي إنني أحمل مفاتيح قلعتي، وأنا مستعد لإلقائها عند قدمي مولاي، متى ما ظهر وتحت أي قناع. أعلم أنه في الجوار، متخفياً بين الدهماء. فهل لي أن أمنع حدوث مستقبلي عن طريق اعتلائي موقعاً عالياً وتكييف حديثي بنعومة تبعاً لأشكال الرؤوس؟ لوانني انهيت إلى ذلك لارتفعت قيمتي لدى الأطباء. «ولكن، ياسيدي، التاريخ الطبي، تقدير المعهد، الحقائق المتثبتة!» -إني لا أثق بالحقائق ولا الاستنتاجات. إن المزاج هو الفيتو أو القدرة المحدة في البدن، وهو يستخدم بشكل مشروع لتقييد الافراط المضاد في البدن، لكن استخدامه يصبح سخيفاً عندما يستخدم كعائق للتوازن الأصيل. عندما تحضر الفضيلة، تنام كل القوى الثانوية ويعتبر المزاج نهائيا تبعاً لمقياسه الخاص، أو في نظر الطبيعة. فإن ما سقط المرء في فخ ما يدعى بالعلوم، فإنني

رى له مهرباً من روابط سلسلة الضرورة الفزيائية. باعتماد مثل هذا الجنين، لا بد لمثل هذا التاريخ أن يتبع. تبعاً لهذا المنهج، يعيش المرء في زريبة من الحسية، وسريعاً ما ينتهي إلى الانتحار. لكن من المستحيل على القوة الخلاقة أن تستبعد نفسها. ففي كل ذهن ثمة باب لا يغلق أبدا، ينفذ من خلاله الخالق، إن الذهن، الباحث عن الحقيقة المطلقة، والقلب، المحب للخير المطلق، يتدخلان من أجل إسعافنا، بهمسة واحدة من هذه القوى العليا نستفيق من صراعنا غير المجدي مع هذا الكابوس. فنلقيه في حجمه الخاص، ولا نعود إلى ربط أنفسنا بمثل هذه الخالة الوضيعة.

إن سر التوهمات هو في ضرورة حدوث تتابع في الامزجة أو الأشياء سوف يسرنا أن نلقي مرساتنا، لكن المرسى رمال متحركة. هذه الحيلة المستمرة من جانب الطبيعة آقوى من ان نغلبها. عندما أنظر ليلاً إلى القمر والنجوم، أبدو ثابتاً، وهي التي تتحرك بسرعة. إن حبنا لما هو حقيقي يجذبنا نحو الثبات، لكن صحة البدن في الدوران، وسلامة العقل في تنوع الارتباط أو سهولته. نحتاج إلى تغيير المواضيع. فالانكباب على فكرة واحدة سرعان ما يصبح بغيضاً. نحن نسكن مع غير العقلاء وعلينا أن نسليهم، عندها يموت الحوار. مرة ابهجني موتنان إلى الحد الذي حسبت معه أنني لن أحتاج إلى كتاب آخر، وقبله حدث لي الشيء نفسه مع شكسبير، ثم مع بلوتارك، ثم بلوتبنوس، ومرة مع بيكون، وبعدها مع غوته، وحتى مع بيتيل، لكنني الآن، رغم استمتاعي بعبقريتهم، أقلب صفحات كل منهم على ونى. كذلك الامر بالنسبة للصور. فكل واحدة تحمل مرة تأكيد للاهتمام، لانستطيع الاحتفاظ به، رغم أننا نود لو استمر لكي يمنحنا نفس الثقة. لشد ما هزتني الصور إلى الحد الذي يتوجب عليك أن تودع الصورة التي تراها جيدة، لانك لن تراها ثانية. لقد تلقيت دروساً بليغة من تلك الصور التي صرت أنظر اليها فيما بعد دون عاطفة أو أثر. لا بد من اقتطاع جزء من الرأي الذي يعرب عنه حتى الحكماء إزاء كتاب أوحدث جديد. إن رأيهم يعطيني فكرة عن مزاجهم، وتخميناً غير واضح بشأن الحقيقة الجديدة، لكنه لا يمكن ان يوثق به كعلاقة دائمة بين ذلك الذهن وذلك الشيء. يسأل الطفل أمه « لماذا لا تعجبني القصة كما أعجبتني عندما قصصتِها لي أمس » وا حسرتاه! أيها الطفل، إن ذلك يحدث حتى لاقدم ملائكة المعرفة عمراً. ولكن هل يفيدك كجواب أن يقال لك «لأنك قد ولدت ككل وهذه القصة ليست سوى جزء»؟ إن سبب الألم الذي يحدثه فينا هذا الاكتشاف «الذي نصل إليه متأخرين

في حالة النتاج الفكري والفني» يكمن في التفجع من المأساة الكامنة فيه عندما يتعلق الأمر بالاشخاص، والحب.

إن الجمود وانعدام المرونة الذين نجدهما في الفنون، نعثر عليهما بألم أكبر- لدى الفنان. ليس ثمة من قدرة على التوسع لدى البشر. سرعان ما يظهر لنا ان اصدقاءنا ممثلين لافكار معينة لا يستطيعون مغادرتها أوتجاوزها. إنهم يقفون عند حافة محيط الفكر والقدرة لكنهم لا يخطون أبداً الخطوة التي تنقلهم إلى داخله. إن الانسان يشبه نوعاً ما معدن لابرادور، الذي لا يظهر بريقاً وأنت تقلبه بيدك حتى تصل إلى زاوية معينة، فيبدي لك الألوان العميقة والجميلة. ليس لدى البشر تكيف أو طريقة عامة للاستخدام، لكن كل واحد منهم موهبته الخاصة، ويكمن تفوق الاشخاص الناجحين في الدقة التي يحافظون بها على انفسهم في المكان والزمان المناسب لظهور ذلك البريق أكبر عدد من المرات. نحن نفعل ما يتوجب علينا فعله وندعوه بأفضل النعوت، ونرغب في أن ننال الاطراء على كون النتائج الناجمة عن ذلك كانت مقصودة من قبلنا. ليس بوسعي أن أستشهد بأي نوع من الرجال لا يكون فائضاً عن الحاجة في بعض الأحيان. ولكن ألا يدعو ذلك للأسف؟ فالحياة لا تستحق المجهود ولا ممارسة الحيل.

إن الأمر يحتاج بالتأكيد إلى المجتمع من أجل إعطاء التناسق الذي نسعى إليه فالعجلة الملونة ينبغي أن تدور بسرعة كبيرة كيما تبدو بيضاء. كما أن شيئاً ما يكتسب من التعامل مع كل هذه الحماقة والعيوب. وفي النتيجة، وبغض النظر عمن يكون الخاسر، فنحن على الدوام الجانب الرابح. فالسماء تقف وراء حماقاتنا واخفاقاتنا أيضاً. إن ألعاب الأطفال ترهات، لكنها ترهات تربوية جداً. كذلك الأمر بالنسبة للأشياء الأكبر والأكثر رصانة، مثل التجارة، والحكومة والكنيسة، وكذلك هو الامر في حالة الخبز الذي يأكله كل انسان، والطرق التي توصله إليه. مثل الطائر الذي لايحط في أي مكان، إنما يقفز باستمرار من غصن إلى غصن، كذلك القدرة التي لاتحل في أي رجل أو امرأة إنما تنطلق عن هذا لحظة، وعن ذاك في اللحظة الأخرى.

لكن ما جدوى هذه البهرجات والحذلقات؟ أية جدوى للفكرة؟ فالحياة ليست ديالكتيك. أحس أننا في هذه الاوقات قد حصلنا على ما يكفي من الدروس بشأن فائدة النقد. لقد فكر شبابنا وكتبوا الكثير حول العمل والاصلاح، ولكن كل ما كتبوه لم يحمل العالم ولم يحملهم خطوة واحدة إلى أمام. إن التذوق الفكري للحياة سوف لن يتفوق

على النشاط العضلي.ولو فكر أي إنسان في تفاصيل عبور قطعة الخبز في بلعومه لمات من الجوع. في «حقل التربية» تحل أنبل النظريات عن الحياة على أنبل الأشكال من الشبان والفتيات حزينة وعديمة القدرة. فهي لن تذرو طناً من القش، ولن تعتني بحصان، كما انها تترك الشبان والفتيات شاحبين وجياعاً.لقد قارن خطيب سياسي بذكاء بين وعودنا الحزبية والطرق الغربية التى تبدأ مهيبة، تنتصب على جانبها الاشجار لتغري المسافر، لكنها سرعان ما تضيق وتنتهي إلى ممرات للسناجب تقود إلى أعالي الاشجار. كذلك تفعل الثقافة بنا، فهي تنتهي إلى الصداع. إن الحياة تبدو خاوية وحزينة إلى حد لا يمكن التعبير عنه بالنسبة لأولئك الذين كانوا قبل شهور قليلة مبهورين ببهاء وعود الزمان. «لم يعد الأن أي نهج قويم للعمل ولا أي اخلاص ذاتي لدى الايرانيين» اعتراضات ونقد حصلنا منهما على ما يكفي. ثمة اعتراض على أي منهج للحياة والعمل، والحكمة العملية. نستنتج نوعاً من عدم الاكتراث، من الحضور الدائم للاعتراض. إن كامل إطار الأشياء يعظ بعدم الاكتراث. لا تخبل نفسك بالتفكير، بل إمضى لشأنك إلى إي مكان. فالحياة ليست فكرية ولا نقدية، إنما هي ثابتة. وثمارها الطيبة للأشخاص حسني الاختلاط الذين يستمتعون بما يجدون، بدون تساؤل .تكره الطبيعة التلصص، وتعبر أمهاتنا عن هذا المعنى عندما يلقن «ايها الأطفال،كلوا طعامكم، ولا تقولوا المزيد عنه.» أن تملأ ساعتك، تلك هي السعادة – أن تملأ ساعتك ولا تترك ثغرة للندم أو الاستحسان إننا نعيش وسط مسطحات، وفن الحياة الحقيقي هو التزلج فوقها على نحو جيد. تحت أقدم الأعراف واعتقها، يحرز الإنسان ذو القدرات الأولية نفس النجاح الذي يتحقق في العالم الأكثر حداثة، حيث يتم ذلك بالتعامل والمعالجة. بوسعه أن يثبت في اي مكان. الحياة نفسها مزيج من القدرة والشكل، وهي لن تتحمل أية زيادة لأحدهما على الأخر. إن تنهي اللحظة، أن تجد غاية الرحلة في كل خطوة على الطريق، أن تحيا أكبر عدد من الساعات الطيبة، تلك هي الحكمة. ليس من دور الانسان، أنما هو دور المتعصب أو عالم الرياضيات، إن شئت، أن يقول أن قصر الحياة يجعل من غير المجدي أن نهتم بما إذا كانت هذه الفترة القصيرة سوف تنقضي في الزحف في الحاجة أو احتلال المواقع العليا. فما دامت علاقتنا مع اللحظات، فإن علينا أن نرعاها. إن خمس دقائق اليوم تساوي لدي خمس دقائق في الألفية القادمة. دعنا نكن متزنين، وحكماء ومخلصين لأنفسنا، اليوم. دعنا نعامل النساء والرجال على نحو

طيب، نعاملهم كما لو كانوا حقيقيين ، فربما هم كذلك. يعيش البشر في خيالاتهم، مثل السكارى الذين لا تقدر يدهم المرتعشة والمرتخية على أداء عمل ناجح. إنها عاصفة من الخيالات، والمثبت الوحيد أعرفه احترام الساعة الراهنة. وسط هذاالدوار من العروض والسياسات أرسخ نفسي، دون أي ظل من شك، في الاعتقاد بأن علينا أن لا نؤجل، ونحيل، ونتمنى، إنما أن نحقق العدالة الواسعة حيثما كنا، ومع اي شخص نتعامل معه، متقبلين رفاقنا الفعليين وظروفنا الفعلية مهما كانت متواضعة أو بصفتهم الأدوات الغامضة التى تنقل الينا كل بهجة العالم. فإذا ما كانوا وضيعين وخبيثين، فإن رضاهم، الذي يمثل آخر انتصار للعدالة، هوصدى أعذب للفؤاد من صوت الشعراء، والتعاطف العابر للأشخاص موضع التقدير. أعتقد أن الانسان المتمحص مهما عانى من نقائص وسخافات صحبته، فإنه لا يستطيع أن ينكر، دون تصنع منه، أمام أية مجموعة من الرجال والنساء تحسسه لسرور غير عادي. لدى الأشخاص المبتذلين والعابثين غريزة التعالي، إن لم يكن لديهم شيء من التعاطف وهم يجلبون هذه الغريزة باحترام مخلص وبطريقة عمياء.

يزدري الشبان الراقون الحياة، لكني أعتقد انها مغالاة في التهذيب أن نبدي الازدراء، ونطلب الصحبة. إن التعاطف يجعلني متلهفاً وعاطفياً بعض الشيء، ولكن اتركني وحدي ولسوف استمتع بكل ساعة وما تحمله إلي، بنشوة لا تقل على استمتاعي بالاحاديث المألوفة في البار. إني أشعر بالامتنان للنعم الصغيرة لقد قارنت ملاحظاتي مع صديق لي يتوقع من العالم كل شيء ويشعر بالخيبة أذا ما جاء أي شيء بالمستوى الأدنى من الأكمل، فوجدت أنني أبدأ من الطرف الآخر، غير متوقع لشيء وممتلئ بالشكر للاشياء المتواضعة. إنني اتقبل قعقعة ومشادات الاتجاهات المتعاكسة. كما أنني أجد انتفاعي بالسكيرين والمثيرين للمل. فهم يضفون واقعية على الصورة الدائرة التي لا يستطيع ظهور هذه الشهب المتلامسة أن يوفرها. استيقظ في الصباح فأجد العالم القديم، الزوجة، الاطفال، والام، كونكورد وبوسطن، والعالم الروحاني العزيز القديم وحتى الشيطان العزيز القديم ليس بعيداً عني.إذا تلقينا الخير الذي نجد، دون طرح أسئلة، فإننا سوف نجد كميات متراكمة. إن الهبات العظيمة لا يتم الحصول عليها بالتحليل. كل شيء طيب موجود على الطريق. المنطقة الوسطى في وجود ما هي المنطقة الدافئة. بوسعنا أن نتسلق إلى مملكة الهندية المطلقة الباردة والعالم الخالي من

الحياة، أو نعرف في مملكة الاثارة الحسية. ما بين هذين الطرفين يوجد خط استواء الحياة ، والفكر، والروح، والشعر - وهو ليس سوى حزام رفيع. يضاف إلى ذلك، أن كل ما هو طيب في التجربة الشائعة موجود في الطريق. يتطلع جامع التحف في جميع مخازن الصور في أوروبا بحثاً عن مشهد طيبعي رسمه بوسان، أو تخطيط بقلم الرصاص لسلفاتور، لكن لوحات «التحولات» و «الدينونه الأخيرة»، و«تناول القديس جيروم» وما يشبهها من لوحات راقية، موجودة على جدران الفاتيكان، أو اليوفيزي، أو اللوفر، حيث يستطيع كل عابر أن يراها، ناهيك عن لوحات الطبيعة الموجودة في كل شارع ومنحوتات الجسم البشري التي لا تغيب عن النظر. لقد اشترى أحد جامعي التحف مؤخراً اوتوجرافاً لشكسبير بيع في مزاد علني بسعرمئة وخمسين جنيهاً لكن تلميذ المدرسة يستطع أن يقرأ «هاملت» دون مقابل وأن يلحظ أسراراً عالية الاهمية غير منشورة هناك. أعتقد أنني لن أقرأ شيئاً باستثناء أكثر الكتب شيوعاً - الانجيل، هوميروس، دانتي، شكسبير، وميلتون. ثم أن صبراً لينفذ إزاء حياة وعالم مشاعين إلى هذا الحد، فنجر هنا وهناك بحثاً عن الزوايا والاسرار. إن المخيلة تغتبط بالمنحوتات الخشبية التى يصنعها الهنود،وناصبو الفخاخ، ،صائدو النحل. نظن اننا غرباء، وأننا لسنا بمدجنين على هذا الكوكب كما هو شأن الانسان البري والحيوان البري والطير، والمتزحلق، وذا الريش، والانسان السائر على أربع. فالثعلب والخلد، والنسر والطائر القناص والواق، عندما ينظر إليها عن قرب، ليست بأعمق جذر في هذا العالم العميق من الانسان، وهي تساويه في كونها مجرد نزيلة سطحية في هذا العالم. ثم تأتي فلسفة الجزيئات الجديدة، لتكشف عن فضاءات داخلية بين الذرة والذرة، وتظهر أن العالم كله في الخارج، وإنه لا داخل له

العالم المتوسط هو الأفضل. فالطبيعة، كما نعرفها، ليست بالقديسة. إنها لا تحبو أنوار الكنيسة، والنساك، وآكلي القمح بأي امتياز. وهي تقدم آكلة، شاربة، مرتكبة للخطايا. وأحباؤها، العظماء، والأقوياء، والجميلون ليسوا أبناء قانوننا، وهم لا يتخرجون من مدارس الأحد، ولا يزنون طعامهم، ولا يلتزمون بالوصايا العشر. فإذا أردنا أن نصبح أقوياء بما ننهل من قوتها، فإن علينا أن لا نحمل مثل هذه الضمائر صعبة الإرضاء، المستعارة من ضمائر أقدم أخرى. علينا أن نقيم صيغة الحاضر القوية بإزاء كل اشاعات الغضب، الماضى منها والذي سيأتي. هنالك أشياء كثيرة جداً لم يبت

فيها بعد، ويعتبر البت فيها امرأً ذا أهمية أولى، وبانتظار أن يبت فيها، فإننا سنتصرف كما نشاء بينما يستمر النقاش حول المساواة في التجارة، ولا ينتظر له أن يغلق خلال قرن أوقرنين، فإن انجلترا القديمة والجديدة سوف توصلان تجارتهما. من المنتظر أن يناقش قانون حق النشر المحلي والدولي، وفي الفترة التي تفصلنا عن صدوره سوف نبيع كتبنا بأعلى سعر نحصل عليه. يثار التساؤل حول فائدة الأدب، وسبب وجود الأدب ومشروعية تدوين الفكرة، وهناك الكثير مما يقال على الجانبين، وفيما تستعر المعركة، عليك، أيها المتثقف العزيز، أن تتمسك بمهمتك الحمقاء، فتضيف سطراً في كل ساعة، وسطراً ما بين الفترات. يدور الخلاف حول حق حيازة الأرض، وحق الملكية، تعقد الاجتماعات ولكن قبل أن يجرى التصويت، احفر في حديقتك، وانفق مكسبك كما لو كان منحة من السماء أو لقية في جميع الوجوه الجميلة والرائعة. الحياة نفسها فقاعة، تشكيك، ونوم ضمن نوم. ثق بذلك - لكنك أنت يا حبيب الرب، عليك أن تتبع حلمك الخاص، لن يفتقدك أحد وسط التشكيك والازدراء، فثمة ما يكفي منهم، فامكث هناك في خزانتك، وواصل جهدك حتى يتفق الباقون على ما يفعلون بشأنها. يقولون أن مرضك أو عاداتك السقيمة تستدعي منك أن تقوم بكذا وأن تتجنب كيت، لكن عليك، أن تعلم أن حياتك حالة عابرة، خيمة لليلة واحدة، وأن عليك، مريضاً أم معافى، أن تنهي هذه المهمة، إنك مريض، لكنك لن تصبح أسوأ، والعالم الذي يعزك، سيصبح أفضل.

الحياة الانسانية مكونة من عنصرين، القوة، والشكل، وإذا أردناها أن تكون حلوة وسليمة، فإن التناسب بينهما يجب أن يحافظ عليه.إن الزيادة في أي من هذين العنصرين تحدث أذى لا يقل ضرراً عن نقصانهما. كل الأشياء تتجه نحو الإفراط، وكل صفة طيبة مضرة إذا لم تخلط، ومن أجل ايصال الخطر إلى حافة الخراب، تدفع الطبيعة الجانب الغريب من كل إنسان إلى الإفاضة. هنا، ما بين الحقول، نقدم المثقفين كأمثلة على هذه الخدعة. فهم ضحايا التعبير لدى الطبيعة. أنت يا من ترى الفنان، الخطيب والشاعر عن قرب ، وتجد أن حياتهم ليست بأفضل من حياة الميكانيكيين أو المزارعين، وأنهم هم أنفسهم ضحايا الانحياز، وأنهم فارغون ومنهكون جداً، فتصنفهم كفاشلين، لا أبطالاً بل مشعوذين - عليك أن تستنتج عن حق بأن هذه الفنون ليست للانسان، بل إنها عبارة عن مرض. لكن الطبيعة لن تصغي إليك. فالطبيعة التي لا تقاوم هي التي صنعت أشخاصاً كهؤلاء، وهي التي تصنع الجحافل. من أمثالهم كل

يوم.تحب الصبي وهو يقرأ كتاباً، أو يحدق في رسم أو تمثال، ولكن ما عساها تكون هذه الملايين التي تقرأ وتنظر سوى كتاب ونحاتين مبتدئين؟ أضف القليل من هذه المزية التي تقرأ وترى، ولسوف يتناولون القلم أو الإزميل. لو أن أحداً تذكر كيف ابتدأ، ببراءة، التحول إلى فنان، لأدرك أن الطبيعة قد تحالفت مع عدوه. إن الانسان مستحيل ذهبي. والسبل التي يجب أن يسلكها بمثل رفع الشعرة. والحكيم يتحول إلى أحمق بفضل الإفراط في الحكمة.

ما أسهل أن نحافظ إلى الابد على هذه الحدود الجميلة، وأن نكيف انفسنا، لو شاء القدر، مرة وإلى الأبد لحسابات مملكة الأسباب والنتائج المعروفة. في الشارع وفي الصحف، تبدو الحياة عملاً بسيطاً يمكن للعزم والتمسك الصارمين بجدول الرب خلال جميع المناخات أن يضمنا له النجاح. ولكن آه – سيحل على الفور يوم – أم إنه مجرد نصف ساعة – يقلب كل النتائج التي توصلت إليها الأقوام والسنين! غداً من جديد، يبدو كل شيء حقيقياً ومحدداً، المقاييس المعتادة يعاد فرضها، البداهة نادرة كالعبقرية، وهي أساس العبقرية، والتجربة في أيدي وأرجل كل مشروع؛ ومع ذلك فإن الشخص الذي سيقوم بعمله تبعاً لهذا المفهوم سيفلس سريعاً فالقوة تسير في طريق آخر غير جادة الاختيار والارادة؛ وطريقها هو أنفاق وقنوات الحياة المخفية وتحت الأرضية. من المضحك أن نكون دبلوماسيين، وأطباء، وأشخاص مهمين؛ فما من مغفلين من هذه الانواع. الحياة سلسة مفاجآت، وهي لن تكون جديرة بأن تعاش إن لم تكن كذلك. يحلو للرب أن يعزلنا كل يوم وأن يخفي عنا الماضي والحاضر. نتطلع إلى ما حولنا، لكنه بأدب جم، ينزل أمامنا حجاباً لا يمكن اختراقه من سماء صافية، وحجاباً آخر من ورائنا من سماء صافية. ويبدو أنه يقول «سوف لن تتذكر، وسوف لن تتوقع» كل المحادثات، والسلوك، والافعال الطيبة تنبثق عن تلقائية تنسى الاستخدامات وتضفي عظمة على اللحظة. الطبيعة تكره الآلات الحاسبة، ووسائلها وثابة ومتهورة. الانسان يحيا بالنبض؛ كذلك الحال بالنسبة لحركاتنا العضوية، المؤثرات الكيمياوية والأثيرية متموجة ومتناوبة، والذهن يستمر في مقاومته، ولا يغتني إلا في نوبات إننا نربو بالخسائر. وتجاربنا الرئيسية قد كانت عابرة. إن أكثر فئات الناس جاذبية هم أولئك الأقوياء بالاقتراب المائل لا بالضربة المباشرة، أصحاب العبقرية الذين لم يكرسوا بعد، فالمرء يحصل على بهجة نورهم دون أن يدفع ضريبة كبيرة فجمالهم مثل جمال الطائرأو

ضوء الصباح، وليس مثل جمال الفن. في الفكرة العبقرية ثمة دائماً مفاجأة، والحس المعنوي يدعي عن جدارة «الجدة»، لأنه لا يمكن أن يكون إلا كذلك، فهو جديد على فكرة الشيخ كما هو بالنسبة للطفل الصغير « الملكوت الذي يأتي دونما رصيد». وبالطريقة نفسها، لا ينبغي أن يكون هناك الكثير من التخطيط للنجاح العملي. لا يمكن رصد الانسان عند أدائه لما يستطيع اداءه على الوجه الأمثل. هنالك سحر ما يحيط بفعله المناسب يخشى على قدرته على الرصد فلا تعود تراه، حتى وإن كان يتم أمامك. لفن الحياة حشمة، فهو غير قابل للانكشاف. كل إنسان هو مستحيل حتى يولد، وكل شيء مستحيل حتى نرى نجاحاً ما. فالنهاية تتفق حماسة التقوى مع التشكيك البارد على أن ما من شيء صادر عنا أو عن أعمالنا، فالكل من عند الرب. ولن تمنحنا الطبيعة حتى ولا ورقة غار صغيرة. كل الكتابة تأتي بنعمة من الرب، وكل الافعال والامتلاك. كان سيسرني أن أكون أخلاقياً والتزم بالحدود والقيود الواجبة، التي أحبها وأعتز بها، وأن أنسب غالبية الأشياء لإرادة الانسان، لكنني قد غقدت العزم على أن أكون أميناً في هذا الكتاب، وليس بوسعي في النهاية أن أرى أي شيء، نجاحاً كان أم فشلا، إلا بصفته زيادة أو نقصاناً في القوى الحيوية التي يمنحها الأزلي. إن نتائج الحياة غير محسوبة وغير قابلة للحساب. والسنوات تعلم الكثير مما لم تعرفه الأيام أبداً. الاشخاص الذين يكونون الصحبة التي تحيط بنا يتحاورون، ويجيئون ويذهبون، ويخططون وينفذون أشياء كثيرة، وينتج عن ذلك كله شيء ما، لكن ما ينتج لا يمكن إلا أن أن يكون نتيجة غيرمنتظرة الفرد دائما على خطأ فهو قد خطط لأمور كثيرة، واجتذب إليه أشخاص آخرين بصفتهم شركاء، وتخاصم مع البعض أو مع الجميع، وتعثر كثيراً، وقد تم انجاز شيء ما، وأحرز بعض التقدم، لكن الفرد دائما على خطأ فالنتيجة تأتي على نحو جديد وبعيد الشبه عماوعد به نفسه.

عندما اصطدم القدماء بعدم إمكانية اخضاع عناصر الحياة للانسانية للحساب، بالغوا في قيمة الحظ ورفعوه إلى مرتبة القداسة، لكن ذلك يعني التلكؤ كثيراً عند الشرارة التي تقدح حقاً في نقطة معينة، في حين يظل الكون مستدفئاً بالحرارة الكامنة لتلك النار نفسها. إن معجزة الحياة، التي لن تفسر أبدا وتظل معجزة، تقدم عنصراً جديداً. في نمو الجنين لاحظ السير إيفرارد هوم، كما أعتقد، إن النمو لم يكن من نقطة مركزية واحدة، إنما جاء بالتكافل من ثلاث نقاط أو اكثر. ليس للحياة ذاكرة. يمكن

تذكر الأشياء التي تتوالى فى تتابع، لكن تلك الأشياء المتعايشة في الوقت نفسه، أو المنبثقة عن مسبب أعمق لا يزال بعيداً عن الوعي، لا تعرف إلى أين تتجه. كذلك الأمر بالنسبة لنا، فتارة نحن مشككين أو مشتتين، عندما نكون مغمورين في أشكال ومؤثرات تبدو ذات قيمة متساوية لكنها متناحرة، وتارة متدينين عندما يحل علينا القانون الروحاني. تحمّل هذه التشتيتات، وذلك النمو المتزامن للآخرين، فهي ستصبح يوماً ما أعضاء وتطيع إرادة واحدة. إلى تلك الارادة الواحدة، وإلى ذلك المسبب السري سوف ينشد إهتمامنا ورجاؤنا. عند ذلك تذوب الحياة في توقع أو ديانة. تحت الجزيئات الصغيرة وغير المتجانسة يوجد كمال موسيقي، الرحلة المثالية دائماً لنا، والسماء كذلك دون صدع أو رأب. ما عليك إلا أن تلاحظ طريقة استنارتنا عندما أتحاور مع صاحب فكر متعمق، أو عندما تخطر لي افكار طيبة في أحيان أكون فيهاوحيداً، لا أصل مباشرة إلى الاشباع، كما في حالة شرب الماء عند العطش، أو الاقتراب من النار عند البرد! كلا، أنما أشعر في بداية الأمر باقترابي من منطقة من الحياة جديدة وممتازة. بمواصلة التفكر أو القراءة تكشف تلك المنطقة عن المزيد من ذاتها، كما في إيماضات البرق، في اكتشافات مفاجئة لجمالها العميق واتساقها، كما لو أن الغيوم التى تغطيها تنقشع على فترات فتتبدى للمسافر المقترب الجبال الداخلية، تنتشرعند قاعدتها المروج الابدة الساكنة، حيث القطعان ترعى والرعاة يعزفون ويرقصون. لكن كل نظرة إلى مملكة الفكر هذه تبدو استهلالية، وتعد بما يتبعها. لست بواصل إليها، ها أنا أصل إلى هناك، وابصر ما يوجد فعلاً أصل! أوه، كلا! أصفق بيدي في فرح واندهاش طفوليين إزاء أول تجل أمامي لهذه الروعة الجليلة، القديمة بما تحمله من حب وإجلاء العصور التي لا تحصى، والشابة بما فيها من حياة الحياة، مكة الصحراء المشرقة. وأي مستقبل ذاك الذي تفتحه! أحس بإيقاع جديد من قلبي من حب الجمال الجديد. أنا مستعد للموت والخروج من الطبيعة كما أولد ثانية في هذه الأمريكا الجديدة والتي لا يمكن الوصول إليها، التي عثرت عليها من الغرب:

لم تبدأ منذ الآن ولا منذ الأمس

هذه الأفكار، الموجودة على الدوام، لا ولا يمكن

العثور على الرجل الذي عرف مدخلها الأول.

إن كنت قد وصفت الحياة بأنها تقلبات حالات مزاجية، فإن علي أن أضيف الآن

أن فينا شيئا لا يتغير وأنه الذي يصنف كل الأحاسيس وحالات العقل. الوعي لدى كل انسان ميزان مائل، بما هي حيناً بينه وبين المسبب الأول، وحيناً بينه وبين لحم جسده، حياة فوق حياة في دراجات لامتناهية. إن مكانة أي فعل تقررتبعا للاحساس الذي انبثق عنه، والسؤال الدائم لا يتعلق بما فعلت أو لم تفعل، إنما بإمرة من فعلت أو لم تفعل.

القدر، منيرڤا، الإلهام، الروح القدس – تلك هي أسماء غريبة أضيق من ان تغطي هذه المادة غير المحدودة. ما زال على الفكر المحير أن يركع أمام هذا السبب، الذي يرفض أن يسمى – السبب القدسي الذي سعت كل العبقريات الرفيعة إلى تمثيله برمز يشير إليه، كما فعلت ثيلس حين رمز إليه بالماء، وأناكسيمينس بالهواء، وأناكساغنوراس بالفكرة، وزرادشت بالنار، ويسوع والمتحدثون بالحب، وتحول الرمز المجازي لكل واحد منهم إلى ديانة قومية. لم يكن مينسيوس الصيني أقلهم نجاحاً في تعميمه. لقد قال «إني أفهم اللغة تمام الفهم، وأغذي جيداً قوتي واسعة التدفق». سأله رفيقه «أرجو أن أسأل ما هو ذلك الذي تسميه بالقوة واسعة التدفق». فأجاب مينسيوس «الشرح صعب. إن هذه القوة فائقة العظمة، وفي أعلى درجات الصلابة غذها على نحو سليم ولا تلحق بها الاذى، ولسوف تملأ الفضاء ما بين الأرض والسماء. هذه القوة تتوافق مع العدالة والمنطق وتعينهما، وهي لا تترك جوعاً.» في كتاباتنا الأكثر دقة، نعطي هذا التعميم اسم «الوجود» وبذلك نعترف بأننا قد وصلنا إلى أبعد ما نستطيع. يكفي فرح الكون إننا لن نصل إلى جدار، إنما إلى محيطات لا نهاية لها. لا تبدو حياتنا حاضرة بقدر ما هي متوقعة، وهي لا تتعلق بالشؤون التي تهدر فيها، إنما هي إلماحة إلى تلك القوة واسعة التدفق أغلب الحياة يبدو مجرد إعلان عن وظيفتها، معلومات تقدم لنا بأن لا نبيع أنفسنا بثمن بخس، وأننا جد عظماء. وهكذا يعرف النبيل من الخسيس. وهكذا فإننا حين نتقبل قيادة الأحاسيس فإن الظرف المادي هو ليس ما نؤمن به بشأن خلود الروح أو اشياء من هذا القبيل إنما «الدافع الكوني للايمان» وهو الحقيقة الرئسية في تاريخ العالم .

هل لنا أن نصف هذا السبب بأنه ذلك الشيء الذي يعمل بشكل مباشر؟ إن الروح ليست عديمة الحيلة ولا هي محتاجة إلى الأطراف الوسيطة. فلديها القوى الوافرة

بـ ـنار المباشرة. فأنا موضح دون توضيح، ومحسوس دون فعل، وحيث لا أكون. ولهذا فإن جميع الأشخاص العادلين مكتفون بثنائهم الخاص. وهم يرفضون توضيح أنفسهم، وراضون بأن تقوم الفعال الجديدة بهذه المهمة نيابة عنهم. إنهم يعتقدون بأننا نتواصل بدون لغة وما فوق اللغة، وأن ما من فعل صحيح نفعله لا يكون له تأثير على أصدقائنا، مهما بعدت المسافة؛ لأن تأثير الفعل لا يقاس بالأميال. لماذا تراني أربك نفسي لأن ظرفاً ما قد حدث فأعاق تواجدي في المكان الذي كنت منتظراً فيه؟ فإن لم أكن في الاجتماع، فإن وجودي حيثما كنت ينبغي أن تكون له نفس الفائدة، بالنسبة للأصدقاء وللحكمة، التي تكون لوجودي في ذلك المكان. فأنا أمارس نفس نوعية القوة في جميع الأماكن. هكذا يسافر المثال الأعلى الجبار أمامنا؛ إذ لم يعرف عنه أبداً أن قد جاء في المؤخرة ما من إنسان استطاع أبداً أن يحقق تجربة مشبعة، لكن خيره نبيء عما هو أفضل. إلى أمام ثم إلى أمام! في اللحظات الطليقة تعلم أن صورة جديدة عن الحياة والواجب قد أصبحت ممكنة؛ ففي كثيرمن العقول المحيطة بك توجد بالفعل عناصر مذهب جديد في الحياة يتجاوز كل مالدينا من السجلات المدونة. ولسوف يضم البيان الجديد كل أنواع التشكيك والإيمان الموجودة في المجتمع، من أنماط عدم الإيمان سوف يتشكل المذهب. لأن المذاهب المشككة ليست عديمة المسوغ أو منفلتة، إنما هي تحديدات للبيان الإيجابي، وعلى الفلسفة الجديدة أن تستوعبها وتستخرج منها تأكيداتها، تماماً كما أن عليها أن تشمل الإيمان القديم.

إن اكتشافاتنا لكوننا موجودين أمر محزن جداً، لكنه تأخر كثيراً عن أي محاولة لتفاديه. يدعى الاكتشاف «سقطة الإنسان». ومن حينه ونحن نشك بأدواتنا. لقد تعلمنا أننا لا نرى بشكل مباشر، إنما بالوساطة، وأننا لا نملك الوسيلة لتصحيح هذه العدسات الملونة والمشوهة التي هي نحن، أو لحساب كمية أخطائها. ربما كان لهذه العدسات الذاتية قوة خلاقة؛ ربما لم تكن هنالك مواضيع. ذات مرة عشنا في ما نراه؛ أما الآن، فإن ضراوة هذه القوة الجديدة، التي تهدد باستيعاب كل الأشياء، صارت تشغلنا. الطبيعة، الفن، الأشخاص، الكتابة، الديانات، مواضيع تتساقط بالتتابع، والرب ليس سوى واحدة من أفكارها. إن الطبيعة والأدب ظاهرتان ذاتيتان؛ فكل شيء وكل أمر طيب هو ظل نلقيه. الشارع يمتلئ بالمهانات بالنسبة لصاحب الكبرياء. كما أن الرجل المتأنق يلبس حجابه ملابسه ويجعلهم يقفون في خدمة ضيوفه على المائدة، كذلك الكدر

الذي تطلقه القلوب السيئة على هيأة فقاعات. تأخذ على الفور أشكال سيدات ورجال في الشارع، أصحاب مخازن أو أصحاب بارات في الفنادق، وتهدد أو تهين كل ماهو قابل للتهديد أو الإهانة فينا يصح القول نفسه على وثنياتنا. ينسى الناس أن العين هي التي تصنع الأفق، وأن عين العقل المطوقة هي التي تجعل من هذا الرجل أو ذاك نموذجاً أو ممثلاً للإنسانية، مانحة إياه لقب البطل أو القديس. إن يسوع، «رجل المقادير»، رجل طيب يتفق كثير من الناس على أن هذه القوانين البصرية يجب أن تطبق عليه. بالحب من جانب، وبالإمساك عن إبداء الاعتراض من الجانب الآخر، أصبح متفقاً عليه لبعض الوقت أن ننظر إليه في مركز الأفق، وننسب إليه المزايا التي ترتبط بكل إنسان ينظر إليه في هذا الموقع. لكن أطول الحب أو الكراهية إمداداً له أجل سريع. إن الذات العظيمة المتجذرة في الطبيعة المطلقة، تحل محل كل وجود مرتبط بها، وتقوض مملكة الحب والصداقة الفانية. التزاوج مستحيل (في العالم الذي يدعى روحياً) بسبب عدم التساوي ما بين كل فاعل وكل مفعول به. إن الفاعل هو الذي يتلقى رأس الرب، وعند كل مقارنة يشعر بأنه قد أغني بفعل تلك القدرة الخفية. مستودع الجوهر هذا لايمكن إلا أن يكون محسوساً، ولا بالحضور إن لم يكن بالطاقة؛ كما أن أية قوة ذهنية لا تستطيع أن تنسب إلى المفعول به تلك الربوبية الحقة التي تنام وتصحو أبداً في كل فاعل. لا يستطيع الحب أبداً أن يجعل الوعي والنسبة متعادلين بقوة. وسوف تظل هناك بين الأنا والأنت نفس الفجوة التي تقوم بين الأصل والصورة. الكون عروس الروح. وكل تعاطف خصوصي هو جزئي. كل كائنين بشريين مثل كرتين، لا يمكن أن يتلامسا إلا عند نقطة واحدة، وفيما هما متصلان تبقى النقاط الأخرى في كل كرة خاملة، إلا أن دورها لا بد أن يحين، وكلما طال أمد أحد اللقاءات كلما زادت طاقة الشهوة التي تحصل عليها الأجزاء الأخرى غير المتحدة.

يمكن للحياة أن تصور، لكنها لايمكن أن تقسم أو تضاعف وكل اقتحام لوحدتها يولد الفوضى. الروح ليست توأماً بالولادة، إنما هي الطفل الأوحد، ورغم أنها تكشف عن نفسها كطفلة في الزمان، وطفلة في المظهر، إلا أنها ذات قوة كونية وقدرية، وهي لا تتقبل المشاركة في الحياة. كل يوم، وكل فعل، يكشف عن الرب. نؤمن بأنفسنا كما لا نؤمن بالآخرين. نجيز لأنفسنا كل الأشياء، وذلك الشيء الذي ندعوه خطيئة عند الآخرين نعتبره تجربة بالنسبة لنا. إن من أمثلة إيماننا بأنفسنا أن الناس لا يتحدثون

أبداً عن الجريمة بالتساهل الذي يفكرون به؛ أو أن كل إنسان يحسب أن ثمة مساحة آمنة بالنسبة له لايمكن أن يتساهل بها مع الآخرين. يبدو للفعل مظهران مختلفان من الداخل والخارج، في نوعيته وفي عواقبه. فجريمة القتل ليست في ذهن القاتل بتلك الفكرة المدمرة التي تبدو بها للشعراء والرومانسيين؛ فهي لا تقلقه ولا ترعبه إلى الحد الذي يشغله عن ملاحظة الأمور التافهة؛ فهي فعل يسهل التفكير به؛ لكنها في عواقبها تتكشف عن صدام مريع ودحض لكل العلاقات. الجرائم التي تصدر عن الحب تبدو، بشكل خاص، سليمة ومحقة في نظر مرتكبها، لكن ما أن ترتكب حتى يظهر أثرها المدمر على المجتمع. في النهاية، ما من إنسان يعتقد بأنه يمكن أن يضيع، أو أن الجريمة فيه سوداء كما هي في داخل المجرم «لأن العقل يهيئ في حالتنا الخاصة الحكم الأخلاقي. إذ ما من جريمة هناك بالنسبة للعقل. ذلك هو تناقض المبادئ أو الإفراط فيها، وهو يحكم على القانون كما يحكم على الحقيقة. إنه أسوأ من الجريمة، إنه خطأ فادح » هكذا قال نابليون متحدثاً بلغة العقل. فالعالم، بالنسبة للعقل، مسألة في الرياضيات أو علم الكم، وهو يهمل الثناء، واللوم وكل العواطف الضعيفة. كل السرقة أمر نسبي. إذا جئنا إلى المطلقات، فمن ذا الذي لا يسرق؟ يحزن القديسون لأنهم ينظرون إلى الخطيئة (ولو في تأملاتهم) من وجهة نظر الضمير، لا العقل؛ وفي ذلك إرباك للفكر. فالخطيئة، حين ينظر إليها بالفكر، تعتبر نقصاناً أو «أقل» أما عند النظر إليها بالضمير أو الإرادة، فإنها نقيصة أو «سوء». العقل يسميها ظلاً، أو غياب الضوء، أو انعدام الجوهر. بينما يشعر بها الضمير كجوهر، كشر جوهري. وهي ليست كذلك؛ إذ أن لها وجوداً موضوعياً، وليس ذاتياً.

هكذا يرتدي الكون، حتماً، ألواننا، ويسقط كل مفعول به، بنجاح، في الفاعل نفسه. الفاعل موجود، والفاعل يتوسع؛ كل الأشياء تقع في مواضعها عاجلاً أم آجلاً. كما أنا، كذلك أرى؛ مهما كانت اللغة التي نستخدمها، فليس بوسعنا أن نقول أي شيء سوى ما نحن عليه؛ هيرمس، كادموس، كولومبوس، نيوتن، بونابارت هم وزراء العقل. بدلاً من الإحساس بالفقر عند الالتقاء برجل عظيم، دعونا نعامل القادم الجديد كما لو كان جيولوجياً عابراً يمر بأرضنا ورينا الأردواز الجيد، أو الجير، أو الفحم، في أجمة مرعانا. إن الفعل المنحاز لكل عقل قوي باتجاه واحد هو تلسكوب للأشياء التي يتوجه إليها. ولكن ينبغي على كل جزء آخر من المعرفة أن يدفع إلى الغلواء نفسها، قبل أن

تبلغ الروح مكانتها التي تستحقها. هل ترى تلك القطيطة التي تطارد، على نحو شيق، ذيلها؟ لو كان بوسعك أن تنظر بعينيها فلربما رأيتها محاطة بمئات الشخوص التي تؤدي مسرحيات معقدة، حول قضايا تراجيدية أو كوميدية، حوارات مطولة، وشخصيات عديدة، والكثير من تقلبات القدر - لكنها في الواقع ليست سوى قطة وذيلها. عند أية فترة قبل أن تختتم حفلتنا التنكرية صخب دفوفها، وضحكها، وصراخها، سوف تكتشف أنها كانت أداءً انفرادياً فاعل ومفعول به. نحتاج الكثير من أجل إكمال الدائرة الكهربائية، لكن الجسامة لا تضيف شيئاً. أية أهمية لأن يتعلق الأمر بكيبلر والعالم، أو كولومبوس وأمريكا، أو القارئ وكتابه، أو القطة وذيلها؟

صحيح أن الحب، والدين، وملهمات الفن يكرهون هذه التصورات وسوف يجدون طريقة يعاقبون بها الكيمياوي الذي ينشر في الردهة أسرار المختبر. وليس بوسعنا أن لا نقول الكثير عن الضرورة الموجودة فينا والتي تجعلنا نرى الأشياء تحت مؤثرات خصوصية، أو مشبعة بحالتنا المزاجية. ومع ذلك فإن الرب هو ساكن هذه الصخور الجرداء. تلك الحاجة تدرج في الأخلاقيات الثقة بالنفس بصفتها الفضيلة الكبرى علينا أن نتمسك بشدة بهذا الفقر، مهما كان فاضحاً، وبالمزيد من الصحوات الذاتية القوية، بعد انطلاقات الفعل، علينا أن نسيطر على محورنا بثبات أكبر. إن حياة الصدق باردة، وباعثة على الأسى، لكنها ليست عبدة للدموع، والندم، والاضطراب فهي لا تحاول أداء عمل الآخرين، ولا تتبنى حقائق الغير. إنه لدرس مهم في الحكمة أن تعرف ما يخصك وما يخص الآخر. لقد تعلمت أنني غير قادر على استخدام حقائق الناس الآخرين؛ لكن لدي مفتاحاً لحقائقي الخاصة يقنعني، رغم كل انكاراتهم، أن لديهم، هم أيضاً، مفتاحاً لحقائقهم. إن الشخص المتعاطف يواجه معضلة الشخص الذي يحسن السباحة وسط أشخاص مشرفين على الغرق، يتوجهون نحوه جميعاً، فإن أعطاهم رجلاً أو أصبعاً فإنهم سوف يغرقونه. إنهم يريدون النجاة من شرور رذائلهم، لا من رذائلهم نفسها. ومن شأن الإحسان أن يضيع هدراً عند هذا الفقير المتربص للإشارة. إن طبيباً حكيماً وصلب العود كان سيقول: «دعك من هذا» كشرط أو لنصيحته.

في هذه الأمريكا المتحدثة التي نعيش فيها تدمرنا سجيتنا الطيبة والإصغاء إلى جميع الجهات. هذا الامتثال يسلب القدرة على أن نكون مفيدين على نحو كبير. على الإنسان أن لا يكون قادراً على النظر إلا مباشرة وإلى أمام. إن الاهتمام المنشغل هو

الجواب الوحيد على عبث الآخرين الذي في غير محله، اهتمام لغرض يجعل احتياجاتهم عبثية. إنه جواب قدسي، وهو لا يدع مجالاً للاستئناف أو الأفكار العميقة. في رسم فلاسكمان لـ «اسخيلوس» يتضرع أوريستيس إلى أبوللو، في حين تنام آلهة الغضب عند العتبة. يعبر وجه الإله عن مسحة من الندم أو التعاطف، لكنه هادئ بفعل الإقتناع بعدم إمكان الجمع بين العالمين. إنه مولود في عالم حكمة آخر في الأبدي والجميل. الرجل الذي عند قدمه يسأله مصلحته في اضطراب الأرض، التي لا تستطيع طبيعته أن تدخلها. واليومينايديس التي تتمدد هناك تعبر بوضوح عن هذا التباين والإله مثقل بقدره الإلهي.

الوهم، المزاج، التعاقب، السطح، الدهشة، الحقيقة، الموضوعية - تلك هي خيوط في نول الزمن، إنها سادة الحياة. أنا لا أجرؤ على أضعها بالترتيب، إنما أسميها كما عثرت عليها في طريقي. لدي من المعرفة ما يمنعني من أداء الكمال لصورتي. فأنا جزء، وهي جزء مني. يمكنني أن أعلن بكل ثقة قانوناً أو اثنين، من تلك التي صاغت لنفسها شكلاً، لكنني أصغر بعصور من أن أكون مهيأ لتجميع شيفرة. أثرثر لساعتي بشأن الحقائق الأزلية. فليس عبثاً أنني قد شاهدت الكثير من الصور الجميلة. ولقد عشت في زمن رائع. وأنا لست التلميذ المتدرب الذي كنته قبل أربعة عشر عاماً أو سبعة أعوام. دع من يشاء يتساءل! «أين الثمرة؟» إني أجد الثمرة الخصوصية كافية. تلك هي ثمرة بحد ذاتها، أن لا أطلب أثراً متسرعاً من التأمل، والمشورة، وتخزين الحقائق. وإني لأشعر أن مما يؤسف له أن أطالب بنتيجته وأنا في هذه المدينة والبلاد، أو تأثيراً واضحاً في هذا الشهر والسنة. فالأثر لايقل عمقاً وعالمية عن السبب. وهو يعمل على فترات تضيع فيها آجال الحياة الفانية. كل ما أعرفه هو التلقي؛ أنا كائن وأنا أملك ولكني لا أحصل على شيء، وعندما تصورت بأنني قد حصلت على أي شيء، وجدت أنني لم أحصل على شيء. أعبد باندهاش القثدر العظيم. كان ما تلقيته واسعاً جداً إلى حد يجعلني لا أتضايق من استقبال هذا الشيء أو ذاك بوفرة كبيرة عندما أستقبل هدية جديدة، لا أفني جسمي من أجل أن أعادل الحساب. فأنا لا أستطيع، حتى لو مت، أن أعادل الحساب. فالفائدة قد تجاوزت الحسنة منذ اليوم الأول، وما تزال تتجاوزها منذ ذلك اليوم. فأنا أعد الحسنة، حسب ما يدعونها، جزءاً من التلقي.

كما أن التوق إلى أثر معلن أو عملي يبدو بالنسبة لي ارتداداً عن الإيمان وأنا على

استعداد لأن اتخلى عن هذه الصفقة غير الضرورية. الحياة، بالنسبة لي، تلبس وجهاً رؤيوياً. والأصعب، والأشق من بين الأفعال رؤيوي أيضاً. إنه ليس سوى اختيار بين الحلم الهانئ والمضطرب. يستخف الناس بالمعرفة والحياة الفكرية، ويحثون على الفعل. أنا قانع جداً بالمعرفة، لو أنها تتاح لي. وسيكون ذلك لهواً مبجلاً، وسوف يكفيني لبرهة طويلة. إن معرفة القليل تستحق تكاليف هذا العالم. وإني لأستمع دائماً إلى قانون أدراشيا: «إن كل نفس حصلت على حقيقتي سوف تظل بمنحى عن الأذى حتى زمان آخر.»

أعلم أن العالم الذي أتعامل معه في المدينة وفي الحقل، ليس بالعالم الذي أفكر به. وإني لألاحظ ذلك الفارق، ولسوف ألاحظه. يوماً ما سأعرف قيمة هذا التناقض وقانونه. لكني لم أجد الكثير قد أحرز عن طريق المحاولات اليدوية لتحقيق عالم الفكر. الكثير من الأشخاص المتلهفين يجربون ذلك على التوالي، فيجعلون من أنفسهم أضحوكة. يكتسبون أخلاقاً ديمقراطية، تزيد أفواههم، ويكرهون وينكرون. بل إن الأمر أسوأ من ذلك، حيث ألاحظ أنه لا يوجد في تاريخ البشرية مثال واحد على النجاح – باستخدام اختباراتهم الخاصة للنجاح – أقول هذا جدلاً، أو رداً على التساؤل القائل «لماذا لا تحقق عالمك؟» ولكن ما أبعدني عن اليأس الذي يخطئ الظن بالقانون من خلال تجريبية بما أنه لم يكن هنالك مسعى صحيح إلا وقد نجح. الصبر ثم الصبر، فنحن سوف نفوز في النهاية. علينا أن نكون كثيري التشكك من خداعات عناصر الزمن. نحتاج إلى الكثير من الوقت لكي نأكل أو ننام، أو لنكسب مئة دولار، وإلى وقت قليل جداً لكي ننمي أملاً أو رؤية تتحول إلى نور حياتنا. ننسق حديقتنا، ونأكل عشاءنا، ونناقش شؤون المنزل مع زوجاتنا، لكن هذه الأمور لا تترك أثراً، إنها تنسى في الأسبوع التالي؛ ولكن في العزلة التي يعود إليها كل إنسان، توجد عقلانية وتجليات سوف يحملها معه عند انتقاله إلى عوالم جديدة. لا تكترث للسخرية – هنالك انتصار ما زال قائماً لكل العدالة – والحكاية الحقيقية التي يقوم بها العالم من أجل تحقيقها ستكون تحول العبقرية إلى قوة عملية.

١٥

الشخصية

كنت قد قرأت أن أولئك الذين كانوا ينصتون للورد تشاثام كانوا يشعرون بأن ثمة شيئاً في الرجل أرفع من كل ما كان يفوه به. وكان يشتكى من أن مؤرخنا الإنجليزي اللامع للثورة الفرنسية، حين كان يفرغ كل حقائبه بشأن ميرابو، فإنها لم تكن تبرر تقديره لعبقريته. لم يكن ما سجل من حقائق بشأن غراتشي، وآجيس، وكليومينيس وسواهم من أبطال بلوتارك يعادل الشهرة التي يحملها كل منهم. السير فيليب سيدني، وإيرل أسكس، والسير والتر رالي هم رجال ذوو أسماء كبيرة وفعال قليلة. ليس بوسعنا أن نجد الجزء الأصغر من ثقل واشنطن الشخصي في سجل منجزاته. ومرجعية اسم شيللر كبيرة جداً بالقياس لكتبه. لا يمكن تفسير هذا التفاوت بين السمعة والأعمال أو السير بمجرد القول أن الرجع أطول من قصف الرعد، إنما هنالك شيء ما وجد في هؤلاء الرجال وولد توقعاً يتجاوز كل أدائهم. إن الجزء الأكبر من قوتهم كان كامناً. وذلك هو ما ندعوه «الشخصية» - وهي قوة محفوظة، تفعل فعلها بشكل مباشر بمجرد الحضور وبدون أية وسائل. يتم إدراكها على شكل قوة معينة غير قابلة للعرض، خصيصة أو سمة، توجه دوافعها الإنسان لكنه لا يستطيع الإفصاح عن مصادر مشورتها؛ والتي تمنحه الصحة، ولذلك يكون مثل هؤلاء الأشخاص وحدانيين في الغالب. وإن تصادف أن يكونوا اجتماعيين، فإنهم لا يحتاجون إلى الصحبة بل يقدرون على تسلية أنفسهم وحيدين على أفضل نحو. إن الموهبة الأدبية الأنقى تبدو حيناً عظيمة، وحيناً آخر صغيرة، لكن الشخصية تتسم بعظمة كواكبية وهي غير قابلة على الإنكماش. إن ما يحققه الآخرون بالموهبة أو بالفصاحة، يحققه هذا الشخص بنوع من المغناطيسية. «نصف قوته لا يطرحه للإستخدام». وانتصاراته تحرز باستعراض التفوق، لا باختراق الحراب. وفتوحاته تتحقق لأن وصوله يغير وجه الأشياء. «أوه يا إيول! كيف عرفت بأن هرقل كان إلهاً؟» يجيب إيول: « لأنني شعرت بالاكتفاء لحظة وقعت عيناي

عليه. عندما رأيت ثيسيوس، رغبت بأن أراه يدير معركة، أو على الأقل يقود جياده في سباق للعربات؛ إنما هرقل لاينتظر المباراة؛ فهو منتصر سواء وقف، أم سار، أم جلس، أم قام بأي شيء.» إن الإنسان، وهو في العادة معلق بالأحداث، لا يرتبط، للغرابة، إلا بنصف ارتباط بالعالم الذي يعيش فيه، وهو في الأمثلة السالفة يبدو كما لو أنه يشارك الأشياء حياتها، ويصبح تعبيراً عن نفس القوانين التي تحكم المد، والشمس، والأرقام، والكميات.

من أجل استخدام مثال أكثر تواضعاً وأشد قرباً منا، الاحظ أننا في انتخاباتنا السياسية، حيث يتخذ هذا العنصر، متى ما ظهر، أكثر أشكاله بدائية، نتفهم على نحو وافٍ مكانته التي لا تقارن. يعرف الناس أن ما يحتاجون إليه فيمن يمثلهم هو أمر أكثر من الموهبة بكثير، إنه القدرة على جعل موهبته موضع ثقة الآخرين فالناس لا يرسلون إلى الكونغرس متحدثاً لبقاً، وذكياً، ومتعلماً مالم يكن بالشخص الذي، قبل اختياره من قبل الناس لتمثيلهم، قد اختاره الرب العظيم لمناصرة حقيقة ما - وأن يكون مقتنعاً في ذاته وعلى نحو لا يمكن قهره بتلك الحقيقة - إلى الحد الذي يجعل أكثر الأشخاص ثقة وأكثرهم عنفاً يدرك أن ثمة مقاومة هنا لا يؤثر فيها الإرهاب ولا التدبير، ألا وهي الإيمان بحقيقة ما. إن الرجال الذين يحملون وجهات نظرهم ليسوا في حاجة إلى أن يسألوا ناخبيهم عما ينبغي لهم أن يقولوه، لأنهم هم أنفسهم البلد الذي يمثلون؛ حيث لا يتحقق لعواطفه وآرائه أن تكون فورية وصادقة كما هي لديهم؛ ولا تجد مكاناً تكون فيه أكثر بعداً عن الإختلاطات الأنانية كما هي فيهم يصغي ناخبوهم لكلماتهم، ويرقبون لون وجناتهم، ومن ثم، كما في المرآة، يقتدون بهم. إن جمعياتنا العامة اختبارات طيبة للقوة الرجولية. ويتمتع مواطنونا الصريحون في الغرب والجنوب بالقدرة على تذوق الشخصية، وهم يرغبون في أن يعلموا ما إذا كانت النيوانكلاندي إنساناً صلداً، أم أن بإمكان اليد أن تمر من خلاله.

نفس القوة الفاعلة تتبدى في التجارة فثمة في التجارة عباقرة كما في الحرب، أو الدولة، أو الكتب؛ والسبب الذي يجعل هذا الشخص أو ذاك محظوظاً لا يمكن تحديده. فهو يكمن في الرجل؛ ذلك كل ما يستطيع أن يقوله لك أي شخص. انظر إليه وسوف تعرف بسهولة لماذا ينجح، تماماً كما أنك لو رأيت نابليون لأدركت تفوقه. عند مواجهة الأشياء الجديدة نراعي اللعبة القديمة، وهي عادة مواجهة الحقيقة، وعدم التعامل معها

بالواسطة، من خلال مدركات شخص آخر. يبدو أن الطبيعة هي التي تجيز التجارة، فما أن ترى التاجر الطبيعي، فإنه لا يبدو لك وكيلاً خاصاً بقدر ما يبدو عاملاً للطبيعة ومفوضها في التجارة. تتظافر إستقامته الطبيعية مع نفاذ بصيرته في النسيج الإجتماعي لتضعه فوق الاحتيال، وهو يوصل للجميع إيمانه بأن العقود ليست للتفسير الخاص. إن الطريقة التي يعمل بها عقله عبارة عن إشارة لشروط المساواة الطبيعية والفائدة العامة؛ وهو يوحي بالاحترام وبالرغبة في التعامل معه، بسبب روح الشرف الهادئة التي ترافقه، والراحة الفكرية التي تتيحها رؤية كل هذا الكم من القدرة. إن التجارة الواسعة الإنتشار، والتي تجعل موانئ المحيط الجنوبي أرصفة لبضاعته والبحر الأطلسي مرفأ المعتاد، تتركز فقط في ذهنه؛ وما من أحد في العالم يستطيع أن يملأ مكانه. في ردهته أستطيع أن أرى جيداً أنه قد قام بعمل مضن هذا الصباح، يكشف عن ذلك جبينه المعقود وذلك المزاج الراكد، الذي لا تستطيع كل رغبته بالمجاملة أن تزعزعه. أستطيع أن أرى بوضوح كم من الأفعال الصارمة قد انجزت، وكم من اللاءات الشجاعة قد نطقت هذا اليوم، في الوقت الذي كان آخرون سيفوهون فيه بـ «نعم» مدمرة. أرى، بكبرياء الفن والمهارة اللتين تعودان الحساب المتقن والقدرة على الربط البعيد، الوعي بكونه أداة لقوانين العالم الأصلية، ولاعباً مشاركاً في لعبتها. إنه، هو الآخر، يؤمن بأن ما من أحد يمكن أن يزوده بشيء، وأن على الرجل أن يولد للتجارة وإلا فإنه لا يستطيع أن يتعلمها.

تجتذب هذه الخصلة الذهن على نحو أكبر عندما تظهر في الأفعال التي تستهدف غايات ليست شديدة الإختلاط وهي تعمل بأقصى طاقة في أصغر الشركات وفي العلاقات الخاصة. وفي جميع الحالات تكون عاملاً استثنائياً وغير خاضع للحساب. وهي تشل القوة البدنية المفرطة. فالطبع الأرقى يتغلب على الطباع الأدنى بإصابتها بنوع من النوم. فتنغلق الأعضاء، ولا تبدي أية مقاومة. لعل ذلك هو القانون الكوني. عندما لا يقدر العالي على الارتفاع بالدوني، فإنه يخدره، كما يسحر الإنسان مقاومة الحيوانات الأدنى. يمارس الناس على بعضهم البعض نوعاً مشابهاً من القوة السحرية. ولطالما حقق تأثير المعلم الحقيقي كل حكايات السحر! يبدو أن نهراً من الأوامر يجري من عينيه إلى كل أولئك الذين يبصرونه، شلال من ضياء قوي حزين، مثل أوهايو أو الدانوب، يغلغل فيهم أفكاره ويلون كل الأحداث بصبغة ذهنه. قيل لزوجة كونسيني، في السؤال عن علاجها لماري آل مديتشي: «أية وسيلة استخدمت؟» وكان الجواب: «مجرد

ذلك التأثير الذي يمارسه كل ذهن قوي على الذهن الضعيف.» ألا يستطيع قيصر المقيد أن يتملص من سلاسله ويحولها إلى شخص هيبو أو ثراسو مدير المفتاح؟ هل الكلبجات الحديدية قيدٌ ثابتٌ إلى هذا الحد؟ لنفترض أن تاجراً للرقيق في ساحل غينيا كان عليه أن يحمل على ظهر السفينة عصبة من الزنوج تضم أشخاصاً من طراز توسينت لوفارتور؛ أو دعنا نتخيل أنه تحت تلك الأقنعة الداكنة كانت ثمة عصبة من أشخاص مقيدين من طراز واشنطن. فهل كان النظام النسبي لجماعة الشركة سيظل كما كان عليه عندما يصلون إلى كوبا؟ أليس هنالك شيء سوى الحبل والحديد؟ أما من حب أو تبجيل؟ أما من بصيص من الحف في ذهن زعيم العبيد البائس؛ أفليس من المفترض أن يكون هؤلاء على استعداد لكسر القيد الذي تفرضه بوصة أو اثنتين من الطوق الحديدي أو الخلاص منه بطريقة ما ؟

إنها لقوة طبيعية، مثل الضوء والحرارة، ومن شأن الطبيعة كلها أن تتعاون معها. إن السبب الذي يجعلنا نحس حضور أحد الرجال ولا نحس حضور الآخر بسيط مثل الجاذبية. الصدق هو ذروة الوجود؛ والعدالة هي تطبيقه على الأحوال. كل الطباع الفردية تقف في الميزان وتتدرج تبعاً لنقاء هذا العنصر فيها. وتجري إرادة الأنقياء منهم إلى الطباع الأخرى، كما يجري الماء من الوعاء الأعلى إلى الأدنى. هذه القوة الطبيعية لا يمكن مقاومتها أكثر من مقاومة أية قوة طبيعية أخرى تستطيع أن نقذف بحجر عالياً للحظة في الهواء، ولكن الحقيقة تظل أن جميع الصخور لا بد أن تسقط دائماً، ومهما بلغ عدد الحالات التي يمكن إيرادها عن سرقات لم يعاقب عليها، وكذب صدقه أحدهم، فإن العدالة يجب أن تسود، ومن مزايا الحقيقة أنها تجعل نفسها مصدقة الشخصية هي هذا النظام الأخلاقي الذي يرى من خلال وسط الطبيعة الفردية. فالفرد عبارة عن سياج. الزمان والمكان، الحرية والضرورة، الحقيقة والفكر، لم تعد حرة مطلقة السراج. الكون الآن عبارة عن محبس أو بقعة مسورة والأشياء توجد في الإنسان مصطبغة بسلوك روحه. فهو يخلع الصفة التي لديه على كل ما يصل إليه من الطبيعة؛ وهو لا ينوي أن يضيع نفسه في الفضاء الرحيب، إنما تعود كل اعتباراته، مهما امتد المنحنى الذي تسلكه، إلى مصلحته الخاصة في النهاية. إنه يحرك كل ما يستطيع تحريكه، وهو لا يرى إلا ما يحركه. إنه يضم العالم، كما يضم الوطني بلاده، بصفته المادة الأساس لشخصيته، والمسرح لأعماله. إن الروح المعافاة تقف متحدة بما هو عادل وصادق، كما تنظم المغناطيسية نفسها إزاء القطب؛ بحيث أنه يبدو لكل من يراه مثل مادة شفافة تقف

ما بينهم وبين الشمس، وكل من يرحل باتجاه الشمس يرحل باتجاه ذلك الشخص. وبهذا يكون الوسط ذا التأثير الأعلى على كل من هم ليسوا في نفس المستوى. وهكذا يكون الأشخاص ذوو الشخصية ضمير المجتمع الذي ينتمون إليه.

إن المقياس الطبيعي لهذه القوة هو مقاومة الظروف. الرجال غير الأنقياء ينظرون إلى الحياة كما تنعكس في الآراء، والأحداث، والأشخاص. وهم لا يقدرون على رؤية الفعل حتى يتم لكل العنصر المعنوي للفعل قد وجد سلفاً في الفاعل، وكان من السهل التنبؤ بنوعيته سواء كان صحيحاً أم خطأ. كل شيء في الطبيعة مزدوج القطب، أو أن له قطب سالب وموجب. هنالك الذكر والأنثى، الروح والحقيقة، الشمال والجنوب. الروح هي الموجب، والحدث هو السالب. العزيمة هي الشمال، والفعل هو القطب الجنوبي. يمكن تصنيف الشخصية بصفتها تحتل موقعها الطبيعي في الشمال. فهي تشترك في التيارات المغناطيسية الموجودة في النظام. تنجذب الأرواح الركيكة إلى الجنوب أو القطب السالب. وهي تنظر إلى فائدة الفعل أو أذاه. وهي غير قادرة على رؤية المبدأ حتى يحل في شخص ما. وهي لا ترغب في أن تكون لطيفة؛ إنما تريد أن يحبها الآخرون. أصحاب الشخصية يعجبهم أن يسمعوا عن أخطائهم؛ الجماعة الأخرى لا يعجبها أن تسمع عن الأخطاء؛ فهي تعبد الأحداث؛ وفر لها حقيقة، أو رابطة، أو سلسلة معينة من الظروف. فلا تعود تسأل عن شيء بعد. يرى البطل أن الحدث ملحق به، وأنه يجب أن يتبعه. أي نظام معين للأحداث لا يملك القدرة على أن يؤمن له الرضا الذي تنسبه المخيلة؛ روح الخير تهرب من أية مجموعة من الظروف؛ في حين أن الرخاء ينتسب لعقل معين، ولسوف يضفي تلك القدرة وذلك الانتصار اللذين يعتبران ثمرته الطبيعية، على أي نظام للأحداث. ما من تغير في الظروف يقدر أن يصلح العيب في الشخصية. إننا نتبجح بتحررنا من كثير من الخرافات؛ ولكن إن كنا قد حطمنا أي صنم فإننا قد فعلنا ذلك من خلال تحويل الوثنية. ما الذي استفدته، من كوني لم أعد أضحي بثور لجوبيتر أو نبتون، أو بفأر لهيكاتي، ومن كوني لم أعد أرتجف أمام يومينايديس، أو المطهر الكاثوليكي، أو يوم الدينونة الكالفيني - إذا كنت أرتعش أمام رأي، الرأي العام كما ندعوه؛ أو أمام التهديد بالهجوم، أو الإهانة، أو الجيران السيئين، أو الفقر، أو التشويه، أو إشاعة الثورة، أو جريمة القتل؛ إذا كنت أرتعش، فماذا يهم الشيء الذي أرتعش أمامه؟ إن سيئاتنا الخاصة بنا تتخذ لنفسها شكلاً أو آخر، تبعاً

لجنس الشخص، وعمره، ومزاجه، وإذا كنا قادرين على أن نخاف، فسوف نعثر على الفور على ما يخيفنا. إن الجشع أو الخبث الذي يحزنني عندما أنسبه إلى المجتمع، هو خبثي أنا. إنني مطوق دائماً بنفسي. من جانب آخر، تعتبر الاستقامة انتصاراً دائماً، لا يحتفى بها بصرخات الفرح إنما بالسكون الذي يمثل الفرح الثابت أو المعتاد. من المخزي أن نجري إلى الأحداث من أجل تأكيد قيمتنا أو حقيقتنا. إن الرأسمالي لا يجري كل ساعة إلى السمسار ليحول أرباحه إلى عملة من النوع المتداول؛ إنما يكفيه أن يقرأ في أخبار السوق أن أسهمه قد ارتفعت.إن النقلة النوعية التي يسببها لي حدوث أفضل الأحداث في أفضل ترتيب يجب أن تبدو لي أصفى مذاقاً بسبب إدراكي بأن وضعي يتحسن في كل ساعة. وقد أصبح بالفعل مسيطراً على الأحداث التي أريد. هذا السرور لا يمكن أن يسيطر عليه إلا باستشراف ترتيب للأشياء ممتاز إلى الحد الذي يلقي فيه بكل رفاهيتنا تحت أعمق الظلال.

إن الوجه الذي تلبسه لي الشخصية هو الاكتفاء بالذات إني أجل الشخص المغتني، لأني لا أستطيع أن أفكر بكونه وحيداً، أو فقيراً، أو منفياً، أو تعيساً، أو كزبون، إنما أراه دائماً كراع دائم، أو محسن، أو مبارك. الشخصية هي المركزية وهي استحالة الإقلاق أو الاستبدال. على الإنسان أن يعطينا الإحساس بالكتلة. إن المجتمع عابث، وهو يبدد يومه مزقاً وحواره في المراسيم والتهرب. ولكن إن ذهبت لرؤية رجل مبدع، فسوف أعتقد بأنه لم يحسن استقبالي إذا قدم لي قطعاً صغيرة من الإحسان والإتيكيت؛ وإني لأفضل لو أنه وقف بحزم في مكانه وتركني أفهم أنه يقاومني؛ وأعلم أنني أواجه صفة إيجابية وجديدة - وسيكون في ذلك انتعاش لكلينا. إنه لكثير أن لا يتقبل الآراء والممارسات التقليدية. هذا الخروج عن المألوف سوف يظل مثل شوكة واخزة أو تذكير دائم، وسيكون على كل سائل أن يتخلص منه في المقام الأول. ما من شيء حقيقي أو مفيد إلا وكان مقعداً للحرب. ترن في بيوتنا الضحكات والأحاديث الشخصية والانتقادية، لكنها لا تجدي شيئاً. لكن الرجل غير المهذب وغير النظامي، الذي يشكل مشكلة وتهديداً للمجتمع الذي لا يستطيع أن يتركه يمر بصمت فإما أن يعبده أو يكرهه - والذي تشعر كل الأطراف بأنها تنتسب له، قادة الرأي والمغمورين وغريبو الأطوار معاً - ذلك الذي يجدي؛ إنه يخطئ أمريكا وأوروبا، ويهدم التشكيك الذي يقول، «الإنسان دمية، دعنا نأكل ونشرب، فذلك أحسن ما نستطيعه»، عن طريق إنارة

غير المجرب وغير المعروف. إن الإذعان للمؤسسة، والرجوع إلى الجمهور، يشير إلى عدم ثبات الإيمان، وإلى رؤوس غير صافية، تحتاج إلى رؤية البيت مبنياً، قبل أن تستوعب خارطته. الرجل الحكيم لا يصرف ذهنه عن الكثير فقط، بل يصرفه أيضاً عن القليل. الينابيع، الذاتي الدافع، المستوعب، القائد لأنه معتاد، الواثق، الأول ـ أولئك هم الطيبون؛ لأنهم يعلنون الحضور الفوري للقوة الفائقة.

ينبغي لفعلنا أن يستند حسابياً على جوهرنا. في الطبيعة لا توجد تقديرات زائفة. فباوند الماء في عاصفة محيطية لا يزن أكثر من باوند الماء في غدير صيفي. جميع الأشياء تعمل تبعاً لنوعيتها ولحجمها بالضبط؛ وهي لا تحاول شيئاً لا تستطيع فعله، باستثناء الإنسان وحده. فهو يتظاهر، ويتمنى أشياء خارج قوته ويسعى إليها. قرأت في كتاب مذكرت انجليزي أن مستر فوكس (الذي أصبح فيما بعد اللورد هولاند) قال: «أنه يجب أن يحصل على الخزانة؛ لقد خدم ما يكفي للوصول إليها، ولسوف ينالها.» كان زينوفون وعشرة آلافه نداً لما حاولوه، وقد قاموا به؛ لقد كانوا نداً له إلى الحد الذي لم يشتبه عنده بأنه كان انجازاً عظيماً وفذاً. ومع ذلك فإن هذه الحقيقة تقف غير متكررة، علامة قياسية في التاريخ العسكري لقد حولها الكثيرون منذ ذلك الحين، لكنهم لم يكونوا أنداداً لها. فعلى الحقيقة وحدها يمكن لأية قدرة على الفعل أن تستند.ما من مؤسسة تكون أفضل من المؤسس. أعرف شخصاً ودوداً مهذباً تعهد بإنجاز إصلاح عملي، لكني لم أستطع أبداً أن أجد فيه التعهد بالحب الذي أخذه على عاتقه. فقد تبنى مشروعه عن طريق الأذن والفم المستقى من الكتب التي كان يقرؤها. وكل فعله كان تجريبياً، قطعة من المدينة محمولة إلى الحقول، لكنها ظلت المدينة، ولم تتحول إلى حقيقة جديدة، وما كان بوسعها أن توحي بالحماس. فلو كان ثمة شيء كامن في الرجل، نوع من العبقرية الفظيعة الظاهرة التي تذكي سلوكه وتحرجه، لكنا شهدنا مقدمها. لا يكفي أن يرى العقل الشرور وعلاجها. فما دام الأمر مجرد فكرة وليس روحاً تحفزنا، فإننا سوف نستمر في تأجيل وجودنا، ولا نتقدم لاحتلال الموقع المخصص لنا. فنحن لم نبذل ما يوصلنا إليه.

هذه هي خصائص الحياة، وثمة سمة أخرى هي ملاحظة النمو المتواصل. على الناس أن يكونوا أذكياء وأمناء. كما أن عليهم أيضاً أن يجعلوننا نشعر أن لديهم مستقبلاً سعيداً ومسيطراً ينفتح أمامهم، تومض أنوار فجره المبكرة في الساعة

الراهنة. ثمة خطأ في إدراك البطل والتبليغ عنه، فهو لذلك لا يستطيع أن ينتظر لكي يكشف تخبطات أي كان وهو يواصل طريقة ثانية، مضيفاً قدرات وأمجاد جديدة لحوزته ومطالب جديدة له في فؤادك، من شأنها أن تفلسك لو أنك تلكأت عند الأمور القديمة ولم تحفظ علاقتك به عن طريق ما تضيفه إلى غناك. الأفعال الجديدة هي التفسيرات الوحيدة للأفعال القديمة والإعتذارات الوحيدة عنها التي يستطيع الشخص النبيل أن يقدمها أو يتلقاها. فإن كان صديقك قد أزعجك، فإنك يجب أن لا تجلس للتفكير في الأمر، لأنه قد نسي الواقعة، وضاعف من قدرته على خدمتك، وقبل أن تنهض ثانية سوف يكون قد أثقلك ببركاته.

لا نجد متعة في التفكير بإحسان لا يمكن قياسه إلا بأفعاله. فالحب غير قابل للاستنفاد، وهو يظل قادراً على الإبهاج والإغناء حتى عندما يضيع عقاره، وتفرغ أهراؤه، والرجل، حتى وهو نائم، يبدو كما لو أنه ينقي الهواء والبيت من أجل أن يزين المشهد ويقوي القوانين. يلاحظ الناس دائماً هذا الفارق. فنحن نعرف من هو المحسن، بوسائل أخرى غير كمية ما يتبرع به لجمعيات الحساء. فالخصال الدونية وحدها هي القابلة للتعداد.. عليك أن تشعر بالخوف عندما يخبرك أصدقاؤك بما فعلته على نحو طيب، ويفرغون منه؛ ولكن عندما يقفون وفي عيونهم نظرات جبانة غير مؤكدة يمتزج فيها الاحترام ونصف الامتعاض، ويعلقون حكمهم لسنوات قادمة أخرى، فإن بوسعك أن تبدأ بالأمل. إن الذين يعيشون من أجل المستقبل لا بد أن يبدون أنانيين بالنسبة للذين يعيشون من أجل الحاضر. لذلك كان سخفاً من الطيب رايمر، الذي كتب مذكرات غوته، أن يضع قائمة بهباته وأفعاله الطيبة، مثل، الكثير من مئات التيلرات المقدمة لستيلنغ، وهيغل، وتيشبيان؛ موقع مربح تم إيجاده للبروفسور فوس، وظيفة لدى الدوق الأكبر لهيردر، تقاعد لميير، التوصية باستخدام استاذين لدى الجامعات الأجنبية، إلخ..إلخ. إن أكثر قوائم المنافع تظل قصيرة. فالإنسان يكون مخلوقاً بائساً إن تم قياسه على هذا النحو. لأن كل هذه استثناءات، بالطبع، والقاعدة في حياة الإنسان الطيب هي الإفادة. إن الإحسان الحقيقي في شخص غوته يمكن الاستدلال عليه من الكشف الذي قدمه للدكتور إيكرمان عن الطريقة التي أنفق بها ثروته. «كل قول بارع كتبته كلفني كيس ذهب. نصف مليون من مالي الخاص، والثروة التي ورثتها، وراتبي، والدخل الكبير الذي حصلت عليه من كتاباتي على مدى خمسين عاماً قد انفقت في

تعليمي لما صرت أعرفه الآن. وإلى جانب ذلك، فقد رأيت ...» إلخ.

أرى أن من باب الحديث والثرثرة الفارغة التصدي لتعداد سمات هذه القدرة البسيطة والعاجلة، وأننا بذلك إنما نرسم البرق بالفحم، ولكني أرغب في تسلية نفسي على هذا النحو في هذه الإجازات والليالي الطويلة. فلا شيء يستطيع أن ينسخ هذه القدرة سوى نفسها. إن كلمة دافئة من القلب تغنيني. وإني لأستسلم للحذر. إن العبقرية الأدبية تبدو باردة برودة الأموات إزاء نار الحياة هذه هي اللمسات التي تعيد الحياة إلى روحي المثقلة وتمنحها عيوناً تخترق بها ظلمة الطبيعة. أجد أنني الأكثر غنى في المواضيع التي حسبتني فيها فقيراً. ومن هنا يأتي إحساس فكري مفرط جديد، لكي يعود فيكبح بالكشف عن جانب جديد من الشخصية. ياله من تداول غريب ما بين الإنجذاب والنفور! تنفصل الشخصية عن الفكر، لكنها تثيره؛ وتتحول الشخصية إلى فكرة، ويتم إعلانها على هذا النحو، ثم تخجل أمام ومضات جديدة من القيمة الأخلاقية. الشخصية هي الطبيعة في أرفع أشكالها. من العبث تقليدها أو معارضتها. فثمة قسط متاح من المقاومة، والإصرار، والخلق لهذه القوة التي تفسد كل محاكاة. تكون هذه التحفة في أفضل حالاتها عندما لا تقع عليها يد غير يد الطبيعة. وهنالك عناية تبذل من أجل أن يتسلل الذين رصدوا لأقدار عظيمة إلى الحياة في الظل، بدون عيون أثينا الألف التي تراقب وتطري وكل فكرة جديدة، وكل عاطفة متوردة لدى العبقري اليافع. قدم لي مؤخراً شخصيات يعتبران طفلين صغيرين للرب الأعلى، المناسبة التي تستحق التفكير. فعندما استكشفت مصدر القداسة والسحر الذي يمارسانه على المخيلة، بدا لي أن كل واحد منهما كان يجيبني: «من عدم تماثلي؛ فأنا لم أصغ أبداً لقانون قومك، أو لما يدعونه بإنجيلهم، ولم أضيع بذلك وقتي. فقد كنت مكتفياً بالفاقة الريفية الخاصة بي؛ ومن هنا جاءت هذه العذوبة؛ فعملي لا يذكرك أبداً بذلك - إنه نقي من ذلك.» الطبيعة تعلن لي في مثل هؤلاء الأشخاص أنها لن تكون مدمقرطة في أمريكا الديمقراطية. ما أشد توحدها وانعزالها عن السوق وعن الفضيحة! في هذا الصباح بالذات أرسلت بعض الأزهار البرية لهذين الإلهين الخشبيين. إنها نجاة من الأدب. هذه التيارات الطرية من منابع الفكر والشعور، حين نقرأ، في زمن التلميع والنقد، السطور الأولى لشعر أمة ونثرها المكتوب. ياله من ولاء آسر ذلك الذي يحملانه لكتبهما المفضلة سواء كانت لأسخيلس، أو دانتي، أو شكسبير، أو سكوت، حيث يشعر المرء بأن لهؤلاء حصة في

ذلك الكتاب؛ من يلمس ذلك، يلمسهم، وبالأخص العزلة التامة للناقد، باتموس الفكر الذي ينهل كتابته منه، في انصراف تام عن أية أعين يمكن أبداً أن تقرأ هذه الكتابة ما أجمل أن يظلا قادرين على الحلم، كالملائكة، دون أن يفيقا على المقارنات والتملق! ومع ذلك فإن بعض الطباع أطيب من أن يستطيع الإطراء فسادها، وحيثما نزل عرق الفكرة متغلغلاً في العمق، كلما اختفى خطر الإصابة بالغرور. سوف يحذرهم بعض الأصدقاء الرصينين من مغبة أن يدير صدح الأبواق رؤوسهم، لكنهم سيكونون قادرين على الإبتسام. أتذكر غضبة ميثودي فصيح على التحذيرات اللطيفة لأحد دكاترة القدسية؛ «إن الإنسان، يا صديقي، لا يمكن أن يطرى ولا أن يهان.» ومع الإعتذار لهذا الرأي، فإن هذه الأمور طبيعية جداً أتذكر الفكرة التي خطرت لي عندما جاء بعض الأجانب البارعين والروحانيين إلى أمريكا، لقد كانت؛ هل تحولتم إلى ضحايا من جراء إحضاركم إلى هنا؟ ـ أو ، قبل ذلك، أجيبوني على ما يلي: «هل أنتم قابلون للتحول إلى ضحايا؟»

وكما سبق لي أن قلت، فإن الطبيعة تحتفظ بهذه السلطات في يدها، ومهما كانت درجة ودقة مواعظنا وانظمتنا في تقسيم حصص الفصل، وتعليم الناس أن القوانين تأتي على شاكلة المواطن، فإنها تمضي وفقاً لهواها، وتظهر خطأ أكثر الأشخاص حكمة. إنها لا تعير أهمية كبيرة للأناجيل والأنبياء، بصفتها الجهة التي تمتلك الكثير مما يجب أن ينتج والتي لا تملك فائضاً من الوقت يمكن أن تنفقه على أي كائن كان. هناك طبقة من البشر، أفراد يظهرون في فترات متباعدة، يتحلون بقسط ظاهر من البصيرة والفضيلة يجعل الناس يجمعون على إجلالهم بصفتهم «قدسيين» أولئك، على ما يبدو، هم تراكم تلك القوة التي نحن بصددها. الأشخاص القدسيون هم الشخصية مولودة، أو، النصر منظماً على حد قول نابليون. وهم عادة يستقبلون بسوء نية، لأنهم جديدون ولأنهم يضعون حداً للمبالغة في تقدير شخصية آخر الأشخاص القدسيين. الطبيعة لاتكرر أبناءها أبداً، ولا تصنع شخصين متشابهين. عندما نرى إنساناً عظيماً نتخيل شبهاً بأحد الشخصيات التاريخية، ونتنبأ له بأن يقتفي شخصيتها ونصيبها؛ وهي النتيجة التي لا بد له أن يخيبها. فما من أحد سيحل معضلة شخصيته تبعاً لتوقعاتنا الخاطئة، إنما بطريقته الخاصة غير المسبوقة. الشخصية تريد مساحة؛ ولا ينبغي لها أن تزحم بالأشخاص أو أن يحكم عليها من لمحات تؤخذ وسط ضغط

الأحداث أو في مناسبات قليلة. إنها، مثل المبنى العظيم، تحتاج إلى منظور. وهي قد لا تقيم العلاقات بسرعة؛ وعلينا أن لا نطلب توضيحاً عاجلاً لفعلها سواء على مستوى الأخلاقيات الشائعة أو على مستوى أخلاقياتنا الخاصة.

أنظر إلى النحت بصفته تاريخاً. لا أعتقد باستحالة وجود أبوللو وجوبيتر من لحم ودم. كل سمعة الفنان بالصخر كان قد رآها في الحياة، وعلى نحو أفضل مما هي عليه في نسخته. لقد رأينا الكثير من المزيفين، لكننا ولدنا مؤمنين بالرجال العظام. ما أسهل أن نقرأ في الكتب القديمة عن أصغر أعمال البطاركة، عندما كان الرجال قليلين. نتطلب من الرجل أن يكون ضخماً وأن ينتصب كالدعامة في المشهد الطبيعي، وأن مما يستحق التسجيل أنه قد نهض، وشمر عن ساعديه، وغادر إلى المكان الفلاني. أقرب الصور إلى التصديق هي تلك التي تمثل الرجال الضخام الذين يهيمنون بمقدمهم، ويقنعون الحواس ـ كما حدث للساحر الشرقي الذي أرسل لاختبار مزايا زرادشت. يحدثنا الفرس بأن الحكيم اليوناني حين وصل إلى بلخ، عين غوشتاسب يوماً لتجمع الموبيديين من كل البلاد، ووضع كرسياً ذهبياً للحكيم اليوناني. بعد ذلك تقدم النبي زرادشت، محبوب يزدام، إلى وسط الحشد. وما أن رأى الحكيم اليوناني ذلك الزعيم حتى قال: «إن هذا الشكل وهذه الهيأة لا يكذبان، ولا يمكن أن ينتج عنهما شيء سوى الحقيقة.» وقد قال أفلاطون أن عدم الإيمان بأبناء الآلهة كان مستحيلاً «رغم أنهم قد يتحدثون بدون محاججات ضرورية أو محتملة.» ولسوف أعتبر نفسي شقياً جداً في استنتاجاتي لو أنني لم أستطع أن أميز أفضل الأشياء في التاريخ. يقول ميلتون، «يبدو جون برادشو مثل حاكم، لا يغادره الصولجان مع انصرام الأعوام؛ حتى أنك لتراه، لا في المحكمة فحسب بل على امتداد حياته، وكأنه جالس للحكم على الملوك.» إن كون رجل قادراً على «معرفة السماء»، كما يقول الصينيون، أقرب إلى التصديق لدي من كون رجال كثر عديدين قادرين على معرفة العالم. «يواجه الأمير الفاضل الآلهة، دون أية ريبة. إنه ينتظر مئة عصر لحين مجيء الحكيم، ولا يساوره الشك. إن الذي يواجه الآلهة، دون أية ريبة، يعرف السماء؛ والذي ينتظر مئة عصر لحين مجيء الحكيم، دون أن يساوره الشك، يعرف البشر. ولهذا يتحرك الأمير الفاضل، وعلى مدى عصور يهدي الإمبراطورية إلى الطريق.» ولكن ليست هناك حاجة إلى البحث عن أمثلة قصية. إنه لمراقب بليد ذلك الذي لم تعلمه تجربته حقيقة السحر وقوته، إلى جانب حقيقة الكيمياء

وقوتها. ليس بوسع أكثر المتزمتين برودأ التوجه إلى الخارج دون مواجهة التأثيرات غير القابلة للشرح. يثبت رجل ما عينه عليه، وتخرج قبور الذاكرة موتاها؛ ينبغي للأسرار التي تجعله شقياً بكتمانها أو إذاعتها أن تسلم لشخص آخر، وعو غير قادر على الكلام، وعظام جسمه تبدو كما لو أنها فقدت غضاريفها؛ قدوم صديق يزوده بالسمو، والشجاعة، والفصاحة؛ وثمة أشخاص لا يستطيع إلا أن يتذكرهم، ممن منحوا أفكاره سعة سامية، وأوقدوا حياة جديدة في صدره.

ما هو الشيء الذي يفوق في جودته علاقات المودة المستقيمة، عندما تنبع من هذا الجذر العميق؟ إن الجواب الكافي على المشكك الذي لا يؤمن بقوة الإنسان وقدراته يكمن في تلك الإمكانية لقيام التواصل البهيج مع الأشخاص الذي يشكل إيمان الأشخاص العقلاء وممارستهم. لا أعرف شيئاً تقدمه الحياة يوازي في متعته ذلك التفاهم الطيب العميق الذي يمكن أن يقوم، بعد تبادل الكثير من الأعمال الطيبة، بين رجلين فاضلين، يكون كل منهما واثقاً بنفسه وبصديقه. إنها لسعادة تتقدم على كل المسرات الأخرى، وتجعل السياسة، والتجارة، والكنائس رخيصة. فحين يلتقي الرجال كما ينبغي لهم، وكل واحد منهم محسن، شلال من النجوم، مكسو بالأفكار، والفعال، والإنجازات، ينبغي أن يشكل ذلك عيداً للطبيعة تعلن عنه الأشياء جميعاً. إن الحب بين الجنسين هو أول رموز هذه الصداقة، كما أن جميع الأشياء الأخرى رموز للحب. هذه العلاقات بالناس الفضلاء، التي نحسبها في فترة ما من رومانسية الشباب، تصبح عند تقدم الشخصية، المتعة الأكثر رسوخاً. آه لو كان بالإمكان العيش بعلاقات صحيحة مع الناس! لو أننا استطعنا أن نمتنع عن مطالبتهم بأي شيء، عن أن نطلب منهم المديح، أو المساعدة، أو الشفقة، واكتفينا باخضاعهم لفضيلة القانون الأقدم بين القوانين! أفليس بوسعنا أن نتعامل مع أشخاص قلائل - مع شخص واحد - تبعاً للشرائع غير المدونة، وأن نجرب قدرتهم على التأثير؟ ألا نستطيع أن نكرم صديقنا بالحقيقة، أو بالصمت، أو بالبصر؟ أيتحتم علينا أن نتلهف في طلبه؟ إذا كنا مرتبطين، فسوف نلتقي. من تقاليد العالم القديم الإعتقاد بأن ما من عملية استحالة يمكن أن تخفي الإله عن الإله؛ وهنالك شعر إغريقي يقول:

الآلهة ليسوا غير معروفين بالنسبة لبعضهم البعض.

الأصدقاء أيضاً يتبعون قانون الضرورة القدسية فهم ينجذبون إلى بعضهم،ولايستطيعون فعل العكس:

عندما يتجنب الواحد الآخر

يبلغ الواحد ذروة استمتاعه بالآخر.

إن علاقتهما ليست مصنوعة، بل متاحة. ينبغي للآلهة أن تجلس نفسها دون مرافقين في أولمبنا، وأن تنصب نفسها ما استطاعت حسب الأقدمية القدسية. تفسد الصحبة بتكلف الجهد، عندما يسير الطرفان ميلاً من أجل اللقاء. فإذا لم تكن صحبة، فإنها ثرثرة مؤذية، دونية، مهينة حتى وإن تكونت من أفضل الأشخاص. تحتجب كل العظمة الموجودة لدى كل من الطرفين وكل نقاط الضعف في مجهود مؤلم، كما لو أن الأولمبيين قد التقوا لتبادل علب النشوق.

الحياة تمضي قدماً، نطارد مشروعاً شارداً، أو يطاردنا بعض الخوف أو الأمر من ورائنا. ولكن إن التقينا بغتة بصديق، نتوقف؛ تبدو عجلتنا وحماستنا حمقاء بما يكفي؛ فلنتوقف الآن التمالك مطلوب، كذلك القدرة على إتراع اللحظة من منابع القلب. اللحظة هي كل شيء، في جميع العلاقات النبيلة. إن الشخص القدسي هو نبوءة العقل؛ والصديق هو أمل القلب. وهناؤنا ينتظر تحقيق هذين الأمرين في واحد. تفتح العصور هذه القوة المعنوية. كل قوة أخرى هي ظل هذه القوة أو رمزها. والشعر مبهج وقوي ما دام ينهل إلهامه منها. يكتب الرجال أسماءهم عن العالم عندما يمتلئون بها لقد كان التاريخ شحيحاً؛ وشعوبنا كانت غوغاء؛ ونحن لم نر مطلقاً إنساناً؛ نحن لا نعرف بعد ذلك الشكل القدسي؛ إنما نعرف الحلم والنبوءة به فحسب؛ ونحن لا نعرف الأخلاق الملكية التي يتحلى بها، التي ترضي الناظر وترتفع به. سوف نرى في أحد الأيام أن ماهو أشد خصوصية هو الطاقة الأكثر عمومية، تلك الخاصية تعوض في الظلام عن كمية أفعال الشخصية وعظمتها، وحمقى هم أولئك الذين لا يبصرونها أبداً. إن كل ما ظهر من عظمة لحد الآن هو بدايات وتشجيع لنا في هذا الإتجاه. إن تاريخ أولئك الآلهة والقديسين الذي كتبه العالم ثم عبده هو وثائق الشخصية. لقد ابتهجت العصور بسلوك شاب لم يكن يدين بشيء للمقادير، وشنق «تابير» عند قومه، وهو الذي أضفى، بنوعية طبيعته النقية، روعة ملحمية من حول حقائق موته حولت كل تفصيل إلى رمز كوني كيما تراه عيون الجنس البشري. ذلك الاندحار العظيم قد تحول بذلك إلى أرقى حقائقنا. لكن العقل يريد انتصاراً من أجل الحواس! يريد قوة الشخصية التي تجعل القاضي، والمحلق، والجندي، والملك يتحدثون عن إيمانهم، وتتحكم في فضائل الحيوان

والمعدن، وتمتزج بمجرى النسغ، والأنهار، والرياح، والنجوم، والعوامل الأخلاقية.

إذا لم نكن قادرين على الإحاطة بهذه الخصال الرائعة، فلنقدم لها الإجلال على الأقل. في المجتمع، ينظر إلى المزايا الرفيعة كما لو أنها في غير صالح من يملكها. فهي تستدعي المزيد من الحذر في تقديراتنا الخاصة. لا أسامح صديقي على فشله في التعرف على الشخصية الرفيعة وفي معاملتها بضيافة ممتنة. عندما يصل أخيراً ذلك الشيء الذي تقنا له دائماً ويسطع علينا بأشعة فرحة قادمة من تلك الأرض السماوية البعيدة، فإن التصرف بخشونة، وإبداء الانتقاد والتعامل مع مثل هذا الزائر بهذر وشكوك الشوارع، ينم عن فظاظة تغلق أبواب السماء. ذلك هو الخلط، وهذا هو الجنون المضبوط، عندما لا تعود الروح تعرف ما يخصها، ولا لمن ينبغي لها أن تقدم ولاءها وإيمانها هل يوجد هناك ديانة أخرى غير هذه؛ أن أعرف أينما تفتح في صحراء الوجود الشاسعة ذلك الإحساس المقدس العزيز على شكل زهرة، أنه قد أزهر من أجلي؟ إذا لم يره أحد، فإني أراه؛ أنا مدرك لعظمة هذه الحقيقة، حتى ولو كنت الوحيد الذي يدركها. فما دامت مزهرة، فإني ألزم السبت أو الفترة المقدسة، وأوقف كآبتي وحماقتي ونكتي. وتنهمك الطبيعة في حضور هذا الضيف. هنالك الكثير من العيون التي تستطيع أن تميز وتختفي بالفضائل المدبرة والمنزلية وتحتفي بها؛ وهناك الكثير من العيون التي تستطيع أن تتعرف على العبقري في خط سيره المرصع بالنجوم، رغم أن الدهماء لا يستطيعون ذلك؛ ولكن ذلك الحب الذي يتمثل فيه كل العذاب، وكل الغياب، وكل التوق، والذي أقسم على نفسه أن يكون شقياً وأحمقاً في هذا العالم قبل أن يلوث يديه البيضاوين بأي نوع من الإذعان، حين يصل إلى شوارعنا وبيوتنا - فلن يعرف وجهه سوى الأنقياء والتواقين، وسيكون الانتماء إليه هو الإطراء الوحيد الذي يمكن أن يقدموه له.

١٦

السلوك الحسن

يقال أن نصف العالم لا يعرف كيف يعيش النصف الآخر. رأت بعثتنا الاستكشافية أبناء فيجي وهم ينتزعون عشاءهم من عظام بشرية؛ ويقال أنهم يأكلون زوجاتهم وأطفالهم. إن اقتصاد السكان المعاصرين لغورنو (إلى الغرب من ثيبة) فلسفي إلى أبعد حد. فهم لا يحتاجون من أجل إقامة المنزل إلا إلى قدرين طينيين أو ثلاثة، وحجر لطحن الوجبة، وحصير يقوم مقام الفراش. والمسكن، وهو عبارة عن لحد، جاهز بدون بدل إيجار أو ضريبة. لا مطر يمكن أن ينفذ من السقف، ولا باب هناك، إذ ما من شيء يمكن أن يفقد. إذا لم يعجبهم البيت، تركوه ودخلوا آخر، إذ توجد المئات تحت طلبهم. يقول بلزوني الذي ندين له بهذه التفاصيل، «إنه لأمر فريد أن نتحدث عن السعادة وسط شعب يعيش في المقابر بين جثث ومخلفات أمة قديمة لا يعرف عنها شيئاً.» في صحارى بورغو، ما يزال تيبويو الصخور يسكنون الكهوف، مثل طيور السنونو، ويقارن جيرانهم أصوات هؤلاء الزنوج بصرخات الوطاويط أو صفير الطيور. لا يحمل البورنو أسماء، فالأفراد يدعون حسب طولهم أو بدانتهم، أو أية صفة خارجية، وليست لديهم سوى ألقاب. لكن الملح، أو التمور، أو العاج، أو الذهب، التي يقصد الناس من أجلها هذه البقاع المريحة، تجد طريقها إلى دول يصعب وضع أناسها الذين يشترون هذه البضائع ويستهلكونها في مرتبة واحدة مع أكلة لحوم البشر وخاطفي الرجال أولئك. إنها دول يستخدم فيها الإنسان المعادن، والخشب، والصخر، والزجاج، والصمغ، والقطن، والحرير، والصوف؛ ويشيد لنفسه العمارة، ويدون القوانين، ويسعى إلى تنفيذ مشيئته من خلال أيادي أمم كثيرة؛ ويؤسس؛ كنوع من الأرستقراطية ذاتية المنشأ، أو الأخوية التي تضم الأفضل، والتي تعمل، دونما قانون مكتوب أو أية ممارسة محددة من أي نوع، على إدامة نفسها، واستعمار أية جزيرة حديثة الزراعة، وتبني أي نوع من الجمال الخاص أو المزية المحلية الاستثنائية حيثما ظهرت وتحوله إلى مزية خاصة بها.

أية حقيقة أكثر بروزاً في التاريخ المعاصر من نشوء الجنتلمان؟ فهو الفروسية، والولاء، ونصف الدراما في الأدب الإنجليزي وكل الروايات من السير فيليب سدني إلى السير والتر سكوت ترسم هذه الشخصية. إن كلمة «الجنتلمان» التي يجب أن تميز القرن الحالي والقرون القليلة القادمة بالأهمية التي ترتبط بها، شأنها في ذلك شأن كلمة «المسيحي»، هي نوع من الإكبار للخصال الشخصية غير القابلة للنقل إلى الغير. لقد ألحقت بالاسم إضافات رائعة وعبثية، لكن اهتمام البشرية المتواصل به ينبغي أن ينسب إلى الخصال النفسية التي يمثلها. إن العنصر الذي يوحد جميع الأشخاص النافذين في كل بلد، ويجعلهم مفهومين ومناسبين لبعضهم البعض، وهو على نحو ما دقيق ومحدد إلى الحد الذي يجعل غياب الإشارة الماسونية محسوساً في الفرد على الفور، لا يمكن أن يكون نتاجاً عرضياً، إنما لا بد أن يكون معدل ناتج الشخصية والمزايا الموجودة عموماً في الرجال. إنه ليبدو نوعاً من المعدل الثابت، كما أن الجو مركب ثابت، في الوقت الذي تختلط فيه الكثير من الغازات لمجرد أن تطرح خارجه. يستخدم الفرنسيون عبارة «كما ينبغي» لوصف الطيبة ويعنون به: كما ينبغي لنا أن نكون. إنه الثمرة التلقائية لمواهب ومشاعر تلك الطبقة التي تمتلك القسط الأكبر من النشاط، والتي تتولى تزعم عالم الساعة، ورغم أنه بعيد عن النقاء، وبعيد عن كونه النبرة الاعلى والأكثر سروراً للشعور الإنساني، فإنه أفضل ما يتيحه المجتمع بكامله. إنه مصنوع من الروح، أكثر من كونه مصنوعاً من مواهب الرجال، وهو نتيجة مركبة تدخل في مكوناتها كل قدرة عظيمة كالفضيلة، والبداهة، والجمال، والثراء، والقوة.

هنالك شيء من اللبس في جميع الكلمات المستخدمة للتعبير عن جودة السلوك والتهذيب الاجتماعي، لأن الكميات متقلبة، ولأن الحواس تفترض أن التأثير النهائي هو المسبب. ليس لكلمة «جنتلمان» أي وصف مطابق يعبر عن السمة المعنية. فكلمة «النبالة» gentility عادية، وكلمة «الرقة» gentilesse بالية. ولكن علينا أن نحافظ في لغتنا الدارجة على الفارق ما بين «المنزلة الرفيعة»، وهي كلمة ذات معنى ضيق وفي أغلب الأحيان غير حميد، والسمة البطولية التي تحملها كلمة «جنتلمان». ولكن ينبغي احترام الكلمات المعتادة؛ ففيها يمكن العثور على جذر الأمر. فنقطة التميز التي تحملها كل هذه الفئة من الأسماء مثل المجاملة، والفروسية، والمكانة الرفيعة، وما يشابهها هي في كونها تحمل فكرة الزهرة والثمرة، وليس بذرة الشجرة. الهدف هذه المرة هو الجمال، لا القيمة. وما

يطرح للبحث الآن هو النتيجة، رغم أن كلماتنا تلمح على نحو جيد إلى الشعور الشائع بأن المظهر ينم عن الجوهر. فالجنتلمان رجل صدق، وسيد أفعاله، وهو يعبر عن هذه السيادة في سلوكه؛ وليس بأية طريقة تتوقف على الأشخاص أو الآراء أو الممتلكات أو تخضع لها. إلى ما هو أبعد من الصدق والقوة والحقيقة، تشير الكلمة إلى الطبع الطيب أو الإحسان. الرجولة أولاً ثم الرقة. الفكرة السائدة تضيف بالتأكيد شرط البحبوحة والثروة؛ لكن ذلك هو النتيجة الطبيعية للقوة الشخصية والحب، اللذين ينبغي لهما امتلاك طيبات العالم والتصرف بها في أوقات العنف، تسخ لكل شخص بارز فرص عديدة لكي يؤكد شجاعته وقيمته، ولهذا السبب نجد أن إسم كل شخص برز من زحمة العصور الإقطاعية، يرن في آذاننا مثل صدح الأبواق. لكن القوة الشخصية تظل مرغوبة هذا الأمر ما يزال ظاهراً اليوم، ووسط الحشد المتحرك للمجتمع الطيب يُعرف الرجال ذوو البسالة والحقيقة ويرتقون إلى موقعهم الطبيعي. إن التنافس قد تحول من الحرب إلى السياسة والتجارة، لكن القوة الشخصية تظهر على الفور في هذه الحلبات الجديدة.

القوة أولاً وإلا فلن تكون هناك طبقة قائدة. في السياسة وفي التجارة، يكون الملاكمون والقراصنة أفضل حظاً من المتحدثين والموظفين. يعلم اللّه أن كل أنواع الرجال «الجنتلمان» يطرقون الباب؛ ولكن حيثما استخدم الاسم باستقامة ومع شيء من التأكيد، ستجد أنه يشير إلى طاقة أصيلة. إنه يصف رجلاً يقف باستحقاقه ويعمل وفق أساليب لم يعلمها له أحد. في السيد الجيد يجب أن يكون هناك حيوان جيد، على الأقل إلى الحد الذي يكفي لتحقيق مزية الروح الحيوانية. على الطبقة الحاكمة أن تمتلك المزيد من تلك الروح، لكنها يجب أن تمتلك منها ما يجعل من السهل عليها إنجاز الأمور التي يعجز عنها الحكيم، إلى جانب ما تضفيه من إحساس بالقوة وسط أية جماعة تكون فيها. إن مجتمع الطبقة الحيوية، في لقاءاتها الودودة والاحتفالية، زاخر بالشجاعة والخطوات التي تثير الرعب لدى المثقف الشاحب. إن الشجاعة التي تبديها الفتيات تشبه معركة بحرية. يعتمد الفكر على الذاكرة من أجل تزويده بما يحتاجه لمواجهة هذه الأساطيل المرتجلة. لكن الذاكرة، بحضور هؤلاء السادة المباغتين، ليست سوى متسولة وضيعة تحمل سلة المتسولين وشارتهم. ينبغي لحكام المجتمع أن يرقوا إلى مهمتهم العالمية، وأن يكونوا بمستوى وظيفتهم متعددة المهام. رجال من طراز قيصري يحملون تشكيلة واسعة من وجوه القرابة. إنني بعيد عن تصديق القول الخائف للورد فوكلاند

«ينبغي الذهاب مثنى إلى المناسبة؛ لأن الشخص الشجاع سيظهر بأكثر الصيغ تحايلاً»، وأنا أحمل الرأي القائل أن الجنتلمان هو الشخص الشجاع الذي لا يمكن لصيغه أن تخترق؛ وأن ذلك الطبع الوافر وحده هو السيد المشروع الذي يشرف كل من يتعامل معه. من اعتبره جنتلماناً يبسط القانون حيثما وجد؛ يتفوق على القديسين في الصلاة في الكنائس، ويتفوق على الجنرلات في قيادة الميدان، ويسطع فوق كل مجاملة في البهو. وهو رفيق طيب للقراصنة وللأكاديميين؛ بحيث أن من العبث أن تحصن نفسك ضده؛ وهو يملك مدخلاً خصوصياً إلى كل العقول، وليس بوسعي أن أستبعده كما أنني لا أستطيع أن أستبعد نفسي. جنتلمانات آسيا وأوروبا المشهورون كانوا من هذا الطراز القوي؛ صلاح الدين، سابور السيد، يوليوس قيصر، سيبيو، الإسكندر، بركليس، والشخصيات الرفيعة. كانوا يجلسون في مقاعدهم غير مكترثين، وكانوا أرفع من أن يقيموا عالياً أي ظرف كان.

في العرف الشائع، تعتبر الثروة الوفيرة ضرورية لكمال هذا الإنسان، وهي وكيله المادي الذي يتم الرقصة التي قادها الأول. المال ليس ضرورياً، لكن هذه الصلة الواسعة ضرورية، وهي تتجاوز حدود الزمرة أو الطائفة وتجعل نفسها محسوسة بالنسبة للرجال من جميع الطبقات. إذا كان الأرستقراطي مقبولاً فقط في الأوساط المتأنقة ولم يكن كذلك بين العامة، فإنه لن يكون أبداً قائداً ذا شعبية، وإذا لم يستطع رجل الشعب أن يتكلم على مستوى الندية مع الجنتلمان، على نحو يجعل الجنتلمان يدرك بأنه حقاً منتم لمرتبته، فلا داعي للخوف منه. لقد كان ديوجينس، وسقراط، وإيبامينونداس جنتلمانات من أفضل الأصول اختاروا حالة الفقر في الوقت الذي كانت حالة الثراء متاحة لهم. أشير إلى هذه الأسماء القديمة، لكن الرجال الذي أتحدث عنهم من معاصري. إن القدر لا يزود كل جيل بواحد من هؤلاء الفرسان المختارين، لكن كل مجموعة من الرجال تقدم نموذجاً للطبقة؛ وسياسة هذا البلد، وتجارة كل مدينة من المدن تدار من قبل هؤلاء الفعلة الصلبين وغير المبالين، الذين يملكون من الابتكار ما يكفي لاحتلال الصدارة؛ إضافة إلى تعاطف عريض يضعهم في موضع الزمالة مع الحشد، ويجعل أفعالهم محبوبة.

يراقب أصحاب الذوق تصرفات هذه الطبقة ويلتقطونها بتفانٍ. إن ارتباط هؤلاء السادة بعضهم ببعض ومع الأشخاص الأذكياء الذين يماثلونهم في المزايا، لهو أمر

مناسب ومحفز معاً. فالصيغ الطيبة والتعابير المسرة لكل منهم، تكرر ويتم تبنيها. باتفاق سريع يتم اسقاط كل ماهو فائض، وتجديد كل ما هو لطيف. السلوك الراقي يبدو مرعباً بالنسبة للإنسان غير المهذب. فهو نوع رصين من علم الدفاع من أجل التفادي والتخويف؛ لكنه ما أن يواجه بما يماثله من مهارة لدى الطرف الآخر، حتى يخفض رأس سيفه ـ تختفي النقاط والمبارزة، ويجد الشاب نفسه في جو أكثر شفافية، حيث تكون الحياة لعبة أقل إزعاجاً، وحيث لا ينشأ أي سوء تفاهم بين اللاعبين. يهدف السلوك الحسن إلى تسهيل الحياة، والتخلص من المعوقات وإيصال المرء نقياً إلى حيث يمكن أن يشحن بالطاقة. وهو يساعد في معاملاتنا ومحادثاتنا كما يساعد القطار في السفر، عن طريق التخلص من جميع العوائق التي يمكن التخلص منها على الطريق وعدم إبقاء ما يمكن التغلب عليه سوى الفضاء المطلق. إن صيغ السلوك الحسن تثبت بسرعة كبيرة، وبالمزيد من العناية يمكن تنمية إحساس راق بالجدارة يتحول إلى شارة للإمتياز الإجتماعي والمدني. هكذا تنمو المكانة الرفيعة، الشبيه الملتبس، الأكثر قوة، والأكثر روعة وعبثاً، والشيء الذي يُخشى ويُتبع أكثر من غيره، والذي تحاربه الأخلاق والعنف بلا طائل.

توجد علاقة وثيقة بين طبقة النفوذ والدوائر المنمقة والخاصة. فالأخيرة تغذى دائماً بعناصر من الأولى. يسمح الرجال الأقوياء عادة ببعض الهامش للمكانة الرفيعة وحتى لوقاحاتها، من أجل الصلة التي تربطهم بها. لم يكف نابليون، ابن الثورة، ومحطم النبالة القديمة، عن مجاملة ضاحية سان جرمان ـ لشعوره، بدون شك، بأن المكانة الرفيعة تضفي تقديراً على الرجال من طرازه. فالمكانة الرفيعة تمثل بطريقة غريبة كل الفضيلة للرجولية إنها الفضيلة التي تحول إلى بذرة؛ إنها نوع من التقدير الذي يحصل عليه المرء بعد وفاته. إنها لا تحتضن العظماء في الغالب، إنما أبناء العظماء! إنها ردهة للماضي. وهي عادة تدير وجهها لعظماء الساعة. فالرجال العظام لا يتواجدون في أبهائها؛ إنهم في الحقل غائبون. إنهم يعملون، وهم لم ينتصروا بعد. المكانة الرفيعة تتكون من أبنائهم؛ من أولئك الذين حصلوا من خلال قيمة شخص ما أو محاسنه على بريق اسمائهم، وعلامات تميزهم، ووسائل التهذيب والكرم، كما أحرزوا في بنيتهم البدنية صحة وكفاءة تضمن لهم القدرة العالية على الاستمتاع، إن لم يكن القوة الأعلى لغرض العمل. تنظر طبقة القوة، الأبطال العاملون، أمثال كوتيز، ونلسون، ونابليون، إلى

هذا الأمر بصفته الاحتفاء أو الاحتفال الدائم بالأشخاص من طرازهم؛ حيث يبدو أن الموهبة تغذي المكانة الرفيعة، وأن المكسيك، وماريغو، والطرف الأغر قد طرقت حتى رقت؛ وأن الأسماء اللامعة ذات المكانة الرفيعة تعود إلى أشخاص مشغولين مثلهم عاشوا قبل خمسين أو ستين عاماً. إنهم الباذرون، وسيكون أبناؤهم الحاصدين، وسيكون على ابنائهم، تبعاً لمسار الأحداث المألوف، أن يقدموا ملكية الحصاد إلى منافسين جدد لهم عيون أحد وأجسام أقوى. تنشأ المدينة من الريف. يقال أن جميع الملوك الشرعيين في أوروبا في عام ١٨٠٥ كانوا بلهاء. وكان على المدينة أن تموت، وتتعفن، وتنفجر منذ زمن طويل لو أنها لم تعزز من الحقول إن الريف الذي جاء إلى المدينة أول من أمس هو الذي أصبح اليوم المدينة والبلاط.

الأرستقراطية والمكانة الرفيعة نتائج حتمية لا يمكن تفاديها. وهذه الاختيارات المتبادلة غير قابلة للتحطيم. فإذا ما أثاروا الحنق في الطبقة الأقل حظوة، وقامت الأغلبية المستبعدة بالثأر لنفسها من الأقلية التي استبعدتها وضربتها بشدة وقتلتها، فإن طبقة جديدة ستجد نفسها قد صعدت على الفور إلى أعلى، كما ترتفع القشطة في وعاء الحليب. وإذا ما استمر الناس في تحطيم الطبقة إثر الأخرى ولم يبق سوى رجلين اثنين، فإن أحدهما سيكون القائد، وسوف يعمل الآخر، على نحو لا إرادي، على خدمته وتقليده. يمكنك أن تحتفظ بهذه الأقلية بعيداً عن نظرك وبعيداً عن تفكيرك، لكنها متشبثة بالحياة، وهي واحدة من أقاليم المملكة. تزداد دهشتي من ذلك التشبث عندما أرى الطريقة التي يعمل بها. إنها تحترم مكانة أشياء غير مهمة إلى الحد الذي يجعلنا لا نتوقع أي دوام لسلطانها. نلتقي أحياناً برجال تحت تأثير معنوي قوي، كأن يكون حركة وطنية، أو أدبية، أو دينية، ونشعر بأن الحس الأخلاقي هو الذي يحكم الإنسان والطبيعة. ونعتقد أن كل الامتيازات والروابط الأخرى ستكون ضئيلة وعابرة، مثل تلك التي تعود للطائفة أو أصحاب المكانة، ولكن تعال من عام إلى آخر وانظر إلى رسوخها، في حياة الناس في بوسطن أو نيويورك، حيث لا تكتسب مظهرها من قانون الأرض - أو في مصر أو الهند حيث تقيم حاجزاً أكثر وضوحاً ويصعب تجاوزه. هنا توجد علاقات تمتد روابطها فوق وتحت ومن خلال ذلك الخط، اجتماع للتجار، فيلق عسكري، صف في كلية، نادٍ للحريق، جميعة مهنية، مؤتمر سياسي أو ديني - يبدو الأشخاص متقاربين من بعضهم على نحو لا يمكن فصله، ومع ذلك، فما أن يتفرق الاجتماع حتى يمضي

الأعضاء لشأنهم ولا يلتقون ثانية في ذلك العام. يعود كل واحد منهم إلى مرتبته في سلم المجتمع الخير، يظل الخزف خزفاً، والطين طيناً. إن أهداف المكانة الرفيعة قد تكون عبثية، أو قد تكون المكانة الرفيعة نفسها خالية من الهدف، لكن طبيعة هذا الاتحاد والانتقاء ليست عبثية ولا طارئة. فمرتبة كل رجل في ذلك التدرج الكامل تتوقف على شيء من التماثل أو الإتفاق بين بينة وتساوق الجماعة. إن أبوابها تنفتح فوراً لأي طلب طبيعي من نوعها. يجد الجنتلمان الطبيعي طريقة إلى الداخل، لكنها تبقي النبيل الأقدم الذي فقد مرتبته الأصلية في الخارج. المكانة الرفيعة تفهم نفسها، فالتربية الجيدة والتفوق الشخصي من أي بلد كان تتآخى على الفور مع مثيلاتها من أي بلد آخر. لقد ميز زعماء القبائل المتوحشة أنفسهم في لندن وباريس عن طريق نقاوة سلوكهم.

من أجل إنصاف المنزلة الاجتماعية الرفيعة، نقول أنها تستند إلى الواقعية. ولا تكره شيئاً قدر كرهها للمدعين؛ وأن سرورها يكمن في استبعاد المدعين والتعتيم عليهم وإرسالهم إلى المنفى الدائم. ونحن نزدري بالمقابل كل موهبة أخرى لدى الرجال المجربين، لكن العادة التي تخاطب شعورنا باللياقة، مهما قل شأن الأمر الذي تتعلق به تشكل الأساس لكل فروسية. لا يكاد يكون هنالك نوع من الاعتماد على الذات لا تتبناها المنزلة الرفيعة بين حين وآخر وتتيح له الدخول بحرية إلى صالوناتها، ما دام متعقلاً ومتوازناً. إن الروح القديسة تكون أنيقة على الدوام، وهي تمرق دونما إعاقة، لو شاءت، إلى الدوائر الخاضعة لأشد الحراسات. لكن جوك سائق الثيران يستطيع هو الآخر أن يمر، في حالة وجود ظرف يجلبه إلى هناك، ويجد الترحاب، ما دام الظرف الجديد لم يدر رأسه، والأحذية الحديدية في قدميه لم تتصد للرقص الفالس. لأنه ما من شيء مستقر بالنسبة للسلوك الحسن، لكن قوانين السلوك تمد الفرد بالطاقة. العذراء في أول حفلة راقصة تحضرها، ورجل الريف في عشاء في المدينة، يعتقدان أن ثمة طقساً ينبغي أن يؤدى بموجبه كل عمل وحركة، وإلا فإن من يفشل في ذلك سوف يطرد من بين الحضور. يتعلمان لاحقاً أن الشخصية والحس الطيب يصنعان صيغهما الخاصة في كل لحظة، فيتكلم المرء أو يصمت، يتناول النبيذ أو يرفضه، يمكث أو يغادر، يجلس على مقعد أو يقرفص مع الأطفال على الأرض، أو يقف على رؤوسهم، أو أي شيء آخر، بطريقة جديدة وأصيلة، كما يتعلمان أن الإرادة القوية دائماً مرغوبة ضمن الموضة، وليخرج عن الموضة من يشاء. كل ما تتطلبه المنزلة الرفيعة هو تمالك النفس والقناعة

الذاتية. الدائرة التي تضم الأشخاص حسني التربية هي مجموعة من الأشخاص المعقوليين تظهر فيها شخصية كل واحد منهم الأصلية وسلوكه. فإذا كان المتأنق لا يملك هذه الخصلة، فإنه ليس بمتأنق. إننا نحب الثقة بالنفس إلى الحد الذي يجعلنا نغفر الكثير للشخص الذي يستطيع أن يبدي الرضا التام عن موقعه، والذي لا يستأذنني ولا يسعى إلى الحصول على رأي طيب فيه من أي شخص في أن يكون ما هو عليه. لكن أي تبجيل يبدى لرجل بارز أو امرأة بارزة يصادر كل امتيازات النبالة. فهو تابع، ولا شأن لي به؛ إنما سأكلم سيده. ينبغي على الرجل أن لا يذهب إلى حيث لا يستطيع أن يحمل معه كامل عالمه أو مجتمعه - ليس فعلياً، بمعنى كامل دوائر أصدقائه - بل الجو الذي ينتمي إليه. وعليه أن يحافظ ضمن الصحبة الجديدة على نفس الحالة الذهنية والواقعية التي يضعه فيها أصحابه اليوميون، وإلا فإنه يجرد من أفضل اشراقاته، ويكون يتيماً في أكثر المحافل سروراً. لو أنك ترى فيش إيان فوهو وقد وضع ذيله! لكن على فيش إيان فوهو أن يحمل حاجياته، على نحو ما، فإن لم تكن مضافة إليه كامتيان، فإنها سوف تسحب منه كخزي.

يوجد في المجتمع دائماً أشخاص معنيون يعتبرون الزئبق الذي يقيس مدى رضا المجتمع، والذين تقرر نظرتهم في أي وقت موقعهم في العالم لمن يهمه أن يعرف. أولئك هم حجاب الأرباب الأصغر. فتقبل برودتهم كإشارة رضا عند الأرباب الأعلى، وأقر لهم بكل امتيازهم. إنهم واضحون بخصوص ما يقومون به، وليس بوسعهم أن يكونوا مرعبين على هذا النحو لولا مزاياهم الخاصة. ولكن لا تقس أهمية هذه الطبقة بناء على ما تتظاهر به، ولا تتصور أن الغندور يمكن أن يكون الجهة التي توزع الشرف والعار. كما أنهم ينالون تقديرهم العادل؛ إذ لا يمكن أن يكون الأمر على غير ذلك، في الدوائر التي تقوم كنوع من جهات التحكيم في تمحيص الشخصية؟

لما كان الواقع هو الشيء الأول الذي يطلبه الإنسان من الإنسان، فإن الواقع يظهر في مختلف الأشكال في المجتمع. نقدم الأطراف بعضهم لبعض بدقة وبأسمائهم. لتعلم أمام الأرض والسماء أن هذا هو أندرو، وهذا هو غريغوري - ينظر في عين الآخر، يتماسكان بالأيدي، من أجل التعرف على الآخر وتأشيره. إنه لارتياح كبير. الجنتلمان لا يراوغ أبداً، عيناه تنظران إلى أمام باستقامة، وهو يؤكد للطرف الآخر، مثل كل شيء، أنه قد التقاه. إذ ما هذا الذي نسعى إليه في كل هذه الزيارات والإستضافات؟

أهوستـائرك، أو لوحاتك، أو تحفك؛ أم أننا نسأل دونما اشبـاع، «هل ثمة رجل في المنزل؟» بوسعي أن أدخل منزلاً عظيماً حيث الكثير من الأشياء المادية، ومعدات الراحة الممتازة، والترف، والذوق، لكنني لا أقابل، مع ذلك الشخص الذي يرقى فوق كل هذه الزوائد. وقد أدخل كوخاً، وأجد مزارعاً يشعر بأنه الرجل الذي جئت لرؤيته، ويلاقيني تبعاً لذلك ولهذا كان من الطبيعي أن ينص الإتيكيت الإقطاعي القديم على أن لا يغادر الجنتلمان الذي يستقبل الزيارة سقف بيته، حتى إذا كان الزائر ملك البلاد، وأن ينتظر وصوله عند عتبة داره. ما من منزل يصلح لأي شيء بدون سيد حتى وإن كان التويلري أو الأسكوريال. ومع ذلك فإننا لا نقنع دائماً بهذه الضيافة. فكل من نعرفه يحيط نفسه بمنزل بديع، وكتب رائعة، وحدائق ودفاية، ومعدات كل أنواع اللهو كحجاب يفصل ما بينه وبين ضيفه. ألا يبدو أن ذلك يعني أن الإنسان ذا طبيعة ماكرة مخاتلة، وأنه لم يخش شيئاً قدر خشية مواجهة صاحبه وجهاً لوجه؟ أعلم أن إزالة تلك الحجب كان أمراً خالياً من الرحمة، لأنها كانت ذات فائدة كبيرة سواء كان الضيف عظيم الشأن أو ضئيله. إننا ندعو الكثير من الأصدقاء معاً كي يلهي أحدهم الآخر، أو نسلي الشبان منهم بأسباب الترف والزينة، لكي نضمن انسحابنا. وإذا حدث أن جاء إلى أبوابها واقعي ممحص، لا نرغب في أن نمثل أمام عينيه، فإننا نجري ثانية إلى حجبنا ونخبئ انفسنا كما خبأ آدم نفسه عند سماعه صوت الرب في الجنة. حمى الكاردينال كابرارا، ممثل البابا في باريس، نفسه من نظرات نابليون بوضعه نظارات خضراء كبيرة. لاحظ نابليون ذلك، وتدبر سريعاً إزاحتها. لكن نابليون، بدوره، لم يكن عظيماً بما فيه الكفاية لكي يواجه زوجاً من العيون الحرة، رغم ما يقف وراءه من جيش يبلغ تعداده ثمانمائة ألف جندي، فأحاط نفسه بالإتيكيت ووضعها داخل حواجز مزدوجة من التحفظ، وكان مضطراً، كما عرف العالم كله عن مدام دي ستايل، إلى أن يجرد وجهه من كل تعبير متى ما أحس بأن هنالك من يرقبه. لكن الأباطرة والرجال الأثرياء ليسوا بأي حال من الأحوال سادة السلوك الحسن البارعين. ما من قائمة بالإيحاءات أو بأعداد الجنود يمكن أن تخلع المهابة على التهرب والتواري؛ والمنطلق الأول في المجاملة يجب أن يكون الحقيقة على الدوام، إذ أن جميع أشكال التربية الحسنة تؤشر بهذا الإتجاه.

لقد كنت لتوي أقرأ ترجمة المستر هازليت لرواية مونتان عن رحلته إلى إيطاليا،

ولم يدهشني شيء أكثر لياقة من أساليب ذلك العصر في احترام الذات. فوصوله إلى أي مكان، وصول جنتلمان من فرنسا، مناسبة لها شيء من الأهمية. وحيثما ذهب، يقوم بزيارة الأمير أو الجنتلمان البارز الذي يقع منزله على طريقه، كنوع من الواجب الذي يؤديه إزاء نفسه وإزاء المدينة. وعندما يغادر أي بيت أقام فيه أسابيع قلائل، فإنه يأمر برسم شعاره وتعليقه كإشارة دائمة للمنزل، كما كانت عادة الرجل الجنتلمان.

المراعاة هي اللمسة التي تكمل هذا الاحترام الذاتي اللطيف وجميع نواحي التربية الحسنة. وهي الخصلة التي اتطلبها وأصر عليها. أود لو أن هذا الكرسي يتحول إلى عرش، وأن يحوي ملكاً. أفضل الميل إلى الوقار على الإفراط في الصحبة. دع الأشياء غير المتخاطبة في الطبيعة والعزلة الميتافيزيقية للإنسان تعلمنا الاستقلال. دعنا لا نسرف في عدد معارفنا. أفضل أن يدخل الإنسان بيته عبر صالة نصف مملوءة بالتماثيل البطولية والمقدسة، لكي لا يحتاج إلى إشارة إلى الهدوء والاتزان الذاتي. علينا أن نلتقي كل صباح كما لو كنا قادمين من بلاد أجنبية. في كل الأحوال اليوم معاً، نفترق عند الليل كما لو كنا ذاهبين إلى بلاد أجنبية. في كل الأحوال أريد المحافظة على جزيرة الإنسان من الانتهاك. دعنا نجلس منفصلين مثل الآلهة، نتخاطب من قمة إلى قمة حول الأولمب. ما من حاجة إلى أية درجة من العاطفة التي يمكن أن تغزو هذه الديانة. إنها المر وحصى البان الذي يبقي الآخر عذباً. على الأحباب أن يحافظوا على غربتهم. فإذا ما تساهلوا كثيراً، فإن كل شيء سوف ينزلق إلى الارتباك والوضاعة. من السهل تحويل هذه المراعاة إلى إتيكيت صيني؛ لكن البرودة وغياب الاندفاع والعجالة يشيران إلى خصال راقية. فالجنتلمان لا يصدر صخباً، والليدي رائقة. إن ازدراءنا كبير لأولئك المستبيحين الذين يملؤون البيت الرصين ضجيجاً وجرياً، من أجل تأمين بعض الراحة التافهة. وإني لأبغض بنفس الدرجة نقص التعاطف مع احتياطات الجار. هل يتوجب علينا أن نحمل تفهماً جيداً لذوق أحدنا الآخر - كما يحدث للأشخاص الحمقى الذين عاشوا معاً زمناً طويلاً فصار كل منهم يعرف متى يريد الآخر ملحاً أو سكراً؟ أرجو صاحبي إن أراد خبزاً أن يطلب الخبز مني، وإن أراد غاراً أو زرنيخاً، أن يطلبهما، وأن لا يمد لي صحنه كما لو كنت أعرف ما يريد. كل وظيفة طبيعية يمكن أن توقر بالخصوصية والقصد. دعونا نترك العجلة للعبيد. ينبغي لمكملات ومراسيم تربيتنا أن تعيد إلى الذهن، ولو من بعيد، عظمة قدرنا.

إن زهرة المجاملة لا تتحمل التداول، فإن جرؤنا على فتح ورقة أخرى واستكشاف مكوناتها، فإننا سنجد أيضاً سمة فكرية. بالنسبة للقادة من الرجال، ينبغي للدماغ، إضافة إلى اللحم والقلب، أن يشكل توازناً. إن الخلل في السلوك الطيب هو عادة خلل في المدركات الرفيعة. لقد صنع البشر من مادة خشنة لا تتناسب مع رقة السلوك الجميل والعادات الجميلة. وهي لاتكاد تغطى بالتربية الجيدة، وبذلك الاتحاد ما بين اللطف والاستقلالية. إننا بالتأكيد نحتاج إلى إدراك الجمال في أصحابنا، وإلى تقدير ذلك الجمال. الفضائل الأخرى مطلوبة في الحقل أو ساحة العمل، ولكن درجة معينة من الذوق لا يمكن الإستغناء عنها لدى أولئك الذين نجالسهم. أفضل أن آكل مع شخص لا يحترم الحقيقة أو القوانين على أن آكل مع شخص متخلف وغير لائق. المزايا الأخلاقية تحكم العالم، ولكن على المديات القريبة تمارس الحواس حكمها الطاغي. ينطبق نفس التمييز لما هو مناسب ومقبول على جميع نواحي الحياة، وربما كان أحياناً أشد صرامة. إن الروح السائدة للطبقة النشيطة هي الحس السليم الذي يتصرف تحت حدود معينة ولأغراض معينة. وهي تسر كل موهبة طبيعية. ولكونها اجتماعية بطبعها، فإنها تحترم كل ما من شأنه الميل إلى توحيد البشر. وهي تبهج بحدود. إن حب الجمال هو في أغلبه حب الاعتدال والتوازن. الشخص الذي يزعق، أو يستخدم درجات المبالغة أو يتحاور بانفعال، يحمل الموجودين في الغرفة على الهروب. إذا أردت أن يحبك الآخرون، عليك بحب الاعتدال. هذا الإدراك يصقل ويكمل أجزاء الأداة الاجتماعية. يمكن للمجتمع أن يتسامح كثيراً مع العباقرة وذوي المواهب الخاصة، ولكن لأنه تجمع بطبعه فإنه يحب ما هو مألوف أو ما يميل إلى التقارب والاجتماع. وذلك ما يحدد السلوك الطيب والرديء، أي ما يساد على قيام الزمالة وما يعيقها. إن الطبقة الاجتماعية الرفيعة ليست حساً طيباً مطلقاً، إنما نسبياً؛ وهي ليست حساً طيباً على النطاق الخاص، إنما هي الحس الطيب في إكرام الصحبة. إنها تكره الزوايا والنقاط الحادة في الشخصية، وتكره الأشخاص الأنانيين، والانعزاليين، والمكتئبين، والمشاكسين؛ تكره كل ما يمكن أن يعيق الامتزاج التام للأطراف؛ في الوقت الذي تقيم فيه كل أشكال الغرابة بصفتها منعشة من الطراز الأرفع، عندما تكون قادرة على التماشي مع الصحبة الطيبة. وإلى جانب بث الفطنة والبداهة من أجل رفع مستوى التهذيب، فإن السحر المباشر للقدرة الفكرية يلاقي الترحيب الدائم في المجتمع الراقي

بصفته أثمن إضافة إلى قواعده ورصيده.

على الضوء العادي أن يسطع ليضيء احتفالنا، ولكن ينبغي عليه أن يلطف ويظلل، وإلا تحول إلى إزعاج. الدقة ضرورية للجمال، كذلك الإدراك السريع بالنسبة للتهذيب، ولكن ينبغي أن لا يكون إدراكاً سريعاً بإفراط. يمكن للمرء أن يكون دقيقاً جداً ومحدداً جداً. وينبغي عليه أن يترك المعرفة الكلية عند الباب، عندما يدلف إلى بلاط الجمال. تحب المجالس الطباع الدمثة والسلوك الفاتر النعسان، لأنه يشمل الحس، والرقة، والنية الطيبة.وتحب جو القوة الوسنانة، التي تجرد النقد من سلاحه، ربما لأن الشخص من هذا النوع يبدو كمن يدخر نفسه لأفضل جزء من اللعبة، ولا يبددها على السطحيات؛ العين المتجاهلة، التي لاتبصر المزعجات، والتحولات، والمضايقات التي يقطب لها جبين الشخص الحساس ويختنق بفعلها صوته.

ولذلك، فإن المجالس، بالإضافة إلى القوة الشخصية وما يكفي من الإدراك لتكوين ذوق غير قابل لارتكاب الخطأ، تتطلب من الطبقة المشاركة عنصراً آخر تمت الإشارة له، تدعوه قاصدة بالطبيعة الطيبة ـ التي تبدي كل درجات الكرم، من أدنى درجات الاستعداد لتأدية الخدمات، إلى أعلى درجات الشهامة والحب. لا بد لنا من حيازة البصيرة، وإلا فإننا سوف نصطدم ببعضنا البعض ونضيع الطريق إلى الطعام؛ لكن الفك أناني وعقيم. إن سر النجاح في المجتمعات هو نوع من الدفء والتعاطف. فالشخص الذي ليس مسروراً وسط صحبته لا يستطيع أن يجد في ذاكرته كلمة تلائم المناسبة. وكل معلوماته خارجة عن الصدد. أما الشخص السعيد بصحبته، فإنه يجد في كل تحول للحوار مناسبة طيبة لتقديم مالديه من قول. إن المفضلين في المجالس، أو الذين يدعون بـ «الأرواح الكاملة»، هم رجال مقتدرون يمتلكون من الروح أكثر مما يملكون من الفطنة، ولا يحملون أية أنانية مزعجة، والذين يملؤون الساعة والصحبة؛ مغتبطون وباعثون للغبطة، سواء كانوا في زفاف أو مأتم، في حفل راقص أو محكمة، في حفلة مائية أو مسابقة رماية. لقد قدمت انجلترا، الغنية بالجنتلمانات، في مطلع القرن الحالي، نموذجاً طيباً لذلك العبقري الذي يحبه العالم، في شخص المستر فوكس، الذي أضاف إلى قدراته العظيمة النزعة الاجتماعية والحب الحقيقي للبشر. قلة هي المقاطع المتوفرة في التاريخ البرلماني التي تتفوق على الجدال الذي انفصل خلاله بيرك عن فوكس في مجلس العموم؛ عندما ناشد فوكس صديقه القديم باسم الصداقة

القديمة وبرقة جلبت الدموع إلى عيون أعضاء المجلس. ثمة حادثة أخرى تقترب من غرضي فأجد أن من الضروري إيراد قصتها. أحد التجار الذي طالما طالبه بسداد قائمة بمبلغ ثلاثمئة باوند، وجده يوماً يعد قطعاً ذهبية، فطالبه بالدفع «كلا» قال فوكس، «إنني مدين بهذا المال لشريدان، إنه دين شرف، فإذا وقع لي حادث، لم يكن لديه ما يثبت استحقاقه.» فقال الدائن، «سأبدل ديني، إذن، إلى دين شرف» ومزق القائمة إرباً. شكر فوكس الرجل لثقته به ودفع له المبلغ قائلاً، «لقد كان دينه أقدم عهداً، وعلى شريدان أن ينتظر.» عاشق الحرية ذاك، صديق الهندي، وصديق العبد الإفريقي، لقد كان يمتلك شعبية شخصية كبيرة؛ وقد قال عنه نابليون بمناسبة زيارته لباريس عام ١٨٠٥،«سوف يحتل المستر فوكس المكان الأول دائماً في أي اجتماع يعقد في التويلري.»

من السهل أن نبدو مضحكين في إطرائنا للمجاملة، كلما أصررنا على الإحسان بصفته أساساً لها. فالطبقة الاجتماعية الراقية، ذلك الشبح الملون، تنبري لإلقاء سيل من السخرية على ما نقوله. لكنني لن أحيد عن إيلاء بعض التسامح للطبقة الراقية بصفتها مؤسسة رمزية، ولا عن الاعتقاد بأن الحب هو أساس المجاملة. علينا أن نحصل على «ذاك»، إن استطعنا، ولكن علينا بكل الوسائل أن نؤكد «هذا». تدين الحياة بالكثير من حيويتها لهذه التناقضات الحادة. فالرفعة، التي تتظاهر بأنها الشرف، غالباً ما تكون، حسب تجربة الناس جميعاً، مجرد مفتاح لصالة الرقص. ومع ذلك، فما دامت تعتبر الحلقة الأرفع في مخيلة أفضل الرؤوس الموجودة على هذا الكوكب، فإن فيها شيئاً ضرورياً وممتازاً؛ إذ لا يمكن الافتراض بأن الناس قد اتفقوا على أن يكونوا مخدوعين بشيء منافٍ للعقل، ويكشف الاحترام الذي تثيره هذه الألغاز لدى أكثر الشخصيات فظاظة وبدائية، والفضول الذي تتابع به تفاصيل الحياة الراقية، عن عمومية الحب الذي يحمله الناس للسلوك المهذب. أعلم أن تناقضاً مضحكاً يمكن أن ينجم إذا ما دخلنا إلى ما يسمى «الدوائر الأولى» وطبقنا تلك المقاييس الرائعة للعدالة، والجمال، والفائدة على الأفراد الذين نجدهم هناك فعلاً. فالملوك والأبطال، والحكماء والعشاق، ليسوا جميعاً نبلاء. للمكانة الرفيعة الكثير من الطبقات وقواعد القبول والارتقاء، وهي لا تشمل الأفضل فقط. لا يقتصر الأمر على حق الغلبة وحده الذي تتظاهر به العبقرية - حيث يستعرض الفرد أرستقراطية الطبيعية على نحو يفضل

الأفضل؛ إنما هنالك ادعاءات أدنى شأناً سوف يسمح لها بالمرور للوقت الراهن؛ لأن المكانة الرفيعة تحب الأسود، وهي، مثل سيرسه، تشير إلى أصحابها من ذوي القرون. هذا الجنتلمان وصل بعد ظهر اليوم من الدنمارك، وذلك هو اللورد رايد الذي جاء أمس من بغداد، وهذا هو الكابتن فرايس، من كيب نورناغين، والكابتن سايمس من باطن الأرض؛ والمسيو جوڤير، الذي هبط ببالون هذا الصباح؛ والمستر هوبنيل، الإصلاحي؛ والقس جول بات، الذي حول المنطقة الحارة بكاملها إلى المسيحية في مدرسة الأحد التي يديرها؛ والسنيور توردبل غريكو، الذي أطفأ فيزوف عندما صب فيه خليج نابولي، وسباهي السفير الفارسي؛ وتول ويل شان، حاكم نيبال المنفي الذي يمتطي الهلال سرجاً له. لكن هؤلاء ليسوا سوى غيلان اليوم الواحد، وسوف يصرفون في الغد إلى حفرتهم وكهوفهم؛ لأن كل مقعد في هذه الحجرات له من ينتظره. الفنان، والمثقف، ورجال الكهنوت بوجه عام يجدون طريقهم إلى هذه الأماكن ويمثلون هنا، تبعاً لقاعدة الغلبة. الطريقة الأخرى هي المرور من خلال الدرجات جميعاً، بقضاء سنة ويوم في ساحة سان مايكل، مغسولاً بماء الكولونيا، ومعطراً، ومتناولاً للعشاء، ومقدماً، ومتمرساً على النحو اللازم بكل السير والحكايات والسياسات التي تخص الردهات والمخادع.

ومع ذلك فإن بإمكان وجوه الترف هذه أن تحوز على اللطافة والفطنة. ليكن هنالك تمثال متنافر عند بوابات المعابد. وليكن للمذاهب والوصايا بعض طعم المفارقة. تعرب صيغ التهذيب بالإجماع عن الإحسان بالدرجة العليا من درجات المبالغة. فماذا لو أنها أصبحت في أفواه الناس الأنانيين، واستخدمت كوسائل للأنانية؟ ماذا لو أن الجنتلمان المزيف طرد الجنتلمان الحقيقي من العالم؟ ماذا لو أن الجنتلمان المزيف تحايل بلطف الخطاب من أجل أن يحمل رفيقه على استبعاد كل الآخرين من دائرة الاتصال به، وإشعارهم بأنهم مستبعدون؟ الخدمة الحقيقية لن تفقد نبلها. والكرم كله ليس فرنسياً وعاطفياً فقط؛ كما أنه ليس بخافٍ أن الدم الحي والاندفاع نحو العطف يميزان في نهاية المطاف الجنتلمان الذي خلقه الرب عن الجنتلمان الذي اصطنعته الطبقة الراقية. إن الشاخصة المكتوبة على قبر السير جنكين غروت لم تفقد معناها في العصر الحاضر؛ «هنا يرقد السير جنكين غروت، الذي أحب صديقه وأقنع عدوه: ما تناوله فمه، دفعت ثمنه يداه. ما سرقه خدمه، أعاده: إذا منحته امرأة اللذة، كان سندها عند الأذى. لم ينسى أبناءه أبداً؛ وكل من لمس أصبعه يجر وراءه كامل جسمه.» حتى سلالة الأبطال

لم تنقرض تماماً. ثمة ما يزال أحد الأشخاص الرائعين في ملابس عادية، يقف على رصيف الشحن، ويقفز لإنقاذ رجل مشرف على الغرق، وما يزال هناك من يبتدع وسائل الإحسان، ثمة من يدل العبيد الهاربين ويهدئ روعهم، وثمة صديق لبولندا، ومتحمس يزرع أشجار الظل للجيل الثاني والثالث، ويغرس البساتين بعد أن يصبح مسناً، ثمة تقي مخفي عن العيون، ورجل عادل يعيش سعيداً وسط السمعة السيئة، وشاب تخجله هبات الحظ فيلقي بها بنفاد صبر على أكتاف الآخرين. أولئك هم مراكز المجتمع التي يعود إليها من اندفاعاته الجديدة. إنهم صانعوا الموضة التي تعتبر محاولة لتنظيم جمال السلوك. الحسن والكريم هما، نظرياً، فقهاء هذه الكنيسة ورسلها: سيبيو، والسيد، والسير فيليب، سيدني، وواشنطن، وكل قلب طاهر وشجاع عبد الجمال قولاً وفعلاً. الأشخاص الذين يكونون الأرستقراطية الطبيعية لا وجود لهم في الأرستقراطية الفعلية، أو أنهم موجودون عند حافتها فقط، تماماً كما أن الطاقة الكيمياوية للطيف تكون في أعلى درجاتها خارج الطيف مباشرة. لكن تلك هي نقيصة الوكلاء الذين لا يعرفون سيدهم حين يظهر. تفترض نظرية المجتمع وجود هؤلاء وسيادتهم. وهي تقدس عن بعد مقدمهم. وهي تقول مع الأرباب القدامى:

لما كانت السماء والأرض أجمل بكثير

من الفوضى والظلمة الخالية، رغم أنهما كانا زعيمين مرة،

ولما كنا نظهر فيما وراء السماء والأرض

بصيغة وشكل محكم وجميل؛

فإن على خطانا سيسير كمال جديد

قوة مولودة منا، أشد قوة في جمالها

مقدر لها أن تتفوق علينا، ونحن نعبر

بجلال تلك الظلمة القديمة

لأن ذلك هو القانون الأزلي،

أن يكون الأول في الجمال الأول في القوة.

ولهذا توجد ضمن الدائرة العرفية للمجتمع الراقي دائرة أضيق وأرقى، يتركز فيها

ضياؤه، وتقوم مقام زهرة لطفه، التي يشار إليها دائماً باعتزاز وتقدير، ويكون بلاطها الإمبراطوري الداخلي برلماناً للحب والفروسية. تتكون هذه الدائرة من أولئك الأشخاص الذين تكون النزعات البطولية أصيلة فيهم - الذين يحملون الحب للجمال. والابتهاج بالمجتمع، والقدرة على تزيين اليوم العابر. لو أن الأفراد الذين يشكلون أنقى دوائر الأرستقراطية في أوروبا، دم القرون المصان جيداً، مروا أمام نظرنا على النحو الذي يتيح لنا أن ندقق في سلوكهم بأناة وتمحيص، لما وجدنا فيهم جنتلماناً ولا ليدي؛ فهم رغم كونهم عينات ممتازة للمجاملة والتربية الراقية سوف يرضوننا بالمجموع، إلا أننا سوف نعثر على الإساءة في التفاصيل. لأن الأناقة لا تأتي بالتربية، إنما بالولادة. لا بد من رومانسية الشخصية، وإلا فإن أدق استبعاد للوقاحات لن يجدي شيئاً. ينبغي أن تأخذ العبقرية ذلك الاتجاه. وينبغي أن يكون لطفاً لا مجاملة. إن السلوك الراقي نادر في الروايات ندرته في الواقع. يمتدح سكوت على الأمانة التي رسم بها سلوك وحوار الطبقات للملوك والملكات، والنبلاء وكبار السيدات، بعض الحق، بالتأكيد، في التذمر من السخف الذي وضع على ألسنتهم في الكتب التي سبقت روايات ويفرلي؛ ولكن حتى حوار سكوت لايصمد للنقد. فنبلاؤه يقارع بعضهم البعض بالخطب اللاذعة الذكية، لكن الحوار عادي، ولا يثير الإعجاب عند القراءة الثانية. إذ لا يحمل دفء الحياة. فقط عند شكسبير، لا يختال المتحدثون ولا يشمخون بأنوفهم، والحوار عظيم ببساطة، وهو يضيف إلى ألقابه العديدة لقب أفضل الرجال تربية في انجلترا وفي العالم المسيحي. مرة أو مرتين على مدار الحياة يتاح لنا أن نستمتع بسحر السلوك النبيل، بحضور رجل أو امرأة ليس في طبيعتهما حواجز، إنما تجد شخصيتهما تنطلق بحرية في كلماتها وإشاراتهما. الهيأة الجميلة أفضل من الوجه الجميل؛ والسلوك الجميل أفضل من الهيأة الجميلة. فهو يمنح متعة أرفع من تلك التي تمنحها التماثيل أو الرسوم؛ إنه الأرفع بين الفنون الرفيعة. ليس الإنسان سوى شيء صغير وسط مواضيع الطبيعة، لكنه يستطيع عن طريق السمات المعنوية التي تشع من محياه أن يلغي جميع الإعتبارات المتعلقة بالحجم، وأن يتساوى بسلوكه الرفيع مع فخامة العالم. لقد رأيت شخصاً لم يلقن سلوكه الرفيع من المجتمع المتأنق رغم أن ذلك السلوك كان منسجماً تماماً مع تقاليد ذلك المجتمع، إنه كان أصيلاً فيه وطاغياً ومسبغاً للحماية والرخاء، شخصاً لم يكن في حاجة إلى دعم دعوى قضائية، إنما كان يحمل العبد في عينيه؛

ويثير المخيلة بما يفتحه واسعاً من أبواب الأنماط الجديدة للوجود؛ وينفض عن نفسه أسر الإتيكيت، بأسلوب مغتبط، ومفعم بالحيوية، حسن الطبع حراً مثل روبن هود؛ وله رغم ذلك، هيبة الإمبراطور - هادئاً، جاداً، ومؤهلاً لمواجهة عيون الملايين.

الهواء الطلق والحقول، الشارع والردهات العامة هي الأماكن التي يمارس فيها الرجل إرادته؛ عند باب المنزل عليه أن يسلم الصولجان أو يقتسمه. المرأة، بحسها الفطري بالسلوك، تميز على الفور في الرجل حب الأشياء التافهة، البرودة أو العته، أو باختصار، أي نقص في ذلك التصرف الواسع، المتدفق، الشهم الذي لا غنى عنه كمظهر خارجي في الصالة. لقد كانت مؤسساتنا الأمريكية ودية إزاء المرأة، وأجد الآن أن من دواعي سرور هذا البلد الكبير تميزه بنسائه. يمكن لنوع محدد من الإحساس الغريب بالدونية لدى الرجال أن يفسح الطريق لظهور نوع جديد من الفروسية في الدفاع عن حقوق المرأة، للمرأة، بالطبع، أن تحصل على أفضل ما يمكن أن يطالب به أشد الإصلاحيين حماسة من موقع أفضل أمام القانون وضمن الصيغ الاجتماعية، لكن ثقتي المطلقة بطبيعتها الملهمة والموسيقية تجعلني أعتقد بأنها هي وحدها القادرة على أن ترينا الطريقة التي نستطيع بها أن نخدمها. إن كرم أحاسيسها المدهش يرفعها في بعض الأحيان إلى مصاف إلهية وبطولية؛ ويؤكد صورة منيرڤا، أو جونو، أو بوليمنيا، وإنها لتقنع، بالثبات الذي ترقى به دربها الصاعدة، أكثر المتحسبين خشونة بأن ثمة طريقاً آخر غير الذي تعرفه أقدامهم. ولكن ألا توجد إلى جانب تينك اللاتي يحيين مخيلتنا موقع ملهمات الفنون وكاهنات معبد دلفي، نساء أخريات يملأن آنيتنا بالخمر والورود، حتى يطفح الخمر ويملأ البيت عبقاً؛ ويلهمننا اللطف؛ ويطلقن ألسنتنا فنتكلم، ويفتحن أعيننا فنرى؟ نقول أشياء ما حسبنا أبداً أننا نقولها، وتتلاشى على حين غرة جدران تحفظنا المعتاد فتتركنا أحراراً نصبح أطفالاً نلعب مع أطفال في حقل زهور واسع. صرخنا قائلين، اغمرننا بهذه المؤثرات أياماً، أسابيع، وسوف نتحول شعراء مشرقين نكتب بكلمات متعددة الألوان الحكاية التي هي أنتن. أتراه كان حافظ أم الفردوسي الذي قال عن ليلاه الفارسية «لقد كانت قوة من قوى الطبيعة، وأدهشتني بكمية الحياة التي تحملها، عندما كنت أراها تشع يوماً بعد يوم، وفي كل لحظة، اللطف والفرح الغامرين على كل ما حولها.» لقد كانت قوة تذيب الفوارق وتؤلف ما بين كل الأشخاص مختلطي الأجناس في مجتمع واحد. مثل الهواء أو الماء، عنصر له من

صلات القربى أعداداً هائلة تجعله يقترن على الفور بآلاف العناصر. حيثما تحضر، يصبح الآخرون أكثر مما اعتادوا أن يكونوا. لقد كانت وحدة وكلاً، ولذا كان كل ما تفعله يليق بها. كان لها فيض من الحنان والرغبة في الإرضاء، وكان بوسعك أن تقول أن سلوكها قد امتاز بالوقار، ومع ذلك فما من أميرة كانت قادرة على التفوق عليها في هيأتها الواضحة والمستقيمة في كل المناسبات. لم تدرس النحو الفارسي، ولا دواوين الشعراء السبعة، ولكن كل قصائد السبعة تبدو وكأنها كتبت عنها. وعلى الرغم من أن طبعها لم يكن يميل إلى الفكر بل إلى الحنان، فإنها كانت مكتملة الطبع إلى الحد الذي يجعلها نداً لذوي الفكر بما يفيض به قلبها، حيث تدفئهم بمشاعرها، منطلقة من إيمانها بأن معاملة الجميع بنبل، تظهر النبل في الجميع.

أعلم أن هذا الصرح البيزنطي من الفروسية والتأنق، الذي يبدو جميلاً وأخاذاً في نظر الذين ينظرون إلى الحقائق المعاصرة للعلم أو التسلية، لا يظهر على نفس الدرجة من الجمال لكل الناظرين. إن بنية مجتمعنا تحوله إلى القلعة التي يسكنها العملاق بالنسبة لشبابنا الطموح الذين لم يعثروا على اسمائهم مسجلة في سجله الذهبي، والذين استثناهم من مزاياه وامتيازاته المرغوبة. وسوف يكون عليهم أن يتعلموا بعد أن فخامته الظاهرة شبحية ونسبية! فهو عظيم باشتماله عليهم؛ ولسوف تنفتح بواباته العتيدة عند مقدم شجاعتهم وفضائلهم. ثمة علاج سهل للضيف الحالي الذي يشعر به أولئك المعرضون للمعاناة من طغيان هذه النزوة. أن تبعد منزلك ميلين، أو أربعة في الكثير، ينجيك من التعرض للإصابة. لأن المزايا التي تقدرها الطبقة الإجتماعية الرفيعة هي نباتات لا تزدهر إلا في أماكن محفوظة، وفي قلة من الشوارع بالذات. خارج هذه تجدها لا تساوي شيئاً؛ إنها لا تجدي نفعاً في الحقل، أو الغابة، أو السوق، أو الحرب، أو في الوسط الزوجي، أو في الدوائر الأدبية أو العلمية، أو في البحر، أو في الصداقة، أو في سماوات الفكر والفضيلة.

لكننا تلكأنا طويلاً في هذه الردهات الملونة. على قيمة الشيء المعني أن تبرر تذوقنا للرمز، إن كل مايدعى مجاملة أو سلوكاً راقياً يتضح أمام منبع الشرف ومصدره، القلب المحب الذي يصنع الألقاب والمكانات. ذلك هو الدم الملكي، هذه هي النار التي تتصرف تبعاً لسجيتها، في جميع البلاد والحالات، وتقهر كل ما يتقدم نحوها. إنه هو الذي يعطي معنى جديداً لكل حقيقة. وهو الذي يجعل الغني فقيراً بعدم

اعترافه بأية عظمة سوى عظمته الخاصة. ما معنى الغنى؟ أأنت غني بما يكفي لمساعدة أي شخص؟ لإسعاف الغريب والمتواضع؟ غني بما يكفي لجعل الكندي في عربته، والمشرد الذي يحمل توصية إلى المحسنين، والإيطالي الأسمر بما يحفظه من كلمات انجليزية قليلة، والشحاذ الأعرج الذي يطارده المراقبون من مدينة إلى أخرى، وحتى المجنون المسكين أو الحطام الثمل لأحد الرجال أو النساء يحس بأن ثمة استثناء نبيلاً في وجودك وفي منزلك يميزك عن التحجر والجدب العام؛ غني بما يكفي لجعل مثل هؤلاء يشعرون بأنك قد حييتهم بصوت أحيا فيهم الذكرى والأمل؟ ماذا عساها تكون الفظاظة غير رد الطلب لأسباب محددة ومقنعة؟ وما هو اللطف إن لم يكن الاستجابة للطلب والسماح لقلبك وقلوبهم بأن تأخذ إجازة من الحذر المعتاد؟ بدون القلب الغني، لا تكون الثروة إلا شحاذاً قبيحاً. لم يستطع ملك شيراز أن يوازي في سعة ملكه عثمان الفقير الذي يقيم عند بابه. كان عثمان يحمل إنسانية واسعة وعميقة لم تترك طريداً بائساً، أو مجنوناً، أو أحمق حليق اللحية، أو شخصاً شوه إيفاءً لنذر، أو حمل في رأسه شيئاً من الخبال إلا وجاءه لائذاً به، بذلك القالب العظيم الذي ينفتح في وسط البلاد مضيافاً ومفعماً بالضوء، حتى كان جميع المعذبين كانوا ينجذبون نحوه بالغريزة. أليس هذا هو الغنى؟ أليس هذا وحده هو الغنى الحقيقي؟

لكني سوف أتقبل دون تألم القول بأني لم أحسن لعب دور رجل الحاشية، وأني أتحدث عن شيء لا أفهمه على نحو جيد. إذ أن من السهل أن أرى أن ما يدعى بامتياز المجتمع الراقي والمكانة الاجتماعية الرفيعة له قوانينه الجيدة إلى جانب السيئة، وفيه الكثير مما هو عبثي. وفيه من الخير ما يحول دون حظره، ومن السوء يمنع من مباركته، وهو يذكرنا بموروث من الميثولوجيا الوثنية، يرد في وصف أية محاولة لتحديد شخصيته. فقد قال سايلينوس، «لقد سمعت جوبيتر، ذات يوم، يتحدث عن تدمير الأرض؛ قال إنها أخفقت؛ وأنهم جميعاً أوغاد مشاكسون، يسيرون من سيء إلى أسوأ، بنفس السرعة التي تتوالى بها الأيام. قالت منيرفا أنها ترجو أن لا يقدم بذلك؛ فهم ليسوا سوى مخلوقات صغيرة مضحكة، لهم هذه الحالة الغريبة، وهي أن فيهم غشاوة، أو صفة غير محددة، سواء نظرت إليهم عن قرب أو عن بعد؛ فإن دعوتهم بالسيئين، فإنهم سيبدون كذلك، وإن دعوتهم بالطيبين، بدوا كذلك؛ وليس فيهم شخص أو عمل لا تحار بومتها، كما يحار جميع الأولمب، معرفة ما إذا كان حقاً سيئاً أم طيباً».

١٧

الهدايا

يقال أن العالم في حالة إفلاس؛ وأن العالم مدين للعالم بأكثر مما يستطيع سداده، وأن عليه أن يحال إلى المحكمة ويباع. لا أعتقد أن هذا العجز العام، الذي يشمل على نحو ما جميع السكان، وهو سبب الصعوبة التي نواجهها في أيام عيد الكريسماس ورأس السنة الجديدة والمناسبات الأخرى، عندما نقدم الهدايا؛ إذ أن من المريح على الدوام أن تكون كريماً، وإن كان تسديد الديون مزعجاً جداً. لكن الصعوبة تكمن في الاختيار. فكلما خطر في ذهني أن عليّ أقدم هدية لشخص ما، فإنني أحار فيما أقدمه، حتى تمر المناسبة. الزهور والفواكه هدايا مناسبة دائماً؛ الزهور، لأنها تأكيد متعال بأن حزمة من الجمال تفوق في قيمتها كل الأشياء ذات القيمة العملية في العالم. تلك الأشياء البهيجة تتعارض مع الوجه العابس للطبيعة المألوفة. فهي مثل الموسيقى التي تسمع من ورشة. الطبيعة لا تدللنا، فنحن أبناؤها، ولسنا قططها المدللة؛ وهي ليست مولهة؛ كل شيء يقدم لنا دون خوف أو منة، وتبعاً لقوانين كونية صارمة. ومع ذلك فإن تلك الزهور الرقيقة تبدو مثل مرح الحب والجمال ومقدمهما. يقول لنا الناس عادة أننا نحب التملق وأن كنا لا نخدع به، لأنه يظهر أن لنا من الأهمية ما يكفي لجعل الآخر يتودد إلينا. مثل هذه المتعة تمتحنا إياها الزهور. من تراني أكون لكي توجه إلي مثل هذه الإشارات الحلوة؟ الفواكه هدايا مقبولة، لأنها زهرة السلع، وتحمل قيماً رائعة تقترن بها. فلو أن رجلاً أرسل لي كي أزوره على مبعدة مئة ميل ووضع أمامي سلة من الفاكهة الصيفية الممتازة، فإني سأشعر أنه ثمة توازن بين الجهد والمكافأة.

بالنسبة للهدايا العادية، فإن الضرورة تقرر جمالها وأهميتها كل يوم، ويشعر المرء بالسعادة لوجود أمر ضروري لا يترك له خياراً؛ فإن كان الرجل الذي عند الباب لا يملك حذاءً، فلست بحاجة إلى التفكير بإهدائه علبة طلاء للأحذية. ولما كان من الباعث على الارتياح أن ترى رجلاً يتناول خبزاً أو يشرب ماء، داخل البيت أو خارجه، فإن

تقديم هذه الاحتياجات الأولية يبعث على الارتياح دائماً. الضرورة تؤدي كل شيء على نحو طيب. وفي وضع الحاجة العامة الذي نعيشه، يبدو من البطولة أن تترك للسائل أن يحدد حاجته، وأن تقدم كل ما يطلبه، وإن سبب لك ذلك ضيقاً كبيراً. وإذا كانت رغبته مزاجية، فإن من الأفضل أن تترك للآخرين مهمة معاقبته. بوسعي أن أجد أدواراً كثيرة أفضل لعبها على لعب دور آلهة الانتقام. بعد الأشياء الضرورية، فإن القاعدة في تقديم الهدية، التي حددها أحد أصدقائي، هي أن نقدم للشخص الشيء الذي ينتمي إلى نوع شخصيته، وقد وافقت الصديق في رأيه هذا. لكن الرموز التي نعبر بها عن محبتنا ومجاملتنا تكون في أغلبها همجية. الخواتم وغيرها من المجوهرات ليست هدايا، إنما هي اعتذار عن الهدايا. الهدية الوحيدة هي جزء من ذاتك. عليك أن تنزف من أجلي ولهذا ترى الشاعر يأتي بقصيدته؛ والراعي بحمله؛ ويجلب المزارع قمحاً؛ وصاحب المنجم جوهرة؛ والبحار مرجاناً وأصدافاً؛ والرسام لوحته؛ والفتاة منديلاً خاطته بيدها. ذلك أمر سليم ومرضٍ، لأنه يعود بالمجتمع إلى اساسه الابتدائي، عندما تتمثل سيرة الإنسان في هويته، وتكون ثروة كل امرئ مؤشراً لمزاياه. لكنه إجراء بارد وخال من الحياة أن تذهب إلى المخازن وتشتري لي شيئاً لا يمثل حياتك وموهبتك، إنما حياة وموهبة الصائغ. إنه عمل يليق بالملوك، والأشخاص الأثرياء الذين يمثلون الملوك، وهو حالة زائفة من الملكية أن تقدم هدايا من الذهب والفضة، كنوع من قربان الخطايا الرمزي، أو تسديد مبالغ الابتزاز.

إن قانون الفوائد قناة صعبة، تتطلب إبحاراً حذراً، أو زوارق خشنة. ليس دور الإنسان أن يتلقى الهدايا. كيف تجرؤ على تقديمها؟ نريد أن نكون مكتفين ذاتياً. ونحن لا نسامح الواهب. اليد التي تطعمنا تواجه خطر العض. بوسعنا أن نتقبل كل شيء صادر من الحب، لأن هذه طريقة لتقبله من أنفسنا؛ وليس من أي شخص يفترض الإنعام علينا. نكره أحياناً اللحم الذي نأكله، إذ نجد نوعاً من الإذلال في اعتمادنا عليه من أجل العيش:

يا أخي، إن قدم لك جوبيتر هدية،
فحاذر أن لا تأخذ شيئاً من يده.

نريد الكل. لا شيء أقل من ذلك يرضينا. ونحن نتهم المجتمع إذا لم يمنحنا، إلى جانب الأرض والنار والماء، الفرصة، والحب، والاحترام، ووسائل التبجيل.

إنه لرجل طيب ذاك الذي يتقبل الهدية على نحو طيب إزاء الهدية نشعر بالسرور أو الأسف، وكلا الشعورين غير لائق. أعتقد أن شيئاً من العنف قد وقع، أو شيئاً من الحط من القيمة قد حصل، عندما أفرح أو أحزن لتلقي هدية ما. أشعر بالأسف عندما تنتهك استقلاليتي، أو عندما تأتيني الهدية من شخص لا يعرف طبعي، وهكذا يكون العمل غير مسوغ؛ وإذا أرضتني الهدية بشكل مبالغ فيه، فإني أشعر بالخجل لأن المانح قد قرأ أفكاري ورأى حبي لحاجته، وليس له شخصياً. الهدية، من أجل أن تكون حقيقية، يجب أن تمثل انسياب المانح فيّ، استجابة لانسيابي فيه. عندما تكون المياه في مستوى واحد، فإن مالديه يجرى إلي، وما لدي إليه. كل ماله ملكي، وكل مالي ملكه. فأقول له، «كيف تعطيني هذا الوعاء من الزيت أو هذا الإبريق من الخمر وكل زيتك وخمرك ملكي». – أي: اعتقادي من جانبي تنكره هذه الهدية – ومن هنا تأتي جدارة الأشياء الجميلة، لا المفيدة، كهدايا. إن هذا النوع من الإهداء انتهاك صريح، ولهذا لا يشعر المتلقي بالإمتنان، لأن كل المتلقين يكرهون كل المتفضلين، غير مكترثين لقيمة الهدية بل متطلعين إلى الخزين الأكبر الذي أخذت منه - وإني لأتعاطف مع المتلقي أكثر من تعاطفي مع غضب المتفضل. إذ أن من الوضاعة توقع الامتنان، وعقابه الدائم هو عدم الاكتراث التام الذي يبديه الشخص المحسن إليه. وإنه لسرور عظيم أن تنفذ دون أذى أو حرقة فؤاد يسببها لك الشخص الذي شاء له سوء حظه أن تقدم له خدمتك. إنه لأمر شاق، أن تُقدم للمرء خدمة ما، ومن الطبيعي أن المدين يتمنى لو أنه صفعك. ثمة نص ذهبي يصلح لهؤلاء السادة، وهو نص يعجبني كثيراً ويخص البوذي، الذي لا يقدم الشكر أبداً، والذي يقول، «لا تتملق من يحسن إليك.»

أعتقد أن سبب هذا النفور يعود إلى عدم وجود تكافؤ بين أي رجل وأية هدية. ليس بوسعك أن تعطي الرجل الشهم أي شيء. فبعد أن تخدمه، يجعلك على الفور مديناً لشهامته. إن الخدمة التي يقدمها الرجل لصديقه تافهة وأنانية إذا ما قورنت بالخدمة التي يعلم أن صديقه على استعداد لتقديمها له، قبل أن يخدمه، والآن كذلك. مقارنة بهذه النية الطيبة التي أحملها لصديقي، تبدو الفائدة التي تتسع قدرتي لتقديمها له قليلة. يضاف إلى ذلك، أن ما نفعله تجاه أحدنا الآخر، طيباً كان أم خبيثاً، هو أمر عشوائي ووليد الصدفة بحيث قلما يتسنى لنا أن نسمع إقرار الشخص بالشكر لنا بدون الإحساس بالعار والإذلال. نادراً ما تستطيع توجيه ضربة مباشرة، وعلينا أن

نكتفي بالضربة المائلة، نادراً ما نحصل على متعة منح فائدة مباشرة يتم تقبلها على نحو مباشر. لكن الإستقامة تبعثر الحسنات في كل جانب دون أن تشعر بذلك، وتتلقى باندهاش شكر الناس جميعاً.

أخشى من نفث أية خيانة بحق جلال الحب، الذي هو قمة الهدايا وربها، والذي لا ينبغي علينا أن نتصنع تقديمه. دعه يمنح الممالك أو أوراق الزهر بلا تمييز. هنالك أشخاص نتوقع منهم دائماً رموزاً مثل رموز الجنيات؛ فدعنا لانكف عن توقعها. فهذا امتياز محصور بهم، ويجب أن لا يحدد بقواعدنا المدنية. أما بالنسبة للبقية، فيعجبني أن أرى أننا لا يمكن أن نباع ونشرى. الجانب الأفضل في الضيافة والكرم لا يتمثل في الإرادة، إنما في القدر. أجد أنني لا أعني الكثير بالنسبة لك؛ وأنك لا تحتاجني، وأنك لا تشعر بي؛ عندها تكون قد ألقيت بي خارج عتبتك، حتى وإن كانت قد قدمت لي الدار والأراضي. ما من خدمات تفي بقيمتي، إلا المحبة وحدها. عندما أحاول أن أرتبط بالآخرين عن طريق الخدمات، ينتهي الأمر إلى خدعة ذهنية ـ ليس أكثر. إنهم يأكلون خدمتك كما يأكلون التفاح، ويتركونك. ولكن إن أحببتهم، فإنهم سيشعرون بك ويسرون بك على الدوام.

١٨

الطبيعة

هنالك أيام تقع في مناخنا هذا في أي فصل من فصول السنة، يبلغ فيها العالم كماله؛ حين يشكل الهواء، والأجرام السماوية والأرض، انسجاماً تاماً، كما لو أن الطبيعة تريد أن تدلل أبناءها، وحين لا يعود في هذه الأرجاء العليا من الكوكب ما نتمناه من الأمور التي سمعنا عن توفرها في الأصقاع الأسعد حالاً، نروح نتشمس ساعات في مشرقة كتلك التي تعرفها فلوريدا وكوبا؛ حين تصدر إشارات الارتياح عن كل شيء تنبض فيه الحياة، ويبدو كما لو أن الماشية المستلقية أرضاً تتمتع بأفكار هادئة وعظيمة. بالإمكان البحث عن هذا النعيم باطمئنان أكبر في طقس تشرين الأول الصافي الذي نميزه باسم «الصيف الهندي». ينام النهار، الطويل فوق حدود القياس، فوق التلال الفسيحة والحقول المتسعة، الدافئة. أن تحيا كل ساعاته المشمسة يعتبر عمراً طويلاً بما فيه الكفاية. لا تبدو الأماكن المنعزلة وحيدة تماماً. وعند بوابات الغابة، يرغم رجل الدنيا المندهش على ترك تقديراته المدنية صغيرها وكبيرها، الحكيم منها والأحمق ويسقط عن ظهره عبء التقاليد مع أول خطوة يخطوها في هذه المرابع. هنا توجد قداسة تزري بدياناتنا، وحقيقة تكذب أبطالنا. هنا نجد الطبيعة ظرفاً يقزم كل ظرف آخر، وهي تحكم مثل آلهة على جميع من يأتيها من البشر. لقد زحفنا من منازلنا العتيقة المزدحمة إلى حيث الليل والصباح، وها نحن نرى أي حسن جليل يلفنا يومياً في صدره. ما أشد استعدادنا للفرار من العوائق التي تجعل أيامنا عقيمة نسبياً، الفرار من التعقيد ومراجعة الأفكار، والسماح للطبيعة بأن تسلبنا وعينا. إن الضياء في الغابات يشبه الصباح الدائم، وهو منشط وبطولي. سحر هذه الأماكن الذي خبر عنه القدماء يزحف نحونا. تكاد سيقان الصنوبر، والشوكران، والسنديان أن تبرق كالحديد في العين المنفعلة. الأشجار الصماء تأخذ بحثنا على العيش معها، ومغادرة حياتنا ذات التفاهات الوقورة. هنا لا تاريخ، ولا كنيسة، ولا دولة تقحم إقحاماً على السماء المقدسة والسنة

الخالدة. ما أسهل أن نسير قدماً في المشهد المفتوح، منشغلين بالصور الجديدة والأفكار التي تتلاحق على عجل، حتى يتم على درجات إخراج ذكريات المنزل من الذهن، ومحو الذاكرة كلها بقوة الحاضر المتسلطة، وتقودنا الطبيعة في حالة انتصار.

لهذه الافتتانات مفعول طبي؛ فهي تصحينا وتشفينا. هذه متع مجردة، لطيفة بنا ومألوفة لدينا. نعود إلى ما يخصنا، ونعقد الصداقة مع مواد، تريد الثرثرة المدرسية الطموحة أن تقنعنا بإزدرائها. ليس بوسعنا أبداً الانفصال عنها؛ فالذهن يحب مسكنه القديم. ومثل الماء لعطشنا، تكون الصخرة والأرض لعيوننا وأيدينا وأقدامنا. إنه الماء الجامد؛ إنها الشعلة الباردة؛ أية عافية، وأية قرابة! مثل صديق قديم، مثل صديق عزيز وأخ يطل حين نتبادل الثرثرة المتكلفة مع الغرباء، يطل هذا الوجه الصادق، ويأخذ حريته معنا، ويجعلنا نخجل من هرائنا. لا تسمح المدن بمساحة كافية للحواس البشرية. نخرج في الليل والنهار لنغذي عيوننا من الأفق، ونحتاج إلى المدى الرحب، تماماً كما نحتاج إلى الماء للاستحمام. هنالك كل درجات التأثير الطبيعي، من هذه القوى العازلة للطبيعة، وصولاً إلى صفاتها الغالية والجادة للمخيلة والروح. هنالك جردل الماء البارد من النبع، ونار الحطب التي يجري نحوها المسافر البردان طلباً للسلامة - وهنالك الموعظة السامية للخريف وللظهيرة نعشش في الطبيعة، ونستقي معاشنا من جذورها وحبوبها كما تفعل الطفيليات، ونتلقى لمحات من الأجرام السماوية، التي تدعونا إلى الانعزال وتنبئنا عن المستقبل البعيد. السماق الأزرق هو النقطة التي يلتقي عندها الخيال بالحقيقة. أفكر بأننا لو قدر لنا أن نسبح في كل ما نحلم به من السماء، وأن نتحاور مع جبرائيل وأورئيل، فإن السماء العليا ستكون كل ما يتبقى لنا من أثاث.

يبدو أن اليوم الذي التفتنا فيه إلى موضوع طبيعي ما لم يكن مدنساً بكامله. سقوط ندف الثلج في الهواء الساكن، الذي يحفظ لكل بلورة شكلها التام؛ هبوب البَرَد فوق صفحة واسعة من الماء، وفوق السهول، تموج حقل الشوفان؛ التموج المقلد لمساحات شاسعة من الهستونيا، التي تبيض زهيراتها العديدة وتترقرق على مرأى النظر؛ انعكاسات الأشجار والزهور على البحيرات الزجاجية؛ ريح الجنوب، الموسقة، المبخرة، المعطرة التي تحول كل الأشجار إلى قيثارات للريح؛ طقطقة خشب الشوكران وانبجاسه في اللهب، أو خشب الصنوبر الجزل. الذي يخلع البهاء على الجدران والوجوه في غرفة الجلوس - هذه هي موسيقى ورسوم الديانة الأكثر عراقة. يقع بيتي

على أرض منخفضة، عند حافة القرية، وليس له إلا إطلالة محدودة. لكني أخرج مع صديقي إلى ضفة نهرنا الصغير، وبضربة واحدة على المجذاف أترك ورائي شخصيات القرية وسياستها، نعم، وعالم القرى والشخصيات وأنتقل إلى مملكة رقيقة قوامها غروب الشمس وضوء القمر، متألقة جداً إلى الحد الذي يكاد لا يسمح للإنسان الملوث أن يدخلها دون المرور بفترة تدريب وإعداد. نخترق جسدياً هذا الجمال الرائع؛ نغمس أيدينا في هذا الجوهر الملون؛ فيما تستحم عيوننا في هذه الأضواء والأشكال. فيقوم في اللحظة عيد، عربدة ملوكية هو أجل وأمتع مهرجان حدث أن أعدته واستمتعت به القدرة مع الذوق، والشجاعة مع الجمال. غيوم الغروب هذه، والنجوم البازغة بلطف، بغمزاتها الحميمة التي لا يبلغها الوصف، تشير إليه وتقدمه. أدرك فقر ابتكاراتنا، وقبح مدننا وقصورنا. الفن والترف تعلما منذ وقت مبكر أن عليهما أن يعملا كمحسنات وتوابع لهذا الجمال الأصيل. لقد نلت من التوجيه ما سوف يفيض عن حاجتي عند الرجوع. من الآن فصاعداً سيكون إرضائي صعباً. ليس بوسعي أن أعود ثانية إلى الدمى. لقد أصبحت مهذباً وغالياً. لا أستطيع بعد أن أحيا بدون أناقة، لكن معلمي في عربدتي سيكون رجلاً ريفياً. إن الذي يعرف أكثر من سواه؛ الذي يعرف أية أطايب وحسنات تكمن في الأرض، والمياه، والنباتات، والسماوات، وكيف يتم الوصول إلى هذا السحر - هو الرجل الغني والملوكي. إن سادة العالم لا يستطيعون بلوغ عظمتهم إلا عندما يطلبون العون من الطبيعة. ذلك هو معنى ما أشادوه من جنائن معلقة، وفلل، وبيوت حدائق، وجزر، ومتنزهات، ومحميات، من أجل دعم شخصياتهم المليئة بالعيون بهذه المكملات القوية. لا يدهشني أن هذه الإضافات الخطيرة تجعل المصالح التملكية منيَعة لا تغلب. فهي تدعو وترشو؛ ليس الملوك، ولا القصور، ولا الرجال، ولا النساء، إنما تلك النجوم الرقيقة والشاعرية، التي تفصح عن وعود سرية. سمعنا ما قاله الرجل الثري، وعلمنا بفيللته، وبستانه، ونبيذه، وشركته، لكن الاستفزاز والدعوة جاءتانا من تلك النجوم المضللة. في نظراتها الناعمة أرى ما الذي جهد الرجال من أجل تحقيقه في قصور مثل فرساي، وبافوس، وطيسفون. إنها أنوار الأفق السحرية والسماء الزرقاء في الخلفية التي حفظت أعمالنا الفنية، والتي ما كانت سوى ذلك إلا حلية تافهة عندما يرهق الأثرياء الفقراء بالعبودية، فإن عليهم أن يفكروا بأثر البشر الذين يعرفون بأنهم مالكوا الطبيعة على العقول ذات المخيلة. آه لو أن الأثرياء كانوا أثرياء بالمعنى الذي

يتخيله الفقراء للثراء! يسمع الصبي فرقة موسيقية عسكرية تعزف في الحقل ليلاً، فيخطر أمامه ملوك وملكات وفرسان مشهورون. يسمع أصداء بوق في ريف ذي تلال، في جبال نوتش مانتنز، التي تحول الجبال إلى قيثارة أيولية، مثلاً، فتستعيد له خيالاته ما فوق الطبيعية الميثولوجيا الدوريانية، وأبوللو، وديانا، وكل الصيادين والصيادات المقدسين. هل تستطيع النوتة الموسيقية أن تكون بهذه الدرجة من السمو، والجمال الرفيع؟ الشاعر الشاب المسكين. الرائع في تصويره للمجتمع، المخلص والموالي؛ إنه يحترم الأثرياء؛ إنهم أثرياء من أجل خاطر مخيلته، فما أشد فقر خياله، لو أنهم لم يكونوا أثرياء! إن امتلاكهم لبستان عالي السياج يدعونه «بارك»، وكونهم يعيشون في صالونات أكبر من تلك التي زارها وأفضل تزييناً، وانتقالهم بالعربات، وبصحبة المتأنفين فقط، إلى مواقع المياه والمدن البعيدة ـ يوفر القاعدة التي يصور منها مقاطعات من الحكايات الخيالية، لا تبدو ممتلكاتهم الحقيقية عندما تقارن بها إلا أكواخاً وساحات صغيرة. إن آلهة الشعر نفسها تخون ابنها، وتعزز مزايا الثراء والجمال الرفيع النسب بإشعاع يأتي من الهواء، والغيوم، والغابات التي تحف بالطريق ـ نوع من الأنعام المتعالي، كذلك الذي يقدمه جني نبيل للنبلاء، نوع من الأرستقراطية في الطبيعة، أمير على سلطة الهواء.

إن الحس المعنوي الذي يصنع عدن وتمبه، يمكن أن لا يعثر عليه على الدوام، لكن المشهد الطبيعي المادي ليس أبداً بالعبيد. نستطيع أن نحد تلك المفاتن دونما حاجة لزيارة بحيرة كومو، أو جزائر الماديرا. نبالغ في إطراء المناظر الطبيعية المحلية. في كل مشهد طبيعي تتمثل نقطة الإندهاش في التقاء السماء بالأرض، وبالإمكان رؤية ذلك من أعلى أو تلة على نفس النحو الذي تبدو فيه من أعالي الآليغيني. تطل النجوم في الليل فوق أبسط الأشياء العادية وأكثرها دكنة بنفس الروعة الروحية التي تسكبها على الكامبانيا، أو على صحارى مصر الرخامية. الغيوم العالية، وألوان الصباح والمساء تغير شكل القيقب والدردار. الإختلاف بين مشهد طبيعي وآخر قليل، إنما هناك اختلاف كبير بين الناظرين. ليس هنالك شيء مدهش في أي مشهد طبيعي محدد مثل ضرورة أن يكون جميلاً وهي الضرورة التي تخضع لها كل المشاهد الطبيعية ليس بالإمكان مباغتة الطبيعة في حالة التعري. فالجمال يحل في كل مكان.

ولكن من السهل جداً استنفاذ تعاطف القراء في هذا الموضوع الذي يدعوه رجال

المدارس بالطبيعة السلبية. ليس بوسع المرء أن يتكلم عنه مباشرة بدون إفراط. ويوازيه في السهولة أن تدمج في مجموعة مختلفة ما يدعى «موضوع الديانة». لا يحب الشخص الحساس أن يغمس حواسه في شيء من هذا القبيل بدون توفر عذر ناجم عن ضرورة ضئيلة. إنه يمضي لرؤية حرج الأخشاب، أو لإلقاء نظرة على المحصول، أو لجلب نبتة أو معدن من موقع بعيد، أو يحمل صنارة صيد. أحسب أن لهذا الخجل سبباً طيباً. إن التوله بالطبيعة أمر عقيم وغير مجدٍ. وغندور الحقول ليس بأفضل من أخيه في برودواي. الرجال صيادون بطبعهم وفضوليون بشأن الحرف الخشبية، وأظن أن صانع أخبار مثل قاطعي الأخشاب والهنود يمكن أن يقدم الحقائق التي تنشر في أكثر مطبوعات المكتبات تعالياً، فسواء كان ذلك لكوننا غير نافعين بسبب لخبطتنا لمثل هذا الموضوع الرصين، أو لأي سبب آخر، فإن الناس ما أن يبدؤوا الكتابة عن الطبيعة حتى يسقطوا في التأنف البياني. إن الطيش لا يعتبر تحية لائقة ببان، الذي يجب أن يقدم في الميثولوجيا بصفته الأكثر عفة بين الأرباب. لا أختار أن أكون طائشاً أمام حكمة الزمن وحيائه اللطيف، إلا أنني لا أستطيع التخلي عن حق العودة المتكررة إلى هذا الموضوع القديم. إن كثرة الكنائس الزائفة تشهد للديانة الحقة. الأدب، والشعر، والعلوم هي بيعة الإنسان لهذا السر الذي لا يسبر، والذي لا يستطيع الإنسان العاقل أن يتصنع إزاءه اللامبالاة أو غياب الفضول. نحن نحب الطبيعة بأفضل ما فينا. نحبها بصفتها مدينة الرب، على الرغم من، أو ربما بسبب، عدم وجود مواطن فيها. إن الغروب لا يشبه أي شيء تحته؛ إنه يريد رجالاً. وجمال الطبيعة ينبغي أن يبدو دائماً غير واقعي ومستهزئ، حتى تكون في المشهد الطبيعي أشكال إنسانية توازيه جودة. لو لم يكن هنالك أناس طيبون، لما كان للطبيعة أبداً هذه النشوة. إذا كان الملك في البلاط، فلا أحد ينظر إلى الجدران. فقط عندما يغيب، ويمتلئ المنزل بالسياس والناظرين، ننصرف عن الأشخاص لنجد العزاء في الرجال الرائعين الذي تمثلهم اللوحات والعمارة. إن النقاد الذين يتذمرون من الفصل المرضي بين جمال الطبيعة والعمل الذي يجب أن ينجز يعتقدون بأن سعينا لاقتناص المشهد الرائع لا ينفصل عن احتجاجنا على المجتمع الزائف. الإنسان ساقط، والطبيعة قائمة، وهي تعمل كثرمومتر مميز، يؤشر حضور أو غياب الإحساس القدسي في الإنسان.إننا نتطلع صوب الطبيعة بسبب غبائنا وأنانيتنا، ولكن عندما نشفى من ذلك، فإن الطبيعة ستتطلع صوبنا. ننظر إلى الجدول المزيد

بحسرة. ولكن إذا ما تدفقت حياتنا بالطاقة الصحيحة، فإننا سوف نخجل الجدول. يتوهج نبع الحماسة بنار حقيقية، لا بالأشعة المنعكسة عن الشمس والقمر. يمكن دراسة الطبيعة بأنانية كما تدرس التجارة. يتحول علم الفلك لدى الأناني إلى تنجيم، والسيكولوجيا إلى تنويم مغناطيسي (بهدف معرفة مصير ملاعقنا التي اختفت)، والتشريح والفيزيولوجيا إلى فراسة وقراءة الكف.

ولكن، دعنا نستلم تحذيراً ملائماً، ونترك الكثير من الأشياء التي لم تقل حول هذا الموضوع، ولا نغفل طويلاً تقديم تقديرنا للطبيعة الكفؤة، الطبيعة السلبية، المسبب العاجل الذي تهرب أمامه كل الأشكال مثل الجليد المزاح، إن أعمالها، وهي التي تظل سراً، تساق أمامها مثل القطعان والحشود (حيث قدم القدماء الطبيعة بهيأة بروتيوس، الراعي) وبتنوع يعجز عنه الوصف. إنها تنشر نفسها في المخلوقات، متدرجة من الأجزاء والشوكات إلى تناسق أعلى من خلال التحول إثر التحول، وتصل إلى النتائج المتحققة بدون صدمة أو قفزة. القليل من الحرارة - أي القليل من الحركة هو كل ما يميز أقطاب الأرض الجرداء ذات البياض الباهر والبرودة القاتلة عن المناخات المدارية الخصيبة. كل التغيرات تمر دونما عنف، بسبب الظرفين الرئيسيين: الفضاء اللامحدود، والزمان اللامحدود. لقد قدمتنا الجيولوجيا إلى دنيا الطبيعة، وعلمتنا الاستغناء عن مقاييسنا المدرسية، واستبدال مخططاتنا الفسيفسائية والبطليمية بأسلوبها الرحب. لم نكن نعرف شيئاً على النحو الصحيح، بسبب افتقارنا للمنظور. الآن نعرف أية حقب صبورة يجب أن تنطوي قبل أن تتشكل الصخرة - ومن ثم تتحطم، وقبل أن يحول الجنس الأول من الأشنان القشرة الخارجية الرقيقة إلى تربة، ويفتح الباب لفلورا، وفاونا، وسيرس، وبومونا لكي يصلن. حتى عندما كانت الأجسام الثلاثية ما تزال بعيدة جداً! وأبعد منها الرباعية. وما كان أبعد الإنسان! الكل وصل في الوقت المحدد، ثم تبعه الجنس بعد الآخر من البشر. إنها لمسافة طويلة ما بين الغرانيت والقوقعة؛ ومسافة أبعد تلك التي تصل إلى افلاطون والمناداة بخلود الروح. ومع ذلك فالكل يجب أن يأتي، بكل تأكيد كما أنه قد كان للذرة الأولى جانبان.

الحركة أو التغير والهوية أو السكون هي الأسرار الأولى والثانية للطبيعة. الحركة والسكون. بالإمكان كتابة كامل صيغة قوانينها على ظفر الإبهام، أو على ختم المهر في خاتم. تقدمنا الفقاعة المعدومة على سطح الجدول إلى سر الميكانيك في الجو. ولك

صدفة على الساحل هي مفتاحه. قليل من الماء يدور في قدح يشرح تكون الأصداف البسيطة؛ إضافة المادة عاماً بعد عام تنتهي في النهاية إلى أكثر الأشكال تعقيداً؛ ومع ذلك فإن الطبيعة بكل براعتها فقيرة بحيث أنها من بداية الكون حتى نهايته لا تملك سوى مادة واحدة ـ لكنها مادة واحدة بنهايتين، لتحقق كل تنوعها الحلمي. فمهما كانت الهيأة التي تركبها بها، نجماً، رملاً، ناراً، ماء، شجرة، إنساناً فإنها تظل مادة واحدة، وتكشف عن الخصائص ذاتها.

الطبيعة ثابتة على الدوام، رغم تظاهرها بمعارضة قوانينها الخاصة بها. فيه تحافظ على قونينها، وتبدو كمن يتجاوزها. إنها تزود الحيوان بالسلاح والمعدات التي تجد له موقعه ومعاشه في الأرض، وتزود ـ في الوقت نفسه ـ حيواناً اخر بالسلاح والمعدات اللازمة للقضاء عليه. القضاء مخصص للمخلوقات القدسية، لكن إكساء جوانب الطير بريشات قليلة تمنحه الطبيعة حضوراً كلياً في جميع الأمكنة. التوجه يشير قدماً على الدوام، لكن الفنانة ما تنفك تعود إلى وراء من أجل مادتها وتبدأ من جديد من العناصر الأولى وهي في أقصى مراحلها المتقدمة. وإلا فإن كل شيء سيصير إلى خراب. لو نظرنا إلى ما تفعله، لبدا لنا أننا نقتنص لمحة من نظام في حالة تحول. النباتات هي صغار العالم، أوعية العافية والنشاط؛ لكنها تتلمس طريقها صعداً صوب الوعي؛ الأشجار رجال غير مكتملين، يندبون سجنهم الذي يجذرهم في الأرض. الحيوان هو التلميذ المتدرب في نظام أكثر تطوراً. البشر، رغم يفاعتهم، قد بلغوا الثمالة، بعد أن تذوقوا القطرة الأولى من كأس الفكر. القيقب والسرخس ما زالا غير مفسدين؛ ولكن ما من شك أنهما عند بلوغهما الوعي سوف يحدقان ويلعنان. تنتمي الأزهار إلى الشباب حصراً مما يحملنا نحن البشر البالغين على الإحساس بأن أجيالها لا تعنينا! لقد كانت لنا أيامنا، فدع الصغار يتمتعون بأيامهم الآن. تهجرنا الأزهار، فنحن عزاب مسنون نحمل حناناً يبعث على السخرية.

تربط القرابة الوثيقة بين الأشياء، حتى أن العين الخبيرة تستطيع أن تتنبأ بخائص وأجزاء أي شيء استناداً إلى خصائص وأجزاء الشيء الآخر. لو كانت لنا عيون تبصر، لأكدت لنا قطعة من حجارة سور المدينة ضرورة وجود الإنسان، بنفس ضرورة وجود المدينة. تلك الهوية تجعلنا جميعاً واحداً، وتختزل إلى لا شيء المسافات البينية في مقياسنا المعتاد. نتكلم عن الانحراف عن الحياة الطبيعية، كما لو أن الحياة المصطنعة

ليست من الطبيعة هي الأخرى. إن لرجل البلاط الرقيق ذي الشعر المجعد في ردهات القصر طبيعة حيوانية، تشبه في فظاظتها وبدائيتها طبيعة الدب الأبيض، كلية القدرة فيما يتعلق بغاياتها الخاصة، ومرتبطة مباشرة، وهي هناك وسط العطور ورسائل الغرام، بسلسلة جبال هيمالايا ومحور الأرض. لو فكرنا في مبلغ ارتباطنا بالطبيعة، لما احتجنا إلى المبالغة بشأن خرافة المدن، كما لو أن تلك القوة الرهيبة والرحيمة لم تضعنا هناك، ولم تشكل المدن، الطبيعة التي صنعت البنّاء، صنعت البيت. يمكن أن نسمع الكثير عن التأثيرات الريفية. الجو الهادئ الطليق للأشياء الطبيعية يجعلها موضع حسدنا، نحن المخلوقات الحساسة سريعة الغضب ذات الوجوه الحمراء، فنعتقد أن بوسعنا أن نوازيها في عظمتها إذا ما نصبنا لنا خيمة في الخلاء وانصرفنا لأكل الجذور؛ لكن دعنا نكون بشراً بدلاً من حيوانات الغابة، ولسوف يسر البلوط والسنديان أن يخدمنا، حتى وإن جلسنا على مقاعد من العاج فوق سجادات من الحرير.

هذه الهوية الدالة تسري في جميع المفاجآت والتناقضات التي يحمل الجزء، وتميز كل قانون. يحمل الإنسان العالم في عقله، ويعلق كل الفلك والكيمياء بفكرة. ولأن تاريخ الطبيعة مطبوع في ذهنه، فهو لذلك نبيها ومكتشف أسرارها. كل حقيقة معروفة في العلوم الطبيعية استشعرت أولاً بحدس أحد الأشخاص، قبل أن يتم تأكيدها. لا يربط الإنسان قيطان حذائه دون أن يدرك القوانين التي تربط ما بين أصقاع الطبيعة القصية. القمر، النبات، الغاز، البلور ماهي إلا أرقام وهندسة محض. البداهة تتعرف على ما يخصها، وتلم بالحقيقة من النظرة الأولى إلى تجربة كيماوية. إن بداهة فرانكلين، ودالتون، وديڤي، وبلاك هي نفس البداهة التي وضعت الترتيبات التي نكتشفها الآن.

إذا كانت الهوية تعبر عن السكون المنظم، فإن الفعل المقابل يخضع أيضاً للتنظيم. يقول الفلكيون، «إعطنا مادة وقليلاً من الحركة وسوف نشيد الكون. لا يكفي أن تكون لدينا مادة، ينبغي أيضاً أن يكون لدينا حافز واحد، دفعة واحدة لإطلاق الكتلة وإحداث انسجام القوى المركزية والطردية. ارم الكرة من اليد مرة، وبوسعنا أن نبين كيف نشأ كل هذا النظام الهائل.» يرد الميتافيزيقيون، «افتراض غير معقول جداً. واستجداء واضح للأمر. ألا يمكنكم معرفة أصل التغير، واستمراره؟» الطبيعة، في هذه الأثناء، لم تنتظر نتيجة النقاش، إنما منحت الدافع، وتدحرجت الكرات. لم يكن بالأمر الجسيم، مجرد دفعة، لكن الفلكيين كانوا محقين في المبالغة بشأنه، إذ ليس ثمة من نهاية لعواقب

ذلك الفعل. تلك الدفعة الابتدائية الشهرة نشرت نفسها عبر جميع كرات النظام. وعبر كل ذرة في كل كرة؛ عبر كل أجناس المخلوقات، وعبر تاريخ كل فرد وأدائه. المبالغة من سياق الأشياء. فالطبيعة لا ترسل مخلوقاً أو إنساناً إلى العالم بدون أن تضيف لخصائصه السليمة شيئاً من الإفراط. على مستوى الكوكب، لا يزال من الضروري إضافة الدافع، وهكذا فإن الطبيعة أضافت إلى كل مخلوق قليلاً من الشدة في توجيهه ضمن مساره السليم، دفعة تضعه على طريقه؛ شيئاً من السخاء في كل حالة، قطرة أكثر من اللازم. بدون كهربائية يتعفن الهواء، وبدون هذه الشدة في التوجه التي يحملها الرجال والنساء، بدون قليل من توابل التعصب، ولا توجد إثارة، ولا كفاءة. نهدف إلى ما فوق العلاقة، لكي نصيب العلاقة. في كل عمل يوجد شيء من زيف المبالغة وعندما يمر بين حين وآخر رجل حزين حاد البصر، يبصر الطريقة الخسيسة التي تؤدي بها العبة، ويرفض اللعب ويكشف السر - فماذا بعد؟ هل طار الطائر؟ أوه، كلا. ترسل الطبيعة المحترسة فريقاً جديداً من أشكال أطلف، شباناً أرقى، يحملون قسطاً أكبر من فائض التوجه يكفي لشدهم بقوة إلى أهدافهم المتعددة؛ وتدير رؤوسهم قليلاً في الاتجاه الذي يحققون فيه الاستقامة الأكبر، وتستمر اللعبة بدورة جديدة لجيل أو جيلين آخرين. الطفل في ألعابه الحلوة، الغافل عن حواسه، الخاضع لتوجيهات الأصوات والمرئيات، المفتقر لكل قدرة على مقارنة أحاسيسه وترتيبها، المفوض أمره لصافرة أو ورقة ملونة، لجندي من رصاص أو كلب من عجين، الناظر لكل شيء على حدة، غير القادر على تعميم أي شيء، المسرور بكل ما هو جديد، يرقد ليلاً وقد غلبه الإجهاد الذي سببه له هذا اليوم من الجنون المستمر الجميل. لكن الطبيعة نفذت غرضها في هذا المجنون ذي الغمازات والشعر المجعد. فقد اختبرت كل وظيفة، وأمنت النمو المتناسق للإطار الجسدي عن طريق كل هذه المواقف والمجهودات - وهو غرض ذو أهمية عظمى، ولا يمكن أن يعهد به إلى عناية أي جهة سواها. هذا البريق، هذا للمعان المتلالئ يتراقص حول كل لعبة أمام عينه ليؤمن إخلاصه، إنها تستدرجه إلى مصلحتها. نفس الحيل تجعلنا أحياء وتبقينا أحياء. دع أدعياء الرصانة يقولوا ما شاؤوا؛ فنحن لا نأكل من أجل الحياة، ولكن لأن اللحم لذيذ والشهية مفتوحة. إن الحياة النباتية لا تكتفي بإنتاج بذرة مفردة من الزهرة أو الشجرة، إنما تملأ الهواء والأرض بوافر من البذور، بحيث أنه لو هلك منها ألف، لتمكن ألف آخر من الانغراس، ولنبتت منه مئة، ووصلت عشرة

إلي مرحلة النضج، وتمكنت واحدة على الأقل من الحلول محل النبتة الأم. جميع الأشياء تكشف عن نفس الغزارة المحسوبة. إن فرط الخوف الذي يحيط بالبدن الحيواني، ، منكمشاً من البرد، جافلاً من رؤية أفعى أو سماع صوت مفاجئ، يحمينا، من خلال عدد من الإنذارات التي لا أساس لها، من خطر حقيقي يأتي في النهاية. يتوخى العاشق من الزواج تحقيق السعادة والكمال لنفسه، دونما هدف مرسوم؛ وتخفي الطبيعة في سعادته هدفها الخاص، ألا وهو الذرية، ودوام النوع.

إلا أن البراعة التي يصنع بها العالم، تسري أيضاً إلى عقل الإنسان وطبيعته. ما من إنسان عاقل تماماً، لكل واحد عرق من الحماقة في تكوينه، تحكم قليل للدم في الرأس، لغرض ضمان تصلبه في نقطة معينة تريدها الطبيعة. لا يبت في القضايا لحالها؛ تختزل القضية إلى تفاصيل لكي تلائم حجم المشاركين، ويكون الخلاف على أشده حول الجوانب الثانوية. على نفس الدرجة من الوضوح يكون إيمان الإنسان الفائض بأهمية ما يقوله أو يفعله. يجد الشاعر، أو النبي فيما يقوله أهمية أكبر من تلك التي يجدها المستمع، ولهذا يقول ما يقوله. يعلن لوثر القوي الراضي عن ذاته بتأكيد أنه يجب أن لا نغفل أن «الرب نفسه لا يستطيع أن يستغني عن الرجال الحكماء». يكشف جاكوب بيهمن وجورج فوكس عن أناهما في عنادهما المثير للجدل، وطرح جيمس نيلور مرة نفسه لأن يعبد كالمسيح. كل نبي بما هي على الفور بين أفكاره ونفسه، ويعتبر قبضته وحذاءه مقدسين ومهما حط ذلك من قيمة مثل هؤلاء الأشخاص لدى الحصيف، فإنه يفيدهم مع الناس لأنه يمنح كلماتهم حرارة، ولذعاً، وصيتاً. لا يوجد في الحياة الخاصة تجربة تشابه ذلك. كل شاب أو متحمس يكتب يومياته، التي يدون فيها روحه، في ساعات الصلاة والتوبة. الصفحات التي تكتب بهذا النفس تبدو له مضطرمة وعبقة؛ إنه يتلوها وهو جاثٍ على ركبتيه عند منتصف الليل وعند بزوغ نجمة الصبح؛ ويبللها بدموعه؛ إنها مقدسة؛ أفضل مما يسمح به العالم، ولا ينبغي عرضها حتى على أعز الصدقاء. إنها الطفل الذي ولد للروح، وحياتها ما تزال تنبض في الوليد. الحبل السري لم يقطع بعد. بعد مضي بعض الوقت، تراوده رغبة بأن يطلع صديقه على هذه التجربة المبجلة، فيكشف الصفحات أمام عيني صديقه، بتردد وحزم. أتراها لن تحرق عينيه؟ يقلبها الصديق ببرود، وينتقل من الكتابة إلى الحوار، بتحول سهل، يصيب الطرف الآخر بالدهشة والحيرة. ليس بوسعه أن يشك بالكتابة نفسها. أيام وليال من الحياة

المحمومة، من التواصل مع ملائكة الظلمة والنور قد حفرت حروفها المطموسة على ذلك الكتاب الذي بقعته الدموع. إنه يشك بذكاء صديقه أو بفؤاده. أليس هو بالصديق إذن؟ إنه لا يستطيع أن يصدق بعد أن بوسع المرء أن تكون له تجربة مؤثرة ومع ذلك لا يغرف كيف يضع حقيقته الخاصة في صيغة أدبية. ولعل اكتشاف أن الحكمة لها ألسنة أخرى غير تلك التي لدينا، وأن الحقيقة سوف تقال حتى لو صمتنا، يمكن أن يكبح لهيب حماسنا. لا يستطيع المرء أن يتكلم إلا عندما لا يشعر بأن كلامه سيكون مبتسراً وغير مفيد. إنه مبتسر، لكنه لا يراه كذلك وهو يتفوه به. وما أن يتخلص من ماهو غريزي ومحدد ويرى ابتسار كلامه، حتى يغلق فمه مشمئزاً. لأنه ما من إنسان يستطيع أن يكتب أي شيء مالم يعتقد عندها بأنه يكتب تاريخ العالم؛ ولا أن يفعل أي شيء على نحو طيب مالم يعتبر فعله فعلاً ذا أهمية. قد لا تكون لفعلي أهمية، ولكن لا ينبغي أي أن أعتقد أنه لا أهمية له، وإلا فإني لن أفعله دون تحفظ. وبالطريقة نفسها، هناك خلال الطبيعة شيء ما مستهزئ، شيء يقودنا ويقودنا، لكنه لا يصل إلى أي مكان ولا يصدقنا بشيء. كل الوعود تتخطى الأداء. نحن نعيش ضمن نظام مقارب. كل غاية هي تطلع لغاية أخرى، تكون هي الأخرى مؤقتة؛ إذ لا يوجد هناك نجاح تام ونهائي. نحن نخيم في الطبيعة، ولسنا مستوطنين فهيا. يقودنا الجوع والعطش إلى أن نأكل ونشرب؛ لكن الخبر والنبيذ، كيفما مزجتهما وطبختهما، يتركاننا جوعى وعطشى، بعد أن تمتلئ البطن. كذلك هو الأمر بالنسبة لفنوننا وأدائنا. فموسيقانا، وشعرنا، لغتنا ليست بحد ذاتها! إشباعاً، إنما إيحاءً. إن الجوع للثروة، الذي يختزل الكوكب إلى حديقة، يخدع طالبها المتلهف. ما هي النتيجة المتوخاة؟ واضح أنها تأمين غابات الحس الطيب والجمال ضد اقتحام التشويه والفظاظة من أي نوع. ولكن يالها من طريقة شاقة! أية سلسلة من الوسائل لضمان محاورة صغيرة! هذا القصر من الأجر والحجر، هؤلاء الخدم، هذا المطبخ، هذه الإسطبلات، الخيول، المعدات، هذا الرصيد المصرفي وملف الرهانات . التجارة مع العالم أجمع، القصر الريفي، الكوخ عند ضفة الماء، كلها من أجل محاورة صغيرة، رفعية، واضحة، روحانية! أليس يمكن أن ينالها أيضاً الشحاذون على قارعة الطريق؟ كلا، كل هذه الأشياء جاءت من المحاولات المتلاحقة لهؤلاء الشحاذين لإزالة الاحتكاك عن عجلات الحياة، وإعطاء فرصة. المحاورة، والشخصية كانتا الغاية المنشودة؛ الثروة كانت أمراً طيباً ما دامت ترضي الاشتهاء الحيواني،

وتعالج المدخنة الداخنة، وتسكت الباب ذات الصرير، وتجمع الأصدقاء في غرفة دافئة هادئة، وتبقي الأطفال ومائدة الطعام في شقة أخرى. الفكر، الفضيلة، الجمال كانت الغايات؛ ولكن كان معروفاً أن أصحاب الفكر والفضيلة يعانون أحياناً من الصداع، أو الإقدام الرطبة، أو يمكن أن يضيعوا وقتاً طيباً بينما تتم تدفئة الغرفة في أيام الشتاء. لسوء الحظ، إن المجهود اللازم لإزالة هذه المزعجات يصرف الاهتمام إليه، فتغيب الغايات الأصلية عن النظر، وتصبح إزالة الاحتكاك هي الغاية. تلك هي السخرية التي تحل بالرجال الأغنياء، وبوسطن، ولندن، وفيينا، وحكومات العالم بشكل عام هي مدن وحكومات الأغنياء؛ والجماهير ليست أناساً، بل «أناس فقراء»، أي أناس يريدون أن يكونوا أغنياء؛ تلك هي سخرية الطبقات، إنها لا تبلغ بالعناء والعرق والغضب إلى أي مكان؛ عندما يكون كل شيء قد انجز، يكون من أجل لا شيء. إنها مثل شخص يقطع حديث الجماعة من أجل أن يدلي بكلمته، لكنه ينسى ما كان يريد أن يقوله. يدهم العين في كل مكان مشهد المجتمع الذي لا غاية له، والأمم لا غاية لها هل كانت غايات الطبيعة عظيمة ومقنعة إلى الحد الذي يستدعي هذه التضحية الجسيمة بالبشر؟

هنالك، كما هو متوقع، أثر مماثل يسقط على العين من وجه الطبيعة الخارجي يتشابه مع حالات الخداع في الحياة. في الغابات والمياه يوجد نوع من الإغراء والمداهنة، إلى جانب القصور عن تقديم إرضاء آني. خيبة الأمل هذه محسوسة في كل مشهد طبيعي. لقد شهدت نعومة وحسن غيوم الصيف وهي تعوم ريشية في الأعالي، مستمتعة على ما يبدو، بعلوها وتميزها بالحركة، فيما كانت - رغم ذلك - لا تبدو كستارة لهذا المكان وهذه الساعة، إنما كما لو كان تتطلع قدماً صوب سرادقات وجنائن احتفالية فيما وراءه. إنه نوع غريب من الغيرة، لكن الشاعر لا يجد نفسه قريباً بما يكفي من موضوعه. فشجرة الصنوبر، والنهر، وضفة الأزهار أمامه لا تبدو طبيعة. الطبيعة ما زالت في مكان آخر. ما هذا ولا تلك إلا حواشٍ وإنعكاس عن بعد وصدى لذلك الانتصار الذي مر، والذي يتمثل الآن في ذروته وقمة بهائه، في الحقول المجاورة، أو في حالة كون في الحقل، فهو ربما كان في الغابات المتاخمة. يعطيك المشهد الآني هذا الشعور بالسكون الذي يعقب موكباً مر لتوه. أية مسافة رائعة، أي ترام للأبهة والروعة التي لا توصف في غروب الشمس! ولكن من ذا الذي يستطيع الذهاب إلى هناك، أو يضع يداً أو قدماً فيها؟ إنها تتساقط خارج العالم المكور دائماً وأبداً. الشيء

نفسه الذي يحدث بين الأشجار الصامتة يحدث ما بين الرجال والنساء؛ هنالك على الدوام وجود مؤجل، غياب، وما من حضور وإشباع أبداً. أهو لأن الجمال لا يمكن الإمساك به أبداً - وأنه غير مدرك في الأشخاص وفي الطبيعة على حد سواء؟ في قبول الفتاة به، أضاع العاشق الموعود والمقبول أغرب وجوه السحر في محبوبته. كانت سماء عندما كان يطلبها كنجم. لايمكن أن تكون سماء إذا هي تنازلت لشخص مثله.

ماذا عسانا أن نقول عن هذا الظهور كلي الوجود لذلك الدافع المنطلق الأول، لهذه المداهنة وهذا الصد الذي يبديه هذا العدد من المخلوقات حسنة النية؟ ألا يتوجب علينا أن نفترض وجود شيء من الخداع والسخرية في مكان ما من الكون؟ ألسنا مشدودين إلى نوع من الامتعاض الجاد لهذه المعاملة التي تخضع لها؟ هل نحن مغفلو الطبيعة ومادة استهزائها؟ إن نظرة واحدة إلى السماء والأرض تهدئ كل الانزعاج، وتطيب خاطرنا بقناعات أكثر حكمة. الطبيعة، في عين الذكي، تحول نفسها إلى وعد كبير، وتمتنع على التفسير المتعجل. فسرها مكتوم. يصل أوديب بعدَ آخر في أعداد كبيرة؛ واللغز كله يعتمل في ذهنه. ولكن ياللحسرة! السحر نفسه يفسد مهارته؛ فلا يعود قادراً على تحريك شفتيهن بمقطع واحد. ينعقد ذلك الطبيعة الهائل عالياً في العمق مثل قوس قزح جديد، ولكن ما من ملاك يحمل أجنحة لها من القوة ما يكفي لأن يتبع الفلك ويعود ليبلغ عن دورة ذلك المنحنى. ولكن يبدو أيضاً أن أفعالنا تدعم من قبل النتائج الأعظم التي نرمي إليها وترتب من قبلها. يقودنا من كلتا يدينا عبر الحياة عوامل روحانية، ويكمن في انتظارنا غرض خيِّر. ليس بمقدورنا أن نتبادل الكلمات مع الطبيعة، أو نتعامل معها كما نتعامل مع الأشخاص لو أننا نقيس قوانا الفردية بقواها لشعرنا بأننا ألعوبة في يد قدر لا يقهر. ولكن، إن شعرنا بروح الصانع تجري من خلالنا، بدلاً من مماهاة أنفسنا مع الصنع، لوجدنا سلام الصباح يحل أولاً في قلوبنا، وقوى الجاذبية والكيمياء التي لا يسبر غورها، لا بل وقوة الحياة من فوقها، موجودة سلفاً فينا وفي أرفع صورها.

إن القلق الذي يثيره فينا التفكير بقلة حيلتنا ضمن سلسلة المسببات ينتج عن إطالة النظر إلى حال واحدة من حالات الطبيعة، ألا وهي الحركة. لكن المقاومة لا تنتزع عن العجلة. فحيثما تضاعف الدافع، فإن السكون أو الهوية يتقدمان بالتعويض. على امتداد حقول الأرض الشاسعة ينمو العلاج الذاتي. بعد كل نهار أحمق يأتي الرقاد ليمحو

غضب وانفعال ساعاته، ورغم أننا ننشغل دائماً بالتفاصيل، التي غالباً ما تستعبدنا، فإننا نجلب معنا لكل تجربة القوانين الكونية المجبولة فينا. فهذه القوانين، التي توجد في الذهن على هيأة أفكار، تمثل حوالينا مشخصة في الطبيعة، تعقلاً فورياً يكشف جنون البشر ويداويه. تخدعنا عبوديتنا للتفاصيل فتقودنا إلى مئات التوقعات الحمقاء. نتوقع حقبة جديدة من اختراع قاطرة، أو منطاد؛ الماكنة الجديدة تحمل معها الضوابط القديمة. يقولون أن الكهرومغناطيسية ستجعل بالإمكان زراعة ونمو مواد السلطة من بذورها في الوقت الذي يستغرقه طهي الدجاجة للعشاء؛ إنه رمز أهدافنا ومساعينا الحديثة، رمز تكثيفنا للأهداف وتعجيلنا لها. لكن ما من شيء يكسب من ذلك، فالطبيعة لا يمكن أن تنخدع؛ وحياة الإنسان ليست سوى عمر سبعين سلطة، سواء عجلت أم أبطأت في زراعتها وجنبها. في هذه الضوابط والمستحيلات، تقوم منفعتنا، وليس في الدوافع وحدها. دع الانتصار يحل حيثما يشاء، فسوف نكون في ذلك الجانب. أن نعرف أننا نجتاز كل سلم الوجود، من مركز الطبيعة إلى أقطابها، وأن تكون لنا حصة في كل إمكانية. يخلع على الموت ذلك البهاء المهيب، الذي جهدت الفلسفة والديانة في التعبير عنه حرفياً وخارجياً بالإعتقاد الشائع عن خلود الروح. إن الحقيقة أفضل مما نقل عنها. هنا لا خراب، لا انقطاع، لا ضربة طائشة. فالدورة القدسية لا تهدأ ولا تتلكأ. الطبيعة تجسد لفكرة، وهي تتحول إلى فكرة من جديد،كما أن الثلج يتحول إلى ماء وغاز. العالم عقل مترسب، والجوهر الطيار ينفلت على الدوام إلى حالة الفكرة الطليقة. من هنا تأتي فضيلة وحدة تأثير العوامل الطبيعية على العقل، سواء كانت غير عضوية أو منظمة. الإنسان الحبيس، الإنسان المتبلور، الإنسان الخامل، يكلم الإنسان المتجسد. هذه القوة التي لا تحترم الكم، والتي تجعل من الكل والجزء قنوات متساوية لها، تبعث بابتسامتها للصباح، وتكثف جوهرها في كل قطرة مطر. كل لحظة، وكل مادة يعلمان شيئاً، لأن الحكمة متفشية في جميع الأشكال. لقد انسكبت فينا كالدماء؛ وهي تعتصرنا كما يفعل الألم؛ وتنساب فينا كاللذة؛ وتحيطنا بأيام بليدة، كئيبة، أو أيام عمل بهيج او نحن لم نحزر جوهرها إلا بعد مرور وقت طويل.

١٩

السياسة

في التصدي للدولة، علينا أن نتذكر أن مؤسساتها ليست أزلية حتى وإن كانت قد وجدت قبل أن نولد؛إنها ليست فوق المواطن، وأن كل مؤسسة منها كانت في يوم ما فعلاً لرجل واحد وكل قانون أو تطبيق كان وسيلة رجل محدد لمواجهة حالة معينة، وأنها جميعاً ممكنة المحاكاة وقابلة للتغير، وأن بوسعنا أن نصنع مثيلاً لها، بل بوسعنا أن نصنع ما هو أفضل. إن المجتمع وهم بالنسبة للمواطن الشاب. إنه يتمدد أمامه في هيأة صلبة، حيث تتجذر أسماء معينة لرجال ومؤسسات مثل أشجار البلوط في الوسط، ومن حولها ينظم الجميع أنفسهم على أفضل نحو ممكن. لكن السياسي الشيخ يعلم أن المجتمع سائل، وأن مثل تلك الجذور لا وجود لها في المركز، إنما بوسع كل جزيئة أن تصبح على حين غرة مركز الحركة وترغم المنظوفة كلها على الالتفاف من حولها، كما حدث للرجال من أصحاب الادارة القوية أمثال بيزيستراتوس وكروميل لبعض الوقت، وكما يحدث للرجال الذين يملكون الحقيقة مثل افلاطون وبولص على مدى الدهر. لكن السياسة تستند إلى أسس ضرورية، ولا يمكن أن تعامل باستخاق. تعج الجمهوريات بالمواطنين الشبان الذين يؤمنون بأن القوانين تصنع المدينة، وأن بالامكان التصويت مع أو ضد التعديلات الخطيرة على السياسة، وطريقة الحياة وتشغيل السكان، وعليالتجارة، والتعليم والديانة، وأن أي إجراء، مهما كان سخيفا، يمكن أن يفرض على شعب ما إذا استطعت أن تجمع الأصوات اللازمة لتحويله إلى قانون. لكن الحكماء يعرفون أن التشريعات الحمقاء عبارة عن حبل من الرمال يتلاشى عند البرم، وأن على الدولة أن تتبع طبيعة المواطن وتتقدمه لا أن تقودهما، وأن المغتصب الأقوى سرعان ما يتم التخلص منه، وأن الذين يشيدون بناءهم على الأفكار هم وحدهم الذين يشيدون للأبدية، وأن الشكل الذي يسود الحكومة هو تعبير عن نوع الاستعداد القائم لدى السكان والذي يسمح بوجود الشكل. إن القانون ليس سوى مذكرة. إننا نؤمن بالخرافة، وبطريقة ما نبجل القانون، لكن قوته لا تتشكل إلا من كمية الحياة التي

توجد فيه والتي تتمثل في البشر الأحياء. إن القانون موجود ليذل، لقد اتفقنا على كذا وكيت بالأمس، ولكن كيف تشعر إزاء هذه الفقرة اليوم؟ إن تشريعنا ما هو إلا عملة ندفعها بصورتنا، وسرعان ما تصنع ملامح الصورة، وعلى مدى الأيام لا بد أن نعود إلى دار السبك. الطبيعة ليست ديمقراطية، ولا حتى ملكية مقننة، إنما هي مستبدة، ولا يمكن خداعها أو ثنيها عن أية دفعة من دفعات سلطتها عن طريق محاولات أبنائها، وما أن تتفتح الذهنية العامة للمزيد من المعرفة، حتى تبدو قوانينها عمياء ومتلعثمة. إنها لا تحدث بشكل منظم وتحتاج إلى أن تحمل على فعل ذلك في حين أن تعليم الذهن العام لا يتوقف أبداً.

إن أفكار الصادقين والبسطاء ذات طبيعة تنبؤية. فمايحلم به الشباب الرقيق والشاعري اليوم وما يرسمه ويصلي من أجله، المؤسسات عن التصريح به مخافة السخرية، سيتحول على الفور إلى قرارات تتخذها المؤسسات العامة - ومن ثم سوف يرفع كمظلمة أو لائحة للحقوق عند النزاعات والحروب، ثم يصبح نصراً قانونياً ومؤسسة قائمة لمئة عام، لمن تقوم بدورها، باخلاء مكانها لرسوم وصلوات جديدة، إن تاريخ الدولة يرسمه بخطوط غير منمقة مسار تقدم الفكر ويقتفي عن الثقافة والتطلعات.

إن نظرية السياسة التى استحوذت على عقول الناس، والتي عبر عنها على أفضل نحو بقوانينهم وتوراتهم، تنظر إلى الاشخاص والملكيات بصفتهما الهدفين اللذين تقوم الحكومة لحمايتهما. بالنسبة للأشخاص يمتلك الجمبع حقوقاًمتساوية، نظراً لكونهم متماثلين في الطبيعة. تطالب هذه المصلحة بكلمل قوتها، بالطبع، بقيام الديمقراطية. في الوقت الذي تتساوى فيه خقوق جميع الأشخاص، بحكم علاقتهم بالعقل، نجد أن حقوقهم في الملكية غير متساوية إطلاقاً. ثمة رجل لا يملك سوى ثيابه، ورجل آخر يمتلك بلده. هذه الحال التي تتوقف بالدرجة الأولى على خبرات ومزايا الأطراف المعنية، وهي مجالات تنطوي على كل أنوع التدرج، والتى تخضع بالدرجة الثانية للميزات، تتباين لدى الأشخاص، فتكون حقوقها غير متساوية بطبيعة الحال. الحقوق الشخصية، المتماثلة لدى الجميع، تتطلب حكومة قائمة على توزيع نسبة السكان، أما الملكية فتتطلب حكومة قائمة على نسب المالكين والممتلكات. لابان، ذو الماشية والقطعان، يرغب في أن يرعاها له ضابط على الحدود خشية أن يأخذها منه المدينون، وهو يدفع الضريبة من أجل ذلك، أما يعقوب الذي لا ما شية لديه ولاقطعان والذي ليس لديه ما يخشاه من المدينين، فإنه لا يدفع ضريبة للضابط. يبدو من المناسب أن تكون للابان ويعقوب حقوق متساوية في انتخاب الضابط

الذي سيحمي قطعانه وماشيته. وإذا ما طرح السؤال كما إذا كانت هناك لتوفير ضباط إضافيين أو لإقامة المزيد من أبراج المراقبة، أفلن يكون لابان واسحاق، وأولئك الذين سيتعين عليهم أن يبيعوا أجزاء من قطعانهم لشراء الحماية للجميع، أحق من يعقوب وأقدر منه على اتخاذ القرار الصائب وهو الذي يقتات، بحكم يفاعته وترحاله، على خبزهم لا على خبزه.

في المجتمعات البكرة كان المالكون يصنعون ثروتهم الخاصة ، وما دامت الثروة تأتي إلى المالكين بطريقة مباشرة، فإن لم يظهر في أية جماعة منصفة رأي آخر غير الرأي القائل بأن على الملكية أن تصنع قانون الملكية وأن على الأفراد أن يصنعوا قانون الأفراد.

لكن الملكية تنتقل، عبر المنحة أوالارث، إلى أشخاص لم يخلفوها والملكية التى تنتقل بالإهداء تعود إلى مالكها الجديد بنفس الدرجة التي كانت تعود بها الى مالكها الأول الذي صنعها بجهده، وفي حالة الإرث، فإن القانون يجعلها ملكية في نظر كل انسان بالقدر الذي يكنه من الإحترام للاستقرار العام.

إلا أنه لم يكن من السهل تجسيد المبدأ الذي قبل على الفور والذي يقول بأن للملكية أن تصنع قانون الملكية، وللاشخاص أن يصنعوا قانون الأشخاص. مادام الاشخاص والملكية يتداخلان في كل عملية تجارية. وأخيراً استقرالرأي عند التميز المشروع القائل بأنه ينبغي أن يكون للمالكين حق انتخابي أكبر من حق غير المالكين، انطلاقاً من المبدأ السبارطي القائل « بدعوة ما هو عادل متساوياً، لا دعوة ما هو متساوٍ عادلاً».

لم يعد هذا المبدأ يبدو بديهياً كما بدا في الأزمنة السابقة، ويعود ذلك جزئياً إلى الشكوك التي نشأت بشأن الثقل الكبير الذي يمنحه قانون الملكية، والذي تتيح تطبيقاته للأغنياء أن يتجاوزوا على الفقراء، وأن يبقوهم في حالة الفقر. لكنه يعود بالدرجة الأولى لوجود إحساس غريزي، وإن كان غامضاً وغير محدد، بأن كامل هيكل الملكية، بموجب الشروط الحالية، مضر وأن تأثيره على الأفراد مذل ومسيء؛ وأن المصلحة الوحيدة التي تأخذها الدولة بنظر الاعتبار هي مصلحة الأشخاص؛ وأن الملكية دائماً تأتي بعد الأشخاص؛ وأن غاية الحكومة الأعلى هي تربية الناس، وأن الناس إذا ما

تعلموا، فإن المؤسسات سيكون لها سهم في تطورهم وأن الحس الأخلاقي هو الذي سيدون قانون الأرض.إذا لم يكن من السهل البت في عدالة هذه القضية، فإن المخاطر تصبح أقل عندما تأخذ دفاعاتنا الطبيعية بنظر الاعتبار. إننا في حماية حراس أفضل من رقابة القضاة الذين ننتخبهم عادة. إن جزءاً كبيراً من المجتمع يتكون دائما من الاشخاص اليافعين والحمقى. الشيوخ الذي شهدوا نفاق المحاكم والساسة، يموتون ولا يخلفون شيئاً من الحكمة لأبنائهم. يصدق هؤلاء، ما تقوله جريدتهم، تماماً كما فعل آباءهم عندماكانوا في مثل شببهم. من شأن الدول أن تتحول إلى خراب بسبب هذه الأغلبية الجاهلة والقابلة للانخداع، لولا أن ثمة حدوداً لا تستطيع الحماقات ولاطموحات الحكم أن تتجاوزها. فللأشياء، كما للناس، قوانينها. والأشياء ترفض أن يتلاعب بها. وهكذا تحمي الملكية. فالقمح لا ينمو ما لم يزرع ويسمد؛ لكن الفلاح لا يزرعه أو يرعاه ما لم تكن فرص جنيه وحصاده من قبله بنسبة المئة إلى الواحد. فالأشخاص والملكية يجب أن يأخذوا مداهم العادل كاملاً تحت أية صيغة من الصيغ. وهم يمارسون سلطتهم بثبات نكر بمهارة باونداً من التراب، قسمه وأعد تقسيمه، ذوبه إلى سائل، وحوله إلى غاز وسيكون وزنه باونداً في جميع الالات، ولسوف يواصل جذب ودفع المواد الأخرى بكامل القدرة التي يستطيعها باوند من المادة. كذلك تمارس صفات الشخص، ذكاؤه وطاقته الأخلاقية، قوتها الكاملة، تحت أي قانون أو طغيان جائر، سراً إن لم يكن علناً، وإن لم يكن بموجب القانون فبالعند منه، وإن لم يكن نحو سليم فعلى نحو خبيث، وبالحق أو بالقوة.

من المستحيل تثبيت حدود التأثير الشخص، لأن الأشخاص أدوات القوة المعنوية أو الفوق طبيعية. تحت سلطان الفكرة التي تستحوذ أذهان الجماهر، كالحرية المدنية أو الشعور الديني، لا تعود قوة الأشخاص قابلة للعد. إن الأمة المجمعة على تحقيق الحرية أو الانتصار تستطيع بسهولة أن تفحم حسابات الأعداد، وتنجز أعمالاً باهرة، لاتتناسب مع الوسائل المتاحة لها، كما فعل الاغريق، والمسلمون، والسوسريون، والامريكيون.

وبالطريقة نفسها يكون لكل جزء من الملكية قوة جذبه الخاصة. فالسنت يمثل كمية معينة من القمح أو أية سلفه أخرى. وقيمته تكمن في الاحتياجات الضرورية للجانب الحيواني من الانسان. وهو يساوي كذا من الدفء، وكذا من الحيز، وكذا من الماء،

وكذا من الأرض، يستطيع القانون أن يفعل ما يشاء بصاحب الملكية، لكن قوته الحقيقية تظل مرتبطة بالسنت. بوسع القانون أن ينص، في نوبة مجنونة، على أن يكون للجميع سلطة باستثناء أصحاب الملكية الذين لن يكون لهم حق الاقتراع. إلا أن قانوناً أعلى يجعل الملكية تكتب، عاماً بعد عام، كل القوانين التي تحترم الملكية وسوف يكون غير المالك كاتباً للمالك. ما يرغب المالك في تحقيقه، تحققة قوة الملكية، إما من خلال القانون، أو رغماً عنه. وأنا هنا أتحدث، بالطبع، عن كل أنواع الملكية وليس عن العقاراة الكبيرة فحسب. عندما يغلب الأغنياء في التصويت، كما يحدث من حين الى آخر، فإن الذي يغلبهم هو الخزانة المشتركة للفقراء التى تتجاوز حصيلتهم. كل شخص يمتلك شيئاً، حتى وإن كان بقرة أو محراثاً، أو ذراعه، وبالتالي فإن لديه تلك الملكية التى يستطيع أن يوظفها.

إن الضرورة التى تؤمن حقوق الافراد والملكية إزاء حماقة الحكام أو خبثهم، هي نفسها الضرورة التي تقرر صيغة الحكم وأساليبه التي تناسب كل أمة وتنسجم من طريقتها في التفكير، والتي لا تصلح للنقل الى حالات اجتماعية أخرى. في هذه البلاد، نحن شديدو التباهي بمؤسساتنا السياسية التي تعتبر فريدة في كونها قد انبثقت، من ذاكرة الأشخاص الأحياء، من شخصية هذا الشعب وظروفه، التى مازالت تعبر عنها بأمانة كافية – ونحن نفضلها باعتزاز على أية مؤسسات أخرى فى التاريخ. إنها ليست أفضل، لكنها أكثر ملاءمة لنا. قد نكون حكماء في تأكيد مزايا الصيغة الديمقراطية في العصر الحديث، لكن في حالة المجتمعات الأخرى، التى عملت الديانة فيها على تكريس الملكية، تكون الملكية وليس الديمقراطية هي الصيغة الملائمة إن الديمقراطية أصلح لنا، لأن الشعور الديني للزمن الراهن يتماش معها على نحو أفضل. فنحن الذين ولدنا ديمقراطيين، غير مؤهلين للحكم على الملكية. التي كانت صالحة هي الأخرى في نظر آبائنا الذين عاشوا تحت ظل الفكرة الملكية. لكن مؤسساتنا، التي تتماشى مع روح العصر، غير مستثناة من النواقصى الفعلية التي عابت الصيغ الأخرى. كل حالة راهنة تعتبر فاسدة يمكن أن يوازي في قسوته المعنى المتضمن في كلمة « سياسة» والتي صارت منذ قرون تعني «الدهاء » مما يشير إلى أن الدولة خدعة؟

إن الضرورة غير الضارة نفسها وسوء الاستخدام الفعلي نفسه يظهران في الأحزاب، التى تنقسم إليها كل دولة، من معارضين لادارة الحكومة أو مدافعين عنها.

والأحزاب تقوم أيضاً على الغرائز، وتتبع لأغراض الوصول إلى أهدافها المتواضعة مرشدين يتفوقون على حكمة زعمائها ففي منشئها لا تحمل شيئاً منحرفا، إنما هي تمثل بفجاجة نوعاً من العلاقة والدائمة. يمكننا بنفس الدرجة من الحكمة أن نستنكر الريح الشرقية أو الصقيع بصفتها أحزاباً سياسية لا يستطيع أعضاؤها في أغلبهم أن يكونوا مسؤولين عن مواقعهم، إنما يقفون دفاعاً عن تلك المصالح التي وجدوا أنفسهم فيها. يبدأ نزاعنا معهم عندما يغادرون هذه الأرضية الطبيعية العميقة بناء على طلب أحد الزعماء ويلقون بأنفسهم في تيار صيانة المواقع التي لا تمت لهم والدفاع عنها نزولاً عند اعتبارات شخصية. يلحق الشخصية الفساد الدائم بالحزب. ففي الوقت الذى ننزه فيه الرابطة كلها عن عدم الأمانة، فإننا غير قادرين على بسط هذا الظن الطيب على زعمائها عادة، تكون احزابنا أحزاب ظرف ، لا أحزاب مبدأ، مثل نزاع المصالح بين المزارع والتاجر، وحزب الرأسمالين وحزب العمال. أحزاب متماثلة في شخصيتها المعنوية دفاعاً عن الكثير من إجراءاتها. تحلل أحزاب المبدأ- مثل المذاهب الدينية، وحزب التجارة الحرة، أو حق النتخاب العمومي، أو إلغاء الرق، أو الغاء عقوبة الاعدام- إلى شخصيات أنها تعمل على إذكاء الحماسة. إن العيب في أحزابنا الرئيسة في هذا البلد«التي يمكن اعتبارها نماذج مناسبة لجمعيات الرأي » هو أنها لا ترسخ نفسها في الارضيات العميقة والضرورية التى تخص كل واحد منها، إنما تترك نفسها لتندفع غاضبة تبعاً لبعض المقاييس المحلية والآنية، التي لا تنفع الصالح العام. عن الحزبين الكبرين الذين يتقاسمان البلاد فيما بينهما حالياً أقول أن أحدهما يمثل القضية الأفضل، والثاني يضم الرجال الأفضل. يرغب الفيلسوف، أو الشاعر، أو رجل الدين، بالطبع، التصويت للديمقراطي من حرية التجارة وتوسيع القاعدة الانتخابية، وإلغاء سمات القسوة القانونية في القانون الجنائي، ومن أجل تسهيل وصول الشباب والفقراء إلى مصادر الثروة والسلطة. لكنه نادراً ما يتقبل الأشخاص الذين يقترحهم له الحزب الذي يدعي بالحزب الشعبي بصفتهم ممثلين لهذه الحريات. إذا أنهم لا يحملون في قلوبهم الغايات التي تخلع على اسم الديمقراطية الأمل والفضيلة الذين ينطوي عليهما.

إن روح راديكاليتنا الأمريكية مدمرة وغير هادفة: فهي غير محبة، وليست لديها أهداف قدسية وبعيدة المدى، إنما تنبع تدميريتها من الكراهية والانانية. في الجانب

الآخر، نجد أن الحزب المحافظ، الذي يضم الجزء الأكثر اعتدالاً واقتداراً وتهذيباً من السكان، جبان ويكتفي بموقع المدافع عن الملكية. فهو لا يحمي حقاً، ولا يتطلع إلى صالح حقيقي، ولا يضح جريمة، ولا يقترح سياسة كريمة، ولا يبني، ولا يكتب، ولا يرعى الفنون، ولا يحرر العبيد، ولا يصاحب الفقير، أوالهندي، أو المهاجر. وليس للعالم أن يتوقع من الحزبين، في حالة وصولهما للسلطة شيئا لصالح العلم، أو الفن، أو الانسانية يتناسب مع موارد البلاد.

إن هذه الأسباب لا تدفعني إلى اليأس من جمهوريتنا. فنحن لسنا تحت رحمة أية موجة للتغيير. ففي النزاع بين الاحزاب الضارية، تجد الطبيعة الانسانية نفسها مراعاة على الدوام. كما كان شأن أبناء المحكومين في بوتاني بي «الذين وجد أن روحه المعنوية لا تقل عافية عن بقية الأطفال.» مواطنو الدولة الإقطاعية يخشون تردي مؤسساتنا الديمقراطية في حال من الفوضى، والاشخاص الأكثر حكمة وحذراً بين صفوفنا يتعلمون من أوروبا كيف ينظرون بشيء من الذعر إلى حريتنا العاصفة. يقال اننا في اطلاق يدنا في صياغة الدستور، وفي طغيان الرأي العام لدينا، قد أصبحنا بلا مرساة، ويقول أحد المراقبين الأجانب إنه يعتقد بأنه قد وجد الضمان في قدسية الزواج عندنا، بينما يقول آخر أنه قد وجده في الكالفينية. عبر فيشر إيميس عن الأمن العام بصيغة أكثر حكمة عندما قارن ما بين الملكية والجمهورية، قائلاً أن الملكية مثل سفينة بضائع، تبحر على نحو طيب لكنها أحياناً ترتطم بإحدى الصخور فتغرق، في حين أن الجمهورية مثل طوف لا تغرق أبداً لكن قدميك تظلان دائما في الماء ما من صيغة يمكن أن تكون لها أهمية خطيرة ما دمنا نسير مع قوانين الأشياء، لا أهمية لعدد أطنان الضغط الجوي المسلطة على رؤوسنا مادامت رئاتنا تفاوقها بنفس الحجم من الضغط.. ضاعف الكمية ألف ضعف، وستظل غير قادرة على سحقنا مدام رد الفعل مساوياً للفعل. إن حقيقة وجود قطبين، أو قوتين، أحداهما مركزية والاخرى طاردة، هي حقيقة كونية، وكل قوة تعمل، بنشاطها، على تطوير القوة الأخرى. الحرية المتفلتة تولد الضمير الحديدي، نقص الحرية، عن طريق تقوية القانون والعرف يحذر الضمير، إن قوانين العقوبة الجماهيرية لا تسود إلا حيث يتصف الزعماء بالتصلب والدوام. لا يمكن للدهماء أن يتحولوا إلى حالة دائمة، إذا أن مصلحة الجميع تقضي بخلاف ذلك وليس هنالك ما يرضي الكل سوى العدالة.

علينا أن نضع ثقة غير محدودة بالضرورة الخيرة التي تشع من جميع القوانين.
إن الطبيعة الانسانية تعبر عن نفسها من خلالها كما تفعل ذلك من خلال التماثيل، والأغاني، والسكك الحديدية، ومن شأن خلاصة قوانين الشعوب أن تكون نسخة عن ضميرهاالمشترك. تنشأ أصول الحكومات في الهوية المعنوية للشعوب. فالمنطقي بالنسبة لأحدهما يبدو منطقياً بالنسبة للآخر، ولكل فرد. ثمة إجراء وسط يرضي جميع الأطراف، بعض النظر عن أعدادهم أو درجة تمسكهم بآرائهم الخاصة. يجد كل انسان ملاذاً لأبسط مطالبه وأفعاله في القرارت المنبثقة عن فكره الخاص والتي يدعوها حقيقية وقدسية. في هذه القرارات يلتقي جميع المواطنين عند اتفاق تام، وفي هذه القرارات لا في غيرها مما يتعلق بما هو صالح للأكل، أو الملبس، أو انفاق الوقت، أو بقطعة الأرض أو المعونة العمومية، يوجد حق مضمون لكل منهم. يسعى الناس على الفور إلى تطبيق هذه الحقيقة وهذه العدالة على قياس الأرض وعلى تقسيم الخدمة، وعلى حماية الحياة والملكية. ولا شك أن محاولاتهم الأولى تكون غير ملائمة جداً. إلا أن الحق المطلق هو الحاكم الأول، وإلا كانت كل حكومة عبارة عن ثيوقراطية غير نقية. إن إرادة الشخص الحكيم هي الفكرة التي تسعى كل جماعة إلى أن تضع قانونها وتعدله تبعاً لها، ذلك الرجل الحكيم الذي لا تستطيع أن تجده الطبيعة فتقوم ببذل مساع غريبة لكنها مخلصة من أجل الحصول على حكمته عن طريق تدابير معينة، مثل حمل السكان جميعاً على الادلاء بأصواتهم حول كل إجراء، أو باختيار مزدوج يحقق تمثيل الكل، أو باختيار الأفضل من بين المواطنين، أو بتأمين مزايا الكفاءة والسلام الداخلي عن طريق تسليم الحكومة إلى شخص واحد، يمكن أن يقوم باختيار مساعديه بنفسه. كل أشكال الحكومة ترمز إلى حكومة خالدة، مشتركة بين جميع السلالات وغير متأثرة بالأعداد، مكتملة حيثما يوجد رجلان، مكتملة حيث لا يوجد سوى رجل واحد.

إن طبيعة كل انسان هي اعلان يكفيه عن شخصية زملائه. فصوابي وخطئي هو صوابهم وخطؤهم. عندما أقوم بما يجدر بي، وأمتنع عما لا يجدر، نتفق أنا وجاري غالباً بشأن وسائلنا، ونعمل معاً وفي الوقت نفسه من أجل غاية واحد. ولكن متى ما وجدت أن سلطتي على نفسي لا تكفيني، وأستولي على سبيله هو ايضاً، فإني أتجاوز على الحقيقة، وأجد نفسي في علاقة خاطئة معه. قد يكون لدى المزيد من المهارة أو القوة مما يجعله غير قادر على أن يعبر بشكل مناسب عن إحساس بالحيف، لكنها

ستكون كذبة، وككذبة ستلحق الأذى بكلينا ليس بمقدور الحب والطبيعة صيانة الاستيلاء، لذلك يجب أن ينفذ عن طريق كذبة عملية، ألا وهي القوة. هذاالعمل الذي يأخذ بموجبه شخص على عاتقه مسؤولية الآخر هو الخطأ الذي يتمثل بقبحه الهائل في حكومات العالم. وكما يحدث بين اثنين، يحدث بالنسبة للأعداد الكبيرة، وإن لم يكن بنفس الدرجة من الوضوح. بوسعي أن أرى جيداً فارقاً كبيراً بين اخضاعي لنفسي للسيطرة الذاتية، وبين سعيي إلى حمل شخص آخر على التصرف تبعاً لآرائي، ولكن حين يتصدى ربع الجنس البشري لإخباري بما ينبغي علي فعله، فإن ذلك قد يربكني ويجعلني غير قادر على أن أرى بوضوح لا معقولية طلبهم. ولهذا السبب تبدو جميع الغايات العامة مبهجة ودون كيشوتيه بالمقارنة بالغايات الشخصية.لأن كل القوانين، باستثناء تلك التى يصنعها الناس لأنفسهم، مضحكة فإذا ما وضعت نفسي مكان طفلي، واجتمعنا عند فكرة واحدة ورأينا أن الامور هي كذا وكيت، فإن ذلك الادراك قانون بالنسبة لي وله. فكلانا هنا ،كلانا فاعل. ولكن، إذا لم أشركه في الفكرة، ورحت أتطلع من عليائي إلى خطته، وآمره بهذا أو ذاك تبعاً لتخميني لما تعينه بالنسبة له، فإنه سوف لن يطيعني أبداً. ذلك هو تاريخ الحكومات- شخص واحد يفعل شيئاً يلزم شخصاً آخر. رجل لاعلاقة له بي يرهقني وهو يتطلع إلي من بعيد ويأمرني بأن اخصص جزءاً من مجهودي لهذه الغاية المزاجية أو تلك، ليس كما يحلولي بل كما يحلو له. انظر إلى النتيجة. من بين جميع الديون المترتبة عليهم يكون الناس أقل اندفاعاً لتسديد الضرائب. أية سخرية هذه من الحكومة! فالناس يعتقدون بأنهم يحصلون على ما يساوي قيمة نقودهم في كل مكان، باستثناء الضرائب.

ومن هنا، فكلما قل حجم الحكومة كان ذلك أفضل- وينطبق ذلك على القوانين وعلى الصلاحيات الممنوحة. إن العلاج الشافي لسوء استخدام الحكومة الرسمية هذا هو تأثير الشخصية الفردية، نمو الفرد،ظهور الطف الاصلي الذي ينسخ الطرف البديل، ظهور الرجل الحكيم - الذي لا تعتبر الحكومة القائمة إزاءه إلا تقليدا هزيلاً، ذلك الشيء الذي تميل إلى استنباطه كل الأشياء، والذي تشكله وتقدمه الحرية، والتربية، واللقاءات، والثورات هو الشخصية، تلك هي غاية الطبيعة، أن تصل إلى هذا التتويج لملكها. تقدم الدولة من أجل تربية الانسان الحكيم، وبظهور الانسان الحكيم تنتهي الدولة. إن ظهور الشخصية يجعل الدولة غير ضرورية. الإنسان الحكيم هو الدولة. وهو

لا يحتاج إلى جيش، أو قلعة أو بحرية – فهو يحب الناس كثيراً، لا رشوة، ولا ولائم، ولا بلاط من اجل اجتذاب الاصدقاء إليه، لا أرضية توفر الأفضلية، ولا ظروف تعطي الأرجحية، وهو لا يحتاج إلى مكتبة، لأنه لا يمارس التفكير، ولا كنيسة، لأنه بني ولا قانون، لأن لديه المشرع، ولا نقود لانه هو القيمة، ولا طريق، لانه في بيته أينما حل، ولا تجربة، لأن حياة الخالق تشع منه، وتطل من عينيه. ليس لديه أصدقاء شخصيون، لأن الشخص الذي يملك سحر استخلاص الصلاة والتقوي من جميع البشر لا يحتاج إلى من يرعاه ولا يخص إلاقلة بمشاركته الحياة المصطفاة والشاعرية. إن العلاقة التي تربطه بالناس ملائكية، وذكراه عطر بالنسبة لهم، وحضوره بخور وأزهار.

نعتقد أن مدنيتنا باتت تقارب ظهيرتها، لكننا ما نزال بعد في ساعات صياح الديك وظهور نجمة الصباح. فتأثير الشخصية في مجتمعنا الهمجي ما يزال في طفولته ولا يكاد وجودها يبدو محسوساً كقوة سياسية، بصفتها السيد الشرعي الذي يحق له اسقاط جميع الحكام عن مقاعدهم. لقدتجاهلها مالثوس وريكاردو، ولزم السجل السنوي الصمت، وهي لم تدرج في قاموس المحادثة، ولم يشر إليها في رسالة الرئيس، ولا في خطاب الملكة،ومع ذلك فهي ليس باللاشيء مطلقاً. كل فكرة تلقى بها العبقرية والتقوية على العالم تضر العالم. إن المتصارعين في قوائم القوة يشعرون، من خلال كل أردية القوة والتشبيه، بحضور القمة. أعتقد أن النزاع بين المهنة والطموح هو اعتراف بهذه الألوهية، وما النجاحات فيهذه المجالات سوى تعويضات بائسة، ورقة توت تحاول الروح الخجلى أن تغطي بها عريها. أجد ما يماثل هذا الولاء المرغم نفسه في جميع القطاعات. لأننا نعرف كمية المستحق علينا، نحاول بنفاذ صبر أن نظهر شيئاً من المهارة التافهة كتعويض عن القيمة. يطردنا إحساس باستحقاقات عظيمه الشخصية، وبأننا مخطؤون تجاههما. ولكن لكل واحد منا بعض المواهبة، وبوسعه أن يفعل شيئاً طيباً، أو مفيداً، أو جميلاً، أو مسلياً، أو مربحا. وهذا ما نقوم به،في معرض الاعتزاز للآخرين ولأنفسنا عن عدم بلوغنا إلى مرتبة الحياة الطيبة والمتساوية. لكن ذلك لا يرضينا، في الوقت الذي نفرضه على دائرة اهتمام رفاقنا. يمكن أن يذر في عيونهم الغبار، لكنه لا يهدئ روعنا، ولا يمنحنا راحة القوى ونحن نسير خارجاً. إننا نمارس التفكير أثناء مرورنا، فموهبتنا نوع من التفكير، ونحن مرغمون على التفكير بشيء من الاذلال بلحظتنا الرائعة بصفتها شيئاً مفرط الجودة، وليس بصفتها فعلاً من أفعال

كثيرة، أو تعبيراً معتدلاً عن طاقتنا الدائمة. يلتقي معظم الأشخاص من ذوي القدرة في المجتمع عند نوع من التماس الصامت. يبدو أن كل واحد يقول «لست بمجموعي هنا » لقد ارتقى الرؤساء وأعضاء مجلس الشيوخ إلى هذه المراتب العليا بما يكفي من الجهد، ليس لأنهم يعتقدون أن الموقع مناسب بشكل خاص، إنما كاعتذار عن القيمة الحقيقية، ومن أجل أن يثبتوا رجولتهم في أنظارنا. هذا المقعد البارز للعيان هو التعويض الذي يقدمونه لأنفسهم عن كونهم طبيعة قاسية، باردة، بائسة. عليهم أن يفعلوا ما بوسعهم. إنهم مثل فئة من حيوانات الغاب لا يملكون سوى ذلك يساعدهم على الامساك بالأشياء، عليهم إذاً أن يتسلقوا، وإلا فسوف يزحفون. فلو أن شخصاً وجد في نفسه ذلك الغنى الطبيعي الذي يمكنه من أن يقيم علاقات وطيدة مع أفضل الأشخاص، وأن يجعل الحياة من حوله رائعة بحلاوة سلوكه ووقاره، فهل تراه كان سيخضع لمنة المؤتمرات الحزبية والصحافة، ويسعى إلى علامات فارغة دنانة مثل تلك التي يقيمها الساسة؟ لا شك في أن الشخص الذي يستطيع أن يكون صادقاً لا يختار أن يكون محتالاً.

تحبذ ميول العصر الحكومة الذاتية، وتترك الفرد لعقاب وثواب بنيته الخاصة- التي تعمل بطاقة تفوق ما نعتقده حين نعتمد على الروادع المصطنعة. لقد برزت الحركة نحو هذا الاتجاه بشكل ملموس جداً في التاريخ الحديث. كان هنالك الكثير من العميان والاشخاص غير الجديرين، لكن طبيعة الثورة لا تتأثر بمثالب الثوار، لأنها قوة معنوية خالصة. إذ لم يحصل أن تبناها أي حزب في التاريخ، ولن يحصل ذلك. إنها تعزل الفرد عن الجماعة، لكنها في الوقت نفسه توحده مع الجنس. وهي تعد بالاعتراف بحقوق أرفع من ذلك المتعلقة بالحرية الشخصية، أو سلامة الملكية. من حق الانسان أن يشتغل، ويوثق به، ويحب، ويحترم. إن قوة الحب لم تمتحن أبدا بصفتها اساساً للدولة. لا ينبغي لنا أن نتصور أن الاشياء جميعاً تنحدر إلى الفوضى إذا لم يرغم كل معترض واهن على الاضطلاع بدوره في مؤسسة اجتماعية معينة، ولا أن نشك في أن الطرق يمكن أن تبنى، والرسائل يمكن أن تنقل، وثمرات جهدنا يمكن أن تضمن إذا ما بلغت حكومة القوة نهايتها. أترى وسائلنا الآن قد بلغت من الكمال حداً يجعل كل منافسة أمراً ميؤوساً منه؟ أليس بوسع شعب من الأصدقاء أن يبتكر طرقاً أفضل؟ من جانب آخر، لاينبغي للأشخاص الأشد محافظة وحذراً أن يخشوا شيئاً من الاستلام السابق

لأوانه للحرية ونظام القوة. لأنه، تبعاً لنظام الطبيعة، الذي يتفوق على إرادتنا تكون الأمور إلى هذا النحو. ثمة دائما حكومة قوة حيثما يكون الناس أنانيين، وعندما يمتلكون من النقاء ما يكفي لكي يتخلوا عن قانون القوة. سيكون حكماء بما يكفي لرؤية الكيفية التي يمكن بها الاستجابة للغايات العمومية لمكتب البريد والطريق الخارجي، والتجارة وتبادل الملكية، والمتاحف، والمكتبات، ،معاهد العلوم والفنون.

إننا نعيش في مرتبة متدنية جداً في العالم، ونقدم صاغرين الجزية للحكومات القائمة على القوة. لا يوجد لدى أفضل الرجال تعلماً وتديناً من أفضل الأمم تمدناً وتديناً، لاعتماد على الاحساس الأخلاقي وإنما كاف بوحدة الأشياء يكفي لاقناعهم بأن المجتمع يمكن أن يقوم بدون روادع مصطنعة، مثل النظام الشمسي، أو كما يمكن للمواطن الفرد أن يكون جاراً طيبا ورضياً بدون أن يلمح له أحد بالسجن أو المصادرة. ثمة أمر غريب آخر، هو أن أحداً لم يمتلك مايكفي من الايمان بقدرة الاستقامة في الرأي على إلهامه بخطة أوسع لتجديد الدولة وفق مبدأ الحق والحب. كل الذين ادعوا هذه الخطة كانوامصلحين جزئيين، وأقروا بطريقة ما تفوق الدولة السيئة. لا يحضرني أبداً اسم مخلوق بشرى واحد انكر بثبات سلطة القوانين، انطلاقاً من طبيعته الاخلاقية وحدها. مثل هذا الموقف، الممتلئ بالعبقرية والايمان، لايتم اتخاذه إلا شفهياً. فإن اجترأ الفرد الذي يجاهر به على اعتباره موقفاً قابلاً للتطبيق فإنه سوف يثير امتعاض المتثقفين ورجال الكنيسة، كما أن أصحاب المواهب والنساء ذوات المشاعر الراقية لن يقدروا على اخفاء ازدرائهم. لكن ذلك لم يحمل الطبيعة على الكف عن ملء قلوب الشباب بحماسات من هذا النوع، وثمة الآن رجال- إن حق لي أن استعمل صيغة الجمع- أقول بالتحديد، أنني كنت للتو أتحدث مع رجل لا يمكن لأي حجم من التجربة المضادة أن يجعله يرى ولو للحظة واحدة أن من المستحيل على آلاف المخلوقات البشرية أن تمارس إزاء بعضها أسمى وأبسط المشاعر، كما تفعل دائرة من الاصدقاء، أو زوج من العشاق.

٢٠

الإسماني*والواقعي

لا يمكنني في الغالب أن أقول أن الإنسان ليس سوى طبيعة نسبية أو تمثيلية. كل إنسان هو إشارة إلى الحقيقة، لكنه بعيد عن أن يكون تلك الحقيقة التي يوحى بها لنا. لو أنني بحثت عن تلك الحقيقة لديه لما وجدتها. هل يستطيع أي إنسان أن يقودني إلى النبع الصافي الذي يدعيه! بعد مضي وقت طويل، أجد تلك المزية التي وعدني بها، في مكان آخر. إن عبقرية الأفلاطونيين تدوخ الطالب، لكني لا أستطيع أن استخلص من دفاترهم سوى شذرات قليلة منها. ينحاز الإنسان للفكرة فورياً، لكنه لا يصمد للاختبار، من الغريب أن مجموعة من الأشخاص تمثل على نحو طيب صفة معينة أو ثقافة، مثل الفروسية، أو الجمال أو التهذيب؛ لكنك إن شتتهم لن يبقى في الجماعة جنتلمان ولا سيدة. إن أدنى إشارة تطلقنا في إثر صفة مالا يدركها أحد. لديناعيون مسرفة تجعلنا نكمل المنحنى بمجرد أن نلمح أصغر جزء من القوس، وعندما ترفع الستارة عن ذلك الخط الذي كانت تحجبه، يحيرنا أن لا نجد في الرسم شيئاً غير ذلك الجزء من القوس الذي رأيناه في البداية. فنحن شديدو السخاء فيما يتعلق بتصوير قدرات بعضنا البعض والآمال التي نعلقها على الآخرين. إن الأطراف الأخرى ستقوم بنفس ما قامت به في السابق، أما ما نتوقعه منها طبيعة ومبادرة فإنها لن تقوم به. لأنه موجود في الطبيعة وليس فيها. يحدث هذا الأمر غالباً في عالمنا، ونراه جلياً في المناقشات العامة. يعبر كل من المتحدثين عن نفسه على نحو غير كامل، ولا يسمع أي منهم أي منهم ما يقوله الآخر،

فالكل مشغول الذهن بما يقول، أما الجمهور، الذي يسمع ولا يقول شيئاً، فإنه هو الذي يقرر بحكمة واقتدار مدى الضرر وانعدام المهارة في معالجة كل من المتنافسين لقضيته. بوسعك بسهولة أن تجد رجالاً عظاماً أو رجالاً ذوي مزايا عظيمة، لكنك لن

* الأسماني نسبة إلى الأسمانية nominalism مذهب فلسفي يقول أن المفاهيم المجردة ليس لها وجود حقيقي، وأنها مجرد أسماء – المترجمة

تجد مطلقاً رجالاً متماثلين. عندما أقابل قدرة فكرية صافية، أو عاطفة كريمة، أوقن بأن ثمة إنساناً هناك؛ لكنني أعاني فوراً من عذاب اكتشاف كون هذا الفرد غير متوفر أكثر من سواه بالنسبة لنفسه أو للأهداف العامة؛ لأن قدراته التي أثارت احترامي غير مدعومة بسيمفونية مواهبه. يشير إلى حضور الأشخاص وسط المجتمع أثر لامع لمزية جميلة أو نافعة يحملونها. نستعير من تلك السمة الرفيعة بقية أبعاد الشخص ونرسم له صورة متساوقة ـ وهو أمر خطأ، لأن بقية جسمه قد تكون ضئيلة أو مشوهة. أراقب شخصاً يقدم مظهراً عاماً طيباً، فأستنتج من ذلك كمال شخصيته الخاصة، التي يستند إليها هذا المظهر، ولكن لا شخصية خاصة لديه. إنه عباءة جميلة توضع في أيام الأعياد. جميع شعرائنا، وأبطالنا، وقديسينا يفشلون فشلاً ذريعاً في إرضاء فكرتنا عنهم في جانب أو أكثر، وهم يخفقون في الحصول على اهتمامنا التلقائي، ويتركوننا بدون أي أمل في تحقيق ما نصبو إليه، باستثناء أملنا في مستقبلنا الخاص. تعود مبالغتنا في تصوير جميع الشخصيات الرفيعة إلى كوننا نماهي ما بينها وبين الروح. إنما ليس هنالك من وجود كالذين ابتدعناهم، لا يسوع، ولا بريكليس، ولا قيصر، ولا أنجيلو، ولا واشنطن كما صغناهم. إننا نبجل الكثير من الهراء المجرد أن رجالاً عاماً قد فاهوا به. ليس هنالك من أحد خالٍ من نقطة ضعف. أعتقد لو أن ملاكاً نزل لينشد مديح القانون الأخلاقي لأسرف في تناول خبز الجنجر، أو راح يقلب الرسائل الخاصة، أو ارتكب أي عمل شنيع آخر. كان يكفينا عجز عباقرتنا عن فعل أي شيء مفيد، لكن ما هو أسوأ من ذلك أن ما من رجل يحمل مزايا رفيعة يكون مؤهلاً للبروز في المجتمع. بالإمكان الإعجاب به عن بعد، لكنه لا يستطيع أن يقترب منك دون أن تبدو لك عاهاته. يحمي الأشخاص ذوو الخصال الرفيعة أنفسهم بالعزلة، أو بالمجاملة، أو بالهجاء، أو بأية طريقة دنيوية رادعة؛ وكل منهم يحاول ما استطاع أن يخفي عدم قدرته على الرفقة المفيدة، لكنهم يريدون الحب أو الاعتماد على النفس .

إن حب الحقيقة المولود فينا يقترن بهذه التجربة ليعلمنا شيئاً من ا لتحفظ، ويثنينا عن الاستسلام الفوري إزاء الخصال البراقة للأفراد. يعجب الشبان بالمواهب أو ببعض المزايا المعينة؛ وبتقدمنا في السن نبدأ بتقييم الآثار والقدرات الكاملة، مثل روح الأشخاص ونوعيتهم والانطباع الذي يخلفونه. وكذلك الأمر بالنسبة للأشياء فالسجية هي الكل. الإنسان ـ وكيانه نحن لا نختبر كلمة مفردة من كلماته أو فعلاً معيناً من

أفعاله. إنما ما درج عليه وأصبح عادة له. أنا لا أستدح الأفعال التي تمتدحها أنت، ما دامت الاستثناء لما يؤمن به والتي لا تزيد عن كونها مجرد مسايرة. إن المغناطيسية التي تنظم القبائل والأعراق في قطب واحد هي وحدها التي تستحق الاحترام؛ أما الأشخاص فهم ليسوا سوى برادة الحديد. ومع ذلك، تجدنا نختار، على نحو غير مبرر، جزءاً من الأجزاء، ونقول، «أيتها البرادة رقم واحد! ما أشد تشربك بها، وانفرادك بها!» وبينما نحن نقول ذلك، يسحب حجر المغناطيس فتسقط برادتنا في كومة مع البقية، فيما نواصل نحن تزلفنا للبرادة البائسة. فلنتوجه، إذن، إلى ما هو كلي، إلى المغناطيس، لا إلى الإبرة. إن الحياة الإنسانية وشخوصها مجرد ادعاءات قائمة على المظهر الشخصي عبارة عن سراب خادع. فإن قالوا أنه عظيم، فهو عظيم، وإن قالوا أنه صغير؛ فأنت تراه ولا تراه، بالتناوب؛ وهو يستعير كل حجمه من التقدير الآتي للمتكلمين.إن الوهج المستنقعي يتلاشى إن أسرفت في الاقتراب أو الابتعاد، ولا يسطع إلا عند زاوية واحدة. وإذا الذي يستطيع أن يقول ما إذا كان واشنطن رجلاً عظيماً أم لا؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يقول الشيء نفسه عن فرانكلين؟ أو أي شخص آخر باستثناء آلهة الشهرة الثلاثة، أو الستة، أو الإثني عشر؛ وحتى هؤلاء يلوحون ويبهتون أمام الأبدي.

نحن مخلوقات برمائية، زودنا بأسلحة ثنائية العنصر، وحصلنا على مجموعتين من الوظائف؛ المحددة والشاملة. نضبط أداتنا لأجل الرصد العام، ونمسح السماء بنفس السهولة التي نلتقط بها شكلاً مفرداً في المشهد الأرضي. ونحن بارعون بشكل خاص في اكتشاف العناصر التي لا مكان لها في نظريتنا، ولا اسم. وهكذا نتحسس وجود تأثير جوي في البشر وفي أجسامهم، لا تشير إليه المجموعات الحسابية لجميع خواصهم القابلة للقياس. هنالك صفة مميزة للأمة، لا تظهر في المواطنين المفردين، لكنها تميز المجتمع. فإنجلترا، القوية، الدقيقة، العملية، اللبقة لا يمكن أن أعثر عليها لو أنني قصدت الجزيرة التي تحمل إسمها للبحث عنها. ففي البرلمان، وفي الملاعب، وعلى موائد العشاء، يمكن أن أرى عدداً كبيراً من الرجال الأغنياء، الجهلة، التقليديين، المتكبرين، والكثير من النساء المسنات، لكني لن أعثر في أي مكان على الإنجليزي الذي أبدع الخطب الرائعة، وصنع المولدات المضبوطة، وحقق الأفعال الشجاعة والمقدامة. والأمر أسوأ في أمريكا، حيث تجعل البداهة الفكرية للجنس، سمة البلاد المميزة أشد

روعة في ما تعد به، وأكثر تفاهة فيما تؤديه. ليس بوسع ويبستر أن يقوم بعمل ويبستر. فنحن نستطيع أن نميز بوضوح السمات الفرنسية، والإسبانية، والألمانية، لكننا قد لا نلتقي ضمن أية أمة من هذه الأمم بالفرد الواحد الذي يطابق النوع. نستدل على روح الشعب، إلى حد كبير، من اللغة التي تعتبر نوعاً من الصرح الذي يساهم فيه كل فرد بحجم على مدى مئات السنوات. وعلى نطاق شامل، يمكن تقديم دقة اللغة كنموذج لهذه القوة الاجتماعية التي لا يستطيع أحد إفسادها. في كل خلاف يتعلق بالأخلاق، يمكن الرجوع بأمان إلى المشاعر التي عبرت عنها لغة الشعب. فالأمثال، والكلمات، وتصريف القواعد تنقل الإحساس العام بنقاء ودقة يفوقان ما يقدر عليه أكثر الأفراد حكمة.

في خلافهم المشهور مع الإسمانيين، كان للواقعيين قسط طيب من المنطق. فالأفكار العامة هي أمور جوهرية. إنها أربابنا: فهي تصقل وتشرف أكثر أساليب العيش وضاعة وضيقاً. إن ميلنا البغيض للتفاصيل لا يستطيع أن يفقر حياتنا ويجردها من الشعر. يعتبر العامل اليومي شخصاً في أسفل السلم الاجتماعي، لكنه، مع ذلك، مشبع بقوانين العالم. فمقاييسه هي الساعات؛ الصباح والليل، والانقلاب والاعتدال الموسمي، الهندسة، الفلك، وجميع المصادفات اللطيفة التي تجترحها الطبيعة في ذهنه. إن النقود التي تمثل نثر الحياة، والتي لا يرد ذكرها في الردهات إلا مصحوباً بالاعتذار هي في أثرها وقوانينها، جميلة كالورود. فالملكية تحافظ على حسابات العالم، وهي دائماً أخلاقية. توجد الملكية حيثما وجد العمل، والحكمة، والفضيلة في الأمم، والطبقات، والأفراد أيضاً (عند الأخذ بنظر الاعتبار دورة الحياة كاملة، مع تعويضاتها). كم يبدو العالم حكيماً، عندما تكون القوانين وممارسات الأمم تفاصيل بشكلها الواسع، وحين يؤخذ بنظر الاعتبار كمال النظام البلدي! ما من شيء مهمل. فإذا ما ذهبت إلى الأسواق، أو مكاتب الضريبة، أو شركات التأمين، أو دوائر كتاب العدول، أو الجهات التي تتولى ختم المقاييس والأوزان، أو مراقبي المؤن، فإن الكل سيبدو كما لو أن رجلاً واحداً قد صنع كل شيء. فحيثما ذهبت، تسبقك فطنة تشبه فطنتك، تكون قد حققت فكرتها. تظهر الأحجيات الأليوزية، والعمارة المصرية، والتنجيم الهندي، والتماثيل الإغريقية، إن العالم لم يخل أبداً من أشخاص يتميزون بالرؤية والمعرفة. فالعالم مليء بالروابط الماسونية، وأصحاب الحرف، وبجوقات الشرف السرية والعلنية، هذه للمثقفين، على سبيل المثال، وتلك للرجال المهذبين، التي تقيم علاقات التآخي مع الطبقة العليا في كل بلد وكل حضارة.

يذهلني جداً في الأدب ما يبدو أحياناً من أن شخصاً واحداً قد كتب كل الكتب؛ كما لو أن محرراً لصحيفة قد زرع مجموعة مراسليه في أجزاء مختلفة من ميدان العمل، وراح يحل البعض مكان الآخر بين آن وآخر؛ إنما هنالك نوع من التماثل والتساوي في وجهة النظر وفي الحكم النهائي في السرد مما يوضح أن العمل كله يعود لجنتلمان واحد يتمتع بالقدرة على رؤية وسماع كل شيء. ألقيت بالأمس نظرة على «الأوديسا» التي كتبها بوب. إنها سليمة وأنيقة ومعبرة عن قضيانا الراهنة كما لو أنها حديثة الكتابة. إن حداثة جميع الكتب الجيدة تعطيني وجوداً واسعاً سعة الإنسان. أحس كما أنني أنا الذي فعلت الشيء الحسن الأداء؛ ولا أبالي بما هو سيِّئ. فالمقاطع العاطفية لدى شكسبير (كما في لير وهاملت، على سبيل المثال) تحمل لهجة السنة الحالية. ومرة أخرى أجدني مخلصاً للكل عند تعاملي مع الأفراد أثناء استخدامي للكتب. أجد المتعة الكبرى في قراءة الكتاب بطريقة تقدم الحد الأدنى من المجاملة للكاتب. فأنا أقرأ بروكلوس، وأحياناً أفلاطون، كما لو أنني أقرأ قاموساً، لغرض الحصول على العون الميكانيكي الذي يحتاجه الخيال والمخيلة. وأقرأ من أجل البريق، كما يستخدم المرء صورة بديعة من تجربة لونية من أجل ألوانها الثرية. فأنا لا أستكشف بروكلوس، إنما قطعة من الطبيعة والقدر. وأنها لمتعة أكبر أن تلتقي بكتاب المؤلف، نفسه، بدلاً من الالتقاء به نفسه وقد وجدت متعة أسمى من النوع نفسه عندما ذهبت مؤخراً إلى حفلة موسيقية كيما استمع إلى موسيقى «المسيح» لهاندل وكما استطاع «المعلم» أن يتغلب على ضآلة وعجز العازفين ويحولهم إلى موجهين لكهربائيته، كذلك كان السهل ملاحظة أية مجهودات كانت الطبيعة تبذلها، من خلال هذا العدد الكبير من البشر الفظين، الخشبيين، غير الكاملين، لتنتج الأصوات الجميلة؛ الرجال والنساء الإنسيابيين الموجهين روحياً. لقد تجلت عبقرية الطبيعة واضحة في هذا الموشح.

هذا الترجيح للفكرة العامة على الأجزاء هو سر ذلك التأليه للفن، الموجود في جميع العقول المتفوقة. فالفن، لدى الفنان، هو التناسب، أو الاحترام المألوف للكل في عين تهوى الجمال كما يتجلى في التفاصيل. ويكمن السحر والفتنة فيه في عقلانية الجنون الذي يمنحه. يكاد التناسب أن يكون مستحيلاً بالنسبة للكائنات البشرية. فليس هنالك شخص لايمارس المبالغة. أثناء الحوار، تثقف الشخصية على الشخص، فيسرف

في الكلام. في النحت، والرسم، والشعر المعاصر، يتنوع الجمال؛ يعمل الفنان هنا وهناك وفي جميع الأماكن، مضيفاً ثم مضيفاً، بدلاً من الكشف عن الوحدة في فكرته. لا بد من الحصول على تفاصيل جميلة، وإلا لن يكون هناك فنان؛ لكنها يجب أن تكون لحظة واحدة. ثمة فتيان مفعمون بالحيوية يكتبون لآذانهم وعيونهم، لكنهم يأخذون باحترام الحجة كلما تقدموا في السن.

نخضع لنفس التكامل الفكري حين ندرس قواعد العالم من خلال الاستثناءات. فالحقائق الشاذة، مثل إشاعات السحر وعلم الجن التي لم تندرس أبداً، والادعاءات الجديدة لعلماء الأعصاب والفراسة، تعتبر مثالية لهذا الغرض. فهي مؤشرات جديدة. إن المعالجة المثالية غير المهمة بصفتها فناً للإشفاء، لكن قيمتها كبيرة بصفتها انتقاداً للطب الإغريقي أو للممارسة الطبية المعاصرة. كذلك الأمر بالنسبة للتنويم المغناطيسي، والسويدينبورغية، والفوريرية، والكنيسة الألفية؛ فهي ادعاءات بائسة بما فيه الكفاية، لكنها نقد جيد لعلوم، فلسفة، ومواعظ زمنها. لأن هذه المعرفة غير السوية التي يتمتع بها العارفون ينبغي أن تكون سوية، بالطبع.

ترينا الأشياء أننا قريبون جداً مما هو أفضل من جميع الجوانب. ويبدو أن مما لا يستحق العناء أن نبذل جهوداً كبرى بشأن إنجاز فكري، أو جمالي، أو مدني، عندما يكون الحلم مشرفاً على التبدد، ونكون على أعتاب الانطلاق إلى القوة الكونية. إن تأجيل آمالنا هو السبب وراء البطالة والجريمة. ففي الوقت الذي نمضيه في الانتظار، نزجي الوقت بالنكات، والنوم، والطعام، والجرائم.

وهكذا نحسم الأمر في مكتباتنا المريحة، ونقرر أن جميع العوامل التي نتعامل معها ثانوية، وأن بوسعنا أن نتركها تمر، وسوف تكون الحياة أبسط عندما نعيش في المركز ونبتعد عن السطح. أرغب أن أتحدث أن أظل صاحياً ومحافظاً على الأصول المرعية. يذوّب الأشخاص المرء إلى مجهود لكي يعاملهم كأفراد. ورغم أن الشخص غير الموهوب يجد في الأشخاص عوناً في الشؤون المنزلية، إلا أن الشخص القدسي لا يحترمهم فهو يعتبرهم سحابات غيم، أو اسطولاً من الأمواج تدفعه الرياح فوق سطح الماء. لكن هذا التمرد صريح. فالطبيعة لن تكون بوذية: وهي ترفض التعميم، وتهين الفيلسوف في كل لحظة بملايين التفاصيل الجديدة. كل هذا كلام فارغ. فكما أن الإنسان كل، فهو كذلك جزء أيضاً، ومن التحيز أن لا نرى ذلك. وما تقوله في تقسيمك

المتبجح لا يفعل شيئاً سوى أن يقسمك ليضعك في قسمك وصنفك. لا تستطيع أن تتخلص من الأجزاء عن طريق نكرانها، بل أن ذلك يجعلك أكثر تجزءاً فأنت شيء واحد، لكن الطبيعة شيء وشيء آخر في اللحظة نفسها ليس بإمكانها أن تظل دائرة في فكرة، إنما هي تندفع إلى الأشخاص، وعندما يتمكن الشخص، الذي تتأجج فيه حمية الشخصية، من قهر الأشياء جميعاً بصنارته البائسة، تضع إزاءه شخصاً آخر، وتتقمص بالكثير من الأشخاص نوعاً من الكل. إنها تستحوذ على الكل. ليس بوسع نك بوتوم أن يلعب جميع الأدوار، مهما حاول ذلك؛ إذ لا بد من شخص آخر، وسوف يصبح العالم مستديراً. ينبغي لكل شيء أن تكون له زهرته أو مسعاه لتحقيق الجمال، سواء جاءت خشنة أو رقيقة تبعاً لمادته. فالخشونة والرقة تعادل إحداهما الأخرى، وعقلانية المجتمع ليست سوى موازنة لآلاف الحالات من الجنون. إنها تعاقب التجريديين، ولا تسامح إلا الخليق الذي يعتبر نادراً وعابراً. نحب أن نرتقي علواً في الأرض وننظر إلى المشهد الطبيعي تماماً كما نقيم الملاحظات العامة فالحديث. لكن غاية الطبيعة لا ترمي إلى جعلنا نعيش تبعاً للآراء العامة. نبحث عن النار والماء، نجري طوال اليوم بين المخازن والأسواق، نوصي على صنع ملابسنا وأحذيتنا نقع على لحظة تعقل. لو لم نكن مفتونين على هذا النحو، لو أننا رأينا الشيء الحقيقي أو تجمدنا منذ وقت طويل. لو أن الطبيعة تتوقف للإعجاب تحقق لها أي شيء. إنها تفضل على العباقرة الكونيين مصلح العجلات الذي ينفق الليل بحلم بالعجلات، أو السائس الذي صار جزءاً من حصانه، لأنها ممتلئة بالعمل، وهؤلاء هم أياديها. وكما أن المزارع المدبر يهتم بأن تأكل ماشيته النبات البري، وأن تتغذى خنازيره على فضلات بيته، وأن يلتقط دجاجه الفتات - كذلك أمنا المقتصدة تنفذ أفكاراً وعادات ذهنية إلى كل مساحة وظرف للوجود، وتزرع عيناً حيثما يمكن أن يسقط شعاع جديد من الضوء، وهي تجمع شخص ما كل ملكه في الكون، وتوجد أضعاف ذلك من الإغراءات السحرية المبادلة ما بين ذريتها، لكي يتم لكل هذه القوة المهدورة أن توصل وتتبادل.

لا شك أن مخاطر عظيمة تنشأ من هذا النهج لإحياء رأس الإله وتوزيعه، ولذا فإن للطبيعة مصادر أذاها، كما لو أنها سيرسه؛ ويحسب ألفونسو القشتالي أن بوسعه أن يقدم النصح المفيد. لكنها لا تمضي بدون استعداد، في كعب الفنجان لديها عشب جميل، العزلة تنضج محصولاً وفيراً من الطغاة. يفكر الانعزالي بالبشر تبعاً لما يملونه

من طباعه، ومالا يحملونه، وتدرجهم في حجم ما يحملون زيادة ونقصاناً. ولكن حين يأتي إلى اجتماع عام يرى أن الناس يحملون طباعاً مختلفة جداً عن طباعه وأنهم يجعلون تلك الطباع محببة بطريقتهم الخاصة. لقد تعرض في طفولته إلى الكثير من الروادع والمراقبة، مما جعله يفكر بموهبته بتواضع. عندما ينبري للإفصاح عنها لاحقاً عندما يحين الظرف الملائم، تبدو كما لو كانت الموهبة الوحيدة؛ فهو مغتبط بنجاحه، وقد صار يحسب نفسه بالفعل من بين العظام. ولكنه يتوجه إلى حشد، أو إلى مؤسسة مصرفية، أو إلى دكان ميكانيكي، أو إلى طاحونة، أو مختبر، أو مخزن، أو معسكر، ولا يكون في أي مكان جديد شيئاً أفضل من معتوه تأخذ المواهب الأخرى موقعها، وتسيطر على الساعة. إن الحركة الدوارة التي تجرف كل ورقة أو حصاة إلى الذروة، تصل إلى كل موهبة انسانية، وسوف يكون لكل منا دوره في القمة.

لأن الطبيعة التي تمقت السلوك المصطنع، قد عقدت النيه على تحطيم كل الأساليب والحيل، ومن الأسهل بكثير أن يفعل المرء ما كان قد فعله من قبل على أن يحاول فعل شيء جديد، إذ يوجد هناك ميل دائم للنموذج الموضوع. في كل محاورة، حتى أرفع المحاورات، توجد خدعة ما، سرعان ما يتعلمها الشخص الذكي فيستمر ذلك الأسلوب بعينه إلى مالا نهاية كما أن كل إنسان هو طاغية في ميوله، لأنه يسعى إلى فرض فكرته الخاصة على الآخرين؛ وبهذا تكون الخدعة التي يمارسونها دفاعهم الطبيعي. يستوعب يسوع الجنس البشري كله، لكن نوم بين أو المجدف الأكثر فجاجة يساعد الإنسانية في مقاومة هذا الفيض في القوة. ومن هنا تأتي الفائدة الكبرى للحزب في السياسة، حيث أنه يكشف عن هفوات الشخصية لدى الزعيم، وهي الهنات التي ما كان للقوة الفكرية للأشخاص، في حالة تمتعهم بفرصة عادية وعدم احتشادهم في الذروة بفعل الحقد، إن تراها. وما دمنا جميعاً أغبياء إلى هذا الحد، فأي نفع يتحقق من وجود غباءين! إن ذلك يشبه تلك الفائدة الجوهرية لعلم الفلك من اعتبار محيط مدار الأرض قاعدة لمثلثاتها. الديمقراطية نكدة المزاج، وهي تتجه نحو الفوضى، ولكن لايمكن الاستغناء عنها في الدولة أو المدرسة لمقاومة اندماج كل الأشخاص في قلة منهم. إذا كان جون كاملاً، فلماذا نحيا أنا الخاصة. يظهر شاعر جديد، شخصية جديدة تتقدم صوبنا؛ فلماذا نرفض تناول خبزنا حتى نعثر على فصيله وقسمه في ملفات عسكرنا القديمة؟ لماذا لا يكون إنساناً جديداً، ثمة انجاز جديد لبروك فارم، أو سكينياتيليس، بورترويااليستياً، أو

شيكرياً، أو تحت أي إسم معروف وعاجز؟ دعها تكن طريقة جديدة للحياة. لماذا تكون لدينا طريقتان أو ثلاثاً للحياة، وليس ألفاً؟ كل إنسان مطلوب، وما من إنسان مطلوب أكثر. لقد جئنا هذه المرة من أجل التوابل وليس من أجل القمح. نريد العبقري الكبير لغرض المسرة فقط، نجمة أخرى في مجرتنا، شجرة أخرى في بستاننا. لكنه يحسب أننا نرغب في الانتماء له، كما يرغب هو باحتلالنا. إنه يرتكب بحقنا خطأً كبيراً. أعتقد أنني قد أحسنت صنعاً باستحواذي على كلمة جديدة من مؤلف جيد؛ وأعتقد أن علاقتي به تنحصر في العثور على تعبير خاص بي، حتى وإن جاء ذلك عن طريق تذويبه في نعت أو صورة للاستخدام اليومي:

سوف أطحنك إلى صبغة، يا عروسي!

عندما نشوش الاضطراب، ونحول الوصول إلى أبي لبيان عام أمراً مستحيلاً - عندما نكون قد أكدنا على عدم كمال الأفراد، فإن عواطفنا وتجربتنا تؤكد أن كل فرد يستحق الاحترام، وأن التعامل الكريم لا بد أن يقابل بسخاء. إن الانعزالي لا يرى إلا شخصين أو ثلاثة، وهو يفسح لهم المجال كله، فيتوسعون إلى أقصى ما يستطيعون. ينظر السياسي إلى الكثيرين، ويقارن القلة بالآخرين بحكم العادة، فتبدو القلة أقل حجماً ومع ذلك، هل يحرمها ذلك مما تستحقه من كرم الاستقبال؛ وهل أن وسائل المعرفة ليست سخية؟ فعلى الرغم من قول المقامرين أن الورق يهزم كل اللاعبين، وعلى الرغم من أن لاعبينا ليسوا شديدي المهارة، فإنهم من المباراة التي نحن بصددها يمثلون اللعبة أيضاً، ويشاركون الورق قوته. إذا انتقدت عبقرياً مجيداً، فإن أغلب الاحتمال أنك غير مدرك لما تنفذه، وأنك تهاجم الكاريكاتير الذي رسمته له بنفسك، وليس الشاعر المعني. ذلك لأن ثمة شيئاً كونياً وغير محدود في كل إنسان، وخصوصاً في كل عبقري، من شأنه أن يتلاعب بكل ما تغرضه عليه من قيود، متى ما اقتربت منه كثيراً. لأن كل إنسان هو عن حق قناة تتدفق من خلالها السماء، وفي الوقت الذي كنت أنتقده فيه، فإنني كنت في الواقع أنتقد روحي أو أضع نهاية لها. فبعد أن تدين غوته كرجل بلاط، متصنع، غير مؤمن، مهتم بشؤون الدنيا، أخذت كتاب «هيلينا» فوجدته هندياً من البرية، قطعة من الطبيعة النقية مثل تفاحة أو سنديانة، واسع مثل الصباح أو الليل، وفاضل مثل الوردة البرية.

ولكن لا بد من الاهتمام بعزف اللحن كله. فلو أننا لم نوضع بين الواجهات، لكان كل شيء واسعاً وكونياً؛ فالصفات المستبعدة تتفجر فينا الآن وبسطوع أكبر سببه أنها

كانت مستبعدة. تقول قواعد اللعبة: «الدور لك الآن، ودوري بعدك». إن الكونية التي منعت بصيغتها الابتدائية تأتي بصفتها الثانوية من «جميع الاتجاهات، تصل المعاني على التتابع إلى الذروة، ويتشكل بسرعة الدوران كل جديد. تحافظ الطبيعة على نفسها تامة وعلى تمثلها كاملاً من تجربة كل عقل من العقول. وهي لا تسمح بإبقاء مقعد خال في كليتها. إن سر العالم هو أن جميع الأشياء مستمرة ولا تموت إنما تنسحب من الضوء فقط لفترة قصيرة ثم تعود من جديد. وكل مالا يهمنا محجوب عنا. ومتى ما لم يعد للشخص علاقة بوضعنا الراهن، فإنه يحجب عنا، أو «يموت»، كما نقول عنه في الواقع كل الأشياء والأشخاص ترتبط بنا، لكنها - وتبعاً لطبيعتنا - لا تؤثر فينا مرة واحدة إنما بالتتابع، ونحن نحس بوجودها منفرداً كل مرة. كل الأشخاص وكل الأشياء التي عرفناها موجودة هنا وهنالك منها عدد أكبر مما نستطيع أن نراه، فالعالم ممتلئ. وكما يقول القدماء، فإن العالم صلد، ولو أننا رأينا كل الأشياء التي تحيط بنا حقاً لا نحبسنا ولم نعد قادرين على الحركة. إذ أن ما من شيء متعذر النفاذ إلى الرونح، وكل الأشياء تؤدي إليها مثل شبكة الطرق الخارجية، لكن هذا يتم فقط عندما لا تكون الروح قادرة على رؤيتها. فما أن تبصر الروح بأي غرض حتى تقف أمامه. ولهذا فإن المقادير القدسية التي تبقي الكون مفتوحاً للروح من جميع الإتجاهات، تخفي الأمتعة والأشخاص الذين لا يهمون روحاً معينة عن حواس ذلك الفرد. يجد الإنسان طريقه من خلال الأشياء الأزلية الأشد صلابة كما لو أنها غير موجودة، وكما لو أنه لم يخطر له يومها أنها موجودة. وما أن يحتاج إلى غرض جديد، حتى يبصره على التو، ولا يعود يحاول المرور من خلاله، إنما يسلك طريقاً أخرى. وعندما يستنفذ المرء التغذية التي يستطيع الحصول عليها من شخص معين أو غرض معين، فإن ذلك الغرض يسحب من دائرة ملاحظته، ورغم أنه قد يكون على مقربة منه، فإنه لا يعود يشعر بوجوده. ما من شيء ميت، يتظاهر الناس بأنهم ميتون، ويحملون المآتم الزائفة وكتابات النعي الحزينة، وهاهم أولئك يقفون متطلعين من النافذة، سليمين ومتعافين، في قناع جديد وغريب. يسوع ليس ميتاً، إنه حي ومعافى، ولا يوحنا، ولا بولص، ولا محمد، ولا أرسطو؛ أحياناً نشعر أننا نراهم جميعاً، ونستطيع بسهولة أن نحرر الأسماء التي صاروا يحملونها.

إذا لم نستطع الإتيان بخطى مقصودة وواعية في مجال علم الكليات، فلننظر إذاً بحكمة إلى الأجزاء، ونستدل على عبقرية الطبيعة من أفضل التفاصيل بإحسان لائق.

إن ما هو الجانب الأفضل في كل نوع يعتبر مؤشراً لماينبغي أن يكون عليه المعدل المتوسط لذلك النوع. يظهر لي الحب غنى الطبيعة، عندما يكشف لي في شخص صديقي عن ثروة خفية، فاستدل على وجود الطيبة بعمق مماثل في كل اتجاه آخر. من الشائع بين المزارعين القول أن تربية تفاحة أو أجاصة جيدة لا يكلف من الجهد والوقت أكثر مما تتكلفه تربية واحدة سيئة؛ ولهذا فإني أرفض القبول بغير الأفضل من بين الأعمال الفنية، والكلام، والفعل، والفكر، والأصدقاء.

الغاية والوسيلة، المقامر واللعبة - إن الحياة تصنع من تفاعل واختلاط هاتين القوتين المتآخيتين، اللتين يبدو تزاوجهما هائلاً للوهلة الأولى، حيث تنكر الواحدة منهما الأخرى وتسعى إلى إلغائها. علينا أن نوفق بين التناقضات ما استطعنا، إلا أن اختلافها وتوافقها يطرحان أموراً غير معقولة وجامحة في تفكيرنا وكلامنا. ما من جملة يمكن أن تضم الحقيقة كاملة، والطريقة الوحيدة التي تستطيع بها أن نكون منصفين، هي بالكذب على أنفسنا؛ الكلام خير من السكوت، السكوت خير من الكلام؛ كل الأشياء مترابطة، لكل ذرة مجال للطرد، الأشياء كائنة، وغير كائنة في الوقت نفسه. على مدى الكون كله لا يوجد سوى شيء واحد، ذلك الشيء القديم ثنائي الوجه، الخالق - المخلوق، الفكر - المادة، الصحيح - الخطأ، الذي يمكن لأية صيغة منه أن تثبت أو تنفى. ولهذا، فإن بوسعي أن أؤكد عن جدارة بأن كل شخص هو اجتزائي، وأن الطبيعة تستخدمه كأداة عن طريق الغرور الذاتي، حائلة دون ميوله نحو الديانة والعلم، ثم تؤكد على ضرورة استكشاف عبقرية كل فرد عن كثب وعلى نحو ودود، من أجل أن يكون مبرراً في فردانيته، متى ما وجدت أن طبيعته شديدة الاتساع، كما أنني أضيف إلى ماسبق أن كل شخص هو كلي أيضاً، وأنه مثل أرضنا، التي تدور حول الشمس عبر فضاءات سماوية، في نفس الوقت الذي تدور فيه حول محورها الذاتي، بحيث أن أقل أبنائها حكمة، وأكثرهم انصرافاً لشأنه الخاص، يشارك في حل المشكلة الكلية، وإن تم ذلك تحت قناع. نحسب الرجال أفراداً؛ كذلك الحال مع القرع؛ لكن كل قرعة في الحقل تمر بكامل القرع. الديمقراطي المسعور، ما أن يصبح سيناتوراً ورجلاً غنياً، حتى يكون قد نضج إلى ما بعد إمكانية الراديكالية المخلصة، ومالم يكن قادراً على مقاومة الشمس، فإنه سيصبح محافظاً لما بقي من أيامه. لقد قال اللورد ألدون في شيخوخته «لو كان له أن يبدأ حياته من جديد، فإن اللعنة ستحل عليه إن لم يبدأها كمحرض.»

نخفي هذه الكلية ما استطعنا، لكنها تظهر من جميع الجهات. ونحن كالأطفال الذين لا يقرون بالفضل. ما من شيء نحبه ونسعى إلى احتيازه إلا وأدرنا له الظهر في ساعة ما ومزقناه. ما نلبث نمطر الجهل والحياة الحسية بوابل من نيران هزئنا، ثم نمر مصادفة بفتاة حلوة، قطعة من الحياة، مبتهجة وسعيدة، تخلع الجمال على الأفعال العادية من الحماسة والطاقة التي تؤديها بها، وما أن نراها حتى نحبها ونحب أفعالها، ونقول «هاه! مخلوقة أصيلة من بنات الأرض الطيبة، لم تبددها أو تنضجها مبكراً الكتب، والفلسفة، ما أحببناه وأوجدناه في نفوسنا ولدى الآخرين والسخط عليه.

آه لو كانت لنا أية ضمانة ضد الإفرجة! لو أمكن إلزام كل نبي متعمق بكلماته، ولو أن المستمع المستعد لبيع كل شيء والانضمام إلى الحملة يمكن أن يحصل على أية وثيقة بأن نبيه لن يتراجع عن شهادته من الغد! لكن الحقيقة تجلس محجبة هناك على المصطبة، ولا تفوه أبداً بأية كلمة عنيدة، وأكثر المذاهب إخلاصاً وثورية تلك التي تقدم كما لو أن فلك الرب قد اندفع بضعة أميال، ورسخ هناك ليراه كل مغفلي العالم، لا تطرح بعد أسابيع قليلة جانباً وببرود من قبل المتكلم نفسه - «لقد حسبت نفسي محقاً، لكنني لم أكن كذلك» - ويتم طلب التصديق غير المحدود نفسه لتهورات جديدة. آه لو أننا لا نعتنق كل أشكال الآراء! لو أننا لا نستبدل في أية لحظة المنصة التي نقف عليها، ونروح نتطلع ونتكلم من على منصة أخرى! لو أمكن أن توجد أية ضوابط، أية «قاعدة لساعة واحدة» تنص أن على الإنسان أن لا يغادر أبداً وجهة نظره قبل أن يسمع صوت النفير. وما دمت أعلم على الدوام بوجود أمزجة أخرى، فإنني غير مخلص على الدوام.

إلى أي مدى نستطيع أن نكون مخلصين وصادقين، حين نقول كل ما يمكن في العقل، وننصرف ونحن نشعر بأن شيئاً لم يقل، انطلاقاً من عدم قدرة الأطراف على معرفة بعضها البعض، رغم أنهم يستعملون الكلمات نفسها! يفترض صاحبي أنه يعرف مزاجي وحالات تفكيري، ونمطي من تفسير إلى تفسير حتى نستنفد كل ما تستطيع الكلمات قوله، فنترك القضايا كما كانت عليه في البداية بسبب ذلك الإفتراض الرديء. هل يعود ذلك إلى اعتقاد كل إنسان بأن الآخر اجتزائي غير قابل للعلاج وأنه هو نفسه الكلي؟ تحدثت بالأمس إلى اثنين من الفلاسفة؛ حاولت أن أبدي للرجلين الطيبين أني أفضل كل شيء بدوره ولا أحب الشيء المطول؛ وأني أحب المركز، لكنني أشغف بالسطحيات؛ وأني أحب الإنسان، لو أن النساء بدوا لي جرذاناً وفئراناً؛ وأني أبجل

القديسين؛ لكني أشعر بالغبطة لأن العالم الوثني القديم قد حافظ على مواقعه ولم يكن سريع الزوال؛ وأني أغتبط للأشخاص من جميع أنواع المواهب والنبالة، لكني لا أرغب في العيش في كنفهم. لو أنهم يفهمون مرة أنني أحببت أن أعرف أنهم موجودون، وأنني تمنيت لهم من قلبي أن يكونوا موفقين، لكني بسبب فقر حياتي وفكري، لم أجد كلمة ترحيب بهم عندما جاؤوا لرؤيتي، إذن لوجدت في ذلك رضا كبيراً.

٢١

مصلحو نيوانجلاند

كل من أتيحت له فرصة التعرف على مجتمع نيوانجلاند خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية، وعلى تلك القطاعات المتوسطة والقيادية التي يمكن أن تشكل الممثل الحق لشخصية الجماعة وأهدافها، قد ذهل للفعالية العظمة للفكر والتجربة في ذلك المجتمع. ولا شك أن اهتمامه قد توجه إلى الدلائل التى تشير إلى أن الكنيسة، أو الجماعة الدينية، صارت تغيب عن الحضور الأسمى، لتطهر في الجمعيات الداعية إلى الاعتدال أو اللاعنف، وفي حركات الاشتراكيين والادعائيين إلى إلغاء الرق، وفي تجمعات كبيرة الأهمية تدعى ـ«السبت» و «جمعيات الإنجيل»، تتكون من المتطرفين والباحثين عن روح الانشقاق، الذين يلتقون لاثارة التساؤلات حول سلطة «السبت»، والكهنوت، والكنيسة. لا شيء في هذه الحركات يبدو أكثر أهمية من السخط الذي يزرعونه لدى المنتمين إليها. إن روح الاحتجاج والانفصال تدفع أعضاء هذه الجمعيات إلى تقديم الشهادة ضد الكنيسة، ثم يندفعون بعد ذلك مباشرة إلى الاعراب عن عدم رضاهم على تلك الجمعيات، وعن استقلاليتهم عن زملائهم، وعن ضيقهم بالاساليب التي كانوا يعملون بموجبها. يتحدى الواحد منهم الآخر مثل مجلس للملوك، لدى كل واحد منهم مملكة يحكمها، وطريقة خاصة به تجعل الانسجام غير مجد. يالها من مجموعة خصب من المشاريع المكرسة لانقاذ العالم! أحد الرسل يعتقد أن العالم كله يحب أن يتجه للزراعة، والآخر يرى أن على الجميع أن يكفوا عن البيع والشراء، وان استخدام النقود هو الخطيئة الكبرى، فما يعتقد آخر أن الشر يكمن في غذائنا وإننا نأكل ونشرب ما يقضي علينا. هؤلاء هم الذين يصنعون الخبز الفطير، ويعادون التخمر إلى حد الموت. ولقد كان من العبث إقناع ربة البيت بأن الرب هذا الذي خلق الخميرة، كما خلق العجين وأنه يحب التخمير كما يحب الانبات، وأن التخمير يولد مادة السكرين في القمح ويجعله ألذ طعما واسهل هضماً. كلا، إنهم يفضلون الحنطة الخالصة، وسوف يموتون من آجل أن لا تتخمر. أوقفي، أيتها الطبيعة العزيزة، خطواتك اللجوجة هذه، ودعينا نوقف هذه العجلات دائمة الدوران! يهاجم آخرون نظام الزراعة واستخدام

السماد الحيواني في الحقل، وتسلط الإنسان على الطبيعة الفجة، ويرون أن سوء التصرف هذا هو الذي لوث غذاء الانسان يجب إبعاد الثور عن المحراث، والحصان عن العربة، مئات الايكرات من الحقول يجب أن تقلب بالمسحاة، وعلى الانسان أن يسير على قدميه، حيثما لا تحمله الزوارق والقطارات. حتى عالم الحشرات ينبغي الدفاع عنه، لقد تم إهماله زمناً طويلا، وكان من اللازم تشكيل جمعية لحماية ديدان الارض، والبعوض. ومع هؤلاء ظهر الممارسون الأكفاء في مجالات العلاج المثالي، والمائي والتنويم المغناطيسي، وعلم الفراسة ونظرياتهم المدهشة عن المعجزات المسيحية ! وهاجم آخرون مهناً معينة مثل مهنة المحامي، والتاجر والمثقف، ورجل الدين، وصاحب المصنع . بينما هاجم آخرون مؤسسة الزواج بصفتها مصدر كل الشرور الاجتماعية. وكرس آخرون أنفسهم لنهش الكنائس وتجمعات العبادة العمومية وبدا أن صيغ التناقض الخصبة بين البيوريتانيين المسنين قد وجد موقعها في زحمة الموسم الجديد للإصلاح.

مع وجود هذه الجلبة من الآراء والجدل، قام هناك انتقاد للمؤسسات والحياة المنزلية تجاوز في تفاصيله كل ماعرفناه في السابق، حيث كان هناك احتجاج مخلص ضد الشرور القائمة، وحصلت هناك تغيرات في المراكز أملاها الضمير. وقد كان هناك، بلا شك، الكثير من البخار الفائض حيث يمكن أن تقع حالات من الارتداد. ولكن نتيجة طيبة نجمت عن كل من هذه الحركات، هي التوجه صوب تبني أساليب أبسط، وتوكيد على كفاية الإنسان العادي. وهكذا فقد جاءت متمشية مع روح العصر وأفكاره، الحالة التي كانت فيها إحدى الكنائس قد انتقدت أحد الأفراد وهددت بحرمانه بسبب الدور المعادي للكنيسة الذي دفعه ضميره إلى اتخاذه في معرض معاداته للعبودية، فما كان من الفرد المهدد إلا أن قام بالتبرؤ من الكنيسة ومقاطعتها في إجراء رسمي ومعلن. تكرر هذا الأمر في عدة مرات، وكان ممتازاً عندما حصل في الحالة الأولى، لكنه فقد، بالطبع، كل قيمته في حالات التقليد. إن كل إجراء في تاريخ الاصلاح، بغض النظر عن مدى عنفه ومباغتته، يكون طيباً عندما يمليه فكر المرء وكيانه، لكنه يصبح بليداً ومثيراً للشكوك عندما يتبناه شخص عن شخص آخر. إنه لأمر سليم وجميل من جانب أي إنسان أن يقول. «سوف آخذ هذا المعطف، أو هذا الكتاب، أو هذا المقدار من القمح

الذي يخصك » فنجد أن العمل أصيل، وهو نابع من كامل روح الانسان وإيمانه، عندها سيحصل ذلك الأخذ على عطاء يماثله في سخائه وقدسيته. لكننا نكون معرضين بسهولة إلى مقاومة نفس السخاء من الكلام عندما نعتقد فيه الأصالة والاخلاص للشخصية.

في النشاطات العملية التي شهدتها نيوانجلاند خلال ربع القرن الأخير، كان هنالك انسحاب تدريجي للإحساس الضميري الرقيق بالمنظمات الاجتماعية، وكان ذلك ملحوظاً عبر كل المفاضلة ما بين الأساليب الميكانيكية والروحية، مع ترجيع ثابت من قبل الأشخاص المفكرين والفضلاء لإيمان أعمق واعتماد أكبر على الحقائق الروحية.

في السياسة، مثلاً، تسهل رؤية مسيرة الانشقاق. فالبلادمليئة بالتمرد: والبلاد مليئة بالملوك. ارفعوا أيديكم! ولتمتنعوا عن أي تحكم أو تدخل في إدارة شؤون مملكتي. ومن هنا يأتي نمو مبدأ التجارة الحرة وحزبها، والاستعداد لخوض هذه التجربة، في وجه الحقائق التي تبدو غير قابلة للنقض. أعترف بأن شعار صحيفة «غلوب » يبدو جذاباً بالنسبة لي إلى الحد الذي قلما أجد معه الشهية اللازمة لقراءة ما يظهر تحته في أعمدة الصحيفة. يقول الشعار: «العالم محكوم بطريقة مبالغ فيها». وهكذا فإن البلاد تقدم عادة نماذج انفرادية لمقاومة الحكومة، إنكاريون انفراديون يلقون بأنفسهم على حقوقهم المحفوظة، كلا، إنما قاموا بحفظ جميع حقوقهم، والذين يردون على مخمن الضرائب وكاتب المحكمة بأنهم لا يعرفون الدولة، ويحرجون محاكم القانون بالامتناع عن التحليق والقائد العام للمليشيا بالامتناع عن المقاومة.

نفس النزع للانتقاد والانشقاق ظهر في مجتمع المدينة، والبيت، والجوار، والمناسبات. تفجر النقد القلق، المستطلع، الراعي في أماكن غير متوقع. من الذي أعطاني النقود التى اشتريت بها معطفي؟ لماذا يكون هناك هذا القدر من التفاوت بين المكافأة المدفوعة من جهد المهني أو المحاسب مقابل جهد البواب أو نشار الخشب.؟ هذا الوضع الكلي للتجارة يدفعني إلى أن أتوقف وأفكر، لأنه يشتمل على علاقات زائفة ما بين الرجال، بما أنني أميل إلى اعتبار نفسي في حل من أي التزام بالتصرف على نحو طيب ونبيل مع ذلك الشخص الذي أدفع له النقود، في حين أنني لو لم أكن حائزاً لتلك السلطة، فإني سأضطر إلى الاعتماد على سلوكي الطيب مع جميع الأشخاص، فيكون الانسان راعياً للانسان، ويكون هو نفسه الشهادة الوحيدة التى تمنحه الحق في

الوصول إلى تلك الخدمات والمساعدات التى يطلبها كل فرد من الفرد الآخر. ألست شخصاً محمياً إلى حد بعيد؟ ألا يوجد اختلاف واسع بين نصيبي و نصيبك أنت، يا أخي الفقير، وأنت يا أختي الفقيرة؟ ألا أسلب ثقافتي المثلى في فقداني لتلك الرياضات التي يفرضها العمل اليدوي ودواعي الفقر على الفقراء؟ لا أجد شيئاً صحياً ومفيداً في تقاليد المجتمع الناعمة، فأنا لا أحب هواء الصالونات الخانق، فإني أحس بنفسي مسجوناً، رغم ما أعامل به من مجاملة وبذخ. وإني لأدفع ضريبة غالية من راحتي.

يمكن تتبع نفس النقد الشرة في الجهود المبذولة من أجل إصلاح التعليم. لقد ابتلت التربية الشعبية بالحاجة إلى الحقيقة والطبيعة كانت هناك شكوكي من عدم تقنيم تعليم ببعض الأمور. نحن تلاميذ كلمات نحبس في المدارس، والكليات، وعزف التلاوة، على مدى عشر سنوات أو خمس عشر، ونخرج في النهاية بكيس هواء، ذاكرة من الكلمات، ولا نعرف شيئاً. ليس بمقدورنا استخدام أيدينا، أو أرجلنا، أو عيوننا أو أذراعنا. لا نعرف تحديد الساعة من موقع الشمس. أمر طيب لو اننا نستطيع اسباحة أو التزلج. فنحن نخاف من الحصان، والبقرة، و الكل، والأفعى، والعنكبوت. كانت القاعدة الرومانية تقطني بعدم تعليم الصبي أي شيء لا يستطيع أن يتعلمه وهو واقف. وكانت القاعدةالانجليزية القديمة! «كل الصيف في الحقل، وكل الشتاء في المكتبة ». ويبدو كما لو أن على الانسان أن يتعلم أن يزرع، أو يصطادالسمك، أو يصيد الحيوانات من أجل أن يؤمن معاشة في كل الأحوال، وأن لا يكون عالة على أصدقائه وزملائه. ينبغي أن تكون الدروس العلمية تجريبية هي الأخرى إن رؤية كوكب من خلال التلسكوب تساوي فصلاً في دراسة الفلك، وصدفه شرارة كهربئية عند الكوع تفوق في قيمتها كل النظريات، ومذاق حامض النيتروس، أو انفجار بركان مصطنع أفضل من مجلدات من الكيمياء.

إحدى سمات الروح الجديدة تتمثل في التمحص الذي تفرضه على ولائنا المدرسي للغات الميتة. تحتوي اللغات القديمة، ذات البنية فائقة الجمال، على بقايا رائعة من العبقرية، التي اجتذبت، وسوف تجتذب على الدوام، أشخاصاً معينين من أصحاب الفكر المماثل- أشخاص اغريقيون وأشخاص رومانيون- من جميع الدول، إلى دراستها؛ لكنها قد حصلت في الماضي، وبتهاون كبير في الاستخدام، على انصراف «جميع » الأشخاص لدراستها. في زمن ما [قبل قرنين من الزمان] كانت اللاتنية

والاغرقية مرتبطتين بشدة بجميع ما كان في أوربا من علم وثقافة، وكانت للرياضيات أهمية ملحة في حقبة معينة من دراسة العلوم الفزيائية. وقد ضخمت هذه الحقول لتمثل «التعليم » و «التربية » ككل. لكن الروح الطيبة لم تكترث ابداً للكليات، وعلى الرغم من كون جميع الرجال والصبيان قد تلقوا تعليماً من اللاتنية والاغريقية والرياضيات، فإنها خلقت هذه القواقع وراءها على الساحل، وانبرت في الوقت الراهن إلى ايجاد وتقديم مواد أخرى في اصقاع أخرى من العالم. لكن هذه الحرب ضد البداهية ما تزال دائرة في حوالي مئة مدرسة ثانوية وكلية.ينفق التلميذ أربع، أو ست، أو عشر سنوات في تفسير الاغريقة واللاتنية، وما أن يغادر الجامعة، حتى يغلق تلك الكتب لآخر مرة يتخرج من كليات هذا البلد آلاف الشبان في كل عام، لكن الأشخاص الذين يوصلون القراءة بالاغريقية في سن الأربعين يعدون على أصابع اليد. لم ألتق ابداً بعشرة منهم. ومن بين الذين عرفت لا يقرأ إفلاطون سوى أربعة أو خمسة أشخاص.

أليس من الخف أن توجه كل المواهب الطليعة لهذا البلد في أفضل سنواتها إلى دراسات لا تقود إلى شيء؟ وماذا كانت مردودات ذلك؟ يفكر بعض الأذكياء أو يقولون، «هل أن الاغريقية واللاتينية سحر علينا فك رموزه، أم أنها كلمات صادرة عن العقل؟ فإذا كان الطبيب، والمحامي، ورجل الدين لا يستخدمونها في الوصول إلى أغراضهم، فإني لست بحاجة إلى تعلمها من أجل الوصول إلى أغراضي. لم يعد فك الرموز السحرية موضة دراجة، ولسوف أهمل هذا التصرف، وأمضي مباشرة لشأني. » وهكذا قفزوا على الاغريقية واللاتينية، ودرسوا القانون، أو الطب، أو المواعظ، بدونهما. ولدهشة الجميع، استطاع الخريجون العصاميون على الفور أن يقفوا على قدم المساواة مع القدامى من الخريجين النظامين، وفي غضون شهور قليلة كانت الدوائر الأكثر محافظة في بوسطن ونيويورك قد نسيت أياً من رجالها المهنيين كان من خريجي الكليات واياً لم يكن.

ثمة ميل معين يظهر في التأمل الفلسفي ومن أكثر الحركات الديمقراطية فجاجة على حد سواء، وفي جميع السلوك الفظ والصبياني. ذلك هو الرغبة بطرح الفائض وغير الضروري جانباً والوصول إلى أقصر السبل، هذه الرغبة التى يحركها، على ما اعتقد الحدس بأن الروح الانساني فد بمفردها لجميع الطوارئ، وأن الوسائل التي يستخدمها الانسان غالباً ما تضر أكثر مما تنفعه.

احسب أن هذا الطرح التدريجي للوسائل المادية المساعدة، ومؤشرات الثقة المتزايدة بقدرات الفرد الخاصة والذاتية، هما المبدأ الايجابي للفلسفة الراهنة، وأنها آخذة بالاحساس بحقيقتها العميقة الخاصة بها، وأنها تسير قدماً في هذه الساعة بالذات نحو الوصول إلى أفضل النتائج. إني على استعداد للإقرار بوجود صيغة من الاحتجاج والانكار قيما يتعلق بهذه المرحلة، كما في أية مرحلة أخرى من النشاط الفكري. وكان هناك الكثير مما يجب مقاومته، والكثير مما يجب التخلص منه من قبل أولئك الذين تربوا في أحضان القديم، قبل أن يصبحوا قادرين على البدء بالتوكيد والبناء كثير من الاصلاحين يهلكون في عملية إزالتهم للنفايات، ومن هنا تأتي كراهية هذة الفئة. إنهم متبسرون، وغير أكفاء للمهمة التي يتظاهرون بها. إنهم يضلون طريقهم؛ في الهجوم الذي يشنونه على مملكة الظلام يستنفذون كل طاقتهم ضد بعض الشرور الطارئة، ويفقدون عقلانيتهم وقدرته على تحقيق الفائدة. إن إصلاح خطأ أو اثنين أو عشرين من أخطاء نظامنا الاجتماعي أمر قليل الأهمية، لكن الأهمية الكبرى تتعلق بمحافظةالانسان على صوابه.

إن ما شهدناه من نقد للمؤسسات وهجوم عليها، قد أوضح أمراً واحداً، هو أن المجتمع لا يكسب شيئاً عندما يتصدى رجل، هو نفسه غير تجدد، لتحديث الأمور من حوله: لقد كان طيباً بخصوص تفصيل ما، لكنه كان مهملاً لبقية أو ضائقاً بها، وغالباً ما تكون النتيجة المقرفة هي النفاق والغرور.

من الأليق البقاء في المؤسسة وأنت أفضل منها، وأن تقودها على أفضل صورة فذلك خير من أن تشن هجوماً على الشرور بإجراء تحسين منفرد، بدون تدعيمه بتحديد كامل. لا تكن شديد الغرور باعتراضك الوحيد. هل تعتقد أن ليس ثمة سوى أمر واخد يعترض عليه. ياللحسرة! أيها الصديق الطيب، فما من جانب في المجتمع أو الحياة أفضل من أي جانب آخر. كل أمورنا صائبة ومغلوطة في الوقت نفسه. وموجة الشر تجتاح كل مؤسساتنا على حد سواء. هل تتذمر من صيغة الزواج لدينا؟ إن زواجنا ليس أسوأ من تربيتنا، وطريقة غذائنا، وتجارتنا، ،عاداتنا الاجتماعية. هل تتذمر من قوانين الكلكية؟ إنها لحذلقة أن توليها كل هذه الأهمية. أليس بمقدورنا لعب لعبة الحياة بهذا الانطباع الذي ينبغي له أن يخلع على من يصلحها. لا أهمية لدي لما تقوله، عليك أن تجعلني أشعر بأنك تتسامى فوقه، وأنك تستطيع ببساطة أن ترى نهاية الأمر

بقدراتك الطبيعية وما فوق الطبيعية، أن ترى كيف يستطيع الانسان الاستغناء عن الملكية. الناس جميعاً في جانب واحد الآن. ما من انسان وحده، يقف ضد الملكية كما نفهمها

لا يسعني أن أكون مزعجا ومماحكاً، ولا أن أضيع كل وقتي في الهجومات. إذا كان على أن أغادر الكنيسة كلما استمعت إلى عبارة زائفة فإني لن أستطيع أبداً المكوث فيها خمس دقائق. ولكن لماذا أغادرها؟ الشوارع لا تقل زيفاً عن الكنيسة، وعندما أعود إلى منزلي، أو سلوكي، أو حديثي، فإني لن أكون قد هربت من الكذب. عندما نرى مهاجماً متحمساً ضد أحد هذه المساوئ، إصلاحياً خاصاً، نرغب في أن نسأله، «أي حق لك، يا سيدي، بفرض فضيلتك الخاصة؟ هل أن الفضيلة توزع حصصاً؟ » إنها جوهرة بين أطمار شحاذ.

« إن الحق يصان بطريقة أخرى. وسط المساوئ، في قلب المدن، في أبهاء الكنائس الزائفة، في هذا المكان أو ذاك- حيثما تجد روح عادلة وبطولية نفسها- فإنها ستفعل ما يتاح لها، وبالنوعية الجديدة من الشخصية التي نقدمها سوف تبطل الحالة القديمة، أو القانون أو المدرسة التي تواجهها، أمام قانون عقلها الخاص بها.

إذا كان الابتسار أحد نقائص جماعة الحركة، فإن النقيصة الاخرى هي اعتمادها على التجمع. إن شكوكاً من نوع تلك التي ألمحت إليها دفعت العديد من الأشخاص الطيبين إلى تأجيج قضايا الاصلاح الاجتماعي. لكن التمرد على نزعة التجارة، ونزعة الارستقراطية، والمساويء المتأصلة في المدن لم يبد ممكناً بالنسبة للأفراد، ولهذا فإنهم في التصدي للاتفاق السائد اعتمدوا على اتفاق جديد.

في اتباع أفكار سان سيمون، وفورييه، وأوين، أو تخطيها، تشكلت في ماساشوشيس ثلاث جماعات تبعاً لمخططات متوائمة، إضافة إلى أعداد أكبر من الجماعات التي قامت في طول البلاد وعرضها. إنهم يرمون إلى إعطاء كل فرد حصته في العمل اليدوي، وتقديم حصة متساوية من المكافأة عن الجهد و الموهبة، وقرن الثقافة الليبرالية بتعليم مهني. يعرض المشروع، من خلال اقتصاديات العمل المشترك والكلفة المشتركة، جعل كل فرد غنياً، اعتمداً على نفس الكمية من الملكية، التي تترك الجميع فقراء في حالة توزعها على الأسر المنفصلة. تتألف هذه الجمعيات الجديدة من رجال

ونساء ذوي مواهب ومشاعر سامية، ومع ذلك فإن من السهل التساؤل عما أذا كانت مثل هذه الجماعة ستجتذب، باستثناء بداياتها، الأفضل والاقدر، وعما إذا كان أولئك الأشخاص من ذوي المقدرة سوف لن يفضلوا التمتع بفرصتهم المحتملة في التفوق والنفوذ في العالم، على ما تقدمه الجمعية من مواقع متواضعة، وعما إذا كان مثل هذا الملاذ لا يعد بالتحول إلى ملجأ لأولئك الذين حاولوا وفشلوا بالضرورة بدلاً من التحول إلى ميدان للأقوياء، وعنا إذا كان اعضاء لا يتحولون بالضرورة إلى أجزاء من الرجال، لأن كلاً منهم سيجد أنه لا يستطيع الدخول بدون بعض التسويات. إن الصداقة والاتحاد أمور رائعة جداً، وأن وجود كتيبة عظمى تضم أفضل ما في الجنس البشري من أجل هدف عام أمر ممتاز حقاً، ولكن تذكر أن ما من جمعية يمكن أن تكون كبيرة بحجم إنسان واحد. فالانسان، بصداقته، بارتباطاته الطبيعية والآنية، يضاعف نفسه ضعفين أو ثلاثاً، لكنه في اللحظة التي يرهن بها نفسه باثنين أو عشرة أو عشرين، يقزم نفسه إلى ما دون حجم الواحد.

لكن الأشخاص قليلي الايمان لا يستطيعون أن يركنوا إلى هذا، ولذا تكون الجماعة بالنسبة لهؤلاء هي الشرط الوحيد للقوة.فشلت أنا وفشلت أنت، ولكن ربما لن نفشل عندما نكون معاً شأننا المنزلي لا يرضينا، ولكن ربما يرضينا شأن الكتبة أو الجالية. الكثيرون منا اختلفوا في الرأي، ولم نستطيع أن نعثر على رجل يستطيع إيضاح الحقيقة، ولكن ربما استطاع ذلك مجلس كنسي أو كلية. لم أستطع أن أمنع نفسي ولا أن أمنع أخي بالكف عن السكر بالبراندي، ولكن ربما كان بمقدور الدعوة إلى الامتناع التام عن الشراب أن تردعنا. المرشح الذي يصوت له حزبي لا يمكن ائتمانه على دولار واحد، لكنه سيصبح أميناً في مجلس الشيوخ، لأن بوسعنا أن نخضعه لمراقبة الرأي العام. هكذا كانت الجماعة الشرط المطلوب في جميع الحالات. لكن الجماعة ليست بأفضل ولا أسوأ من القوة الفردية، وليست أكثر أو أقل اقتداراً جميع رجال العالم لا يستطيعون أن يجعلوا تمثالاً يتحرك ويتكلم ، وليس بوسعهم أن يصنفوا قطرة دم، أو ورقة عشب لا يقدر على صنعها الرجل وحده. إنما ليكن هنالك رجل واحد، وليتوفر الصدق في رجلين، في عشرة رجال، عندها يكون توفر في الجماعة ممكناً، لان القوة التي تزحزح العالم هي صفة جديدة، ولا يمكن الحصول عليها من إضافة أي عدد من الصفات المختلفة. ما جدوى جماعة المزيفين وغير

المنسجمين؟ لا يمكن أن يكون هناك انسجام لدى اثنين، ما لم يكن هناك انسجام في الواحد. عندما ما لا يكون الفرد فرداً، إنما مزدوجاً، عند ما تتجه أفكاره صوب جهة وأفعاله صوب جهة أخرى، عندما يتعارض إيمانه مع عاداته، وعندما يحرق إحساسه إرادته التي ينيرها العقل، عندما يجذف بيد ويناحر الماء بالأخرى، أي انسجام يمكن أن يحققه؟

لا يدهشني الاهتمام الذي تثيره هذه المشاريع. العالم يفتح عينيه على فكرة الاتحاد، وهذه التجارب تظهر ما يفكر به العالم. إنه السحر وهكذا ينبغي له أن يكون. فالبشر سوف يحبون ويتوصلون، ويحرثون، ويحصدون، ويحكمون بقوة أثيرية مضافة ما أن يتحدوا- كما حدث في إحدى التجارب المشهورة حين استطاع أربعة أشخاص، بضبط شهيقهم وزفيرهم معاً، أن يرفعوا رجلاً ثقيلاً من على الأرض بالاصبع الصغرى وحدها، وبدون أي إحساس بالثقل. لكن هذا الاتحاد يجب أن يكون من الداخل، وليس اتحاد مواثيق، وينبغي أن يتم التوصل إليه بطرق معاكسة للطرق المستخدمة.الاتحاد لا يكون تاماً إلا إذا كان جميع المتحدين منفصلين. إنه اتحاد الأصدقاء الذين يقطنون شوارع أو مدناً مختلفة. كل رجل، إذا ما حاول إلحاق نفسه بالآخرين، سيجد نفسه مزحوماً من جميع الجوانب، ومجرداً من قضيته، وكلما ازداد الاتحاد صرامة أمعن الفرد في الاضمحلال والتهميش. ولكن لو تركته وحده، ليدرك في كل ساعة وموضع الروح السرية، فإنه سوف يتحرك جيئة وذهاباً منجزاً أعمال العضو الحقيقي، ولدهشة الجميع، فإن العمل سوف يؤدى بالتوافق رغم أن ما من رجل قد فاه بشيء. سيكون الحكم متيناً دون حاكم. ولا بد أن يكون الاتحاد مثالياً في الفردانية الفعلية.

أنتقل إلى الاشارة في بعض التفاصيل إلى ذلك الايمان بالانسان، الذي يعلمنا إياه القلب في هذه الأيام، والذي يحظى بالمزيد من الاحترام، انطلاقاً من الاعتقاد بأن تخمينات الجيل الحالي هي تاريخ الجيل الذي يليه.

في الإشارة إلى نظام التربية عندنا، تحدثت لتوى عن موت تفاصيله. لكنه خاضع لانتقاد أخضر من مجرد ذلك المتعلق بشكل أعضائه: فهو نظام لليأس. إن الداء الذي يقارعه العقل الانساني اليوم هو نقص الإيمان.فالناس لا يؤمنون بقوة التربية. نحن لا نعتقد بقدرتنا على التحدث مع المشاعر القدسية في الانسان،ولا نحاول ذلك. إننا ننكر كل الأهداف السامية. ونعتقد أن مساوئ هذا العدد الكبير من الاشخاص المنحرفين

والطائشين الذين يكونون المجتمع عضوية، وأن المجتمع عبارة عن مستشفى للأشخاص غير القابلين للشفاء. رجل يتمتع بحس طيب، لكنه قليل الإيمان، يبدو أن الاشفاق قاده إلى التردد على الكنيسة بالوتيرة التي كان يتبعها، قال لي، «أنه يريد أن تستمر الحفلات الموسقية، والمهرجانات، والكنائس، وغيرها من وسائل اللهو العامة » أخشى أن تكون ملاحظته مفرطة في الصدق، وأن تكون نابعة من نفس المصدر الذي تنبع منه حكمة الطاغية التي تقول«إذا رغبت أن تحكم العالم بهدوء، فعليك أن تبقيه لاهياً.» ألاحظ أيضاً أن الأساس الذي ينطلق منه البارزون من العاملين في الخدمة العامة إلى المطالبة بأهداف التربية الشعبية هو الخوف.«هذا البلد يمتلئ بآلاف وملاين الناخبين، وعليك أن تعلمهم لإبعادهم عن رقبتك.» نحن لا نؤمن بأن أية تربية، وأي نظام فلسفي، وأي تأثير للعبقرية يمكن أن يصغي عمق البصيرة إلى عقل سطحي. وما أن تركنا أنفسنا تستقر في حالة الفكر هذه، حتى صارت مهاراتنا تستهلك في استجلاب التلطيف والحرف، والتخدير. نحن نزين الضحية بالمهارة اليدوية، ولسانه باللغات وجسده بالسلوك اللائق وغير الجارح. وهكذا نخفي بمكر مأساة المحدودية والموت الداخلي الذي لا نستطيع تفاديه. أليس غريباً أن تنهش المجتمع كآبة خفية تطل من جميع ابرساماته وإلعلبه ومسراته؟

لكن فكرنا قد أوغل خطوة أبعد. يبدو أن رجالاً طيبين وحكماء صاروا يعانون بعض الشك في أن تكون ثقافة العقل المكتسبة من تلك الأنظمة التى نطلق عليها اسم التربية قادرة على زيادة سعادة الناس واستقامتهم. ومن المحزن أن يأتي هذا الشك من قبل الآكاديميين، الأشخاص الذين جربوا هذه الطرق. في تجربة المبادئ، لم يرتفع المثقف بالأفكار القدسية التي يحيا بينها، إنما ليستخدمها لأغراض أنانية كان شخصاً مدنساً، وأصبح رجل استعراض، محمولاً مواهبه إلى استخدامات قابلة للتسويق، وليس إلى وسائل لتغذيته ونموه لقد وجد أن العقل يمكن أن ينمو مستقلاً، أي بمعزل عن الانسان، كما يمكن تنشيط أي عضو محدد، وأن النتيجة كانت مرعبة. لقد تم توليد شهية كلبية للمعرفة، مازال يتوجب إطعامها وإن كانت لا تشبع أبداً، وأن هذه المعرفة، التي لا توجه نحو الفعل، لم تأخذ أبداً هيأة الحقيقة الانسانية الجوهرية، التي تبارك الأشخاص الذين تحل فيهم. لقد أعطيت الدارس قدرات معينة في التعبير، وقوة الكلام، وقوة الشعر والفن الأدبي، لكنها لم تقده إلى السلام أو الاحسان.

عندما تفصح الطبيعة الأدبية عن فقدان الإيمان، لا يكون من المستغرب أن يجعل انعدام الايمان المجتمع حسياً ومثبط الهمة. ما هو العلاج؟ يجب أن تعاش الحياة على مستوى أرفع. علينا الانتقال إلى منصة أعلى، تلك التى تدعى على الدوام إلى ارتقائها، هناك يتغير كامل مظهر الأشياء جميعاً. أقاوم تشكيلة تعليمنا ورجالنا المتعلمين. ولا أعتقد أن الاختلافات في الرأي والشخصية ما بين البشر عضوية، وباستثناء طبقة الطيبين والحكماء، لا أعترف بوجود طبقة دائمة للمشككين، وطبقة للمحافظين، أو للخبيثين أو الماديين. أنا لا أؤمن بوجود طبقتين. أنت تذكر حكاية المرأة الفقيرة التي ألحت على فيليب ملك ماسيدوينا أن ينصفها، فامتنع فيليب، هتفت المرأة، «ستتأنق» أجابت المرأة «لدى فليب الصاحي من فليب السكران». هذا النص يلائمني تماماً. أنا لا أؤمن بطبقتين من الناس، بل بالانسان الواحد في حالين، بفليب السكران وفليب الصاحي. أفكر، تبعاً لكلمة افلاطون الطيبة أن «أن الروح تجرد مرغمة من الحقيقة» المحافظ المتشدد، أو البخيل، أو اللص، ليس الانسان سوى نتاج ضرورة مفترضة يتسامح بشأنها بسبب قصر النظر أو بلادته. الروح لا تترك أي إنسان يمضي دون زيارات وحلول لوجود أكثر قدسية. من السهل أن تبين، من مسح ضيق لسيرة أي إنسان، أننا لسنا مقترنين بأدائنا الرديء من كل نوع، إنما لكل إنسان فترات من الفضيلة تجعله يزدري أداءه عندما ما يقارنه بإيمانه بما ينبغي عليه فعله - حتى أنه ليضع نفسه في صف أعدائه، منصتاً بسرور لما يقولونه عنه، ومتهماً نفسه بالأشياء ذاتها.

ما الذي يحبه الناس في العبقرية، سوى الأمل اللامتناهي لديها الذي يزري بكل ما انجزته؟ عندما يفرغ مبدعو الألياذة، وهاملت، والعمود الدوري، والقوس الروماني، والكاتدرائية الغوطية، والنشيد الجرمائي منها يخلفونها وراءهم. انظر كيف تغرق الأغنية في أمواج اللحن الذي يفزع فيه العالم روحه! رغم الاطراء الذي يحيطها به العالم، فإنها تبدو عادية قبل أن يصنف لها مبدعها تلك اللانهائية الحلوة التي يستمد منها لمساته الأخيرة القليلة. من انتصارات فئة يتحول برغبته إلى هذه الهزيمة الأكبر. دع الذين يريدون أن يعجبوا يفعلوا ذلك. إنه يرى نفسه، بغبطة صامته، قادراً على نيل جمال يكشف كل ما انجزته يداه وكل ما سبق ليد الانسان أن انجزته.

حسن. نحن جميعاً أبناء العبقرية، أبناء الفضيلة، ونحن نحس بإلهامهما في

ساعاتنا الطيبة. ألا يكون كل رجل راديكالياً أحياناً في السياسة؟ يكون الناس محافظين عندما يكونون في أدنى مراتب قوتهم، أو في أعلى مراتب ترفهم. إنهم محافظون بعد العشاء، أو قبل الخلود للراحة، عندما يكونون مرضى أو يتقدمون في السن، في الصباح، أو عندما يستثار عقلهم أو ضميرهم. وهم راديكاليون عندما يستمعون إلى الموسيقى، أو يقرؤون الشعر. ضمن دائرة أعتى المحافظين الذين يمكن جمعهم في انجلترا، القديمة والجديدة، دع رجلاً ذا قلب وعقل عظيمين يخاطبهم، وسرعان ما ستجد أن هؤلاء المحافظين المتجمدين يلينون للتأثير الودود، فيبدأ هؤلاء اليائسون بالأمل، ويشعر هؤلاء الكارهون بالحب، وتأخذ تلك التماثيل الجامدة باللف والدوران. ليس بوسعي إلا أن أذكر تلك الحكاية الرائعة التي يرويها وارتون عن الأسقف بيركيلي، عندما كان يتهيأ لمغادرة انجلترا تنفيذاً لخطته الرامية إلى التبشير بالانجيل وسط المتوحشين الأمريكيين. «أخبرني اللورد باثورست، أن أعضاء نادي سكريبليروس قد التقوا على العشاء في منزله واتفقوا على ممازحة بيركيلي، الذي كان ضيفة هو الآخر، بشأن مشروعه في برمودا. بعد أن استمع بركيلي إلى كل الأشياء المثيرة التى قالوا، رجاهم أن يستمعوا إليه فعرض خطته بحماسة وقوة بلاغة بلغتنا من الحيوية والإعجاز ما عقد لسان الجميع، الذين هبوا جميعاً، بعد توقف ذاهل، يهتفون مخلصين، «دعنا نخرج معه على الفور». إن الناس في جميع الأحوال أفضل مما يبدون عليه. تعجبهم المداهنة في وقتها، لكنهم يعرفون الحقيقة جيداً. وإنه لجبن أحمق ذلك الذي يمنعنا من الثقة بهم وابلاغهم بالحقيقة العارية. إنهم يمتعضون من صراحتك لوهلة، وسوف يشكرونك عليها دائما ما هو الشيء الذي نتمناه بصدق من بعضنا البعض؟ أهو الارضاء والمداهنة؟ كلا، بل أن يكشفنا الآخر ويقنعنا، وأن يخرجنا من تفاهاتنا بمختلف أنواعها، وأن نتوق إلى الاحساس بالحقيقة، حتى وإن جاءنا في ضربات من الألم. هكذا أرى- بهذا الحب الانساني للحقيقة - تلك الأخطاء والمبالغات التي غالباً ما تقع فيها النفوس ذات الهمة العظيمة التي تقابلها بصيرة مساوية. إنها تحس بالفقر داخل كل ثراء العالم الظاهر. يعرف هؤلاء السرعة التي اجتازوا بها التموية الباهت، ويشعرون بالازدراء إزاء فقر الطبيعة: روسو، ميرابو، تشارلز فوكس، نابليون، بايرون- وبوسعي أن أضيف بيسر أسماء أقرب إلينا من الفرسان المعربدين، الذين يقودون بشدة كبيرة ، في عنفوان الحياة لكي ينسوا وهمها: إنهم يعرفون الأسوأ،

ويرتادون قيعان الجحيم. الأبطال من ذوي الشهرة القديمة والحديثة، سيمون، ثميستوكلس، ألسيبيادس، الاسكندر، قيصر تعاملوا مع الحياة والحظ كما لو كانت لعبة ينبغي أداؤها باتقان ومهارة، ولم يجدوا في الجائزة من قيمة سوى أنها يمكن أن ترفع في أي وقت خفيفة كالهواء، ويقذف بها إلى أعلى. قبيل معركة فارساليا، يتحاور قيصر مع الكاهن المصري حول منابع النيل، ويعرض التخلي عن الجيش، والامبراطورية، وكليوباترا إذا ما أطلعته على تلك المنابع الغامضة.

تتجلى الشهامة نفسها في علاقاتنا الاجتماعية، وبالتحديد في تفضيل الرجل لمجتمع من يفوقونه ويفوقون أنداده. يعطي المرء ما يملك من أجل إقامة علاقات سليمة مع أقرانة. إنه مستعد لأن يقدم كل ما لديه مقابل التصرف الصائب ضمن أية صحبة وفي أية مناسبة. إنه يتطلع إلى تلك الأمور التي يقدرها جيرانه، ويبذل، أيامه ولياليه، وقدراته وفؤاده، من أجل أن يحقق ضربة صائبة، ويثبت نفسه رجلاً في عيون الجميع. إن حصوله على اهتمام مواطن بارز، أو تاجر معروف، أو رجل ذي مكانة ضمن مهنته، أو على تكريم عسكري أو بحري، على مهمة جنرال، أو عصا مارشال، أوتاج دوق، أو إكليل شاعر؛ أو على الاقرار بميزة بارزة مهما كان نوعها - يمتلك لديه ذلك البريق الذي يمكنه من أن يسير مرفوع القامة غير هياب بحضور بعض الأشخاص الذين أحس بنفسه دون مستواهم. وما أن يرتفع بنفسه إلى هذه المرتبة، ويحقق مساواته مع الطبقة إثر الطبقة من أولئك الذين يحلوله العيش معهم، حتى يجد أنه مازال هناك آخرون لا يستطيع أمامهم أن يتمالك نفسه، لأن لديه شيئاً أحلى، شيئاً أعظم، شيئاً أنقى ينتزع منه التقدير. هل أن طموحه نقي؟ عندها ستبدو أكاليله وممتلكاته عديمة القيمة. بدلاً من تحاشي أولئك الرجال الذين يجعلون ذهبه الخالص معتماً، فإنه يلقي بكل شيء وراءه ولا يسعى لشيء سوى صحبتهم، ويحتضن عذابه وإذلاله، حتى يعرف لماذا تغور عيناه، ويبح صوته، وتشمل مواهبة اللامعة في هذا الحضور. إنه واثق من أن النفس التي تكذب جميع الأشياء لا تقول الكذب، إن بدنه لن يضلله. فإن لم يستطع أن يطرح نفسه كما ينبغي له، عالياً ولا مثيل له يحضور أي إنسان، إن انسحبت التنبؤات السرية التي يصنع همسها حلاوة حياته ووقارها ولم تعد تصحبه إلى هنا- فإن الوقت قد حان لنزع قيمة ما كان بقيمة من قبل، ولتجريد نفسه مما كان قد حصل عليه، وأن يمسك بيده مع قيصر الجيش، والامبراطورية، وكليوباترا، ويقول «سأتخلى عن كل هذا،

إذا ما أريتني منابع النيل.» عزيزون علينا هم الأشخاص الذين يحبوننا، اللحظات السريعة التى نمضيها معهم تعوضنا عن الكثير من الشقاء. إنهم يوسعون حياتنا. لكن الأعز منهم هم أولئك الذين يصدوننا بصفتنا غير جديرين، إنهم يضيفون لنا حياة أخرى: إنهم يقيمون أمامنا سماء لم نحلم بها، وبهذا يزودوننا بقوى جديدة صادرة عن أعماق الروح، ويحثوننا على أداء جديد لم نحاوله من قبل.

كما أن كل إنسان يفضل في داخله الصحبة الأفضل لا الأدنى، ويرغب في أن يبصر بخطئه وأن يفوق لنفسه، كذلك تراه يرغب في أن لا تتوقف عملية الشفاء عند أفكاره، بل أن تتخلل إرادته وقدرته الفعالة. يعاني الأناني من أنانيته أكثر مما يعانيه الشخص الذي تمنع عنه تلك الأنانية. منفعة مهمة. إن ما يرغب به هو أن يرفع إلى مرتبة أعلى، لكي يتمكن من أن يرى الخير البعيد فيما وراء خوفه الراهن، ولكي يتحطم خوفه، وبرودته، وعاداته كما تتحطم قطع الجليد، وتذوب فيجرفها تيار النية الحسنة. هل تريد مني عوناً؟ أنا أيضاً أرغب في أن أكون محسناً. إن رغبتي في أن أحسن وأخدم أكبر من رغبتك في أن أخدمك، ومن المؤكد أن أغظم نعمة تحل علي هي بالتحديد في تأثري بك إلى الحد الذي يحملني على القول «خذني وكل ما أملك، واستخدمني وكل ما أملك لتحقيق غايتك! » لأنني لن أستطيع أن أقول ذلك مالم يحل في قلبي وفي عقلي توسع هائل يجعلني أكبر من إمكانياتي. ها نحن مشلولون بالخوف نتشبث بممتلكاتنا الصغيرة، من بيت وأراضي، ووظيفة ونقود، من أجل الخير الذي تقدمه لنا، رغم أننا نعترف بأن وجودنا لا ينبع منها. نرغب في أن نكون عظماء، نرغب في أن تمسنا تلك النار التي تدفع بهذا الجليد إلى النهر، وتحول وجودنا إلى منفعة. ولهذا، فإننا حين نأخذ بالاعتراض على مشروعات، ياصديق العبد، أو صديق الفقير أو الزنجي، فافهم جيداً إن ذلك يعود لكوننا نرغب في أن نحملك على أن تحملنا إلى مقاييسك. نريد لأنفسنا أن تُدحض. يسكننا اعتقاد بأن لديك سراً يفيدنا أن نتعلمه، ونرغب في أن نخبرك على أن تفشيه لنا، حتى وإن دفع بنا إلى السجن أو إلى نهاية أسوأ.

لاشيء يثنيني عن الايمان بأن كل البشر محبون للحقيقة. ليست هناك كذبة خالصة، ولا خبث خالص من الطبيعة. إن السماح بفكرة الفسوق هو التهتك والدنس النهائي. وما تشكيك ولا إلحاد سواه. إن الانتحار لو تم تقبله ضمن الايمان العام لجرد

الكوكب من سكانه. هنالك اسم للعيش تحت نوع محدد من الديانة الدجماتية لكن براءة الأفراد والحب الحقيقي الذي يحمله كل منهم لجيرانه قد جعلا ذلك الاسم حرفاً ميتا. أتذكر أني كنت أقف عند صناديق الاقتراع في أحد الايام عندما خلع غضب التنافس السياسي نوعاً من التجهم على وجوه الناخبين المستقلين. نظر رجل طيب كان يقف بجانبي إلى الناس من حوله، وقال «إني مرتاح إلى كون القسم الأكبر من هؤلاء الرجال، على الجانبين، ينوي أن يدلي بالصوت الصحيح.» أعتقد أن المراقبين المتفهمين سوف يقرون، عند النظر إلى جماهر الناس في أفعالهم البريئة والمشبوهة، بأن الغرض العام لدى العدد الأكبر من الأشخاص هو الاستقامة، رغم الأنانية، والعطش. إن الغرض الذي يجعل كل شخص يرفض الموافقة على رأيك، أو يمنع عونه عن خطتك المحسنة، هو أنت «إنه يرفض القبول بك كجالب للحقيقة، لأنه، رغم اعتقادك بأنك تملكها، لا يشعر بذلك. فأنت لم تقدم له العلاقة الموثوقة.

إذا كان من المفيد الدخول في تفاصيل هذا المبدأ العام للروح الكامنة المغرية على الدوام، فإن من السهل تقديم الأدلة بالتفصيل على كون الرجل مساوياً للكنيسة، وعلى مساواته للدولة، ولكل رجل آخر. لا تزال ذاكرة الجميع تحمل الشكوى التي طرحتها قبل سنوات قلائل، الكنائس الليبرالية من كونه الكنيسة الكالفينية، تنكر عليها صفة المسيحية. أعتقد أن الشكوى كانت اعترافاً، فالكنيسة المتدينة لا تشكو. إن رجلاً متديناً مثل بيهمان، أو فوكس،أو سويدنبورغ، ما كان ليزعجه فقدان إجازة الكنيسة، إنما كانت الكنيسة ستشعر بالاتهام المتمثل في وجوده وإيمانه.

لا يتطلب الأمر سوى أن يسير رجل عادل في شوارعنا ليظهر أية حيله ساذجة ومثيرة للشفقة هي تشريعاتنا. إن الرجل الذي يأخذ دوره والذي لا ينتظر من المجتمع شيئاً يتمتع بقوة لا يجد المجتمع بداً من الاحساس بها. إن التجربة المعروفة التي تدعى بمفارقة ضغط الموائع والتي يتوازن فيها عمود شعري من الماء مع المحيط الواسع، هي رمز للعلاقة بين الرجل الواحد وقبيلة الرجال بكاملها. عندما استمع دانداميس الحكيم إلى من يقرأ قصة حياة سقراط، وفيثاغوراس، وديوجينس، «وجدهم رجالاً عظاماً من جميع الوجوه، باستثناء كونهم خاضعين أكثر مما يجب لاحترام القوانين، التي يتطلب تأييدها واحترامها إلزام الفضيلة الحقه بانتقاص الكثير من عنفوانها الأصلي.»

ولما كان الانسان معادلاً للكنيسة ومعادلاً للدولة، فإنه معادل أيضاً لكل انسان آخر. إن الاختلافات في القوة ما بين الرجال سطحية؛ وكل حوار صريح وهادف، يفتح فيه المرء نفسه لأخيه، يؤكد كل منهما وحدتهما الراديكالية. عندما يجلس شخصان ليتحاورا في تفاهم تام، فإن الملاحظة التي لا بد أن ترد هي «انظر كيف اختلفنا حول كامات! » دع ذهناً صافياً لماحاً، كذلك الذي يعرفه كل انسان بين أصدقائه، يتحاور مع أبرز العبقريات الشعرية، أعتقد أنه لن يظهر بينهما ذلك التفاوت الذي يتخيله الناس، وأن تفاهماً تاماً، تلقٍ متماثل، وإدراك متماثل، سوف يلغي الفوارق، وأن الشاعر سوف يعترف بأن مخيلته الخلاقة لم تمنحه امتيازاً عميقاً، إنما مجرد امتياز سطحي يمكنه من التعبير عن نفسه في حين لا يتمكن الآخر من ذلك، وأن تميزه كان نوعاً من البراعة، يمكن أن يؤثر في الخاملين من الناس لكنه لا يؤثر في محبي الحقيقة؛ لأنهم يعرفون ضريبة الموهبة، أو ثمن العظمة الذي غالباً ما تدفعه القدرة على التعبير. أعتقد أن الناس الخلص مقتنعون بأن القيمة الصافية للرجل والآخر لا تختلف كثيراً. وأن كلاً منهما يتفوق بما لا يقاس على رفيقه في بعض النواحي. وأن افتقاره إلى المهارة في اتجاه معين قد أضاف إلى جدارته لعمله الخاص به. وأن كل عائق يؤدي إلى تركيز قوته.

تشير هذه التجارب ومثيلاتها إلى أن الانسان يرتبط برباط وثيق بحقيقة عليا لم تجل أبداً بعد. ثمة قوة من فوقنا ومن ورائنا، ونحن قنوات لاتصالاتها. نسعى إلى أن نقول كذا وكيت، وفوق رؤوسنا تقف روح معينة تعاكس ما نقول. نريد اقناع زميلنا بشأن هذا الشيء أوذاك، وثمة ذات أخرى داخل عيوننا تثنيه. إنها تكشف ما نخفيه. عبثاً نتحكم في وجوهنا وكلماتنا، «هناك خائن في المنزل، » ولكن يظهر في النهاية أنه هو الصادق، والخائن أنا. هذه القناة المفتوحة نحو الحياة الأعلى هي الحقيقة الأولى والأخيرة - وهي دقيقة جداً، وهادئة جداً، لكنها راسخة حداً بحيث أنني رغم كوني لم أعبر عن الحقيقة أبداً ولم أسمع أي أحد آخر يعبر عنها، فإني أعرف أن كل الحقيقة موجودة هناك. ماذا يعني أن لا أكون قادراً على الاجابة على اسئلتك؟ لا يزعجني عدم قدرتي على صياغة جواب على السؤال القائل، ما هي تلك العملية التي ندعوها المقادير؟ هناك يكمن الأمر الذي لا يقال، ماثلاً، كلي الحضور. كل مرة نتحاور فيها، نسعى إلى ترجمته إلى كلام، ولكن سواء أصبنا أم أخطأنا، فإننا نمتلك الحقيقة. كل حوار هو

جواب مقارب: ولكن ليس ثمة أهمية كبيرة لعدم قدرتنا على وضعه بصيغة أفعال وأسماء، ما دام متوفراً للتأمل على الدوام.

إذا ما صدقت تنبؤات القلب الملهم وتحققت في الوقت المناسب، فإن الرجل الذي سوف يولد، والذي يستعد لمقدمة ويتنبأ به الناس والأحدث، سيكون الرجل الذي يتمتع بالرابطة التي تربطه بالخياة العليا، بالانسان الموجود داخل الانسان؛ ولسوف يقضي بيقينه على عدم اليقين، وسوف يستخدم وسائله الاصلية المنسية، وسوف لن يتلقى النصح من الحم والدم، إنما سيعتمد على القانون الحي والجميل الذي يعمل من فوق رؤوسنا ومن تحت أقدامنا، والذي يستفيد، بلا رحمة، من نجاحنا إذا أطعناه، ومن دمارنا إذا خالفناه. الناس كلهم مؤمنون به سراً، وإلا فلن يكون لكلمة العدل يأخذ مجراه في النهاية! وإلا فإن الفوضى تحل بكل شيء. إنه يثبت الأفعال تبعاً لطبيعتها، لا وفقاً لتخطيط العامل. إنه يقول للانسان «اعمل، في كل ساعة، بأجر أو بدون أجر، تأكد فقط من كونك تعمل، ولن يكون بوسعك أن تخطئ الثواب سواء كان عملك رفيعاً أو بدائياً، سواء كنت تزرع القمح أم تكتب الملاحم، ليكن فقط عملاًمخلصاً، تفصله لينال استحسانك الشخصي، ولسوف يأتي بالثواب للحواس كما للفكر: إنك مولود للانتصار بغض النظر عن المرات التي تهزم فيها. إن مكافأة العمل المتقن هي في فعله. »

ما أن يعتاد الانسان النظر إلى ما وراء السطح، ورؤية الكيفية التي تسود فيها هذه الإرادة العليا بدون استثناء ولا توقف، حتى تخلد نفسه إلى السكون. بوسعه حينذاك أن يعتمد على قوانين الجاذبية، كل حجر سيقع حيث يجب له أن يقع – العالم الطيب أمين، مستريحون، فإننا لا نحتاج إلى التدخل لمساعدته في عمله – ولسوف يتعلم في يوم ما الدرس الهادئ الذي تعلمه تلك القوانين، بأن كامل مهمتنا تنحصر في فلكنا، ولسنا في حاجة إلى المساعدة في إدارة الكون. لا تتلهف لتصحيح موقف المدينة فيما يتعلق بالادعاءات الباطلة والسمعة المزيفة لبعض الرجال البارزين. إنهم يجهدون أكثر منك في تصحيح موقف المدينة فيما يتعلق بذواتهم، ولسوف ينجحون بالتأكيد. اكبح لأيام قلائل انتقادك لعدم كفاءة هذا المعلم أو التجريبي أو ذاك، ولسوف يتولى هو عرض عدم كفاءته أمام أعين الجميع. وبالطريقة نفسها، دع رجلاً يقع في الدوائر القدسية، وستجده قد كبر حجماً. إن إطاعة فكرة المرء هي التأثير المحرر الوحيد. نرغب في الهروب من الخنوع والاحساس بالدونية، ونلتزم بأوامر تنطوي على نكران الذات،

نشرب الماء نأكل العشب، نرفض القانون، نذهب إلى السجن: كل ذلك عبث، فقط عن طريق إطاعته لأفكاره، فقط عن طريق النشاط الحر بالكيفية التي تنسجم مع بنيته، ينهض الملاك أقام الانسان ويقوده من يده خارج جميع زنزانات السجن.

إن ما يليق بنا، نحن المحاطون بالجمال والعجب، هو الابتهاج والشجاعة ، والسعي إلى تحقيق تطلعاتنا. إن حياة الانسان هي الحكاية الحقيقية، التي تقدم للمخيلة، إذا ما عاشها المرء ببسالة، متعة تفوق ما تقدمه أية رواية. في كل ما حولنا تنطمر القوى الدافعة تحت أغطية العادة الخشنة، ويحال دون العجب يبدو عجيباً لأطباء الأعصاب أن يتمكن إنسان أن يرى بدون عينيه، ولا يخطر على بالهم أن ما يساويه من العجب تمكنه من أن يرى بهما. ذلك هو الفارق دائما بين الحكيم وغير الحكيم: الأخير يعجب لما هو غير مألوف، والحكيم يعجب للمألوف. أليس على القلب الذي تلقى كل هذا، أن يثق بالقوة التي تجعله يحيا؟ ألا ينبغي له أن يدع كل الموجهين الآخرين، وينصت إلى الروح التي وجهته بكل هذا الرفق وعلمته كل هذا القدر العظيم، مطمئناً إلى أن المستقبل سيكون جديراً بالماضي؟

الفــهـرس



الحياة ليست فكريّة ولا نقديّة ، إنّما هي ثابتة. وثمارها الطيّبة للأشخاص حسني الاختلاط الّذين يستمتعون بما يجدون ، دون تساؤل ... هي أن تملأ ساعتك ، تلك هي السعادة ـ أن تملأ ساعتك ولا تترك ثغرة للندم أو الاستحسان. إنّنا نعيش وسط مسطّحات ، وفنّ الحياة الحقيقيّ هو التزلّج فوقها على نحو جيّد ... أن تنهي اللحظة ، أن تجد غاية الرحلة في كلّ خطوة على الطريق ، أن تحيا أكبر عدد من الساعات الطيّبة ، تلك هي الحكمة.

من التجربة

علي مولا



المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ♦ منشوراتنا في العام ٢٠٠١م
♦ الغلاف : زهير أبو شايب.